

نظام الطبيعة

قوانين العالم الأخلاقية والمادية

بارون دي هولباخ

ترجمة وتقديم د. منال محمد خليف

الجزء الثاني



نظام الطبيعة
أو
قوانين العالم الأخلاقي والمادي
"عن الإله: أدلة على وجوده، وسماته، وتأثيره على سعادة الإنسان"

(المجلد الثاني)

THE SYSTEM OF NATURE
OR LAWS OF THE MORAL AND PHYSICAL WORLD 4

تأليف
بارون دي هولباخ
BARON D' HOLBACH

ترجمة وتقديم
د. منال محمد خليف

الطبعة الأولى، 2024
ISBN: 978-9922-717-34-0

تصميم الغلاف: إلهام ذبيحي

للنشر والتوزيع / العراق – بغداد

بغداد : 009647811898461
Email: Abkallu91@gmail.com

بارون دي هولباخ

نظام الطبيعة

أو

قوانين العالم الأخلاقي والمادي

"عن الإله: أدلة على وجوده، وسماته، وتأثيره على سعادة الإنسان"

(المجلد الثاني)

ترجمة وتقديم

د. منال محمد خليف

أبكالو 2024

المحتوى

مقدمة المترجم

يسلط الكتاب الضوء على النقد الذي وجهه فيلسوف الطبيعة **بول هنري تيري بارون دي هولباخ** Paul-Henri Thiry (Baron) d'Holbach للاهوت، ورجال الدين، والفلاسفة الذين ساروا على هديهم، وما تركته الأنظمة اللاهوتية المختلفة من أثر في نفوس البشر؛ الذين انخدعوا بإيمانهم بها، والخرافات التي فرضها الحالمون، والمتطرفون كحقائق تاريخية على ضِعاف العقول، ومحدودي التفكير؛ الذين ما انفكوا عن محاولة الخروج من نطاق عالمهم المحدود، والبحث فيما وراء العالَم المرئي، ورسم كائنات ميتافيزيقية لا تقدم لهم نفعًا، ولم تجر لهم سوى الأوهام، وتغاضوا عن الإنصات إلى الطبيعة، والاسترشاد بها وحدها، وجذبتهم أدمغة مجموعة من الأشخاص الذين نصّبوا أنفسهم ناطقين باسم الإله، وأضافوا إلى أقوالهم ما صورته لهم أمزجتهم، وأهوائهم، فحكموا العالم باسم الدين، وأشعلوا الأرض حروبًا، وويلات، وكوارث لا تنتهي.

ولا يدعونا **هولباخ** من ذلك الحديث إلى إنكار فكرة الإله من أساسها، بل يظهر لنا عبثية أن نشغل فكرنا في توصيف كائنٍ نعجز عن وصفه، ونمضي وقتًا لإثبات وجوده بناءً على أدلةٍ لا تخرج عن نطاق حواسنا، ونعتقد زيفًا أنّنا قدما أدلة على وجوده، بيد أنَّ الإنسان عاجزاً عن تكوين أيّ أفكارٍ خارجة عمّا تزوده به حواسه، التي لا تدرك سوى المادة المحسوسة، فكيف تأتّى للاهوتين أن يصفوا ما ليس بمادة؟ ولعجزهم عن الإجابة أرجعوا فكرة الإله إلى الفطرة، وهو ما لا يمكن قبوله برأي **هولباخ**، وما من أفكارٍ فطرية، ولو جاز ذلك لما اختلف حولها الناس في مختلف العصور والأماكن، ولاتفقنا على إلهٍ واحد، ولم نجد هذا الكم الهائل من الآلهة المتنوعة عند الكثير من الشعوب، وكلّ إلهٍ مناسب لطبيعة المؤمنين به، وطبيعة المناخ الذي يوجد فيه، بل إنَّ كلّ شخص أحدث لنفسه إلهاً على شاكلته، وعبده حسب طريقته الخاصة.

ومن ثم لا يمكن وصف الإله بصفات سلبية، ولا إيجابية، إذ نجد أنَّ وصف الله بالسلب عند **هولباخ**، أمرٌ في غاية السخف؛ لأنَّه لا يقود سوى إلى الضلال، ولأنَّ العقل البشري غير قادر على تصور إلا ما هو متناهٍ، ولا يمكنه تصور اللاتناهي أو الحديث عنه، وكذلك الأمر مع الصفات الإيجابية، وإن كانت أقرب إلى الطبيعة المحسوسة للإنسان، ولكنها تتناقض أيضًا مع ما ندركه على هذه الأرض، من أمورٍ لا تليق بهذا الكائن العلي، الذي يصفوه، بالخير، والعدل، والانصاف، في مقابل الشر الذي يرونه كأمرٍ عابر، ولم تكن الميزة الأخلاقية للإله بقادرة على حلّ الخلاف، وتبديد الهوة الشاسعة بين الصفات البشرية والإلهية. والأمر ذاته عند الحديث عن المحاولات التي قدمها الفلاسفة لوصف الإله وبيان قدرة الإنسان على معرفته، فاعتقدوا زيفًا أنَّهم قدموا أدلة على وجوده، بين أنَّهم واجهوا مشكلة أكبر في التوفيق بين صفاته غير المتوافقة أو الرد على أبسط الاعتراضات، إضافة إلى غموض اللغة التي تحدثوا فيها، وافتقارنا لمعيارٍ موحد نحكم من خلاله على هذه الأدلة، التي بدت واهنة وضعيفة؛ لكثرة المغالطات التي وقع بها الفلاسفة؛ والتي قادتهم في كثيرٍ من الأحيان إلى توصيف الكائن الأسمى بصفاتٍ إنسانية، ووصولهم إلى حد التجسيم.

ومن تلك الأدلة التي يفندها **هولباخ** ما قدمه **صموئيل كلارك Clarke**،(*) حول ماهية الله، وصفاته المتناقضة، ووقوعه في معضلة كثيرًا ما يقع بها الفلاسفة فيما يتعلق بقدم العالم، والمادة، والزمان، ومشكلة المادة الأولى، ووجودها، ومسألة حرية الإله ومشيئته مقابل ما قاله اللاهوتيون والأديان؛ التي وصفته بكونه فاقدا للحرية والقدرة، مقابل ما تمتلكه المخلوقات من حرية، لا بل يصورنه بصورةٍ تبعده عن مخلوقاته بدلًا من تقريبه منهم، ويظهرونه مجردًا، وخالٍ من أيّ علاقة معهم، إذ كيف يمكن لما هو متناهٍ أن يرتبط بما هو لامتناهٍ؟ وكيف تكون هناك علاقة بين ما هو أزلي وما هو هالك، وفانٍ؟ وكيف نطلق صفة الكمال على كائنٍ يفتقر للعلة، وليس موجودًا في مكان؟

ولكنهم يمتنعون في كثيرٍ من الأحيان عن الإجابة، ويصرون على أنَّ معرفة الكائن اللامتناه متعذرة على البشر، وكلّ ما يستعصي على فهم البشر هو بمثابة أسرارٍ، ولا يحقّ لنا المساس بها، أو فكّ ألغازها، ولاشك أنَّ الله ليس كمثله شيء، وعلينا أن نعترف بمحدودية

---

* صموئيل كلارك: (١٦٧٥-١٧٢٩) فيلسوفٌ ورجل دين إنكليزي، حاول إثبات الدين للمسيحي ببراهين مستمدة من الرياضيات.

فهمنا، ليس على الطريقة الكانطية بالطبع، وإنَّما من حيث ارتباط هذا الفهم بالمادة وحدها، إضافة إلى أنَّ العقل البشري لم يتشكل لفهم ماهية الله. ولكن كيف تسنى للاهوتيون، والفلاسفة معرفته، وهم بشر مثلنا؟ وهنا يبدو أنَّ **هولباخ** يهاجم إله اللاهوتيين، في عصور هيمنة الكهنوت على عقلية الملوك، ويرى أنَّ هناك مبالغة فيما يقدموه من تسبيح له، وأنَّ ما قدمه **كلارك** وغيره من اللاهوتيين لم يكن سوى تناقض في المصطلحات، كالقول: بالمتناه مقابل اللامتناه، والروحاني مقابل المادي. والأمر ذاته فيما يتعلق بالمصطلحات الإيجابية التي يقدمونها، وهذا يوصلنا إلى الشك في وجوده، إذ يقتضي الاعتقاد بوجود شيءٍ أن تكون لدينا فكرة عنه على الأقل، ولا يمكن أن تأتينا هذه الفكرة إلا من خلال حواسنا، وكلّ ما لا تعطينا حواسنا معرفةً به ليس شيئًا بالنسبة لنا، وإذا كانت هناك عبثية في نفي وجود ما لا نعرفه، فهناك إفراطٌ في تخصيصِ صفات غير معروفة له، ومن الغباء الخشية أمام أوهام حقيقية، أو احترام الأصنام الباطلة، ووصفها بصفاتٍ غير متوافقة، ركبها خيالنا دون أن نمتلك القدرة على الرجوع إلى التجربة والعقل، بل إنَّ اللاهوتيون يطلبون منا ألا نستشر عقولنا في هذه الأمور، وأن نتقبلها منهم دون السؤال عنها.

وينتهي **هولباخ** إلى رفض افتراض **كلارك**؛ نظراً لأنَّ الله كما أبلغنا هو ذاته، شاءَ بعد أن خلق الإنسان ولا شك في ذلك، بألا يكون لديه أكثر من خمس حواس، أو أن يكون على ما هو عليه بالفعل، وهو بذلك يؤكد بالضرورة الآراء الحكيمة، والمخططات الثابتة التي قدمها عنه اللاهوت. والأمر ذاته مع البراهين التي قدمها رينيه **ديكارت Descartes**، إذ أن وجود فكرة عن الشيء لا تعد دليلًا كافيًا للقول: إنَّه موجود بالفعل، ومن غير الممكن أن يمتلك فكرة إيجابية، وصادقة عن الله الذي سيثبت وجوده، كحال اللاهوتيين. ومن المستحيل على البشر، والكائنات المادية أن تشكل لأنفسها فكرة حقيقية، وصادقة عن الروح، والجوهر المفتقر للوجود، والكائن اللامحسوس الذي يتصرف بموجب الطبيعة المحسوسة، والمادية. ولذلك يتهم **هولباخ** أبو الفلسفة الحديثة بالإلحاد؛ نظرًا لأنَّه لا يقدم أدلة على وجود الإله، بل يهدم فكرة الإله بالكامل، كما أنَّ نسقه يقلب فكرة الخلق رأسًا على عقب. إذ أنَّ الله قبل أنْ يخلق المادة بالفعل، لم يكن متعايشًا معها، أو متواجداً معها، وفي هذه الحال لم يوجد إله بحسب **ديكارت**.

وكذلك الأمر مع أدلة **مالبرانش Malebranche**، حيث نجد الافتقار للاستدلال ذاته، والتناقضات ذاتها في مبادئه، والتي يرى فيها **هولباخ** محض سبينوزية، إذ يعترف **مالبرانش بأنّه** لا يمكن أن يكون لدينا إثباتٌ دقيق على وجود أيّ كائنٍ آخر غير الكائن الضروري، ويضيف أنّه "إذا بحثنا الأمر عن كثب، فسيتبين أنّه من غير الممكن أن نعرف بيقين، ما إذا كان الله خالقاً حقًا لعالم مادي، ومعقول أم لا." وأمام هذه المفاهيم، يكون من الواضح وفقاً للأب **مالبرانش**، أنَّ البشر ليس لديهم سوى إيمانهم لضمان وجود الله، لكن الإيمان ذاته يدعم هذا الوجود، وإذا لم تكن متأكداً من وجود الله، فكيف نقتنع بوجوب إيماننا بما يُقال عنه؟ بيد أنَّ **هولباخ** يرى أنَّ مفاهيم **مالبرانش** هذه تقلب جميع المذاهب اللاهوتية رأسًا على عقب، وتضعنا في حيرة أمام التوفيق بين حرية الإنسان وفكرة الله. وإذا كانت هذه البراهين قد بنيت على تطور العلم الفيزيائي في تلك الفترة، فإنَّ **هولباخ** لا يجد في هذا العلم ما يمكن أن يدعم براهينهم، لذلك يفند ما قدمه **نيوتن Newton**؛ الذي حطم بعبقريته الشديدة الطبيعة، وقوانينها التي حيرته حينما كان عبداً لتحيزات طفولته، ولم يمتلك الشجاعة للحصول على شعلة فهمه النير للكائن الخرافي، الذي ربطوه من دون مبرر بالطبيعة، ولم يتصور أن تكون قواه كافية لإحداث كلّ تلك الظواهر التي شرحها بنفسه بسعادة، وحاله هنا أيضًا كحال جميع اللاهوتيين، الذين يجعلون إلههم روحًا محضًا، تترأس الكون، وملكٌ، وربٌّ عظيم، وطاغية، ونموذجًا يحتذي به ملوك الأرض ليزيدوا من هيمنتهم على رعاياهم، وتحويلهم إلى عبيد، وإذلالهم. وكذلك يظهر إله **نيوتن**، ولكن وفقًا لأفكاره، لم يكن العالم موجودًا منذ الأزل، وقد تشكّل عبيد الله على مرّ الزمن؛ لذلك يجب أن نستنتج منه أنّه قبل خلق العالم، كان إلهه ذو سيادة بلا رعايا، أو أملاك. وبذلك يبدو أنّه يقدم ميزات إلهية لا تصلح إلا للعدم، ولا يمكننا أن نتصور من دون ذلك إمكانية ألا يكون هناك فعلٌ لتلك الجواهر المتغلغلة التي تحيط به من جميع الجوانب، أو علاقة متبادلة بينها. ولكن ذلك لم يمنع **هولباخ** من القبول بحتمية القوانين التي تحدث عنها **نيوتن**، إذ نجده يصرح بأنَّ الطبيعة لا تفعل شيئًا عبثا، وما من شيء يحدث بالصدفة، بل إنَّ كل ما يجري فيها يكون وفق قوانين موحدة، وثابتة، ولا تصنع الطبيعة سوى ما هو ضروري، ولا تنتج الكائنات التي نراها من خلال الاتفاقات العرضية، والصدفة، بل على نحوٍ حتمي، ويقيني، وكلّ العلل التي تحدث بها معلولاتها معصومة من الخطأ. ونادراً ما يحدث أن تنتج كائنات غير عادية، ورائعة، ونادرة، عند ترتيب الأشياء، أو الظروف اللازمة، أو تزامن العلل المنتجة لهذه الكائنات.

ورغم حديث **هولباخ** في أكثر من موضعٍ عن الخلق، لكنه يؤكد أنَّ هذه الكلمة لا تقدم للعقل أيّ فكرة حقيقية، ويجب استبعادها من أذهان الناس؛ وما هي سوى كلمات مجردة افتعلها الجهل، ولا تُحسب إلا لإرضاء البشر المحرومين من الخبرة، أو البليدين للغاية، أو من يهابون دراسة الطبيعة، وطرقها، لإقناع المتحمسين الذين يسعد خيالهم الفضولي بالتبحر فيما يتجاوز العالم المرئي، والسعي وراء الأوهام. ولابدّ من الاعتراف بأنَّ الإنسان كائن مادي، ولا يمكن أن تكون لديه أيّ أفكار إلا عمّا هو مادي مثله؛ أي ما يمكن أن يؤثر على أعضائه، أو ما له على الأقل صفاتٍ مماثلة له، ولا تفترض الصفات الأخلاقية التي ينسبها اللاهوتيون إلى الإله، سوى ماديته، ولا تستند الأفكار اللاهوتية الأكثر تجريدًا إلا إلى تجسيمٍ حقيقي لا يمكن إنكاره، لذلك يدعوهم **هولباخ** للإعتراف أنَّ كلّ ما في الطبيعة يثبت لنا أنَّ البحث في الإله ليس من طبيعتنا، ويكفي القول: إنَّ الطبيعة هي (الله)، وأنَّها تحتوي على كلّ ما يمكننا معرفته عنه، بما أنَّها جامعة لكلّ الكائنات القادرة على التصرف بموجبنا، والتي يمكنها بالتالي إثارة اهتمامنا، وهي التي تفعل كلّ شيء، وما لا تفعله، يستحيل عليها القيام به، ولا وجود لما هو خارج عنها؛ نظرًا لأنَّه لا يمكن أن يكون هناك شيء غير الكل العظيم، وكلّ ما نراه ناجم عن قوى الطبيعة الفاعلة، وقوانيها، ويكفينا معرفة هذه القوانين، ومراقبة الطبيعة، والإنصات إليها، والابتعاد عن التحيز، والنظر إلى جميع الكائنات في الكون على قدمِ المساواة، وأنَّ كلّ ما هو موجود يخضع للقوانين الضرورية.

وينبغي أن يدرك اللاهوتيون أنَّ الطبيعة عادلة في توزيع منافعها على الكائنات التي تشملها، ولا ينجم عنها ما يسوءنا إلا باختلاف امزجتنا، وما تحدثه لنا من تغيرات تؤثر على سلوكنا، وتدفعنا لارتكاب الأخطاء، وإذا أوليناها الاهتمام، واستشرناها، فسوف نجني العديد من المنافع، وستوفر لنا ما يلزم للتخفيف من شرورنا الجسدية، والمعنوية، ولا تعاقبنا، أو تظهر لنا صرامة، إلا عندما نزدريها، ونتبع إلهًا صنعه خيالنا. ولابدّ أن نأخذ بالاعتبار الفرق بين ما يجلبه لنا الدين من منافع وبين ما نحققه عندما ننصت للطبيعة، وأن ندرك بحسب **هولباخ** أنَّ الأخلاق السليمة مبنية على الإيمان بالطبيعة، وليس الإيمان بإلهٍ لا يجدي التفكير فيه نفعًا، ويظهر ذلك لدى الكثير من المؤمنون بالخرافات، الذين يرافقهم الحزن، والأسى دائمًا؛ لأنَّ الخرافة عدو داخلي يحمله دائمًا في داخله، وإن اتفقت مع مبادئه، لكنها تسبب له العذاب والقلق، إذ يصرف كلّ وقته في التفكير بها، وعادةً ما يقضي أيامه الحزينة في الشكوى، والصلاة، والتضحية، والتكفير عن الذنوب الحقيقية، أو المتخيلة التي يعتقد أنَّها من المحتمل

أن تسيء إلى إلهه القاسي. ويعذب نفسه في كثيرٍ من الأحيان في فورة غضبه، ويجد أنَّ من واجبه أن يلحق بنفسه أبشع العقوبات الهمجية لمنع المصائب التي ينزلها الله به، وقد ينحر أخيه الإنسان؛ لاعتقاده أن ذلك يرضي إلهه، وقد يقود التدين الزائد كثير من المتعصلبين إلى كره بعضهم البعض، وليس إلى المحبة التي من المفترض أن تكون سمة أساسية لخالق الكون، وربما يصل بهم الأمر إلى تعذيب أنفسهم، وحرمانها من الأشياء التي تشتهيها طبيعتهم، وحتى نحر أنفسهم إنْ اقتضت الضرورة.

وبذلك يدعونا **هولباخ** للعودة إلى الطبيعة، والانصات لها، بعيدًا عن المجتمعات التي اتخذت من الدين راعيًا لها، وكلّفت أفراد المجتمع بواجبات، والتزامات باسم الدين، لحماية الملوك وزيادة سيطرتهم وهيمنتهم لا أكثر، وهو ليس ضد المجتمع ككيانٍ سياسي بحد ذاته، بل ضد انصياعه لقلّة من البشر في سبيل حكم الأكثرية. ويرى أنَّ طبيعة الإنسان ينبغي استشارتها في السياسة؛ لأنَّ ذلك قد يصحّح تمامًا المفاهيم الخاطئة؛ التي استمع لها الملوك، والرعايا على قدم المساواة، وستسهم أكثر من جميع الأديان في العالم في إسعاد المجتمع، وجعله قويًا، ومزدهرًا في ظل سلطة عقلانية. وسوف تعلمهم الطبيعة أنَّه بغرض الاستمتاع بقدرٍ أكبر من السعادة، ينبغي أن يعيش البشر معًا في المجتمع، وأن يحافظوا على أنفسهم، وسعادتهم، وأن يكون لكلّ مجتمعٍ غاية ثابته، وغير متغيرة، وأنَّ الأمة الخالية من الإنصاف، لا تشبه إلا مجموعة من الأعداء، وأن أعتى عدوٍ للإنسان هو من يخدعه، لكي يستعبده باسم الآلهة. وبمجرد إعادة توجيه البشر إلى الطبيعة، يمكننا أن نوفر لهم مفاهيم واضحة، ومعرفةً يقينية، ومن خلال إظهار علاقاتهم الحقيقية مع بعضهم البعض يمكننا فقط وضعهم على طريق السعادة، وابعادهم عن الأوهام التي خلقها لهم اللاهوت.

ويجدر بنا القول، إنَّ **هولباخ** قد حسب حسابًا لجميع الانتقادات التي يمكن أن توجّه له لاحقًا، وربما يكون الناقد متعصبًا، ويدافع عن الإله بكلّ ما أوتي من قوةٍ، وجهد، وحينها سيجد ردًا لاذعًا من قبل **هولباخ** على ذلك، وقد يكون محبًا، ومتفائلًا، ومحبذًا لفكرة الإله، والحياة الأخرى، وحينها سيعود لوحده إلى الطبيعية التي يدعوه **هولباخ** للإنصات لها، بيد أنَّ السبيل الوحيد لمخاطبته هو أن نكتسي بثوب الطبيعانية؛ لكي نفهم الطبيعة وخالقها، ليس على طريقة الكهنة، واللاهوت بل كما توحي به الطبيعة لنا، وستنبتعد عن كلّ الألفاظ التي يتشدق بها المتدينون دون تقديم تعريف محدد لها، ولاسيما كلمة الملحد، والتي اتُّهم بها **هولباخ** بحد ذاته، لكن كيف يمكن لنا أن نصل إلى تعريفٍ محدد للملحد، وهو لفظ نسبي، ويظهر ذلك واضحًا في حال **سقراط** الذي اتهمه خصومه بالإلحاد، لكونه قال بالوحدانية، وهو أمرٌ

أكدت عليه الأديان لاحقًا، ولا شك أنَّ الملحد، إنسان يقضي على الكائنات الخرافية الضارة بالبشر، من أجل إعادة الناس إلى الطبيعة، والخبرة، والعقل، ولكنه برأي **هولباخ** مفكرٌ لم تتح له الفرصة بعد أنْ تأمل في المادة، وطاقتها، وخصائصها، وأساليب عملها، لأن يشرح ظواهر الكون وعمليات الطبيعة، وابتكار قوى مثالية، وذكاءات خيالية، وكائنات من صنع الخيال، وبغض النظر عن كونه يفهم هذه الطبيعة بصورةٍ أفضل، فهو لا يفعل أكثر من جعلها متقلبة، وغير قابلة للتفسير، ومبهمة، وعديمة الفائدة لسعادة البشرية. في حين ينظر اللاهوتيون إلى الملحد على أنَّه أعلى درجة من الهذيان الذي يمكن أن يهاجم العقل، وهو أكبر امتداد للفساد الذي يمكن أن يصيب قلب الإنسان.

وبذلك لم يظهر **هولباخ** لنا سوى هجومه على اللاهوتيين والفلاسفة الذين لم يخرجوا عما قاله المتدينون في عصرهم، ولم تكن نيته تقديم أفكار عدمية، أو إلحادية؛ لأنَّ الملحد بحد ذاته كان محط نقدٍ له، وأراد أن ينفي فحسب آراء الدين الإنساني، وليس كما ينبغي أن يكون. وأخيرًا تجدر الإشارة إلى الصعوبات التي واجهتنا في ترجمة هذا الكتاب، نظرًا لتعدد النسخ، الحديثة والقديمة من الكتاب، كما هو الحال مع الجزء الأول منه، بيد أنَّ هذه الصعوبات تلاشت من خلال المقارنة بين النسخ، واعتمادنا للنسخة الأصلية، وتصويب الأخطاء التي تختلف من نسخة إلى أخرى، وفهمنا للسياق، رغم اختلاف العديد من المفردات، حيث عمد محرر النسخة الحديثة إلى أن يستبدل بلفظة الله لفظة كائن، أو كائنات، ونجد حذفًا لتوصيف **هولباخ** الإله بالكائن الخرافي، مع أنَّ مقصده لم يكن الإله الذي نعرفه جميعًا وإنَّما ذلك الذي صوره اللاهوت على مزاجه، ونجد بدل كلمة ربوبي كلمة عالمٍ أساطير، وغيرها الكثير من الكلمات، التي تحاول بعض النسخ من خلالها التخفيف من حدة الهجوم على اللاهوت، والدين، وتقديم بحثٍ في الميثودولوجيا، وليس في نقد اللاهوت كما أراده **هولباخ**، وأخيرًا لم يكن هدفنا من ترجمة هذا الكتاب سوى تقديم مادة تساعد في فهم الأفكار الهولباخية لدى القارئ العربي، وكلنا أمل في أن نحقق الفائدة لدى الباحثين في مختلف مشاربهم.

خريف ٢٠٢٣

د. منال محمد خليف

الفصل الأول

أفكار اللاهوت الفوضوية والمتناقضة

أفكار اللاهوت الفوضوية والمتناقضة

يثبت كلّ ما قيل بوضوح أنّ الإنسان لم يتمكن أبداً على الرغم من كلّ ما بذله من جهدٍ، من أنْ ينأى بنفسه عن الجمع بين طبيعته الخاصة، وصفاته التي ينسبها للكائن المهيمن على الكون. وقد أظهرت التناقضات الناتجة بالضرورة عن مجموعة غير متوافقة من هذه الصفات البشرية التي لا يمكن أن تكون مناسبة للموضوع ذاته، نظراً إلى أنَّ وجود أحدها ينفي وجود الآخر، أنَّ اللاهوتيون أنفسهم شعروا بالمشكلات العويصة التي طرحتها آلهتهم على العقل، وكانوا موضوعيين لدرجة أنَّهم شعروا باستحالة خلاصهم من المعضلة، وسعوا لمنع الإنسان من التفكير، وتشويش ذهنه، بإثارة الحيرة المتزايدة باستمرار مما قدموه له عن إلههم من أفكار متضاربة للغاية. وبهذه الطريقة أحاطوه بالغموض، وحجبوه بغمامٍ كثيف، وتعذرت معرفته للإنسان، وهكذا أصبحوا هم أنفسهم المفسرون، والمكلفون بشرحِ طرق الوصول إلى هذا الكائن الغامض الذي جعلوه معبوداً لهم، بما يوافق خيالهم، ومصالحهم. ولهذا الغرض بالغوا في وصفه بصورةٍ متزايدة، فلا الزمان، ولا المكان، ولا الطبيعة بأكملها قادرة على أن تتسع لعظمته، وكلّ شيء أصبح لغزا غامضاً. وعلى الرغم من أنَّ الإنسان استعارَ من ذاته في الأصل السمات، والألوان، والأنماط البدائية التي ألّف منها إلهه، وعلى الرغم من أنَّه جعل منه ملكًا قويًا، وغيوراً، ومنتقماً، إلا أنَّ لاهوته تجاهل تماماً بكلّ بصيرته الطبيعة البشرية؛ ومن أجل جعل آلهتهم أكثر اختلافاً عن مخلوقاتها، خصصوا لها، علاوة على الصفات المعتادة للإنسان، خصائص عجيبة للغاية، وفريدة إلى أبعد حد، وبعيدة جداً عن كلّ ما يمكن أن يتصوره عقله، ويجهلها هو ذاته. ومن هنا أقنعَ نفسه بأنَّ هذه الصفات إلهية؛ لكونه لم يعد قادراً على فهمها. واعتقد أنَّها تليقُ بالإله؛ لأنَّه ما من شخصٍ بقادرٍ على أن يتخيل لنفسه أيّ فكرةٍ مميزة عنه. وهكذا حقّق اللاهوت هدفه بإقناع الإنسان بإيمانه بما لا يستطيع تصوره؛ وأنْ يقبل أنظمة لا يُحتمل الإذعان لها، وأنْ يتبنى، مع احترامه للأتقياء، التخمينات المخالفة لعقله، وكان هذا العقل بحدّ ذاته أكبر تضحيةٍ مقبولة أمكنه

تقديمها على مذابح سيده الخيالي؛ الذي لم يشأ استخدام ما وهبه له من عطية. وباختصار، جعل الفانين يخمنون أنّهم لم يُخلقوا لفهم أمرٍ من الأمور الأهم بالنسبة لهم.(1) وبعبارة أخرى، أقنع الإنسان ذاته بالصفات العظيمة، والمبهمة تماماً لملكه السماوي، ووضع بينه وبين عبيده مسافة هائلة، بحيث لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يقلل ذو السيادة المتكبر من شأن هذه المقارنة؛ فهي فروق تجعله يبقى الأعظم، والأقوى، والأكثر عجبًا وحجبًا. إذ يسعد الإنسان دائمًا بفكرةٍ أنَّ ما ليس في حالٍ يسمح له بتصوره، هو أرفع رتبةً، وأكثر اجلالاً بكثير من ذلك الذي لديه القدرة على فهمه، ويتخيل أنَّ إلهه، أشبه بالجبابرة، ولا يرغب في البحث في أمره عن كثب.

ويبدو أنَّ هذه الأحكام المسبقة عند الإنسان بشأنِ المعجزات، كانت المصدر الذي ولّد تلك الصفات العجيبة، والمبهمة التي وصف بها اللاهوت رب الكون. وولّد الجهل المطبق للعقل البشري، ومخاوفه التي أوقعته باليأس، تلك المفاهيم الغامضة، والضبابية التي زخرف بها إلهه. واعتقد أنّه لن يغضبه أبداً، شريطة ألا يجعله قابلًا للقياس، ويستحيل مقارنته بأيّ شيء لديه معرفة به؛ سواء كان متعاليًا أو يمتلك شأناً أعظم. ومن هنا تعددت المواقف السلبية التي جمّل بها الحالمون البارعون إلههم الوهمي على التوالي، إلى درجة أنّهم شكلوا بالتأكيد كائناً مميزاً عن الآخرين، أو نزهوه عن أيّ شيء يستطيع العقل البشري الإلمام به.

ولم تكن المواقف الميتافيزيقية اللاهوتية في الحقيقة سوى إنكارٌ محض للصفات الموجودة عند الإنسان، أو تلك الكائنات التي يعرفها. وبهذه الصفات افترضوا إلههم الذي استبعدوا عنه كلّ ما يعتبرونه ضعفًا أو نقصًا، أو موجودًا لدى الكائنات المحيطة به. والقول: إنَّ الله لامتناهٍ، كما تبين ذلك، هو لمجرد تأكيد أنّه مختلف عن الإنسان أو الكائنات التي يعرفها، ولا تحدّه حدود المكان؛ ولكن هذا ما لا يمكن أن يفهمه بأيّ شكلٍ من الأشكال؛ لأنّه بحدّ ذاته متناهٍ.(2)

(1) من الواضح تماماً أنَّ كلّ دين مرتبط بمبدأ سخيف، مفاده أنَّ الإنسان ملزم بالاعتراف في النهاية، بما يعدّه من أكثر الأمور التي يستحيل فهمها. ووفقاً للمفاهيم اللاهوتية، يجب أن يكون في جهل مطبق بطبيعته بشأن الله.

(2) يقول هوبز في كتابه اللفياثان Leviathan أو [الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة]: "كلّ ما نتخيله متناه؛ لذلك لا توجد فكرة أو تصور عن أيّ شيء نسميه اللاتناهِ. ولا يمكن لأيّ إنسان أنْ يمتلك في ذهنه صورة ذات حجم لامتناهي، أو يتصور سرعةً لامتناهية، وزمن لامتناهٍ، وقوةً لامتناهية، أو سلطةً لامتناهية. وعندما نقول إنَّ أيّ شيء لامتناهي، فإنّما مقصدنا أنّنا غير قادرين على تصور النهايات ومقيدون بالشيء

وإن قال قائل: إنَّ الله أزلي، فهذا يدلّ على أنَّه "لم تكن له بداية، كحال الإنسان أو أيّ شيء موجود، ولن تكون له نهاية أبداً؛ أي أنَّه غير قابل للتغيير، وأنَّه مغاير له أو لكلّ ما يراه، والله لا يعتريه التغيير. والقول: إنَّه غير مادي، إنَّما للتدليل على أنَّ جوهره أو ماهيته ذات طبيعة لا يمكنه تصورها، ومن باب القول في هذه الحال بالذات أنَّه مختلف تماماً عن كلّ ما يدركه.

وينجم عن المجموعة المربكة لهذه الصفات السلبية، التي قادت إلى الإله اللاهوتي، الكل الميتافيزيقي الذي يستحيل على الإنسان أنْ يشكل لنفسه أيّ فكرة صحيحة عنه. وفي هذا الكائن المجرد كلّ شيء لامتناه، من حيث العظمة، والروحانية، والعلم المطلق، والنظام، والحكمة، والذكاء، والقدرة المطلقة. واعتقد الكهنة عند تأليفهم لهذه المصطلحات الغامضة أو هذه التعديلات، أنَّهم صاغوا شيئاً ما، فوسّعوا نطاق هذه الصفات ذهنيًا، وتخيلوا أنَّهم قدموا بها إلهاً، في حين أنَّهم لم يألفوا سوى كائناً خرافي. وتصوروا أنَّ هذه الكمالات أو هذه الصفات تلائم هذا الإله؛ لأنَّها لم تكن مناسبة لأيّ شيءٍ لديهم معرفة به، واعتقدوا أنَّ الكائن المبهم لابدّ أنْ يتمتع بصفاتٍ لا يمكن تصورها. وقد استفاد اللاهوت من هذه المواد لتكوين شبح يتعذر تفسيره، وأمروا الجنس البشري بالركوع إليه.

ومع ذلك، فإنَّ كائنًا مبهمًا للغاية، ومن المستحيل تصوره، ولا يمكن تعريفه، وبمنأى عن كلّ ما يمكن أن يمتلكه الإنسان من معرفة، لم يأخذ بالحسبان سوى حيزًا ضئيلًا لإثبات آرائه المضطربة عنه، ويتطلب عقله أنْ تستحوذ عليه صفات تؤهله لتأكيدها، وأن يكون في حالٍ تسمح له بالحكم عليها. وهكذا بعد أن استعان اللاهوت بهذا الإله الميتافيزيقي، وبعد أن جعله مختلفاً تماماً من حيث الفكرة، عن كلّ ما تمثله الحواس، وجد نفسه ملزماً بأنْ يجعل الإنسان الذي لازال يبعده عنه، يفهمه من جديد، لذلك أنسنه مرة أخرى بما وصفه به من صفات أخلاقية، وشعر أنَّه من دونها لن يكون قادراً على إقناع الجنس البشري بوجود أيّ علاقة بينه وبين الكائن المبهم، والسماوي، والهائم، وغير القابل للقياس، ودعاهم لعبادته.

المعنى فحسب، وليس لدينا تصور عن شيءٍ سوى عجزنا". ويقول شرلوك: "إنَّ كلمة اللاتناهِ هي نفي فحسب، وتدل على ما لا نهاية له، ولا حدود، ولا مدى، وبالتالي، ما ليس له طبيعة صرفة ومحددة، ولذلك فهو عدمٌ"؛ ويضيف: "ما من شيءٍ دفع إلى تبنّي هذه الكلمة، سوى العادة، ولولا ذلك لكانت خالية من المعنى ومتناقضة".

وأدركوا أنَّ هذا الإله الرائع يؤخذ فقط في الحسبان لتنشيط خيال بعض المفكرين القلائل الذين اعتادت أذهانهم على التفكير في موضوعات خيالية، أو اعتبار الكلمات على أنَّها حقائق. وبعبارة أخرى، وجدَ أنَّه من الضروري بالنسبة لعددٍ أكبر من أبناء الأرض الماديين أن يمتلكوا إلهًا مماثلًا أكثر لهم، ومنطقياً أكثر، ومعروفاً أكثر لهم. ونتيجة لذلك، غُلفَ الإله بالصفات البشرية، ولم يشعر اللاهوت أبداً بعدم توافق هذه الصفات مع كائنٍ ميزه جوهرياً عن الإنسان، وبالتالي لا يمكن أن يمتلك خصائصه، ولا يتغير مثله. ولم يرَ أنَّ الإله غير المادي، والمفتقر للأعضاء الجسدية، لم يكن قادراً على التفكير أو التصرف كالكائنات مادية، التي تمتلك بحكم منظوماتها الخاصة الصفات، والمشاعر، والإرادة، والفضائل الموجودة فيهم. ولشعوره بضرورة استيعاب العباد لإلههم، خلق المماثلة بينهم، وجعله يتغاضى عن مراعاة هذه التناقضات الواضحة، وبالتالي استمر اللاهوت بالتمادي في توحيد تلك الصفات غير المتوافقة، وهذا التناقض في الشخصية التي حاول العقل البشري عبثاً أن يتصورها أو يوفق بينه وبينها. ووفقاً لذلك، كانت الروح المحض محرِّكًا للعالم المادي، وتمكّن الكائن العظيم من أن يشغل حيزاً في المكان، من دون استبعاد طبيعته؛ كان الرب الذي لا يتبدل علّةً لتلك التغييرات المستمرة التي تجري في العالم، ولم يمنع الكائن القدير تلك الشرور التي كانت تقضْ مضجعه، ومصدر النظام المعرض للاضطراب. وبعبارة أخرى، كانت الخصائص المذهلة لهذا الكائن اللاهوتي تناقض ذاتها في كلّ لحظة.

ولا يوجد أدنى تضارب، وبعض التعارض، والنشاز في الكمال البشري، وبعض التناقض في الصفات الأخلاقية المنسوبة لهم، حتى يتمكن الإنسان من تكوين فكرة لنفسه عن هذا الكائن. وقيلَ: إنَّ الله يمتلك جميع هذه الأمور "بشكلٍ بارز"، على الرغم من أنَّها تتعارض في كلّ لحظة مع بعضها البعض، وبهذه الطريقة شكّلوا نوعاً من شخصية غير متقنة، وكائناً غير متجانس، ولا يمكن للإنسان تصوره تماماً؛ لأنَّ الطبيعة لم تُنشأ أيّ شيء أبداً على شاكلته، ومكنوه بالتالي من إصدار حكم بشأنه. وأُثبتَ للإنسان أنّ الله كان خيراً أقصى، وكان متجلياً في جميع أفعاله. ولكن الخير صفةٌ معروفة اليوم، ويمكن التعرّف عليها عند بعض أفراد الجنس البشري؛ علاوة على أنّه خاصية يرغب في الحصول عليها كلّ من هو في حال التبعيّة، لكنه عاجزٌ عن إضفاء لقب الخير على أيّ من أقرانه، مع أنَّ أفعالهم تمنحه له تلك النتائج التي يرغب فيها، ويجد أنَّها تنسجم مع وجوده، وتتفق مع أساليب تفكيره الخاص. ويتضح

من هـذا الاستدلال، أنَّ الله لم يطبع فيه هـذه الفكرة، وقيلَ لـه إنَّه مساوٍ لخالق ملذاته التي ينبغي أن يحافظ عليها، وكذلك آلامه التي ينبغي تفاديها بالقرابين، أو الصلوات، ولكن كيف يتصور الإنسان فضل ذلك الكائن، إنْ أُصيبَ بمرضٍ معدٍ، أو ذهب ضحيةً لغرق سفينة، أو أطاحتْ الحرب ببلاده، ورأى أممًا بأكملها تلتهمها الزلازل المدمرة، وإنْ وقع فريسةً لأحزانه الشديدة؟ كيف يمكن أن يدرك النظام الذي أدخله إلى العالم، وهو يئن تحت وطأة هذا العدد الهائل من المحن؟ وكيف استطاع أنْ يميز نعمة الإله الذي ظنّ أنَّه حسن المعشر كما هو الحال مع أبناء جنسه؟ وكيف يمكن أن يتصور الاتساق في ذلك الكائن؛ الذي بددَ ما كان يعانيه من آلام، من أجل سعادته الخاصة فحسب؟ وما الذي يجعل من تلك العلل المتناهية، والتي تُقدمُ من دون أي أساس، دليلًا لا جدال فيه على وجود إلهٍ قديرٍ، وحكيم، مع أنَّه غير قادر على حماية عمله إلا من خلال إفنائه، ولم يكن قادراً على منحه كلّه دفعة واحدة تلك الدرجة من الكمال، والاتساق التي كان قابلاً لها. ويُقال: إنَّ الله خلقَ العالمَ للإنسان وحده، وشاءَ أن يكون بفضله، ملك الطبيعة، والحاكم الضعيف! ولمجرد وجود حبة رمل، وبعض ذرات المرارة، وبعض الأخلاط في غير محلها، يفنى الوجود والملك في الحال، ومع ذلك تدعي بأنَّ الله الخير خلق كلّ شيء لكَ! وترغب في أنْ تكون الطبيعة بأكملها ملككَ، ولا يمكنك حتى الدفاع عن نفسك من أدنى صدماتها! وتجعل لنفسك إلهاً لك وحدكَ؛ وتظن أنَّه يكترث لحمايتك. وتفترض أنَّه يشغل نفسه باستمرار بسعادتك فحسب، وتتخيل أنَّ كلّ شيء كان لإرضائكَ وحدكَ. وباتباع أفكاركَ المتغطرسة، تجرأت على تسميته خيراً! ألا ترى أنَّ اللطف الذي بدى لك، وتشترك فيه مع غيرك من البشر متناقض؟ ألا ترى أنَّ تلك البهائم التي تظن أنَّك قدمتها لإمبراطوريتك، قد ألتهمتْ مراراً وتكراراً أقرانك من البشر، وتحرقها النيران، ويبتلعها المحيط، وتمحوها تلك العناصر التي تعجب بترتيبها بسهولة عن سطح الأرض؟ ألا ترى أن هذه القدرة التي تسميها الله، وتدعي أنَّها تعمل من أجلكَ فقط، وتعتقد أنَّها منهمكة تماماً بجنسكَ، ويغريكَ جلالها، وتتضرع لها بصلاتكَ، لا يمكن أن تدعوها خيراً؛ لأنَّه يتصرف بالضرورة؟ ووفقاً لأفكاركَ الخاصة، ألا تعترف بالفعل بأنَّ إلهك هو العلّة الكلية لكلّ شيء، ويجب أن يفكر في الحفاظ على الكل العظيم، الذي ميزته عنه بحماقةٍ شديدة. ﴿أَفَلَيْسَ هُوَ حَسَبَكَ﴾، إله الطبيعة، والمحيط، والأنهار، والجبال، والأرض التي تشغل فيها مساحة صغيرة جداً، وكلّ تلك الأفلاك الأخرى التي تراها تطوف في مناطق الفضاء، وتلك الأجرام السماوية التي تدور حول الشمس التي أضاءت لكَ؟ توقف، إذن، عن الإصرار على عدم

النظر إلى أيّ شيء سواكَ في الطبيعة؛ لا تفتن نفسكَ بذلك الجنس البشري الذي يجدد نفسه، ويتساقط كأوراق الأشجار، ويمكن أن تستغرقه كلّ عناية الكائن الكلي، ويمكن أن يستوعبه كلّ حنانه، وهو من يتحكم بكَ وبمصير كلّ الأشياء.

ما الجنس البشري مقارنة بالأرض؟ وما هذه الأرض مقارنة بالشمس؟ وما شمسنا مقارنة بتلك الشموس التي لا تعدُّ ولا تحصى، وتشغل حيزًا في الفضاء على مسافات شاسعة؟ ليس الغرض أن تصرف عينيك الكليلتين، أو بقصد إثارة إعجابك الغبي كما تخيلتَ عبثاً؛ لأنَّ جموعاً منها وضِعتْ خارج نطاق أعضائكَ البصرية، بل لتضعها في مكانها الذي تحدد لها بالضرورة. يا لكَ من فانٍ، وواهنٍ، وعبثي! أعدْ نفسكَ إلى الفلك الخاص بكَ، واعترفْ في كلّ مكان بتأثير الضرورة، وتعرّف على المنافع الخاصة بكَ، وأنظر في أحزانكَ، وإلى أنماط العمل المختلفة لتلك الأشياء المتنوعة التي تتمتع بهذه الخصائص المختلفة التي تشتمل عليها الطبيعة؛ ولا تفترض بعد الآن أنَّ محرّكها المزعوم يمكنه امتلاك هذه الصفات غير المتوافقة الناجمة عن آراء بشرية، أو أفكار البصيرة، التي ليس لها وجود إلا في نفسكَ.

وبغض النظر عن الخبرة التي تتعارض في كلّ لحظة مع الآراء النافعة التي يفترضها الإنسان عن إلهه، لا يكفّ اللاهوتيين عن وصفه بالخير في حال تذمره من الاضطرابات، والمصائب التي كثيراً ما يقع ضحية لها، ويأكدون له أنَّ هذه الشرور عابرة فحسب، ويخبروه أنَّه إذا تمكّن بعقله المحدود من سبر أغوار الحكمة الإلهية، وكنوز خيره، فسيجني دائماً فوائد أعظمَ من تلك التي تعود عليه مما يدعوه شرًا. ولكن على الرغم من هذه الإجابات العبثية، لن يتمكن الإنسان أبداً من إيجاد الخير إلا في تلك الأمور التي تدفعه بطريقة مواتية لنمط وجوده الفعلي، وسيضطر دائماً للعثور على الفوضى، والشر في كلّ ما يبعث فيه ألما ولو كان طفيفًا؛ وإنْ كان الله واجِدٌ لهذين النمطين من المشاعر، فلابدّ من الوصول إلى نتيجة بخلاف ذلك تماماً، وهي أنَّ هذا الكائن خيّرٌ في بعض الأحيان، وشريرٌ أحياناً أخرى، وإنْ لم يجزَ بأيّ من هذا أو ذاك، فليعترف بأنَّه يتصرف بالضرورة. ولا يمكن للعالم الذي يعاني فيه الإنسان الكثير من الشر أن يخضع لإلهٍ خيّر بالمطلق، ولا يمكن لعالم ينعمّ فيه بالكثير من النّعم، أن يحكمه إله شرير من ناحية أخرى. وبالتالي فهو ملزمٌ بالاعتراف بمبدأين متساويان من حيث القوة، ومضادان لبعضهما البعض، أو بالأحرى، يسلّم بأنَّ الإله ذاته رحيمٌ، وفظّ بالتناوب؛ وما ذلك سوى اعترافٌ بأنَّه لا يمكن أن يكون على خلاف ذلك. وفي هذه

الحال، ليس من المجدي التضحية له، والصلاة؛ لأنَّ الأمر لن يكون إلا قدراً، وضرورة للأمور الخاضعة للقواعد الثابتة.

ومن أجل تبرئة هذا الإله من الشرور التي يعاني منها الجنس البشري، تُختزل الربوبية إلى ضرورة تسميتها بالعقوبات التي فرضها الله سبحانه وتعالى على آثام الإنسان. وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّ الإنسان لديه القدرة على إلحاق المعاناة بإلهه. ويفترض إلحاق الأذى مسبقاً وجود علاقات بين من يسيء ومن يُساء إليهم، ولكن ما العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين الكائن اللامتناهي الذي أوجدّ العالم، والبشر الضعفاء؟ يقلل إلحاق الأذى بأيّ شخص سعادته بالمجمل، ويكون ابتلاء له، بحرمانه من شيء، وإذاقته حرقة الألم عليه. ولكن كيف يمكن أن يحقق الإنسان رفاهية ملك الطبيعة المقتدر، الذي لا يعتري سعادته تبدل؟ وكيف يمكن أن تؤثر الأفعال المادية لجوهر مادي على جوهر غير مادي، وخالٍ من الأطراف المترابطة؟ وكيف يمكن لكائنٍ مادي أن يسبب المعاناة لكائن غير مادي من أحاسيس غير مريحة؟ من ناحية أخرى، تقتضي العدالة وفقاً للأفكار الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يصوغها منها، ميلًا دائمًا لتقديم كلّ ما هو جدير به، ولن يعترف اللاهوتي بأنَّ الله مدين للإنسان بأيّ شيء، ويصرّ على أنَّ النعمْ التي يهبها، تمثّل النتائج المترتبة على خيره من دون مبرر؛ وأنَّ له الحق في التصرف فيما خلقه حسب مشيئته؛ ليغرقه عن طيب خاطر في هاوية البؤس. ولكن من السهل أن نرى وفقاً لفكرة الإنسان عن العدالة، أنَّه لا يمتلك سوى صورة باهتة عنها؛ أي أنَّها في الواقع، عبارة عن طريقة عمل يتبناها من يسميهم الطغاة الأكثر هولاً. ما الذي حثّه إذن على تسمية إله يتصرف على هذا النحو باسم العادل؟ وهو يرى في الواقع أنَّ البراءة معاناة، والفضيلة في الدموع، والجريمة غالبة، والرشوة تعويض، ويُقال في الوقت نفسه: إنَّ الكائن الذي ابتدعه اللاهوت واجدٌ؛ فلن يتمكن أبداً من الاعتراف بهم لتحقيق العدالة.[1] ولكن الربوبي يقول: إنَّ هذه الشرور عابرة، وستدوم لفترةٍ وجيزة فحسب، وهو أمرٌ عظيم جدًا، لكن إلهكَ ظالم، على الأقل لبعض الوقت. ومن أجل خيرهم

---

(١) سأخفق يوماً إن أردتُ أن أحصي الخيرات التي تحمل شراً؛ ولن أتذكر بالقدر ذاته أيّ شرورٍ هي الخيّرة. (Cicer.de Nat . Deor. lib .iii.) وإذا امتلك ملكٌ فاضل خاتم غيغس Gyges، أي كانت لديه القدرة على جعل نفسه محجوباً، ألن يستخدمه للقضاء على المفاسد بإثابته للخيّر، ومنعه لتحالف الأشرار، واحلاله للنظام، وأن يجعل السعادة تعم جميع أنحاء ولاياته؟ الله ملك محجوب وقادرٌ، ومع ذلك فإنَّ ولاياته هي مسرح الجريمة والفوضى، لا يصلح شيئاً.

يوقع العقاب بأحبائه. ولكن إذا كان خيراً، فكيف يمكنه أن يرضى بتركهم يعانون، ولو لبعض الوقت؟ وإذا كان يعلم كلّ شيء، فلماذا يشجب محبيه ممن ليس لديه ما يخشاه منهم؟ وإذا كان حقاً مقتدراً، فلماذا لا يقيهم هذه الآلام العابرة، ويجعلهم ينعمون في الحال بسعادةٍ دائمة، وثابتة؟ وإذا كانت قدرته لا يمكن أن تتزعزع، فلماذا يكترث بشأن المؤامرات التافهة التي يحيكونها ضده؟

أين الإنسان المفعم بالاحسان، والموسوم بالإنسانية، ولا يرغب من كلّ قلبه في أن يجعل أقرانه من البشر سعداء؟ وإذا كان الله قد عزّز صفات الإنسان حقاً، ألا يمكنه أن يستخدم للسبب ذاته قدرته اللامتناهية لجعلهم جميعاً سعداء؟ مع أنّنا نادراً ما نجد على الأرض شخصاً يشعر بالرضا التام عن حاله، ومقابل فانٍ يشعر بالمتعة، نرى ألفاً يعانون، ومقابل رجل غني واحد ينعم بالوفرة، هناك الآلاف من الفقراء الذين لا يبغون سوى ضروريات عادية، وأممٌ بأكملها تأنُّ تحت وطأة العوز، لإشباع عواطف بعض الأمراء الجشعين، وبعض النبلاء القلائل، الذين لا يكونوا بذلك أكثر رضاً، ولا يعترفون بكونهم من الأناس الأوفر حظاً. وبعبارة أخرى، تغرق الأرض في دموع البائسين في ظل هيمنة إلهٍ مقتدر، وخيره لامتناهي. وماذا نستنتج من كلّ هذا؟ أنَّ الإله إما تهاونَ في إسعاده، أو عجز عن ذلك. لكن الربوبي سوف يخبركَ ببرود، أنَّ أحكام إلهه مبهمة! ولكن كيف نفهم هذا المصطلح؟ ألا يعلمونكَ ألا تكون مطّلعاً، وغير مكترث، وغير مدرك. وسيكون من غير المنطقي في هذه الحال طرحُ سؤالٍ نستفسر به عن السلطة التي تُفرض عليهم؟ كيف تتعرّف على هذه الألغاز المبهمة؟ وعلى أيّ أساس تنسب فضائل لا يمكنكَ فهمها؟ وما الفكرة التي تكوّنها لنفسكَ عن عدالة لا تشبه أبداً عدالة الإنسان؟

سيؤكد الربوبيون؛ لكي ينأوا بأنفسهم عن هذا، بأنَّ عدالة إلههم مجبولة بالرحمة، والتعاطف والخير، وهذه مرة أخرى صفات بشرية، ولذلك ما الذي يجب أن نفهمه بواسطتها؟ وما هي الفكرة التي نعلّقها على الرحمة؟ أليس هذا انتقاصاً من القواعد الصارمة لعدالة صارمة متزمّتة، تؤدي إلى العفو عن جزءٍ من العقوبة المستحقة؟ فإما أن تكون الرأفة عند الأمير انتهاكاً لعدالةٍ أو إعفاءً من قانونٍ صارم، ولكن إن كانت قوانين الله خيّرة، ومنصفة، وحكيمة إلى أقصى حد، فهل يمكن أن تكون صارمة للغاية، وإذا كانت ثابتة، فهل يمكنه تغييرها؟ ومع ذلك، يستحسن الإنسان الرحمة عند صاحب السيادة، عندما لا

تضرّ سعادته العظيمة بالمجتمع، فيُقدّرها؛ لكونها تفصح عن الإنسانية، والتسامح، والرحمة، والنفس النبيلة، والصفات التي يفضلها في حكّامه على الصرامة، والتزمت، والعناد، والقوانين الإنسانية المختلة، وغالباً ما يكونوا قُساة جداً، وغير مؤهلين لتوقّع جميع الظروف المحيطية بهم في كلّ حال، ولا تتناسب العقوبات التي يصدرونها دائماً مع الجُنحة، لذلك فهو لا يعتقد دائماً أنّهم عادلون، لكنه محقّ بشعوره، ويفهم باقتضاب، أنَّ الملك عند ميله إلى بسط رحمته، يوهن من عدالته، ولا يقع العقاب، إنْ كانت الرحمة مستحقة، ولم يعدْ تطبيقها رحمة، بل عدالة، وهكذا يشعر أنَّ هاتين الصفتان إن وجدتا في أقرانه، فلا يمكن أن يوجدا في الوقت ذاته. فكيف له إذن أنْ يصدر حكمه على كائنٍ يدّعي امتلاكه لكليهما إلى أقصى حد؟

ويقولون بعد ذلك: لكن الله سيكافئكَ في العالم الآخر عن كلّ الشرور التي تعاني منها في هذا العالم، وهذا أمرٌ يجب النظر فيه بالفعل، إذا لم يُبتكر للمحافظة على فكرة العدل الإلهي. ولتبرئته من تلك الشرور التي كثيراً ما يُحدثها لدى أعظم محبيه لاختبارهم في هذا العالم، وهناك من يخبرنا من الربوبيين أنَّ الملك السماوي سيمنح من اصطفاه تلك السعادة الثابتة التي رفضها على الارض، وهناك سيعوض أولئك الذين يحبهم، وأولئك الذين يعانون من المحن، ومن جعلهم يعانون في العالم الدنيوي عمّا لحقَ بهم من ظلمٍ عابر. وفي غضون ذلك، هل يؤخذ هذا الاستنباط بالحسبان لمنحنا تلك الأفكار الواضحة، والمناسبة لتبرير العناية الإلهية؟ وإذا كان الله مديناً بشيءٍ لمخلوقاته، فعلى أيّ أساس يمكنهم أن يتوقعوا في الحياة الواقعية، سعادةً أكثر واقعية، وثباتاً من تلك التي تمتعوا بها سابقاً؟ يجيب اللاهوتيون: بأنّهم سوف يستندون إلى وعوده الواردة في أقواله التي أوحى بها. ولكن هل هم متأكدون تماماً من أنَّ هذه الأقوال قد انبعثت عنه؟ ومن ناحية أخرى، لا يبرر نظام الحياة الأُخرى لهذا الإله الظلم الأكثر زوالًا وحظية، لأنّه ما من ظلمٍ يمحو الثبات الذي ينسبونه إلى الإله، وإنْ كان عابراً. وبعبارة أخرى، أليس ذلك الكائن المقتدر الذي جعلوه واجداً لكلّ الأشياء، هو نفسه العلّة الأولى أو الشريك في الآثام التي يرتكبونها بحقه؟ أليس هو الواجد الحقيقي للشر أو الخطيئة اللتين أجاز بهما وهو قادرٌ على أن يحرمهُما. وفي هذه الحال، هل يمكنه أن يكون ذو عدلٍ متسق، ويعاقب من جعلهم هو نفسه آثمين؟

رأينا بالفعل أنَّ تعدد التناقضات، والفرضيات المتطرفة التي ينسبها اللاهوت لإلهه، يجب أن تنتج عنه بالضرورة. وسيكون الموجود الذي يتسم في الآن ذاته بالعديد من الصفات

المتباينة، دائماً غير قابل للتحديد، ولا يقدم سوى سلسلة من الأفكار التي ينفي بعضها الآخر، وبالتالي سيبقى كائناً من نسج الخيال. وكما يقولون: خلقَ هذا الإله السموات، والأرض وما يقطنهما من كائنات، ليتجلى مجده، ولكن أيعقل أن يرغب في المجد ملكاً متفوقاً على جميع الكائنات، وليس له منافسون أو مكافئون له من حيث الطبيعة، ولا يمكن مقارنته مع أيّ من مخلوقاته؟ وهل يخشى أنْ يحطّ من قدره، وقيمته في نظر أقرانه؟ أهو جديرٌ بتبجيل البشر، وإجلالهم، وإعجابهم؟ وما حبّ المجد فينا سوى رغبتنا في إعطاء أقراننا فكرة راقية عن أنفسنا؛ وهذا شغفٌ جديرٌ بالثناء، ويحفزنا على القيام بأعمالٍ عظيمة، ونافعة، ولكن في كثيرٍ من الأحيان هو مجرد ضعف مرتبط بطبيعتنا، ومن دواعي سرورنا أنْ نتميز عن تلك الكائنات التي نقارن أنفسنا بها. ووفقاً للاهوت يتنزه الإله الذي حدّثنا عنه من هذا الشغف، وليس له من أقران، ولا منافسين، ولا يمكن الإساءة إليه بتلك الأفكار التي نكوّنها عنه. ولا يمكن أن يعتري قدرته أيّ نقص، وما من شيءٍ بقادرٍ على تعكير صفو سعادته الأبدية، ألا يجب أن نستنتج من هذا أنَّه لا يمكن أن يتوقَ لمجدٍ، أو يلتمس مديح الناس، وتقديرهم؟ ولماذا يعاني هذا الإله من إساءة الكثير من البشر إليه، إن كان يغار من امتيازاته، وألقابه، ورتبته، ومجده؟ ولماذا يسمح للكثيرين أن يكون لديهم مثل هذه الآراء غير المواتية عنه؟ ولماذا يسمح للآخرين أن يتجرأوا على رفضه لذلك التملق الذي يمتدحون به كبريائه؟ كيف يسمح لفانٍ مثلي أن يجرؤ على انتهاك حقوقه، وألقابه، وحتى وجوده؟ وستقول: لكي يعاقبكَ على اسرافكَ في نعمه. ولكن لماذا أتاح لي التعدّي على كرمهِ؟ أو لماذا لا تكفي النعم التي يمنحها لي لتجعلني أتصرّف بما يتفق مع آرائه؟ لأنَّه حررك. ولماذا منحني الحرية التي أبصر بها أنَّني ملزمٌ بالميل إلى استخدامها بصورةٍ غير لائقة؟ أهي إذن هبةٌ جديرة بخيره، ومنحي ملكةً تمكنني من تحدّي قدرته المطلقة، وأن أفصله عن عبيده، وأسبب بالتالي البؤس لنفسي إلى الأبد؟ أليس من الأجدر القول: لأنَّني لم أولَد بين البهائم، أو الحجارة، أو وُضعت على الأقل في رتبتها، بدلاً من أن أولد بين كائنات ذكية، حيث استعمل القوة القاتلة للقضاء على نفسي دون الخلاص، وأسيء الحكم على مصيري، أو أعارضه؟ ولو أجبرني الله على تبجيله، وكنت جديرًا بالتالي بسعادةٍ لا توصف؛ فهل كان سيظهر خير قدرته المطلقة بشكلٍ أفضل بكثير، وسيبذل جهداً بالغاً في تحقيق مجده الحقيقي؟

كان من الواضح أنَّ تصور نظام حرية الإنسان التي انتهكناها بالفعل، يبعد عن كاهل واجد الطبيعة اللوم الذي يلحقوه به؛ لكونه الواجد لجرائم مخلوقاته، ومصدرها، وعلّتها الأولى. ونتيجة لهذه الهبة المقدّرة التي منحها إلهٌ محسن، فإنَّ القسم الأكبر من الناس، وفقاً لأفكار اللاهوت الشريرة، سيُعاقبون إلى الأبد على آثامهم في هذا العالم. ويُخصص العذاب العسير، والأبدي الناجم عن عدل إلهٍ عطوف رحيم، لكائناتٍ هشة، ويعتمد الذنب العابر، والأفكار الكاذبة، والخطأ للاإرادي، والنزوات الضرورية على الحالة المزاجية التي منحها لهم هذا الإله، والظروف التي وضعهم فيها، أو بالأصح إساءة استخدامهم لهذه الحرية المزعومة، والتي ما كان ينبغي لإله قوي أن يمنحها أبداً لكائنات قادرة على إساءة استخدامها. وهل يجب أن نسمي ذلك الأب خيراً، أم منطقياً، أم عادلاً، أم عطوفاً، أم رحيماً، وهو من سلح طفلًا عدوانيًا بسكينٍ حاد وخطير، وهو على درايته بطيشه، ويعاقبه طوال حياته؛ لأنَّه جرح نفسه به؟ وهل يجب أن نطلق على ذلك الأمير بأنَّه عادلاً وعطوفاً ورحيماً، وهو الذي لم تتناسب عقوبته مع الجريمة، ولم يضع حداً لعذاب ذلك التابع الذي كان في حال سكر، وكان لابدّ أن يجرح غروره ولو مؤقتًا، دون أن يلحق به أيّ ظلمٍ حقيقي، رغم معاناته هو ذاته من سكره؟ أينبغي أن ننظر إلى هذا الملك على أنَّه قادرٌ بالمطلق، وسيادته في حال من الفوضى، وهناك من يوجهون له الإهانة، ويخرجون عن إرادته، باستثناء قلة قليلة ممن يمتلكون القدرة على إزدراء قوانينه في كلّ لحظة؟ أيُّها اللاهوتيون! اعترفوا بأنَّ إلهكم ليس سوى مجموعة من الصفات التي تشكّل كلٌّ مبهماً تماماً في أذهانكم كما هو الحال بالنسبة لي، وبإثقال كاهله بصفات غير متوافقة، جعلته بالفعل كائناً خرافياً، ولا تستطيع جميع فرضياتك أن تبقيه في الوجود الذي ترغب في منحه إياه.

ومع ذلك، سوف يردّون على هذه الصعوبات، أي أنَّ الخير، والحكمة، والعدالة، الموجودة في الله، عبارة عن صفاتٍ فائقة للغاية أو تشبه إلى حدٍ ما صفاتنا، ولا علاقة لها بهذه الصفات الموجودة عند البشر. ولكني سأجيب: كيف سأكوّن لنفسي أفكارًا عن هذه الكمالات الإلهية، إذا كانت لا تحمل شبهًا بتلك الفضائل التي أجدها عند أقراني، أو التصرفات التي أشعر بها بنفسي؟ إن لم يكن عدلُ الله عدلٌ للناس، وإذا كان يُطبّق في هذا الوضع الذي يسميه الناس ظلماً، وإذا لم يتجلى خيره، ورحمته، وحكمته بمثل هذه الرموز، التي يمكننا التعرف عليها، وإذا كانت كلّ صفاته الإلهية تتعارض مع الأفكار المكتسبة، وإذا

حُجبت جميع الأفعال البشرية أو أسقِطت عند اللاهوت، فكيف يمكن للبشر مثلي أن يدّعوا التصريخ بها، أو معرفتها، أو توضيحها للآخرين؟ وهل يستطيع اللاهوت أن يمنح العقل نعمةَ التصور الخارق لما لا يمكن لأحدٍ سبرُ أغواره؟ وهل يمكنه أن يعطي مواليه الملكة العجيبة المتمثلة في امتلاك أفكار محددة عن إلهٍ يضم العديد من الصفات المتناقضة؟ وبمعنى آخر، هل اللاهوتي هو ذاته إله؟

ويسكتوننا بقولهم: إنَّ الله نفسه تكلّم، وأنَّه قد عرّف الناس بنفسه. ولكن متى، وأين، ولمن تحدث؟ أين هذه الأقوال الإلهية المنقولة على لسانِ الوحي؟ تهتف مئات الأصوات في اللحظة ذاتها، وتظهر لي مائة يد في مجموعات سخيفة ومتناقضة، لكني إكْتَسَحها، وأجد من خلال الكلّ، أنَّ إله الحكمة قد تحدث بغموض، وبلغةٍ متحيزة وغير عقلانية. وأرى أنَّ إله الخير كان قاسياً وسفاحاً، وأنَّ إله العدل كان ظالماً ومتحيزاً، وأمرَ بالإثم. وأنَّ إله الرحمة يخصّص أبشع العقوبات لضحايا غضبه التعساء. وإلى جانب ذلك، تظهر العقبات عندما يحاول الناس التحقق من العلاقات المزعومة للإله الذي لم ينطق في بلدين باللغة ذاتها حرفياً، التي تحدثَها في العديد من الأماكن، وفي مراتٍ عديدة، ودائماً بشكلٍ مختلف جداً، لدرجة أنَّه يظهر في كلّ مكان ليبدي ذاته فقط بإشارة محددة، وليوقع العقل البشري في حيرة أكثر عجباً.

وبالتالي، فإنَّ العلاقات التي يفترضونها بين البشر والههم لا يمكن أن تُبنى إلا على الصفات الأخلاقية لهذا الكائن، وإنْ لم تكن هذه معروفة للناس، فلن يتمكنوا من الاستفادة منها كنماذجٍ لهم. وإن لزم أن تكون هذه الصفات طبيعية لدى كائنٍ معروف لمن يقلده؛ فكيف يمكنني الاقتداء بإلهٍ لا يشبه خيره، وعدله ما لدي في أيّ شيء، أو بالأحرى يتعارض مباشرة مع ما أسميه عدلاً، أو خيراً؟ وإذا كان الله لا يشترك فيما نكوّنه عنه، فكيف يمكننا أنْ نقترح إلى حدٍ ما على أنفسنا أن نقتدي به، وأن نتشبّه به، ونسلكُ مسلكاً ضرورياً لإرضائه من خلال تحقيق التوافق بيننا وبينه؟ وكيف يمكن أن تؤثر دوافع تلك العبادة، وهذا التبجيل، وتلك الطاعة، التي طلب منا أن نتوجه بها للكائن المتعالي، إذا لم نثبتها بناءً على خيره، ومصداقيته، وعدله، وبعبارة أخرى، الصفات التي نستطيع فهمها؟ وكيف يمكننا أنْ نحصل على أفكارٍ واضحة عن هذه الصفات عند الله إذا لم تعد طبيعتنا مماثلة لصفاتنا؟

سيخبروننا بلا شك أنَّه لا يمكن أن يوجد أيّ تناسبٍ بين الخالق وعمله؛ وأنَّ الصلصال لا يحقّ له أن يسأل صانع الفخار الذي صنعه، لماذا صممتني هكذا؟ أما إذا لم يكن العامل على قدر عمله، وإذا لم يكن هناك موازاة بينهما، فما الذي سيبقى من العلاقات بينهما؟ وإنْ لم يكن الإله مادياً، فكيف يتعامل مع الأجساد؟ أو كيف يمكن للكائنات المادية أن تتصرف بناءً عليه، أو تُسيء إليه، أو تعكر صفوه، أو تثير سخطه؟ وإذا لم يكن الإنسان بالنسبة للإله سوى إناءٍ فخاري، فإنَّ هذا الإناء لا يدين بالصلاة، ولا بالحمد لصانع الفخار تعبيراً عن رضاه بما وهبه إياه من شكلٍ. وإذا امتعض صانع الفخار هذا إناءه؛ لأنَّه أساء صنعه، أو لأنَّه جعله غير قابل للاستخدامات التي أوجده من أجلها، فيجب على صانع الفخار، ما لم يكن كائناً غير عقلاني، أن ينسب لنفسه العيوب التي يجدها فيه، ومن المؤكد أنَّ لديه القدرة على كسره، ولا يمكن للإناء أن يمنعه، ولن تكون له دوافع، ولا وسائل ليخفف من روّعه، بل سيكون مضطراً للخضوع لمصيره، ولن يمتلك صانع الفخار أيّ سببٍ لمعاقبة إناءه، بل سيجدده، ويمنحه شكلاً أكثر ملائمةً لمقاصده.

وبناءً على هذه الفكرة، نرى أنَّ علاقة البشر بالإله كعلاقتهم مع الحجارة. بل إن كان الله لا يدينُ بشيءٍ لهم، ولم يكن ملزماً بإظهار العدل، أو الخير لهم، فلا يمكن أنْ يدينون له بأيّ شيء. وليس لدينا علمٌ بأيّ علاقات بين الكائنات من دون مقابل؛ حيث يؤدي البشر واجباتهم تجاه بعضهم على أساس رغباتهم المشتركة، وإذا لم يُحدث الله لهم أمراً، فلا يمكنهم أن يدينوا له بأيّ شيء، ولا يمكن أن يلحقوا به الإساءة. وفي هذه الأثناء، لا يمكن بناء حكم الله إلا على الخير الذي يفعله للبشر، ولا يمكن أن يكون لواجبات هؤلاء تجاه الله دوافع أخرى غير رجاء السعادة التي يتوقعونها منه، وإذا لم يكن مديناً لهم بهذه السعادة، فستبطل كلّ علاقاتهم، ولن يعد لواجباتهم وجود. وهكذا، فإنَّ النظام اللاهوتي يفنى من تلقاء ذاته، مهما كانت الطريقة التي نشاهده بها. ولكن ألن يشعر اللاهوت أنَّه كلما سعى إلى تمجيد إلهه، والمبالغة في تقدير عظمته، زاد عدم توافقه معنا؟ وكلما أبعده عن الإنسان، أو حطّ من قدر هذا الإنسان، ضعفت العلاقات التي يفترضونها بين هذا الإله وإياه. وإذا كان ملك الطبيعة كائناً لامتناهيًا، ومختلفًا تمامًا عن جنسنا، وكان الإنسان في نظره عبارة عن دودة، أو ذرة من التراب، فمن الواضح أنَّه لا يمكن أن تكون هناكَ أي علاقات أخلاقية بين كائنين سوى بعض التماثل بينهما، كما يتضح أنَّ الإناء الذي صنعه غير قادر على التفكير فيه.

ورغم العلاقة القائمة بين الإنسان وإلهه، والتي تُبنى عليها كلّ عبادة، فإنَّ أساس كلّ ديانات العالم إله مستبد؛ ولكن أليس الاستبداد سلطة جائرة، وغير منطقية؟ أليس تقويض خير الإله، وعدالته، وحكمته اللامتناهية يعادل أن ننسب إليه ممارسة مثل هذه السلطة؟ بالنظر إلى أنَّ البشر كثيراً ما يتعرضون للشرور في هذا العالم، دون أن يكونوا قادرين على التخمين بأيّ وسيلة استحقوا الغضب الإلهي، سوف يميلون دائماً إلى الاعتقاد بأنَّ المهيمن على الطبيعة سلطانٌ لا يدين بشيءٍ لرعاياه، وغير ملزمٍ بتقديم أيّ تفسيرٍ لأفعاله لهم، ولا يرتبط بالالتزام بأيّ قانون، ولا يخضع هو ذاته لتلك القواعد التي يحددها للآخرين، ويمكنه أن يكون نتيجة لذلك غير عادل، وله الحق في انتقامه إلى أقصى حد، وبعبارة أخرى، يدّعي اللاهوتيون بأنَّ الله له الحق في إفناء العالم، وإعادة إدخاله في حالٍ من الشواش الذي انسحبت منه حكمته، في حين أنَّ اللاهوتيين أنفسهم، يقتبسون لنا الترتيب، والتنظيم الرائع لهذا العالم، باعتباره الدليل الأكثر إقناعاً على وجوده.(١)

وبمعنى آخر، يوسم اللاهوت إلهه بالامتياز المتحفظ، المتمثّل بالتصرف المخالف لجميع قوانين الطبيعة، والعقل، ولما كان يعقد ارتباطاته المزعومة بناءً على عقله، وعدالته، وحكمته، وولاءه، فإنَّهم على استعداد لإقامة العبادة التي ندين بها له، والواجبات الأخلاقية. يا له من محيط من التناقضات! أليس طاغية أو شيطانٌ ذلك الكائن القادر على فعل كلّ شيء، ولا يدينُ بشيءٍ لأحد، ويستطيع في شرائعه الأبدية، أنْ يختار أو يرفض، ويقدّر السعادة أو البؤس، وله الحقّ في جعلِ البشر ألعوبة لتقلباته، وأن يبتليهم من دون سبب، ويمكنه أن يذهب إلى حدّ تدمير الكون، وإفناؤه؟ وهل يوجد ما هو أكثر رعباً من العواقب المباشرة التي يمكن استخلاصها من هذه الأفكار الثورية التي أعطِيت لنا عن إلههم، من أولئك الذين يبلغوننا بأنْ نحبه، ونعبده، ونقلده، وننصاع لأوامره؟ أليس الاعتماد على مادةٍ عمياء، أو طبيعةٍ تفتقر إلى الذكاء، أو الصدفة، أو العدم، وإله من حجر أو خشب، أفضل ألف مرة من إلهٍ ينصب أفخاخاً للبشر، ويدعوهم للوقوع في الخطيئة، ويسمح لهم بارتكاب تلك الآثام التي يحرمها، لدرجةٍ أنَّ لديه متعة بربرية في معاقبتهم دون تدبير، ودون أن ينفعهم بنفسه،

---

(١) يقول الدكتور كاستريل: نحن نتصور على الأقل، أنَّ الله قادرٌ على قلب الكون، وإعادة ادخاله في حالٍ من الشواش. راجع كتابه: دفاعه عن الدين الطبيعي والموحى به (Defence of Religion, Natural and Revealed).

ودون تصويبهم، ودون أن يكونوا قدوةً لهم ليردّ الآخرين إلى جادةِ الصواب؟ لابدّ أنَّ الرعب الكئيب الناجم بالضرورة عن فكرة هذا الكائن، وقوته سيحيدنا كثيراً عن إجلالنا العبودي له، وسندعوه خيراً لنتملق له، أو ننزع فتيل حقده. ولكن، بدون قلب الأمور، لن يكون مثل هذا الإله قادراً على جذب محبتنا له، عندما نفكر بأنَّه لا يدين لنا بشيء، وأنَّ له الحق في أن يكون ظالماً، وأنَّ لديه القدرة على معاقبة مخلوقاته؛ لكونهم أساؤوا استخدام الحرية التي منحها لهم، أو لم يحصلوا على اللامتنان الذي تمتّع برفض منحه لهم.

وهكذا، يتضح أنَّ اللاهوتيون ينسفون أساس كلّ دين، عندما يفترضون أنَّ الله غير ملزم تجاهنا بأيّ قواعد. ولا يظهر لنا اللاهوت الذي يؤكد أنَّ الله كان قادراً على خلق البشر بغرضِ جعلهم بائسين إلى الأبد، سوى أنَّه عبقري شرير، وخبيث، ولا يمكن تصور رحمته، ويفوق بكثير قسوة الكائنات الأكثر فساداً من أبناء جنسنا. ومع ذلك هو الله الذي يمتلكون الثقة في افتراض أنَّه نموذجًا للجنس البشري! وهو الإله الذي تعبده حتى تلك الأمم التي تفتخر بأنَّها الأكثر ثقافةً في هذا العالم!

ولكنهم يتحدثون عن الإله بناءً على الميزة الأخلاقية، أي بناءً على خيره، وحكمته، وعدله، وحبه للأمر الذي يدعون أنَّه يبني أخلاقنا، أو علم تلك الواجبات التي تربطنا بأبناءِ جنسنا. ولكن بما أنَّ كمالاته، وخيره يتناقضان في كثيرٍ من الأحيان، ويفسحان في المجال للضعف، والظلم، والقسوة، فنحن مضطرون إلى أن نعتبره متقلباً، ومتحولاً، وغريب الأطوار، ومتذبذب في سلوكه، ومتناقضاً مع نفسه، حسب أنماط العمل المختلفة التي ينسبونها إليه. ونراه أحياناً بالفعل متحيزاً للجنس البشري، وفي بعض الأحيان يميل إلى إيذائهم، وأحياناً صديقاً لعقل المجتمع، وسعادته، وفي بعض الأحيان يحرّم استخدام العقل، ويتصرف كعدوٍ لكلّ فضيلة، وتغريه رؤية المجتمع مضطرباً. ومع ذلك رأينا أنَّ البشر يسحقهم الخوف، ولم يجرؤوا أبداً على الاعتراف بأنَّ إلههم كان ظالماً أو شريراً، ولإقناع أنفسهم بأنَّه أجاز لهم بذلك، استنتجوا أنَّ كلّ ما فعلوه بموجب أمره المزعوم، أو بهدف إرضائه، كان دائماً خيراً، مهما بدى من زاوية العقل مجحفاً. وافترضوا أنَّه المتحكم بخلقِ العدل، والظلم، وتحويل الخير إلى شر، والشر إلى خير، والحق إلى باطل، والباطل إلى حق، أي أنَّهم منحوه الحق في تغيير الماهية الأبدية للأشياء، ورفعوه فوق قوانين الطبيعة، والعقل، والفضيلة؛ اعتقدوا أنَّهم لم يكونوا مخطئين في اتباع وصاياه، رغم من أنَّها الأكثر عبثية، وتناقضاً مع الأخلاق، وأكثر ما يعارض

الحس السليم، وتلحق الضرر أكثر بسكينةِ المجتمع. فلا تدعونا نتفاجأ بمثل هذه المبادئ، من تلك الأهوال التي يتسبب الدين في ارتكابها على الأرض، وأنَّ الدين الأشنع كان الأكثر إتساقاً.[1]

وفي تأسيس الأخلاق على ميزة غير أخلاقية لإلهٍ يغير سلوكه، لن يتمكن الإنسان أبداً من التأكّد من السلوك الذي ينبغي أن يتبعه فيما يتعلق بما يدين به لله أو للآخرين. ولم يكن هناك ما هو أخطر من إقناعه بوجود كائنٍ متفوق على الطبيعة، التي يظلّ العقل صامتاً أمامها، وينبغي أن يضحي لها بكلّ ما في الحياة الدنيا؛ لكي يسعد في الآخرة. ويجب أن تكون أوامره المزعومة، ومثاله بالضرورة أقوى بكثيرٍ من تعاليم الأخلاق البشرية، ولا يمكن لعابدي هذا الإله أن ينصتوا بعد ذلك للحس الطبيعي، والسليم، ولكن عندما يتوافقون بالصدفة مع ميل إلههم، الذي يفترضون فيه القدرة على إبطال العلاقة الوثيقة بين الكائنات، وتحويل العقل إلى حماقة، والعدالة إلى ظلم، وحتى الإثم إلى فضيلة. ونتيجة لهذه الأفكار، لا يبحث المتدين أبداً في إرادة وسلوك هذا المستبد السماوي بموجب القواعد العادية، وكلّ إنسان موحى من قبله، وأولئك الذين يدّعون بأنّهم مكلفون بتفسير أقواله المنزلة، سوف يفترضون دائماً الحق في جعله غير عقلاني وآثم، وسيكون واجبهم الأول دائماً أن يطيعوا إلههم دون أن يتذمروا.

هذه هي النتائج المصيرية والضرورية للميزة الأخلاقية التي يمنحونها للإله، والرأي الذي يُقنع البشر بأن يطيعوا طاعةً عمياء الحاكم المطلق الذي سينظم كلّ واجباته التعسفية والمتقلبة. وأولئك الذين كانت لديهم الثقة في البداية لإخبار البشر أنّه لم يُسمح لهم بأن

(١) من الواضح أنَّ الدين الحديث لأوروبا أحدث ويلات، ومتاعب أكثر من أيّ خرافة أخرى معروفة، وكان في هذا الصدد متسقاً للغاية مع مبادئه. وقد يعظ جيدًا عن التسامح، والوداعة باسم إله مستبد، وله وحده الحق في التبجيل على الأرض، وهو غيور للغاية، وشاء أن يعترفوا ببعض العقائد، ويعاقب بقسوة على الآراء الخاطئة، ويطالب عباده بالتعصب له، ويجب أن يخلق هذا الإله المتعصبين للمضطهدين لجميع البشر المتسقين. ويُعتبر اللاهوت اليوم سمّاً زعاف، تصيب آفته كلّ من يوليه الأهمية. وبفضل الميتافيزيقيا، أصبح اللاهوتيون المعاصرون عبثيين وأشرار بصورة منتظمة: بمجرد إعلانهم للأفكار البغيضة التي قدموها عن الإله، استحال عليهم أن يفهموا أنَّ من واجبهم أن يكونوا إنسانيين، ومنصفين، ومسالمين، وذو مغفرة أو متسامحين، وادعوا وأثبتوا أنَّ هذه الفضائل الإنسانية والاجتماعية لم تكن ملائمة لقضية الدين، وسوف تكون خيانة وجرائم في نظر الملك السماوي الذي يجب التضحية بكلّ شيء له.

يستشيروا عقولهم في مسائل الدين، ولا في مصالح المجتمع، افترضوا بوضوح أن يجعلوهم تسليةً لأدوات شرهم الخاص. وبذلك نشأت كلّ تلك المبالغات عن هذا الخطأ المتطرف، الذي اقترفته الأديان المختلفة على الأرض، وذلك الغضب المقدس الذي أغرقها بالدماء. وتلك الاضطهادات اللاإنسانية التي كثيراً ما دمرت الأمم، وبعبارة أخرى، كلّ تلك المآسي المروعة التي اتخذت من اسم العلي القدير مبرراً لها وذريعة. وكلّما رغبوا في جعل البشر منطوين على أنفسهم، هتفوا قائلين: إنَّ مشيئة الله اقتضت أن يكونوا كذلك. وهكذا يبذل اللاهوتيون أنفسهم جهداً للافتراء على الوهم الذي بنوه على أنقاض العقل البشري، وفضلوا الطبيعة المعروفة جيداً، ألف مرة على إلهٍ مستبد، وجعلوه مكروهاً لكلّ إنسان نزيه. وهؤلاء اللاهوتيون هم المدمرون الحقيقيون لمعبودهم الغريب، بفضل الصفات المتناقضة التي جمعوها عنه، وهؤلاء اللاهوتيون، كما ستثبت في النتيجة، هم الذين يجعلون الأخلاق ملتبسة ومتذبذبة، بتأسيسها على إلهٍ متغيرٍ ومتقلب، ويكون في كثير من الأحيان قاسٍ وظالم أكثر من أن يكون خيّرًا؛ فهم من يسقطه ويبطله، بأمرهم بارتكاب الإثم، والمجازر، والهمجية، باسم ملك الكون، ويمنعوننا من استخدام العقل الذي يجب أن ينظم كلّ أفعالنا وأفكارنا.

ولكن إن إقررنا للحظة أنَّ الله يمتلك كلّ الفضائل البشرية إلى أقصى درجة من الكمال، فسنكون ملزمين حاليًا بالاعتراف بأنَّه لا يمكنه ربطها بتلك الصفات الميتافيزيقية، واللاهوتية، والسلبية، التي تحدثنا عنها بالفعل. ولكن إن كان الله روحًا، فكيف يتصرف مثل الإنسان الذي هو كائن مادي؟ الروح المحض لا ترى شيئاً، ولا تسمع صلواتنا، ولا صرخاتنا، ولا يمكن تصور أن تتعاطف مع بؤسنا، كونه محرومٌ من تلك الأعضاء التي يمكن أن تثير مشاعر الشفقة فينا. ولا يتصف بـ"الثبات"، إن كان من الممكن تغيير مشيئته، وليس "لامتناهياً"، إذا كانت الطبيعة بأكمالها يمكن أن تتواجد بوجوده، ومن دونه، وليس "مقتدرًا"، إذا سمح بتلك الفوضى في العالم أو إذا لم يمنعها، وليس "كلّي الوجود"، إذا لم يكن في الإنسان الذي يذنب أو إذا تخلى عنه في اللحظة التي يرتكب فيها الخطيئة. وهكذا، وبغض النظر عن الطريقة التي ننظر فيها إلى هذا الإله، فإنَّ الصفات البشرية التي يخصصونها له، تقضي بالضرورة على بعضها البعض، ولا يمكن لهذه الصفات ذاتها أن تضم بأيّ حال من الأحوال الصفات الخارقة للطبيعة التي يمنحها له اللاهوت.

وفيما يتعلق بـ"الوحي" المزعوم بمشيئة الله، بعيداً عن كونه دليلاً على خيره أو مواساته للبشر، سيكون دليلاً على حقده فحسب. وفي الواقع، كلّ وحي يفترض أنَّ الإله مذنب لكونه لم يُطلع الجنس البشري على الحقائق الأهم لسعادته لفترة زمنية طويلة. وسيُظهر هذا الوحي المرسل لعدد قليل من البشر المختارين، علاوة على ذلك تحيزاً عند هذا الكائن، ونزعةً إلى الظلم لا تتوافق مع خير الأب المشترك بين البشر إلا قليلاً. وينفي هذا الوحي أيضاً الثبات الإلهي؛ بما أنَّ الإله سيُسمح من خلاله للبشر بأن يجهلوا مشيئته حيناً، ويعلموا بها حيناً أخرى. وبالتسليم بهذا، يتعارض كلّ وحي مع المفاهيم التي لقنوها لنا عن عدالة الله أو خيره، وأخبرونا أن لا تغيير يعتريه، ويمكن أن يوجه البشر، ويقنعهم بسهولة، ويلهمهم بتلك الأفكار التي يبتغيها دون أن يكون لديه فرصة للكشف عن نفسه، أو اطلاعهم عليها بفضل المعجزات، وبعبارة أخرى، لم يحكّموا عقولهم، وقلوبهم. ولكن ماذا لو درسنا بالتفصيل كلّ تلك الإيحاءات المزعومة التي يؤكدون أنَّها قد صُنعت للبشر؟ سنرى أنَّ هذا الإله لا يروي سوى الخرافات التي لا تليق بكائنٍ حكيم، ويتصرف فيها بطريقة تتعارض مع المفاهيم الطبيعية للإنصاف، ويعلن الألغاز، والأقوال المنزلة التي يستحيل فهمها، ويصور نفسه بموجب سماتٍ تتوافق مع كمالاته اللامتناهية، وينزع عنها الأمور المتهور التي يمكن أن تقلل من شأنه، وتعكر صفو النظام الذي أرساه في الطبيعة، لإقناع مخلوقاته، ودفعها إلى عدم تبني تلك الأفكار، والمشاعر، وهذا السلوك الذي سيلهمهم به. وبعبارة أخرى، سنجد أنَّ الإله لم يكن ليتجلى أبداً، إلا ليعلن أسرارًا لا يمكن تفسيرها، وعقائد مبهمة، وممارسات سخيفة، ويوقع العقل البشري بالرعب، وعدم الثقة، والشفقة، إضافة لتزويد البشر بمصدر نزاعٍ لا ينضب أبدًا.(١)

ومن هنا نرى أنَّ الأفكار التي يقدمها لنا اللاهوت عن الإله ستكون دائماً مشوشة وغير متوافقة، وسوف تعكر بالضرورة سكينة الطبيعة البشرية. وستكون هذه المفاهيم

---

(١) من الواضح أنَّ كلّ وحي مبهم أو يعلم الأسرار، لا يمكن أن يكون من عمل كائن حكيم وذكي؛ ويجب أن نفترض أنَّه حالما يتكلم فذلك بهدف أن يفهمه من يتجلى لهم. والكلام إن لم يكن مفهومًا، فلن يظهر سوى الحماقة أو الافتقار إلى حسن النية. وسيتضح بالتالي أنَّ كلّ الأمور التي أطلق عليها الكهنوت أسراراً، ما هي إلا ابتكارات ابتدعوها ليخفوا بها تناقضاتهم الخاصة، وجهلهم الخاص بالإله. مع أنَّهم يفكرون في حل جميع الصعوبات بالقول إنَّما سر؛ مع حرصهم على ألا يعرف البشر شيئاً عن هذا العلم المزعوم، الذي جعلوا أنفسهم أوصياء عليه.

الغامضة، وهذه التخمينات الملتبسة، عديمة الأهمية، إذا لم يأخذ البشر في الحسبان تبجيلهم لهذا الكائن المجهول، ومن يعتقدون أنَّهم تابعين له، ولم يستخلصوا منها نتائج مجحفة بحقهم. ولكونهم لا يمتلكون أبداً معياراً مشتركاً، وثابتاً يمكّنهم من تشكيل حكمٍ على هذا الكائن، الذي ولدت عنه تخيلات مختلفة ومتنوعة، فلن يتمكنوا أبداً من فهم بعضهم البعض، أو اتفاقهم على تلك الأفكار التي سيشكلونها لأنفسهم عنه. ومن هنا، قادَ هذا التنوع الضروري في الآراء الدينية في جميع العصور إلى نشوء النزاعات الأكثر طيشًا، واعتبروها دائماً ضرورية للغاية، وذو أهمية في تحقيق طمأنينة الشعوب. ولن يتكيف الإنسان ذو الخيال المتقد مع إله الإنسان البارد والهادئ؛ والإنسان الضعيف، والصفراوي، والساخط، ولن ينظر إلى هذا الإله أبداً من وجهة نظر الشخص ذاته الذي يتمتع بجبلةٍ سليمة أكثر، ولذلك سينبعث عنه شعورًا مماثلاً بالرضا والسلام. ولن يصف الإنسان المنصف، واللطيف، والرحيم، والعطوف، لنفسه صورة إلهه، كالإنسان الذي يتسم بطابع قاسٍ، وظالمٍ، وعنيدٍ، وشرير. وكلّ فرد سوف يعدِّلُ إلهه وفقاً لأسلوبه الخاص في الوجود، ووفقاً لنمط تفكيره الخاص، وطريقته الخاصة في الشعور. ولن يتخيل الإنسان الحكيم، والصادق، والعقلاني لنفسه أبداً أنَّ الله يمكن أن يكون ظالماً وقاسٍ.

ولكن بما أنَّ الخوف تصدَّرَ بالضرورة تكوين تلك الآلهة التي ألفها الإنسان بهدف عبادتها، كانت أفكار الإله مرتبطة دائماً بأفكار مرعبة، وغالباً ما يخيفه تذكر الآلام التي ينسبها إلى الله، وكثيراً ما توقظ في عقله الذكريات الأكثر كآبةً، ويحدوه القلق أحيانًا، ويتقد خياله في بعض الاحيان، وينتابه الهلع تارةً أخرى. وتثبتُ خبرة العصور كلها، أنَّ هذا الاسم الغامض أصبح الأهم لجميع الدراسات، وكانت القضية التي شغلت البشر بجدية: أنَّه بثَّ الرعب في كلّ مكان، وأحدث أفظع الويلات بفعل الخمرة اللذيذة الناجمة عن الآراء التي أسكرت العقل. وبالفعل، من الصعب للغاية منع الخوف المعتاد، وهو من الأكثر إزعاجًا من بين كل المشاعر البشرية، من أن يصبح خميرة مضرة، وستؤول إلى الفساد على المدى الطويل، وتثير السخط وتلحق ضرراً بالمزاج الأكثر اعتدالاً.

ولو صممَ المبغض، والكاره لأبناء جنسه، خطةً لإيقاع الإنسان في أكبر حيرة، ولو سعى الطاغية إلى أنجع الوسائل لاتمام رغبته الجامحة في العقاب، لتمكن أحدهما، أو الآخر من تخيل ما يمكن اعتباره حسناً لإرضاء انتقامهما، وعلى هذا النحو شغل خياله باستمرار بكائنٍ ليس مجهولاً له فحسب، بل لا يمكن معرفته أبداً، ولا مقاومته، وعلى الرغم من ذلك

ما الذي يجبرهما على التفكير به كمحورٍ لكلّ أفكارهما، ونموذجًا وحيدًا لسلوكهما، ونهايةً لجميع أفعالهما، وموضوعًا لكلّ أبحاثهما، وأهم ما لديهم من الحياة ذاتها، ومن الضروري أن تعتمد عليه كلّ سعادتهم الحالية، وكلّ سعادتهم المستقبلية؟ وإذا كان الإنسان خاضعاً إلى ملكٍ، وسلطان مطلق، ويجب أن يبقى معزولاً عن رعاياه الذين لم يتبعوا أيّ قاعدة سوى رغباته، ولم يربطوه بأيّ واجب، ومن يُعاقبون إلى الأبد على ما ارتكبوه من آثام بحقه، وكان من السهل إثاره سخطه، وأغاضته أفكار رعاياه وهواجسهم، والذين قد يسيئون له دون علمهم؛ فسيفي اسم هذا الملك بالتأكيد بتحمّل المتاعب، ونشر الرعب، والذعر في نفوس من يسمعوا التلفظ به، وسوف تطاردهم فكرته في كلّ مكان، وستلحق بهم البلاء وتغرقهم في يأسٍ لا ينتهي. يا له من عذابٍ تكابده عقولهم في الكشف عن هذا الكائن العظيم، ليتأكدوا من سر إرضائه! وأيّ جهدٍ لم يبذله خيالهم لكشف نمطٍ من السلوك القادر على امتصاص غضبه! وأيّ مخاوف ستنتابهم، لئلا يصطدموا بحقّ بوسائل تهدئة غضبه! وأيّ خلافات لن يدخلوا فيها بالطبع، صفات الحاكم، التي يجهلونها جميعاً بالقدر ذاته! ويا لها من مجموعة متنوعة من الوسائل التي لم تتخذ لإيجاد حظوة لديه؛ وتفادي عقابه!

هذا هو تاريخ الآثار التي أحدثها اسم الله على الأرض. ولطالما شعر الإنسان بالذعر منها؛ لأنّه لم يكن قادراً على تكوين رأيٍ صحيح، وأيّ أفكار ثابتة عن الموضوع، ولأنّ كلّ شيء تضافر لمنح أفكاره منعطفاً خاطئاً، أو إبقاء عقله في جهلٍ مطبق، عندما كان يرغب بتصويب نفسه، وكان مواظباً على فحص المسار الذي سلكه لتحقيق سعادته، وكان يرغب في استقصاء الآراء المؤيدة لسلامه، والمنطوية على سر عميق للغاية، ويجمعه بين آماله ومخاوفه، كان محروماً من استخدام المنهج الصحيح الوحيد، وأسترشد عقله بخبرته، وكان متأكدًا أنّ هذا سيكون جريمة لا تُغتفر. وإذا سأل: لماذا مُنح له عقله؛ إن لم يكن لاستخدامه في الأمور ذات الوصايا السامية؟ كانت إجابته، أنّها أسرار لا يمكن إبلاغ أيّ منها إلا لمنْ اطلع عليها، ويكفي له معرفة أنّ عقله الذي استحق بموجبه الثواب، وحظى بتقديرٍ كبير، كان أخطر عدو له، وألد أعداءه وأكثرهم حزماً. وطُلب منه أن يؤمن بالله، ولا يشكّك في رسالة الكهنة، وبعبارة أخرى، لا علاقة له بالقوانين التي فرضها سوى طاعتها. وحينما افترض أن تكون هذه القوانين مفهومة له على الأقل، وضِعتْ فيه القدرة على فهمها، وتكررت الإجابة القديمة: أنّها عبارة عن ألغازٍ، ويجب ألا يستفسر عنها. وهكذا لم يعد لديه شيءٌ راسخ، ولا شيء دائم يسير على هديه، وتُرك بمفرده في الشوارع كالأعمى، مما

اضطره لتلمّس طريقه المحفوف بالمخاطر. وسيفيد هذا في إظهار الضرورة الملحة لوجود حقيقة تلقي ببريقها المتوهج على أنظمةٍ كبيرة ذات أهمية كبيرة، وتؤخذ بالحسبان لتعزيز العداوات، وتأكيد مرارة النفس، بين أولئك الذين اقتضت طبيعتهم أن يتصرفوا كأخوة دائماً.

وظلّ الجنس البشري بفضل التمائم السحرية التي أحاطت بهذا الإله، كما لو كان في حال من التخدير واللامبالاة التافهة، أو أصبح محتدّاً من التعصب؛ إذ يتلوى الإنسان في بعض الأحيان بفعل القنوط كعبدٍ تحت سوط سيدٍ لا يرحم، ومستعداً دائمًا لضربه، ويرتعشُ تحت نيرٍ يفوق قدرته، وعاش في فزعٍ دائم من انتقامٍ كان يسعى بلا توقف لإخماده، ودون أن يعرف أبداً متى يفلح في ذلك، كما كان دائماً بكاءً، يحفه البؤس باستمرار، ولم يُسمح له أبداً أن يغض الطرف عن مخاوفه، وكان يعظه باستمرار بتنمية ذعره، ولم يتمكن من العمل لتحقيق سعادته الخاصة، أو المساهمة في إسعاد الآخرين، وما من شيءٍ يثير بهجته. فأصبح عدواً لنفسه، ومضطهِداً لأبناء جنسه؛ لأنَّ سعادته الدنيوية حُجبتْ عنه، وقضى وقته في تنهيدات أكثر مرارة، وحرمه عقله منها، وأصابته حالٌ من القصور أو الهذيان، جعلته خاضعاً للسلطة، وكان مأهباً لهذه العبودية من اللحظة التي ولِدَ فيها، حتى عاد إلى أصله في التراب، وقيده الرأي الاستبدادي بسرعة في قيوده الساحقة، وكان فريسةً للدور الذي أُلهِمَ به، ويبدو أنَّه جاء إلى الأرض لا لغرضٍ آخر سوى الحلم، لا تحدوه سوى الرغبة بالتأوه، وليست لديه دوافع أخرى سوى التنهد. وبدا أنَّ رأيه الوحيد هو إيذاء نفسه، وحرمانها من كلّ لذةٍ عقلية، والقضاء على وجوده، وتعكير صفو الآخرين. وهكذا، أصبح دنيئاً، وخملاً، وغريب الأطوار، وكثيراً ما يحدوه الشر، باسم فكرة تكريم إلهه؛ لأنَّهم غرسوا في ذهنه أنَّ من واجبه الانتقام لقضيته، وصون كرامته، ونشر عبادته.

وكان البشر يسجدون من عرقٍ إلى آخر، أمام الأصنام الباطلة× التي ولدها الخوف في حضن الجهل، وفي محنِ الأرض؛ عبدوا مرتعدين أوهاماً وضِعت بسذاجة في تجاويف أدمغتهم، وحين وجدوا ملاذاً لم يسعفهم الوقت سوى إلى تقويتها، ولم يكن بمقدور أيّ شيء أن يحررهم منها، أو يبعث فيهم الشعور بها؛ فعبدوها بأنفسهم، وركعوا أمام ما صنعوه بأيديهم، لدرجة أنَّهم خافوا من الصور المتطرفة التي جسدوها بأنفسهم؛ فتمادوا في السجود بأنفسهم في حيرةٍ، ورهبة، لدرجة أنَّهم يرتكبون إثماً إن حاولوا تبديد مخاوفهم. وأخطأوا في صنع حماقتهم، وجعلوا سلوكهم أشبه بسلوك الأطفال، وشوهوا ملامحهم، وأصبحوا خائفين

من أن تعكس المرآة ما ارتكبوه من تطرّف. ولهذه المفاهيم المؤلمة لهم، والموجعة جداً لغيرهم، باعًا من حيث فكرتها المأساوية عن الإله؛ وسوف تستمر، وربما تزداد، حتى يستنير عقلهم بالعقل المنبوذ، ويشعّ بالحقيقة، ولن يُعلق أهمية أكثر على هذه الكلمة غير المفهومة، حتى يحطم الإنسان قيود الخرافة، ويتبنّى رؤيةً عقلانية لما يحيط به، ولن يرفض بعد ذلك التفكير في الطبيعة في ظلّ طابعها الحقيقي، ولن يستمر في رفض الاعتراف بأنّها تحتوي في داخلها على علّةٍ لتلك الظواهر العجيبة التي تجذب أنظار الإنسان، حتى يقتنع تماماً بضعف ادعاءاتهم بتكريم البشرية، ويبذل جهداً في الآن ذاته، لقلب مذابح الإله وكهنته.

الفصل الثاني

البحث في البراهين على وجود الله كما قدمها كلارك

البحث في البراهين على وجود الله كما قدمها كلارك

يُنظر عمومًا إلى إجماع الناس على معرفة الله على أنَّه أقوى دليل على وجوده. ويُقال: إنَّه ما من شعبٍ على الأرض لا يمتلك بعض الأفكار عن الفاعل القادر؛ الذي يهيمن على العالم، سواء كانت صحيحة أو خاطئة. واضطر أكثر البرابرة ضراوةً، وكذلك الأمم الأكثر ثقافة على حدٍ سواء إلى الرجوع ذهنيًا إلى العلة الأولى لكلّ ما هو موجود؛ ومن ثم التأكيد على أنَّ صرخة الطبيعة بحدّ ذاتها يجب أن تقنعنا بوجود الإله، الذي بذلت تلك الأمم جهودًا لترسخ فكرته في أذهان البشر؛ لذلك يخلصون إلى أنَّ فكرة الله فطرية. ولكن إذا لم يُبنى هذا الوجود على أسس أفضل من اجماع الناس على هذا الموضوع، فهو غير مبني على صخرة صلبة كما قد يتخيلها أولئك الذين يؤكدون حقيقة أنَّ الناس لا يتفقون بالعموم على هذه النقطة. وإذا كان هذا حالهم، فلن يكون للخرافة وجود، ولا يمكن أن تكون فكرة الله فطرية؛ لأنَّ حقيقة واحدة بسيطة ستحسم هذا الرأي إلى الأبد، بغض النظر عن البراهين المقدمة من كلّ صوب على استحالة الأفكار الفطرية تقريبًا، إلا عند أولئك؛ الذين تمادوا بعدم الاقتناع حتى بحججهم الخاصة، وإذا كانت هذه الفكرة فطرية، فيجب أن تكون متشابهة في كلّ مكان، ونظراً لما سبق وجود الإنسان، لا يمكنه اختبار التغيرات في وجوده. حتى إن تنازلوا عن الفكرة، فيجب توقعها ذاتها عند البشرية جمعاء، وإنْ لم يكن لكلّ أمة أفكارها ذاتها عن هذا الموضوع، فإنَّ الخبرة لن تبرر التأكيد؛ لأنَّه لا يوجد شيء يمكن إثباته أفضل من أنَّ الفكرة لا تتشابه حتى في المدينة ذاتها؛ ولن يكن من الممكن تجاوز هذه الخاصية في فكرة فطرية. وليس من الطبيعي، عند بذل مجهود لإثبات الكثير، أن يضعف ما ترسخ قبل المحاولة؛ وبالتالي، كثيراً ما يتضرر المدافع السيئ عندما يقدم سببًا وجيهًا، على الرغم من عدم قدرته على نقض الحقائق التي يستند إليها. ولذلك، ربما يقترب من الهدف إذا جاز القول: إنَّ الفضول الطبيعي للبشرية قد دفعه في جميع العصور، ولدى جميع الأمم إلى البحث عن السبب الرئيسي للظواهر التي يراها، والتي ترجع إلى التنوع في مناخه، واختلاف منظومته،

وكلما عانى الإنسان من كارثة كبرت أم صغرت، واختلفت ملكاته الفكرية، والظروف التي يعيشها، كانت لديه مفاهيم أكثر تعارضاً وتناقضاً عن هذا الإله.

وإذا ابتعدنا عن التحيز، وحللنا هذا الدليل، فسنرى أنَّ القبول الكلي للإنسان، والسائد للغاية على الأرض، لا يثبت في الواقع سوى أنَّه تعرّض في جميع البلدان لثورات مروعة، وعانى من الكوارث، وشعر بالمآسي التي أخطأ بشأن أسبابها المادية، وأنَّ ما أثار استغرابه أو خوفه هو تلك الأحداث التي كان ضحية لها أو شاهداً عليها، وأنَّه بسبب افتقاره للإلمام بقوى الطبيعة، أو عدم الالتزام بقوانينها، أو عدم الاكتفاء بمواردها اللانهائية، أو عدم معرفة التأثيرات الناجمة عنها بالضرورة في ظل ظروف معينة، صدّق أنَّ هذه الظواهرة تعود إلى فاعلٍ خفي لديه أفكار غامضة عن كائنات افترض أنَّها تتصرف على شاكلته، ومدفوعة بدوافع مشابهة له.

وبذلك فإنَّ قبول الإنسان الاعتراف بالإله، لا يثبت سوى أنَّه أعجب في خضم جهله بظواهر الطبيعة أو أصابه الذعر من تأثيرها، وأربك مخيلته بما رآه أو عانى منه، وسعى عبثاً إلى التخفيف من حيرته بشأن العلة المجهولة للظواهرة التي شهدها، وأجبرته على الارتعاد رعباً، وأعاد خيال الجنس البشري صقلها بشكلٍ مختلف بناءً على هذه العلل، التي كانت دائماً غير مفهومة تقريباً بالنسبة له، وعلى الرغم من اعتراف كلّ شيء بجهله، وعجزه عن تحديد هذه القضية، إلا أنَّه أعرب عندما ضاقت به الحال عن إطمئنانه لوجودها، وتحدث عن الروح، (كلمة كان من المستحيل إرفاق أيّ فكرة محددة بها)، التي لم تعلمه شيئاً سوى الكسل؛ الذي لم يبرهن إلا على غباء أولئك الذين نطقوا بها.

ومع ذلك، لا ينبغي أنْ نتفاجئ من أنَّ الإنسان عاجزاً عن تكوين أيّ أفكار جوهرية، باستثناء تلك الأمور التي تكونها حواسه أو تكونت بناءً عليها، ومن الواضح جداً أنَّ الأشياء الوحيدة المؤهلة للتأثير على أعضائه تكون مادية، ولا شيء سوى الكائنات المادية يمكن أن تمنحه أفكاراً، والحقيقة التي أوضحناها بما فيه الكفاية في بداية هذا الكتاب، لا تحتاج إلى أيّ دليل إضافي. لذلك يكفي بنا القول: إنَّ فكرة الله ليست فطرية بل مكتسبة؛ وأنَّ طبيعة هذه الفكرة تتنوع بحد ذاتها من عصر إلى آخر، وتختلف من بلد إلى آخر، ويختلف ظهورها بحسب الأفراد. ماذا أقول إذن؟ تكاد الفكرة أن تكون ثابتة بالفعل في المادة ذاتها. ويتسم هذا التنوع، والتقلب، والتغيير، بالطابع الحقيقي للرأي المكتسب. كما أنَّ أقوى دليل يمكن استنباطه من ناحية أخرى على أنَّ هذه الأفكار تكوّنت عن طريق الخطأ، هو أنَّ الإنسان

توصل تدريجيًا إلى إتقان جميع العلوم القائمة على أمورٍ معروفة من أساسها، في حين لم يتقدم علم الربوبية لديه، وكان متشابه تقريباً في كلّ مكان، ويبدو أنَّ البشر مترددين على قدم المساواة بشأنِ هذا الموضوع، حتى أولئك الذين انشغلوا به أكثر من غيرهم، لم يتأثروا به إلا قليلًا، ويبدو أنَّهم جعلوا الأفكار البدائية التي شكلها الإنسان لنفسه في هذا الصدد أكثر غموضاً بالفعل.

وحالما يُسأل الإنسان عن ماهية الإله الذي يسجد أمامه، تتشعب مشاعره. ولكي يوفق بين آرائه، يُفترض لأفكاره الموحدة، وأحاسيسه المتشابهة، وتصوراته غير المتباينة، أن تخلق في كلّ مكان مفاهيمه عن هذا الموضوع، ولكن هذا يقتضي أن تكون الأعضاء متشابهة بالكامل، وعدلتها الأحاسيس المرتبطة بها تماماً، وهذا ما لا يمكن أن يحدث؛ لأنَّ الإنسان الذي يختلف اختلافاً جوهرياً بمزاجه، ويوجد في ظل ظروفٍ مختلفة تماماً، يجب بالضرورة أن يكون لديه تنوع كبير في الأفكار المتعلقة بالأشياء التي يفكر فيها كلّ فرد على نحوٍ مختلف. ومن المتفق عليه عموماً أنَّ كلّ شخص أحدث لنفسه إلهاً على شاكلته، وخشيه، وعبده، حسب طريقته الخاصة. وهكذا فإنَّ إله إنسان أو أمة معينة ليس هو ذاته إله إنسان آخر أو إله أمة أخرى. فإله الشعب البربري الجاهل عبارة عن إله مادي لم يتيسر له سوى النذر اليسير من العقل، ويبدو تافهًا للغاية في نظر مجتمع أكثر ثقافةً، وشغل ذهنه إلى حدٍ كبير في هذا الصدد. ولكن الإله الروحي الذي يستهزأ عبيده من عبادة البربري لشيءٍ مادي فظ، ما هو سوى نتيجة بارعة لعقل مفكرين تشدقوا في كنف المجتمع المثقف في أوقات فراغهم، وشغلوا أنفسهم بهذا الموضوع لفترةٍ طويلة. وعلى الرغم من أنَّ الإله اللاهوتي المبهم هو المسعى الأخير للخيال البشري، إلا أنَّه بالنسبة لإله البربري، ما يسكن مدينة سيباريس، حيث اللجنس اللطيف والرفاهية، وحيث وصل البذخ، والترف إلى ذروته، ويرتدون عادةً الحرير الأرجوانيِ المطرز بشكلٍ غريب، وكان الرجل عارٍ تماماً، أو يغطي جسده جلد وحش ربما قتله حديثاً. وفي المجتمعات المتحضرة وحدها يمنح وقت الفراغ فرصةً للحالم الذي يمكّنه من التفكير بسهولة، وفي هذه الجماعات يتأمل المتأملون التافهون، ويتنازعون، ويصيغون الماورائيات، في حين تكاد ملكة التفكير تكون عقيمة عند البربري الذي ينشغل بصيد البر أو البحر، أو بوسائل الحصول على عيشٍ محفوفٍ بالمخاطر بفضل العمل المتواصل تقريبًا. إنَّ البشر عموماً، ونحن من بينهم، ليس لديهم مفاهيم سامية عن الإله، ولم يحللوه أكثر من البربري. ولا يشغل الإله الروحي وغير المادي سوى نذرًا يسيرًا من وقت فراغ بعض

البشر البارعين الذين لم تتح لهم فرصة العمل من أجل لقمة عيشهم. على الرغم من أنَّ اللاهوت علمًا نعتزُّ به كثيراً، وذو أهمية كبيرة بالنسبة لمصالح الإنسان، إلا أنَّه لا ينفع سوى أولئك الذين يعيشون على حساب الآخرين، أو من أوكلوا لأنفسهم ميزة التفكير نيابة عن جميع أولئك الذين يكدحون، إذ يصبح هذا العلم العقيم في بعض المجتمعات المثقفة؛ التي لا يمكننا اعتبارها أكثر تنويراً على هذا الأساس، فرعاً من التجارة المفيد للغاية لمن يلقنونه، ولكنه غير مربح أيضاً للمواطنين، ولاسيما عندما يمتلك هؤلاء الحماقة لاتخاذ قرار مهم للغاية بشأن آرائهم المبهمة.

يا لا الهوة الشاسعة بين حجرٍ غير محدد الملامح، وحيوان، ونجم، وتمثال، وذلك الإله المجرد الذي وسمه اللاهوت بصفاتٍ غابت عنه هو ذاته! ولاشكّ أنَّ البربري يخدع نفسه في الشيء الذي يوجه نذوره إليه؛ كطفلٍ يغرم بأول شيءٍ تقع عينه عليه — ويطبقها عليه بطريقةٍ مفعمةٍ بالحيوية، وكما هو حال الرضيع الذي يهرع من كلّ ما يتصور أن يلحق به ضرر أو خزي؛ فلا تزال أفكاره ثابتة بشأن كائن خفي، وشيء يمكنه فحصه بحواسه. ولا يرى اللابي الذي يعبد الصخرة، والزنجي الذي يسجد أمام أفعى ضخمة، سوى الأشياء التي يعبدانها. ويركع عابد الوثن أمام تمثال، يعتقد أنَّ فيه بعض الفضائل الكامنة، ونوعاً من القوة التي قد يحكم عليها بالنفع أو الضرر له، ولكن هذا المفكر الحذق الذي يُدعى اللاهوتي، ويعتقد نتيجة علمه المبهم أنَّ له الحق في أن يستهزأ من البربري، ويسخر من اللابي، ويتهكم من الزنجي، ويزدري المعبود، ولا يدرك أنَّه يسجد بذلك أمام كائنٍ من وحي خياله، ويستحيل عليه أن يكوّن لنفسه أيّ فكرةٍ صحيحة عنه، ما لم يرجع كما البربري، إلى الطبيعة المرئية لكي يميزه بصفاتٍ تمكّنه من استيعابه له.

وبالتالي، لم تكن المفاهيم المتعلقة بالإله، والتي تحوز على ثقةٍ حتى في يومنا هذا، سوى خطأ عام، اكتسبه بتنوعٍ، وتحول بشكلٍ مختلف في ذهن أممٍ لا تميل إلى إثبات أيّ شيءٍ سوى ما تلقته من أسلافها الجاهلين المرتعدين. وعدّل المفكرون، والمشرعون، والكهنة هذه الآلهة، وزينوها وهذبوها على التوالي، وتأملوا فيها بعمقٍ، ووصفوا أنظمة العبادة بالجهل، وأدخلوهم في شرك ذنوبهم، واستفادوا من تحيزاتهم القائمة لإخضاعهم لنيرهم، وهيمنوا على عقولهم بفضل استغلالهم لسذاجتهم، وأثّروا في مخاوفهم؛ وبفضل العمل على هذه المخاوف ستكون هذه التصرفات دائماً نتيجةً ضرورية لجهل الإنسان الغارق في أحزان قلبه.

وإذا صحَ ما أكدناه، وأنَّ الأرض لم تشهد أبداً أيّ أمة غير قابلة للانتماء، ومتوحشة للغاية، ولم تعبد إلهً قط، وخالية من أيّ شكلٍ من أشكال العبادة الدينية، ولن ينتج عنها سوى القليل من احترامها لواقعها، فسنجد أنَّ لفظة الله قلما تشير إلى علّةٍ مجهولة لا غير لتلك المعلولات التي أعجب بها الإنسان، أو أصابه الذعر منها. وبالتالي، لن تثبت هذه الفكرة السائدة عموماً، والتي كثيراً ما لفتت الانتباه، سوى أنَّ الإنسان كان يجهل في كلّ العصور العلل الطبيعية، ولم يكن مؤهلاً إلى أن يفسر بناءً على علة أو أخرى، تلك الظواهر التي أذهلته أو أثارت مخاوفه. وإذا لم نعثر في الوقت الحاضر على أناسٍ يفتقرون للعبادة، ومتحررين تمامًا من الخرافة، ولا يعترفون بإله، ولم يتبنوا اللاهوت بشكلٍ أو بآخر، فذلك بسبب ما عاناه أسلاف هؤلاء الجهلة من نقمٍ جمّة، ومن آثارها المخيفة التي أثارت رعبهم، ونسبوها إلى عللٍ مجهولة، ونسبوا ما رأوه من مشاهد غريبة إلى قوى جبارة، لم يتمكنوا من سبر أغوار وجودها وتفاصيلها، إضافة إلى ما نقلوه من آراءٍ محيرة إلى ذريتهم التي لم يولوها أيّ نوعٍ من الدراسة.

إلى جانب أنَّ كلانية الرأي لا تثبت بأيّ حال من الأحوال صحته، ألا نرى أنَّ عدداً كبيراً من التحيزات الجاهلة، وكماً هائلاً من الأخطاء البربرية لا زالت تحظى بالقبول الكلي تقريبًا للجنس البشري حتى يومنا هذا؟ ألم تتشرب أذهان جميع سكان الأرض بفكرة السحر، وعادة الاعتراف بالقوى الخفية الممنوحة للعرافة، والمؤمنون بعالم الجن، وعبدة النذور، وأنصار الشعوذة والمقتنعين تماماً بوجود الأشباح؟ وإنْ تحرر بعض ممن هم أكثر ثقافة من هذه الحماقات، لكنها قد تجد أنصاراً متعصبين للغاية عند أكبر عدد ممنْ يعترفون بها بثقةٍ تامة. ومع ذلك لن يستنتج ذو الحس السليم، أنَّ هذه الكائنات الخرافية موجودة بالفعل، على الرغم من أنَّها تحوز على قبول عددٍ كبير منهم. فالجميع اعتقد قبل **كوبرنيكوس** بأنَّ الأرض ثابتة، وأنَّ الشمس تدور سنوياً حولها، ولكن ألم يكن هذا الاجماع الكلي للإنسان، والذي دامَ لآلاف السنين، خطأً في هذا التفسير؟[١]

---

(١) ومع ذلك يشكُّ في حقيقة مثل هذا الرأي السائد عومًا، وهو رأي لقي حفاوة لدى العديد من البشر المثقفين الذين ارتدوا البزات المقدسة لعهودٍ ساذجة عدة، وتبناه موسى، واعترف به سليمان، وأقرّ به المجوس الفرس، ولم يدحضه إيليا، وحاز على مرسوم من جامعات مرموقة، ومن المشرعين الأكثر تنويراً، ومن أحكم الملوك، ومن الوزراء الأكثر فصاحة، وبعبارة أخرى، يمكن أن نستمد المبدأ الذي يحوز على كلّ ثبات من الإجماع الكلي للطبقات كلّها، وإذا شككت في ذلك، فسيُعتبر في فترة ما أعلى شأناً، ويعتبر انتهاكه تدنيسًا

إنَّ لكلّ إنسان إلهه، ولكن هل كلّ هذه الآلهة موجودة؟ ورداً على ذلك سيُقال أنَّ كلّ إنسان لديه أفكاره عن الشمس، ولكن هل كلّ هذه الشموس موجودة؟ ومهما ضاق النفقُ الذي تخيلت من خلاله الخرافة أنَّها تصون فرضياتها المفضلة، فربما ليس هناك أسهل من الإجابة: إنَّ وجود الشمس حقيقة نتحقق منها من خلال استخدامنا اليومي للحواس، وكلّ العالَم يرى الشمس، والله لم يره أحد قط، وقد اعترف كلّ البشر تقريباً بأنَّ الشمسَ مبعثُ الضوء، والدفئ على حدٍ سواء؛ فمهما تفاوتت آراء الإنسان عن هذا الجرم السماوي، إلا أنَّه لم يدّعي أحد حتى الآن بوجود أكثر من شمسٍ مرتبطة بنظامنا الفلكي، أو قالوا: إنَّ الشمس ليست مبعث الضوء، والدفئ. ولكن الكثير من البشر العقلاء قالوا: لا يوجد إله. ألم يخبرونا في الوقت ذاته أولئك الذين يعتقدون أنَّ هذا الافتراض شنيع، وغير عقلاني، ويؤكدون أنَّ الله موجود، أنَّهم لم يروه، ولم يعرفوا شيئاً عنه؟ إنَّ اللاهوت علم، مبني فيه كلّ شيء على قوانين انبثقت عن تلك الشائعة في العالم الذي نعيش فيه.

ولذلك إذا امتلك الإنسان الشجاعة للتخلي عن تحيزاته التي تضافر كلّ شيء على جعلها صامدة مثله، ولو أبعد عنه الخوف لبحث بترو، ولو استرشد بالعقل لنظر بحيادية إلى طبيعة الأشياء، والأدلة المقدمة لدعم أيّ عقيدة معينة، ولكان مضطراً على الأقل إلى الاعتراف بأنَّ فكرة الإله ليست فطرية، وغير سابقة على وجوده، وأنَّها نجمت مع الزمن، ومكتسبة بفعل التواصل بين أبناء جنسه،[1] وبالتالي، كان هناك حينٌ لم تكن فيه موجودة بالفعل، ولشاهد بوضوحٍ أنَّ العُرف هو من جعله يحتفظ بها من آبائه، وأنَّ هؤلاء أنفسهم تلقوها من أسلافهم، وهكذا إن اقتفى أثرها، فسيجد أنَّها مستمدة في نهاية المطاف من

للمحرمات، باعتبارها من أكثر أنواع الشكوك حدةً، وكجحود الحادي من شأنه أن يهدد بذاته وجود ذلك البلد التعيس الذي نشأ من أحضانه التعيسة كحال هذا الفاني الحقود والمدنّس. وما كان سائداً عن رأي غاليليو فيما يتعلق بإثبات وجود الأضداد كان معروفاً للغاية، حيث حرم البابا غريغوريوس كنسياً كلّ من أدانَ له بالفضل، باعتبارهم ملحدين.

(١) عندما يكون البشر على أهبة الاستعداد تماماً للبحث في فكرة إثبات وجود الله المستمدة من القبول العام، فسيكونوا على دراية بأنَّه لا يمكنهم أن يجنوا شيئاً منها، غير أنَّ جميع البشر ظنوا أنَّ وجود قوى محركة مجهولة في الطبيعة، وعلل غير معروفة، حقيقة لا تطال الشك أبداً؛ نظراً إلى أنَّه من المستحيل افتراض معلولات من دون علل. وهكذا فإنَّ الاختلاف الوحيد بين الملحدين واللاهوتيين أو من يعبدون الله، هو أنَّ الملحدين ينسبون لجميع الظواهر المادية، والطبيعية، والمحسوسة عللاً معروفة، في حين يحدد لها اللاهوتيون عللاً روحية وخارقة للطبيعة ومبهمة وغير معروفة. ولكن أليس إله اللاهوتيين في الواقع شيء آخر غير القوة الخفية؟

بربريين جهلة، ومن كانوا آباؤنا الأوائل. وسيُظهر تاريخ العالم أنَّ المشرعين البارعين، والطغاة الطموحين، والغزاة المضرجين بالدماء، قد استغلوا جهل أسلافه ومخاوفهم، وسذاجتهم، لجني فكرتهم النافعة التي نادراً ما يربطونها بأيّ معنى أساسي آخر، ما عدا إخضاعهم لنير هيمنتهم.

كان هناك من دون شك أخلاقيون تفاخروا برؤية الإله. لكن الإنسان الأول الذي تجرأ على قول هذا كان كاذباً، وكان هدفه الاستفادة من سذاجة بعضهم، أو المتعصبين الذين أعلنوا عن الحقائق، والانتقام المجنون لخياله المزعج؟ ومع ذلك، ألا يصح القول: إنَّ مذاهب البشر البارعين التي تمثل في زماننا عقيدة الملايين، نُقلت لهم من أسلافهم، وأنَّهم قدّسوها بمرور الوقت، وقرأوها لهم في معابدهم، وأقاموا لها شعائر العبادة الدينية كلّها؟ ولن يُعامل بالفعل هذا الإنسان ألطف معاملة حقاً من المسيحي المحتد الذي تجرأ على مجادلته في وجهه بشأن البعثة الإلهية ليسوعه. وهكذا، نقل أسلاف الأوروبيين إلى ذريتهم أفكارًا عن الإله تلقوها بوضوحٍ ممَّنْ خدعوهم؛ وتعدلت فرضياتهم من عصرٍ إلى عصر، واستغلها الكهنة المتسربلين بالرهبة التبجيلية المستوحاة من الخوف، واكتسبت تدريجيًا تلك الصلابة، ونالتْ تأييداً، وحققتْ ذلك الاستقرار المخضرم الذي يمثّل نتيجةً طبيعية للجزاء السياسي المدعوم باستعراضٍ لاهوتي.

وربما تكون لفظة الله من الكلمات الأولى التي تطرب أذن الإنسان، وهي تتكرر له باستمرار. ويتعلم أن يتلعثم بها بتبجيل؛ ويسمعها بخشية، ويركع عندما يتردد صداها، وبحكم تكرار خرافات العصور القديمة، والاستماع إليها، وانصات جميع الطبقات، والمعتقدات لها، يعتقد بجدية أنَّ جميع البشر خرجوا إلى العالم بصحبة هذه الفكرة. وبذلك يغرس في غريزته عادة آلية، ونظراً لعدم قدرته على تذكر الظروف الأولى التي أيقظت خياله بهذا الاسم، ولعدم تذكر كلّ الروايات التي قيلت له خلال طفولته، ولعدم تحديده بدقة لما غُرس في ذهنه من خلال تثقيفه. وبعبارة أخرى، لأنَّ ذاكرته لا تزوده بتسلسل العلل المحفورة في دماغه، يعتقد أنَّ هذه الفكرة متأصلة حقاً في كيانه؛ وفطرية عند كلّ جنسه.[1]

(١) لا يتمتع بامبليخوس الذي كان فيلسوفاً فيثاغورياً بسمعةٍ طيبة في العالم المثقف، على الرغم من أنَّ أحد هؤلاء الكهنة ذوي الرؤية الثاقبة يقدّره نوعاً ما مع اللاهوتيين، (إذا حكمنا جزافاً على الأقل من خلال للسودات

ومع ذلك، من المألوف بالعادة، أن يُعجب الإنسان بكائنٍ ويخشاه، ويعنيه اسمه منذ طفولته الأولى. وبمجرد أن يسمع نطقه، يربطه تلقائياً، ومن دون تفكير، بتلك الأفكار التي امتلأ خياله بها بفضل ترتيل الآخرين لها، وبتلك الأحاسيس التي تعلّم أن يُرفقها بها. وهكذا، كلما كان الإنسان صريحاً مع نفسه لفترة ما، أقرّ بأنَّ فكرة الإله، والصفات التي يسمه بها، انبثق أساسها منه، وأنَّها نجمت عن آراء آبائه التي غُرست فيه تقليدياً عن طريق التربية، ورسّختها العادة، وعزّزها القدوة، وفرضتها السلطة. ونادراً ما يصدف أن يدرس هذه الأفكار، ويتبنى معظمها بقليلٍ من الخبرة، وينشرها عن طريق التعليم، ويجعلها مقدسة بمرور الزمن، ولا ينتهك حرمة أسلافه، ويقدّر بأنَّها تشكل جزءاً من تلك المؤسسات التي تعلّم أن يقدرها كثيراً. ويعتقد أنَّه كان يمتلكها دائماً؛ لأنَّه امتلكها بفضل خياله، ولا يضعها موضع الشك؛ لأنَّه لا يُسمح له مطلقاً بالسؤال عنها، ولكونه لم يمتلك أبداً الجرأة على البحث في أساسها.

وإذا كان قد قُدر للأنبياء إبراهيم، أو سليمان (عليهم السلام) أن ينفثا أنفاسهما الأولى على شواطئ إفريقيا، لعبدا بالبساطة ذاتها، والقدر ذاته من الحماسة الأفعى التي يبجلها الزنوج، والأمر ذاته مع الإله الذي يبجله الماورائيون. ولاشتاط أحدهم غضباً بالقدر ذاته إذا ما جادله أيّ شخص على سبيل الفرض في ألوهية هذا الزاحف الذي كان يبجلوه منذ ولادته، باعتباره الناسك الأكثر غيرة وتعصباً، وكلما كانت معجزات نبيه العجيبة موضع تساؤل، أو بصفته اللاهوتي الأكثر براعة، يتحول البحث إلى الصفات المتناقضة التي وصف بها آلهته. ومع ذلك، إذا كان يجب النظر في أمر هذه الأفعى الإلهية للزنجي، فلا يمكنهم على الأقل التشكيك في وجودها. وقد يكون عقل هذا الابن الزنجي للطبيعة بسيطاً، ونادراً، كما هو حال الصفات التي وصف بها زاحفه، إلا أنَّ جميع الذين يفضّلون استخدام أعضائهم البصرية لا يزال بإمكانهم إثباته من خلالها. وليس الأمرُ كذلك بأيّ حال من الأحوال بالنسبة للإله غير المادي، أو غير الملموس، أو المغاير له. أو للإنسان المؤلّه الذي ألّفه مفكورنا المعاصرون بمهارة. وجعلوا وجوده بفضل الحالم، والمفكر، والبارع، مستحيلاً لمن يجرؤ على البحث فيه بتروٍ. وليس بمقدورنا أبداً أن نتصور لأنفسنا كائناً يتكون فقط من الصفات

غير المحدودة التي قدموها بناءً على مجموعة من عقائده) وكان بلا شك للفضل لدى الإمبراطور جوليان، إذ يقول: "ألهمتنا الطبيعة فكرة الآلهة قبل استخدامنا للعقل، ولدينا نوعاً من الشعور بالإله ونفضّل معرفته.

المجردة، والسلبية؛ أي الذي لا يمتلك أيٌّ من تلك الصفات التي يمكن للعقل البشري الحكم عليها. ولا يعرف علماء اللاهوت لدينا ما يعبدون، وليس لديهم فكرةٌ حقيقية واحدة عن الكينونة التي يشغلون ذهنهم بها دون توقف، ولو تجرأ الذين صرّحوا به على البحث في أمر وجوده، لتلاشت فكرة هذا الكائن منذ أمدٍ طويل.

وبالفعل وجدنا أنفسنا في البداية مأسورين، ولازال يشكل وجود هذا الكائن الأهم، والأكثر تبجيلاً، مشكلةً أيضاً بالنسبة لمن يتروى في الموازنة بين البراهين التي يقدمها اللاهوت عنه. وعلى الرغم من ضرورة التحقق من وجودِ هذا الكائن، قبل أيّ تفكيرٍ، أو جدلٍ حول طبيعته، وخصائصه، إلا أنَّ الإله بمنأى عن إثبات أيّ إنسان يرغب في استشارة فطرته السليمة. ولكن ماذا أقول؟ نادراً ما اتفق اللاهوتيون أنفسهم على البراهين التي أفادتهم في إثبات الوجود الإلهي. ورغم أنَّ العقل البشري انشغل بإلهه (ومتى لم ينشغل به؟) لكنه لم يثبت إلى الآن وجود هذا الأمر المهم، بطريقةٍ ترضي منْ هم أنفسهم قلقون من اقتناعنا به. وقد بحث موالون جدد للإله، وفلاسفة متعمقون، ولاهوتيون بارعون من عصرٍ إلى آخر، عن براهين جديدة على وجود الله؛ لأنَّهم كانوا راضين دون أدنى شكٍّ عن أسلافهم. وكثيراً ما اتُّهِمَ أولئك المفكرون الذين تملقوا بإثبات هذه المعظلة الكبرى، بالإلحاد، وخيانة العلّة الإلهية، وبضعف تلك الحجج التي دعموها.(١) وبالفعل هناك بشرٌ في غاية العبقرية فشلوا في إثباتاتهم، أو في حلولهم التي اقترحوها تباعاً، وقدموا باستمرار مائة أخرى؛ لاعتقادهم أنَّهم تغلبوا على الصعوبة. وليس الغرض أن يستنفد الميتافيزيقيين العظماء كلّ جهودهم لإثبات وجود الله، أو التوفيق بين صفاته غير المتوافقة أو الرد على أبسط الاعتراضات، ولم يحققوا النجاح بعد. فما واجههم من صعوبات كانت واضحة بما يكفي ليفهمها حتى الطفل الرضيع، بينما سيواجهون في الأمم الأكثر ثقافةً، صعوبةً في العثور على اثني عشر رجلاً قادراً على فهم إثباتات **ديكارت**، وليبنتز، و**صموئيل كلارك Clarke**، وحلولهم وردودهم، عند محاولتهم أن يثبتوا لنا وجود الإله. ولا داعي لأن نندهش على الإطلاق، فالبشر لا يفهمون أنفسهم أبداً عندما يتحدثون إلينا

(١) أتُهمَ اللاهوتيون ديكارت، وباسكال، والدكتور كلارك نفسه بالإلحاد في عصرهم. وهذا لم يمنع اللاهوتيين اللاحقين من الاستفادة من براهينهم، وعدّها صالحة تماماً. انظر إلى الفصل العاشر. ولم يمض وقتٌ طويل منذ أن نشر مؤلف مشهور اسمه الدكتور بومان، عملاً يقول فيه: إنَّ جميع البراهين على وجود الله التي عرضت حتى الآن جنونية وبلا جدوى، واستبدل بها براهينه، وأفحمها بقليل من الإقناع مثل الآخرين.

عن الله، فكيف يمكنهم إذن فهم بعضهم البعض، أو الاتفاق فيما بينهم، عندما يفكرون في طبيعة الكائن، وخصائصه التي كونتها تصوراتهم المختلفة، والتي يضطر أن يفهمها كلّ إنسان فهمًا مختلفًا، مع الأخذ بالحسبان أنَّ البشر سيكونوا دائماً متساوون من حيث الجهل، بسبب عدم وجود معيار عام يحكموا بموجبه عليه.

ولإقناع أنفسنا إلى حدٍ ما بصحة تلك البراهين التي قدموها لنا عن وجود الإله اللاهوتي، وعدم نفع تلك الجهود التي بذلوها للتوفيق بين صفاته المتناقضة، دعونا نسمع ما قاله الطبيب المعروف **كلارك**، الذي من المفترض أن يكون قد تحدث في أكثر الطرق إقناعاً عن محاولته المتعلقة بكينونة الله وصفاته.(١)

ولم يفعل الذين تبعوه حقاً أكثر من تكرار أفكاره، أو قدموا براهينه في أشكالٍ جديدة. وبعد الدراسة التي أجريناها، أصبح لدينا الجرأة للقول: إنَّ براهينه سوف تبدو غير حاسمة، وأنَّ مبادئه لا أساس لها من الصحة، وأنَّ حلوله المزعومة ليست مناسبة لحل أيّ شيء. وبعبارة أخرى، لن يروا في إله الدكتور **كلارك**، وكذلك إله اللاهوتيين العظماء، سوى الكائن الخرافي القائم على افتراضات غير مبررة، والمكوّن من تركيب مشوش من الصفات المتطرفة التي

(١) على الرغم من أنَّ العديد من الناس ينظرون إلى عمل الدكتور كلارك، باعتباره الأقوى والأكثر إقناعاً، فمن الجيد ملاحظة أنَّ العديد من اللاهوتيين في عصره، وبلده لم يحكموا عليه بالطريقة ذاتها بأيّ حال من الأحوال، ونظروا إلى براهينه على أنَّها غير كافية، وأنَّ منهجه يلحق الضرر بقضيته. وفي الواقع، ادعى الدكتور كلارك أنَّه أثبت وجود الله مسبقاً، وهذا ما يعتبره الآخرون مستحيلاً وينظروا إليه من باب أولى على أنَّه مصادرة على المطلوب. وقد رفض المدرسيين طريقة إثباته تلك، مثل ألبيرت الكبير، وتوما الأكويني، وجون سكوت، والقسم الأكبر من المعاصرين، باستثناء سواريز. وادعوا أنَّ وجود الله من المستحيل إثباته بشكلٍ مسبق، مع العلم أنَّه لا يوجد شيء سابق على العلل الأولى، لكن هذا الوجود لا يمكن إثباته إلا لاحقاً، أيّ من خلال معلولاته. ونتيجة لذلك، شن عدد كبير من اللاهوتيين هجوماً عنيفاً على كتاب الدكتور كلارك، واتهموه بالابتداع والتخلي عن قضيتهم، واستخدامه لمنهج غير معتاد ومرفوض، ولا يلائم إثبات أي شيء سوى القليل. وسوف يجد من يرغب في معرفة دواعي الهجوم على إثباتات كلارك، المزيد عنها في كتاب باللغة الإنجليزية لإدموند لو Edmund Law، بعنوان "بحث عن أفكار المكان، والزمان، والبعد، والخ"، طُبع في كامبريدج، ١٧٣٤. وإذا أثبت المؤلف فيه بنجاح، أنَّ الإثباتات المسبقة للدكتور كلارك خاطئة، فسيكون من السهل الإقتناع بكلّ ما يُقال في كتابنا، وأنَّ كلّ الإثباتات اللاحقة ليست أفضل من أسسها. ويثبت التقدير الكبير الذي يكنونه لكتاب كلارك في يومنا هذابالنسبة للبقية، أنَّ اللاهوتيين ليسوا متفقين فيما بينهم، وكثيراً ما يغيرون آراءهم، ولا ينظرون في الاثباتات التي يعطونها عن وجود كائن لا يوجد حتى الآن إثبات بأيّ حال من الأحوال على وجوده. ومع ذلك، فمن المؤكد أنَّ عمل كلارك، على الرغم من التناقضات التي عاشها، يتمتع بسمعةٍ أكبر.

تجعل وجوده مستحيلاً تماماً، وبعبارة أخرى، لن يجدوا في هذا الإله إلا شبحاً عديم الجدوى، استُبدل بقوة الطبيعة التي لطالما كانت مخطئة بشدة. وسوف نتّبع خطوة بخطوة الافتراضات المختلفة التي يطور فيها هذا اللاهوتي المثقف الآراء الواردة عن الألوهية. إذ يشرّع الدكتور كلارك بالقول:

الافتراض الأول، "شيء ما موجود منذ الأزل".

هذا الافتراض واضح، ولا يحتاج للأدلة، فالمادة موجودة منذ الأزل، وأشكالها وحدها زائلة، وهي المحرك العظيم الذي تستنبط منه الطبيعة كلّ ظواهرها، أو بالأحرى هي الطبيعة بحد ذاتها. ولدينا فكرة ما عن المادة كافية لتبرير النتيجة التي مفادها أنَّها كانت موجودة دائماً. وما هو موجود أولاً، يفترض وجوداً ملازماً لكينونته. وما لا يستطيع أن يفني نفسه موجوداً بالضرورة. ومن المستحيل أن نتصور أنَّ ما لا يمكن أن يكفّ عن الوجود، أو ما لا يمكن أن يفني نفسه، يمكن أن تكون له بداية. وإنْ لم تكن المادة فانية، فلا يمكن أن تكون لها بداية. وهكذا نقول للدكتور كلارك: تتصرف المادة بالطبع، بفضل قوة خاصة بها، ولا يوجد فيها أيّ جُسيم في حال سكون مطلق، وكانت موجودة دائماً. وتغير الأجسام المادية المختلفة الموجودة في هذه الطبيعة شكلها، وتركيبها، وخصائصها، وطريقة عملها، لكن مبادئها أو عناصرها لا تفنى ولم تكن لها بداية. وما يفهمه الدكتور في الواقع غير واضح تماماً عند تأكيده أنَّ "المدة الأزلية انقضت الآن بالفعل"، ومع ذلك يؤكد، أنَّ "عدم تصديق ذلك سيكون تناقضاً حقيقيًا، وصريحًا".

الافتراض الثاني: "كان هناك منذ الأزل كائناً واحداً غير قابل للتغيير ومستقل".

وقد نتساءل إلى حدٍ ما عن هذا الكائن؟ هل هو مستقل من حيث ماهيته الخاصة أم تلك الخصائص التي يتسم بها؟ ونتسائل أيضًا، إنْ كان بإمكان هذا الكائن أياً كان، أن يجعل الكائنات الأخرى التي يحدثها أو يحركها، تتصرف بطريقةٍ مختلفة عمّا هي عليه، وفقاً للخصائص التي منحها إياها؟ وينبغي أن نسأل في هذه الحال، عمّا إذا لم يكن هذا الكائن يعمل بالضرورة كما يُفترض أن يكون، وإذا لم يكن مضطراً لاستخدام وسائل لا غنى عنها لتحقيق مقاصده، للوصول إلى درجة رؤيتها، أو التي من المفترض رؤيتها فيها؟ ثم نقول: إنَّ الطبيعة ملزمة بالتصرف وفق ماهيتها، وكلّ ما يحدث فيها ضروري، وإذا افترضَ أنَّ الإله يتدبر أمرها، فلا يمكن لهذا الإله أن يتصرف بخلاف ما يفعله، وبالتالي يكون هو نفسه خاضعاً للضرورة.

ويُقال إنَّ الإنسان يتمتع بالاستقلال الذاتي، عندما لا يقرر أفعاله إلا بموجب العلل العامة التي اعتاد أن تحركه، ويُقال أيضاً أنَّه يعتمد على شخصٍ آخر، عندما لا يستطيع التصرف إلا نتيجة ما يقرره هذا الأخير. ويعتمد الجسد على جسدٍ آخر عندما يكون مديناً له بوجوده، وطريقة عمله. في حين لا يمكن أن يدين الكائن الموجود منذ الأزل بوجوده لأيّ كائنٍ آخر، ولا يمكن أن يعتمد عليه، ما لم يدين له بفعله، ولكن من الواضح أنَّ الكائن الأزلي أو الموجود بذاته يحتوي في طبيعته على كلّ ما هو ضروري لفعله، وبما أنَّ المادة أزلية، فهي بالضرورة مستقلة بالمعنى الذي أوضحناه؛ لا داعٍ بالطبع لاعتمادها على محرك.

هذا الكائن الأزلي غير قابل للتغيير أيضًا، إذا فُهم بهذه السمة أنَّه لا يستطيع تغيير طبيعته، ولكن إذا كان المقصود منها الاستدلال على أنَّه لا يستطيع تغيير نمط فعله أو وجوده، فهو بلا شك يخدعهم؛ لأنَّه حتى في افتراض وجود كائن غير مادي، سيضطر للاعتراف أنَّ لديه أنماط مختلفة من الوجود، وإرادات مختلفة، وطرق مختلفة للفعل، خاصة إذا لم يُفترض أن يكون محروماً تماماً من الفعل، وهي الحالة التي سيكون فيها عديم الفائدة تماماً. وطبعًا نستنتج من ذلك بالفعل أنَّه لتغيير أسلوب عمله، يجب أن تتغير بالضرورة طريقة وجوده. ومن هنا يتضح أنَّ اللاهوتيين بقولهم بثبات إلههم، يجعلونه غير قابل للحركة، وبالتالي لا يمكنه الفعل. ومن الواضح أنَّ الكائن غير القابل للتغيير لا يمكن أن تكون له إرادة متزامنة، ولا يحدث عملًا متزامنًا؛ فإذا خلق هذا الكائن المادة، أو أحدث العالم، فلا بدّ أنَّه كان هناك زمان أراد فيه إيجاد هذه المادة، وهذا العالم، ولابدّ أن هذا الزمان قد سبقه زمان آخر، أراد فيه ألا يكون موجوداً. وإذا كان الله واجداً لكلّ الأشياء، وكذلك الحركة، ومركبات المادة، فهو منهمكٌ باستمرار في الحدوث والفناء، ولا يمكن القول في النتيجة: إنَّه غير متغير فيما يتعلق بنمط وجوده. ويبقى العالم المادي هو ذاته دائمًا بفضل الحركة، والتغيير المستمر لأجزائه، والكائنات التي يتكون منها أو العناصر التي تتفاعل فيه؛ وبهذا المعنى، فإنَّ ثبات العالم مفهوم، وواضح، وأسهل بكثير من أيّ كائنٍ آخر ينسبون إليه كلّ ما يحدث من نتائج وطفرات. ولا يتهم اللاهوتيون الطبيعة بالاستقرار، بسبب تعاقب أشكالها، أكثر من اتهامهم للكائن الأزلي بتنوع مشيئته.[1]

(١) بافتراض أنَّ القوانين التي تسير الطبيعة لا تقبل التغيير، يمكننا أن ندرك هنا أنَّها لا تتطلب أياً من هذه الفروق للنطقية لتفسير ما يحدث من تغيرات، وعلى العكس من ذلك تكون الطفرة الناجمة دليلاً صارخاً على أنَّ النظام الذي يحدثها ثابتاً، ويضع الطبيعة تماماً في نطاق هذا الفرض الثاني كما ذكر الدكتور كلارك.

الافتراض الثالث: "هذا الكائن الذي يتمتع بعدم قابلية التغيير والاستقلال كان موجوداً منذ الأزل دون أيّ علّة أزلية لوجوده، ويجب أن يكون موجودًا بذاته، أي موجودًا بالضرورة".

وهذا الافتراض مجرد تكرار للأول، ونردُ عليه بطرح سؤال: لماذا لا يجب أن تكون المادة غير القابلة للفناء قائمة بذاتها؟ ومن الواضح أنَّ الكائن الذي ليس له بداية، يجب أن يكون قائماً بذاته، ولو كان قائماً بغيره، لكانت له بداية، وبالتالي لن يكون أزلياً. وأولئك الذين يجعلون المادة ملازمة من حيث الوجود للإله، لا يفعلون أكثر من مضاعفة الكائنات دون جدوى.

الافتراض الرابع: " ليس لدينا أيّ فكرةٍ عن جوهر أو ماهية ذلك الكائن القائم بذاته، أو الموجود بالضرورة، ولا يمكننا على الإطلاق فهمه".

لو قال الدكتور كلارك: إنَّ ماهيته مستحيلة، لتحدث بمصداقيةٍ أكثر، ومع ذلك، يجب أن نعترف بسهولة بأنَّ ماهية المادة مبهمة، أو نتصورها بشكلٍ طفيف على الأقل بطريقةٍ تؤثر فينا؛ بل يجب أن نعترف أيضًا بأنّنا أقل قدرةٍ بكثير على تصور الألوهية المحصنة من كلّ جانب. وبالتالي يجب أن نستنتج بالضرورة أنّه من الحماقة الجدال في أمرها؛ بما أنَّ معرفتنا بها قائمة على المادة، وهذا يعني أنَّه يمكننا من خلالها أن نؤكد لأنفسنا وجودها، ويمكننا من خلالها أن نخمن صفاته. وبعبارة أخرى، يجب أن نستنتج أنَّ كلّ ما يتعلق بالألوهية، يثبت أنَّه مادي أو يبرهن استحالة أن يتصور العقل البشري بحد ذاته دائمًا أيّ كائن مختلف عن المادة، ولا تحده حدود، وموجود في كلّ مكان، وغير مادي، رغم أنَّه يعمل على المادة، وروحي، رغم أنَّه يحدث المادة، وغير قابل للتغيير، رغم أنَّه يحرك كلّ شيء...الخ.

وذلك يتيح القول في الواقع: إنَّ غموض الإله لا يتميز عن المادة، ولن نفهمه بسهولة عندما نربطه بكائنٍ أقل قابلية للفهم منه، ومعرفتنا بهذا الأخير ضئيلة بفضلٍ بعض أجزائه. ولا نعرف بالتأكيد ماهية أيّ كائن، إذا أردنا بهذه الكلمة أن نفهم ما يشكّل طبيعته الخاصة. وكلنا لا نعرف المادة إلا من خلال الأحساسات، والتصورات، والأفكار التي نكوّنها عنها. ووفقاً لذلك نحكم على أنَّها مواتية، أو غير مواتية، تبعاً لتصرف خاص بأعضائنا. ولكن إن لم يؤثر الكائن في أيّ جزء من بنيتنا العضوية، فلا وجود له على الإطلاق. ولا يمكننا أن نتحدث عن طبيعته أو تحديد صفاته، من دون ارتكاب حماقة، وتجاوز جهلنا،

والوقوع في الغموض، ولا تكون حواسنا سوى ممراً يمكننا أن نشكل من خلاله فكرة طفيفة عنه. ولابدّ أن يقنع غموض الإله الإنسان بحماقة البحث فيه، ولكن هذا لن يناسب أولئك الكهنة الذين يرغبون في الاستدلال عليه باستمرار، وإظهار عمق تعلمهم، وإقناع الجاهل بفهمهم لما هو عصيّ على الفهم لجميع البشر، ما لم يكونوا قادرين على إخضاعه بهذا لآرائهم الخاصة. ومع ذلك إن كانت الألوهية عصية على الفهم، فيجب أن نستنتج أنَّ الكاهن لا يفهمها أفضل من غيره. والطريقة الأكثر حكمةً، أو أضمن هي عدم الاسترشاد بخيال اللاهوتي.

الافتراض الخامس: "على الرغم من أنَّ جوهر الكائن القائم بذاته أو ماهيته هي بحد ذاتها عصية على الفهم تماماً من جانبنا، إلا أنَّ العديد من العناصر الأساسية في طبيعته يمكن تحديدها بشكلٍ دقيق، بالإضافة إلى وجوده. وهكذا، يجب بالضرورة أن يكون الكائن القائم بذاته أزلياً في المقام الأول".

ولا يختلف هذا الافتراض في شيءٍ عن الأول، باستثناء أنَّ الدكتور **كلارك** يفيدنا هنا أنَّ الكائن القائم بذاته بما أنَّه لا بداية له، فلا يمكن أن تكون له نهاية. وربما كان الأمر كذلك، ولكن يجب أن نتساءل دائماً: لماذا يا ترى لا يكون الأمرُ على هذا النحو؟ سنلاحظ أيضًا أنَّ المادة ليست وجوداً قابلاً للفناء، وموجودة بالضرورة، وبالتالي لن تكفّ عن الوجود أبداً، وأنَّ العقل البشري ليس لديه وسيلة لتصور كيف يجب أن تنشأ المادة عمّا هو ليس بمادة: ألا يوضح ذلك أنَّ هذه المادة ضرورية، وأنَّه لا يوجد سوى قدراتها، وتنظيمها، ومركباتها العرضية أو الزائلة؟ تكون الحركة العامة ضرورية، على عكس الحركة المعطاة، باستثناء فترة تتعايش فيها مركبات معينة، وتكون هذه الحركة ناجمة عنها أو تؤثر فيها، وقد نكون مؤهلين لتغيير الاتجاه، وتقديم حركة معينة أو تأخيرها، أو تعليقها أو إيقافها، ولكن لا يمكن أن تفنى الحركة العامة. وعندما يموت الإنسان، لا يعود حياً، وهذا يعني أنَّه لم يعد يمشي، أو يفكر أو يتصرف بالشكل الذي تكون عليه المنظومة البشرية، لكن المادة التي يتكوّن منها جسده، والمادة التي شكّلت عقله، لا تكفّ عن التحرك بناءً على هذا التفسير، وتكون ببساطة عرضة لأنواعٍ أخرى من الحركة.

الافتراض السادس: "الكائن القائم بذاته يجب أن يكون بالضرورة غير متناه وكلي الوجود".

لا تقدم كلمة اللاتناهِ سوى فكرة سلبية تستبعد كلّ الحدود، ومن الواضح أنَّ الكائن الموجود بالضرورة، والمستقل، لا يمكن تحديده بما هو خارج عنه، ويجب بالتالي أن تكون له حدوده الخاصة، وبهذا المعنى يمكننا القول: إنَّه لامتناه.

ويتضح تمامًا فيما يتعلق بما قيل عن وجوده الكلي، أنَّه إذا لم يوجد ما يتجاوز هذا الكائن، فلا يوجد مكان يجب ألا يكون فيه موجوداً، أو أنَّه لن يكون هناك سوى هو ذاته، والفراغ. وبالتسليم بذلك، سأطرح سؤالاً عمّا إذا كانت المادة موجودة، وإذا لم تشغل على الأقل حيزاً في المكان؟ وفي هذه الحال، يجب أن تستبعد المادة، أو العالم، كلّ كائن آخر ليس بمادة من ذلك المكان الذي تشغل فيه الكائنات المادية حيزاً في المكان. وبالسؤال عمّا إذا كان من قبيل المصادفة أن يكون إله اللاهوتيين هو الكائن المجرد الذي يسمونه الفراغ أو المكان، سيجيبون، لا! وسيصرون كذلك على أنَّ إلههم غير المادي يتغلغل في المادة. ولكن من الواضح أنَّ القول بالتغلغل في المادة، يقتضي وجود تطابق ما مع المادة، ويمتلك بالتالي امتداداً. وللحصول على الامتداد، يجب أن تكون لديه أحد خصائص المادة. وإذا كان الإله يقرُّ بالمادة، فهو مادي، ويقتضي ذلك نتيجة مفادها أنَّه غير منفصل عن المادة، فإذا كان كلي الوجود، فسيكون في كلّ شيء. ولن يسمح اللاهوتي بهذا، وسيقول إنَّه لغز، وسأفهم من خلاله أنَّه هو ذاته يجهل كيف يفسر وجود إلهه، ولن يكون هذا هو الحال مع جعل الطبيعة تتصرف وفقاً لقوانين ثابتة، وستكون بالضرورة في كلّ مكان، وفي بدني، وذراعي، وفي كلّ كائن مادي آخر؛ لأنَّ المادة تؤلفها جميعاً.

الافتراض السابع: "يجب أن يكون الكائن القائم بذاته واحدًا بالضرورة".

وإذا لم يكن هناك كائن متجاوز له، فهو واجب الوجود، ويلزم عن ذلك أنَّه لا مثيل له، وسيكون من الواضح أنَّ هذا الافتراض هو ذاته مع السابق، على الأقل إذا لم يشاؤوا إنكار وجود العالم المادي أو القول مع سبنوزا: إنَّه لا يوجد أيّ جوهر آخر غير الله، ولا يمكننا تصور غيره. إذ يقول هذا الملحد المعروف في فرضه الرابع عشر: "لا يوجد علّة لتصور ذلك سوى الله".

الافتراض الثامن: "يجب أن تكون العلة القائمة بذاتها، والأساسية لكلّ الأشياء، كائنًا ذكيًا".

وهنا يعيّن الدكتور **كلارك** بلا شك صفة بشرية؛ إذ أنَّ الذكاء ملكة توصف بها كائنات عضوية، أو متحركة، وليس لدينا معرفة بهذه الكائنات. ومن الضروري لكي تحصل على الذكاء أنْ تفكر، ولكي تفكر، من الضروري أن تكون لديك أفكار، ولكي تكون لديك أفكار، يُفترض وجود حواس، وعندما تكون الحواس موجودة فهي مادية، وعندما تكون مادية، لا يمكن أن تكون روحًا محض، بلغة اللاهوتي.

الكائن الواجب الذي يدرك، ينطوي على إحداث كائنات متحركة، وينطوي على ذكاءٍ، متضمن فيه، ويحدثه. ولكن لديه ذكاء غريب في الكل العظيم الذي يحركه، ويجعله يتصرف، ويحدد النمط الذي يحرك فيه الذكاء، ويحدد الأجسام المتحركة، أو بالأحرى، أليس هذا الذكاء نتيجة لقوانين غير قابلة للتغيير، وتعديلٍ معين ناتج عن مركبات معينة من المادة الموجودة في إطار أحد أشكال هذه المركبات، أم شاء شكلًا آخر؟ هذا بالتأكيد ما لا يمكن إثباته. وبعد أن وضع الإنسان نفسه في المرتبة الأولى في العالم، كان يرغب في الحكم على كلّ شيءٍ بموجب ما رآه في نفسه؛ لأنَّه ادعى أنَّه من أجل أن يكون مثالياً كان من الضروري أن يكون على شاكلته. وهذا هو مصدر كلّ استدلالاته الخاطئة عن الطبيعة، وآلهته. ولذلك فقد خلصَ إلى أنَّه سيكون مجحفاً بحق الإله إن لم يمنحه صفة يستحقها الإنسان بالمثل، ويقدّره إلى أقصى حد، ويربطها بفكرة الكمال التي يعتبرها دليلًا واضحًا على علو شأنه. وينظر إلى قرينه على أنَّه مذنب، عندما يعتقد أنَّه يفتقر إلى الذكاء؛ لذلك يحكم على أنَّه هو نفسه مع الإله. وينكر هذه الخاصية على الطبيعة؛ لأنَّه يعتبرها كتلة من المادة الخسيسة، وغير قادرة على التصرف بذاتها، على الرغم من أنَّها تحتوي على كائنات ذكية وتُحدثها. ولكن هذا تجسيد لخاصية مجردة بالأحرى، وليس صفةً من صفات الإله، الذي لا يمكن التعرف على كمالاته، وطريقة وجوده بأيّ وسيلة ممكنة وفقًا للفرض الخامس للدكتور **كلارك** نفسه. ورغم أنَّ تلك الحيوانات الحية التي تُسمى الديدان قد خرجت من الأرض، ولكننا لا نقول: إنَّ الأرض كائن حي. وليس الخبز الذي يأكله الإنسان، والخمر الذي يشربه، هي بحد ذاتها جواهر مفكرة. ومع ذلك، فهي تزود تلك الكائنات بالقوت والغذاء، وتجعلها تفكر، وتعرضُها لهذا التغيير من حيث وجودها. وكذلك الأمر فيما يتعلق بالطبيعةِ التي تشكّل

كائنات ذكية، وذات شعور، وتفكير. ومع ذلك، لا يمكن القول بعقلانية: إنَّ الطبيعة تشعر، وتفكر، وذكية تبعاً لأسلوب هذه الكائنات، مع أنَّها تنبثق من أحضانها.

وسيقولون لنا، كيف نرفض أن ننسب للخالق هذه الصفات التي نكتشفها في مخلوقاته! سيكون المصنوع عندئذٍ أتم من الصانع! أفلا يبصر الله، وهو من خلق العين؟ ألا يسمع الله وهو من خلق الأذن؟ ولكن إذا تبنينا هذا الأسلوب في التفكير، ألا ينبغي أن ننسب إلى الله كلّ الصفات الأخرى التي نجدها في مخلوقاته؟ ألا ينبغي أن نقول على قدم المساواة، إنَّ الله الذي خلق المادة هو ذاته بمادة، وأنَّ الله الذي صمّم الجسد يجب أن يمتلك جسداً، وأنَّ الله الذي خلق الكثير من الكائنات اللاعقلانية هو نفسه غير عقلاني، وأنَّ الله الذي خلق الإنسان الذي يخطئ هو ذاته عرضة للخطيئة؟ وإذا استنتجنا بناءً على أنَّ أعمال الله تمتلك صفات معينة، ومعرضة لتعديلات معينة، أنَّ الله يمتلكها أيضاً، فسنضطر لأن نستنتج بفضل التكافؤ في التفكير بأنَّ الله مادي، وله امتداد وجاذبية، وشرير...الخ.

ولكي ننسب الحكمة أو الذكاء اللامتناهي إلى الله؛ أي المحرك الكلي للطبيعة، ينبغي ألا ننسب له حماقة، أو شر، أو خبث، ولا إحداث الفوضى على الأرض، وربما سيخبروننا أنَّ الشر وعدم الانتظام ضروريان بناءً على مبادئنا الخاصة، ولكن مبادئنا لا تعترف بوجود إلهٍ حكيم، وذكي، ولا بد أنَّ لديه القدرة على منعها. وعند الاعتراف بهذا الإله دون أن نضطر للاعتراف بالشر، فما الغاية المرجوة من إلهٍ قوي، وقادر، وذكي، وهو يجد ذاته خاضع للضرورة؟ ومن هنا لم يعد مستقلاً، واختفت سلطته، وأصبح ملزماً بالاعتراف بنطاقٍ من الحرية لماهية الأشياء، ولا يستطيع منع العلل من إحداث معلولاتها، ولا يمكنه مقاومة الشر. ولا يستطيع أن يجعل الإنسان أكثر سعادةٍ مما هو عليه، ولا يستطيع بالتالي أن يكون خيرًا، وهو عديم النفع تمامًا. ولن يكن سوى شاهد غير مكترث بما يجب أن يحدث بالضرورة، ولا يمكنه أن يفعل خلافًا لما يحدث في العالم. ومع ذلك يخبروننا، في الافتراض التالي:

الافتراض التاسع، "القائم بذاته، والعلة الأصلية لكلّ الأشياء، ليس فاعلًا ضروريًا، ولكنه كائن يتمتع بالحرية، والاختيار".

يُقال: إنَّ الإنسان يكون حرًا عندما يجد في نفسه دوافع تحتم عليه العمل، أو عندما لا تواجه إرادته أيّ عقبةٍ أمام أداء ما تلزمه به دوافعه. والسؤال المطروح هنا، ألا توجد عقبات أمام تحقيق مقاصد الإله أو الواجب الوجود؟ وهل تقتضي مشيئته ارتكاب الشر أم

لا يستطيع منعه؟ في هذه الحال، هو لا يتمتع بالحرية، وتواجه مشيئته عقبات متواصلة، وإلا لتحدثنا عن إقراره بارتكاب الخطيئة، وأنَّه قدّرَ الإساءة إليه، وأتاح للبشر تقييد حريته، والإخلال بمقاصده. ولكن كيف سيخرج اللاهوتيون أنفسهم من هذه الحيرة المعقدة؟

إنَّ إلههم الذي يعدونه غير قادر من ناحية أخرى، رغم أنَّه بإمكاننا القول في ضوء قوانين وجوده الخاص بأنَّه يتمتع بالحرية، لا ينبغي أن نحدد أفعاله بالقدر ذاته بما هو خارجه، ولكن هذا سيوضح إساءة استخدام المصطلحات، ولا يمكننا في الواقع القول: إنَّ كائنًا غير قادر على التصرف بخلاف ما يفعله، لا يمكنه أبداً الكفّ عن الفعل، ولكن بحكم قوانين وجوده الخاص هو كائن يمتلك الحرية، ومن الواضح أنَّ هناك ضرورة في جميع أفعاله. اسأل أحد اللاهوتيين، إنْ كان لدى الله القدرة على الإثابة على الرذيلة ومعاقبة الفضيلة؟ واسأله مرة أخرى، إذا كان بإمكان الله محبته، أو إذا كان فاعلاً حراً متى أحدث فعل الإنسان فيه بالضرورة مشيئةً جديدة؟ الإنسان كائنٌ خارج عن الله، ومع ذلك فهم يدّعون بأنَّ سلوك هذا الإنسان له تأثير على ذلك الكائن الذي يتمتع بالحرية، ويحدد مشيئته بالضرورة. وبعبارة أخرى، ألا نفترض ألا يفعل الله ما يفعل، إن كان بإمكانه أن يتلاقى بمشيئة ما يريده؟ أليست مشيئته ناجمة بالضرورة عن ذكاءه، وحكمته، والآراء التي افترضوا وجودها لديه؟ فإذا كان الله على هذا النحو من الترابط، فهو ليس فاعلاً أكثر حرية من الإنسان، وإذا كان كلّ ما يفعله ضرورياً، فهو ليس سوى قدرُ القدماء، وقضاءهم، ومصيرهم، ولم يغير المحدثون إلههم، على الرغم من أنَّهم غيروا اسمه.

وربما سيخبروننا، أنَّ الله حراً لدرجة أنَّه غير ملزم بقوانين الطبيعة، أو تلك التي يفرضها على جميع الكائنات. ومع ذلك، إذا صحَّ أنَّه سنَّ هذه القوانين، وكانت نتيجة لحكمته اللامتناهية أو ذكاءه الفائق، فهو ملزمٌ باتباعها بحكم ماهيته، وإلا يجب الاعتراف بأنَّه سيكون من الممكن أن يتصرف الله بغير عقلانية. في حين افترض اللاهوتيون الذين يخشون بلا شك تقييد حرية الله، أنَّه لم يخضع لأيِّ قوانين، كما أثبتنا من قبل، وجعلوه نتيجة لذلك، كائناً مستبداً وخيالياً وغريباً، وتمنحه قوته الحق في انتهاك جميع القوانين التي أسّسها بنفسه. وبإدعاء للمعجزات التي نسبوها إليه، ينتقص من قوانين الطبيعة، ومن خلال السلوك الذي افترضوا أنَّه يسلكه، يعمل مرارًا وتكرارًا بطريقةٍ تتعارض مع حكمته الإلهية، والعقل الذي منحه للبشر لينظموا به أحكامهم. وإذا كان الله فاعلًا حرًا بهذا المعنى، فكلّ دين عديم

الفائدة، ولا يمكنه إيجاد ذاته إلا وفق تلك القواعد الثابتة التي وضعها هذا الإله بذاته، وتلك المواثيق التي أبرمها مع الجنس البشري؟ وحالما لا يفترض الدين أنَّه ملتزم بعهوده، فإنَّه يفني نفسه، وينتحر.

الافتراض العاشر: "يجب أن يكون له القائم بذاته، والعلة الأسمى لكلّ الأشياء، قدرة لامتناهية بالضرورة."

لا توجد قدرة إلا فيه، ومن ثم فإنَّ هذه القدرة ليس لها حدود، ولكن إذا كان الله هو الذي يتمتع بهذه القدرة، فلا ينبغي أن تكون للإنسان قدرة على فعل الشر، ومن دونها سيكون في حال يتصرف فيها بخلاف القدرة الإلهية، وستكون هناك خارج الإله قدرة قادرة على موازاة قدرته، أو منعها من إحداث تلك التأثيرها التي يقررها لنفسه، ولاضطر الإله إلى مكابدة هذا الشر الذي بإمكانه منعه.

وإذا كان الإنسان حرًا في ارتكاب الخطأ من ناحية أخرى، فالله ليس هو ذاته فاعلًا حرًا، وأفعال الإنسان هي من يحدد تصرفه بالضرورة. والملك المنصف على سبيل المثال ليس فاعلًا حرًا متى اعتقد أنَّه ملزمٌ بالتصرف بما يتوافق مع القوانين التي أقسم على مراعاتها، أو التي لا يمكنه انتهاكها دون الإضرار بعدله. ولا يكون الملك قادرًا عندما يمتلك أقل رعاياه شأناً قدرة على إهانته، أو التصدي له علانيةً، أو إفساد جميع مقاصده سراً. ومع ذلك، تظهر لنا كلّ ديانات العالم الله بطابع السيادة المطلقة، التي لا يمكن لشيءٍ فيها أن يقيد مشيئته، أو قدرته، بينما يؤكدون لنا من ناحية أخرى: أنَّ مواليه لديهم في كلّ لحظة القدرة، والحرية في عصيانه، وإفساد مقاصده، ومن هنا يتضح أنَّ جميع أديان العالم تدمر بيد واحدة ما تبنيه بيدٍ أخرى، ويترتب على الأفكار التي يقدمونها لنا، أنَّ إلههم ليس حرًا، أو قادرًا، أو مسرورًا.

الافتراض الحادي عشر: "يجب أن تكون العلة الأسمى للأشياء، والواجد ذو حكمةٍ لامتناهية بالضرورة."

إنَّ الحكمة والحماقة قائمة اليوم على حدٍ سواء وفقًا لأحكامنا الخاصة في هذا العالم، الذي من المفترض أن يكون الله خالقه، وحافظه، ومحركه، ومتغلغل فيه، ويُحدث آلاف الأشياء التي تبدو لنا على أنَّها حماقات، وحتى المخلوقات التي نتخيل أنَّه خلق الكون من أجلها، غالباً ما تكون حمقاء، ولاعقلانية أكثر من أن تكون حصيفة، وحكيمة. ويجب أن

يكون واجدُ كلّ ما هو موجود، واجداً بالقدر ذاته لما نسميه غير عقلاني، وما نحكم بحكمتهِ البالغة. ولكي نحكم على ذكاء الكائن، وحكمته من ناحية أخرى، ينبغي أنْ نتوقع على الأقل الغاية التي يصبو إليها. ونسأل ما مقصد الإله؟ ويأتينا الرد منهم: تسبيحه! ولكن أيبلغ هذا الإله هذه الغاية، ويقبل العُصاة تسبيحه؟ وإذا افترضنا إلى جانب ذلك أنَّ الله يدرك التسبيح، ألا يقتضي ذلك أنَّ لديه حماقاتنا، ونقاط ضعفنا؟ أليس في هذا القول شيءٌ من التكبر؟ وإذا أخبرونا أنَّ مقصد الحكمة الإلهية هي إسعاد البشر، فسأسأل دائمًا، لماذا كثيراً ما يكون هؤلاء البشر بائسين على الرغم من أنّه بهم بصير؟ وإذا أخبروني، أنَّ بصائر الله ليست حرزًا علينا. سأجيب في المقام الأول: هم يخبروني في هذه الحال وعشوائيًا أنَّ الإله يفترض بذاته سعادة مخلوقاته، وهو أمرٌ لم يتحقق في الواقع أبدًا، وسأجيب في المقام الثاني: إنّه يستحيل علينا تجاهل مقصده الحقيقي، والحكم على حكمته، ومجرد الرغبة في التفكير في ذلك هو مدعاة للجنون.

الافتراض الثاني عشر: "يجب أن تكون العلة الأسمى، والواجد لكلّ الأشياء بالضرورة، كائنًا ذو خيرٍ، وعدلٍ، وحقٍ لامتناهٍ، وجميع أشكال الكمال الأخلاقي الأخرى؛ بوصفه الحاكم، والقاضي الأعلى للعالم."

إنَّ فكرة الكمال فكرة مجردة، وميتافيزيقية، وسلبية، وليس لها مثال، أو نموذج خارج عن ذواتنا. ولكون الكائن المثالي شبيهًا بنا، ينبغي أن نتخلى ذهنيًا عن كلّ الصفات التي نجدها مجحفة بحقنا، ونسميها لهذا السبب عيوبًا، ودائمًا ما تكون نسبية لدينا، وهي ليست كذلك في حد ذاتها، بل من حيث أسلوبنا في الشعور، والتفكير، وبناءً على ذلك يتمتع الشيء بالكمال أو النقص، ويكون مفيدًا إلى حدٍ ما أو ضارًا، ومقبولاً أو غير مقبول. ولكن كيف يمكننا أن ننسب الكمال إلى الكائن القائم بذاته بهذا المعنى؟ وهل الله خيرٌ محض بالنسبة للبشر؟ مع أنَّ البشر كثيراً ما يتضررون من أعماله، ويضطرون للرزوخ تحت وطأة الشرور؛ التي يعانون منها في هذا العالم. فهل يحقق الله الكمال فيما يتعلق بأعماله؟ بل ألا نرى في كثيرٍ من الأحيان حدوث الفوضى العارمة إلى جانب النظام؟ ألم تتغير هذه الأعمال الإلهية المثالية للغاية، ألم يعتريها الخراب باستمرار، ألسنا ملزمون رغمًا عن أنوفنا بمكابدة تلك الأحزان، والمتاعب التي تعادل الملذات والمنافع التي نحصل عليها من الطبيعة؟ ألا تفترض كلّ ديانات العالم أنَّ هناك إلهًا منشغلاً باستمرار في إعادة خلق أعماله الرائعة، وترميمها، وإتلافها، وتصويبها؟ لن يفشلوا في إخبارنا أنَّ الله لا يمكن أن يبلغ بأعماله الكمال الذي

يمتلكه هو نفسه. وفي هذه الحال، يجب أن نقول: لأنَّ عيوب هذا العالم لا غنى عنها للإله بحد ذاته، فلن يكون قادرًا على تلافيها حتى في عالم آخر، وسوف نستنتج أنَّ هذا الإله لا طائل يُرجى منه للإنسان مهما كان.

إنَّ الصفات الميتافيزيقية أو اللاهوتية للإله تجعله كائنًا مجردًا، ولا يمكن تصور تمييزه عن الطبيعة فحسب، بل وعن جميع الكائنات الموجودة فيها، فالصفات الأخلاقية تجعله كائناً من الجنس البشري على الرغم من الصفات السلبية التي ينأى بنفسه بها عن الإنسان. إنَّ "الإله اللاهوتي" كائن مختلٍ بذاته، ولا يمكن أن تكون له في الحقيقة أيّ علاقة مع أيّ من الكائنات التي نعرفها. والإله الأخلاقي ليس أكثر من مجرد إنسان يُعتقد أنَّه بلغ درجة الكمال، إذا ما فكرنا في إبعاد عيوب الطبيعة البشرية عنه. والصفات المعنوية للبشر قائمة على العلاقات المتبادلة بينهم، ورغباتهم. ولا يمكن أن يمتلك الإله اللاهوتي بالتأكيد صفات معنوية أو كمالات بشرية لم يُحدثها لدى البشر، ولا تكون له علاقة بهم؛ لأنَّه ما من علاقات يمكن أن توجد ولا تكون متبادلة بينهم. ولا يمكن للروح المحض أنْ تقيم بالتأكيد علاقات مع الكائنات المادية، على الأقل في بعض النواحي، ولا يمكن أن يرتبط الكائن اللامتناهي بأيّ علاقة بالكائنات المتناهية، ولا يمكن أن يكون للكائن الأزلي علاقات مع كائنات سريعة الزوال، وفانية. والكائن الذي ليس له جنسٌ، ولا علة، وليس لديه أقران، ولا يعيش في مجتمع، وليس لديه ما يشترك به مع مخلوقاته، لا يمكنه إن كان موجوداً بالفعل أن يمتلك أيّاً من تلك الصفات التي نسميها كمالات، وسيكون ذو نسقٍ مختلف تماماً عن الإنسان، ولن يكن بمقدورنا أن ننعته برذائل أو فضائل. ونكرر باستمرار أنَّ الله لا يدين لنا بشيء، وأنَّه ما من كائنٍ يضاهيه، وأنَّ فهمنا المحدود لا يمكن أن يتصور كلّ كمالاته، وأنَّ العقل البشري لم يتشكل لفهم ماهيته. ولكن ألا يعني هذا أنَّهم يقطعون علاقتنا بهذا الكائن المغاير لنا، والمختلف عنا، والمبهم بالنسبة لنا؟ فكلّ علاقة تفترض قياساً معيناً، وجميع الواجبات تفترض وجود تشابه، ورغبات متبادلة تمنح أيّاً كان الالتزامات التي ندين بها له، ومن الضروري أن تكون لديك معرفة به.

وسيخبروننا بلا شك: أنَّ الله قد عرّف عن نفسه من خلال الوحي. ولكن ألا يفترض هذا الوحي وجود الله الذي افترضناه؟ أليس هذا الوحي بحدّ ذاته ينفي الكمالات الأخلاقية التي ينسبونها إليه؟ ألا تفترض كلّ الأسفار أنْ ننفي ما لدى البشر من جهلٍ ونقصٍ وفساد عن الله البِر، والحكيم، والمقتدر، والمقتصد؟ ألا تفترض كلّ الأسفار الخاصة بهذا الإله تفضيلاً

لبعض مخلوقاته، وميلاً وتحيزاً ظالما، وميولاً تتعارض بوضوح مع خيره، وعدله اللامتناهي؟ ألا يبلغنا هذا السِفر عن نفوره أو جفاءه أو على الأقل عدم اكتراثه بأكبر عددٍ من سكان الأرض، أو حتى مقصده الثابت في تضليلهم حتى يخسروا أنفسهم؟ وبعبارة أخرى: ألا تصفه لنا كلّ الأسفار المعروفة وليس الإله، باستمرار على أنَّه كائن خيالي، وظالمٌ، وقاسٍ، وكمن يريد إغواء أبناءه، وايقاعهم في الشِّرَك أو جعلهم يقعون بأنفسهم فيه، وعاقبهم على ذلك، بدلاً من تقديمه على أنَّه حكيمٌ، ومنصفٌ، ومفعمٌ بالعطف على الإنسان؟ لا يمكن النظر إلى الحق وإله الدكتور كلارك والمسيحيين على أنَّه كائن مثالي، ما لم ينعتوا في اللاهوت هذه الصفات بالكمال، وهو ما يسميه العقل، والحس السليم بعيوب بارزة، أو ميولاً بغيضة. بل أكثر من ذلك، لا يوجد في الجنس البشري أفراد في غاية الشر، والانتقام، والظلم، والقسوة، بقدر الطاغية الذي يبالغ المسيحيون في تسبيحهم العبودي له، ويغدقُ عليه اللاهوتيون تلك الكمالات التي تتعارض مع السلوك الذي ينسبونه إليه.

وكلما نظرنا إلى الإله اللاهوتي، سيبدو أكثر استحالة، وتناقضًا، ولن يُظهر اللاهوت سوى أنَّ ما شكّله، سرعان ما أفناه. ولكن أيّ كائنٍ ذلك حقًا الذي لا يمكنهم تأكيد شيءٍ بشأنه إلا وتعارض معه على الفور؟ وأيّ إله خيّرٍ يعكرُ صفو نفسه باستمرار، وإلهٌ مقتدرٌ لا يصل إلى الغاية من مقاصده، وإله لامتناه الغبطة، وفرحته مضطربة على الدوام، وإله يحبُّ النظام، ولا يحافظ عليه، وإلهٌ عادلٌ يسمح بأنْ يتعرض عبيده الأبرياء باستمرار للظلم؟ وأيُّ روح نقية تخلق المادة وتحركها؟ وأيُّ كائن هذا لا يتحرك، ويكون علةً للحركة، ولتلك التغييرات التي تحدث كلّ لحظة في الطبيعة؟ وأيُّ كائن هذا لامتناه، ورغم ذلك ترافق وجوده مع وجود العالم؟ أيّ كائن عليمٍ هذا الذي يعتقد أنَّه ملزمٌ بمحاكمة مخلوقاته؟ وأيُّ كائنٍ مقتدرٍ هذا، ولا يستطيع أن يبلغ بأعماله الكمال الذي يرجوه منها؟ أيُّ كائنٍ هذا الذي يتصف بكلّ صفة إلهية، وسلوكه دائمًا بشريًا؟ أيُّ كائن هذا القادر على فعل كلّ شيء، ولا ينجح في شيء، ولا يتصرف أبداً بطريقةٍ تليق به؟ فهو شريرٌ مثل الإنسان، وظالمٌ، وقاسٍ، وغيورٌ، ونَزِقٌ، ومنتقمٌ؛ ويخفقُ في تحقيق كلّ مقاصده مثل الإنسان، رغم كلّ الصفات التي تمكّنه من تلافي عيوب جنسنا البشري. وإذا أردنا الصراحة، فعلينا أن نعترف بأنَّ هذا الكائن ليس شيئاً؛ وسنجد أنَّ الشبح المتخيل لشرح الطبيعة يتناقض دائمًا مع هذه الطبيعة بالذات، وبدلاً من شرح أيّ شيء، فإنَّه لا يؤدي إلا إلى إغراق كلّ شيء في الحيرة، والارتباك.

ووفقاً لـ**كلارك** نفسه: "ما من شيءٍ يمكن أن يُنفي حقًّا كلَّ شيء فيه، وما من شيءٍ يمكن تأكيده حقًّا. لذا فإنَّ فكرة العدم، إذا جاز لي أن أتحدث عنها، هي إنكارٌ مطلق لجميع الأفكار. ولذلك، فإنَّ الفكرة التي تقول: إما عدم متناه أو لامتناه، ما هي سوى تناقض في المصطلحات". دعهم يطبقون هذا المبدأ على ما قاله مؤلفنا عن الإله، وسيجدون أنَّه يعترف بأنَّ العدم لامتناه، بما أنَّ فكرة هذا الإله تمثل نفي المطلق لجميع الأفكار التي يمكن أن يكوِّنها الناس بأنفسهم. إنَّ الروحانية مجرد نفي للمادية بالفعل، ولكن ألا يؤكد لنا القول إنَّ الله روحاني أنَّهم لا يعرفون ماهيته؟ ويخبروننا أنَّ هناك جواهر لا يمكننا رؤيتها، أو لمسها، ولكنها غير موجودة بحسب هذا التفسير على وجه التقريب. حسنًا، لكن لا يمكننا بعد ذلك التفكير بها ولا منحها صفات. فهل يمكننا الحصول على تصور أفضل للاتناهي الذي هو مجرد إنكار لتلك الحدود التي نجدها في جميع الكائنات؟ وهل يمكن للعقل البشري أن يفهم ما هو الامتناهي، ولكي يشكِّل لنفسه فكرة مشوشة ما، أليس مضطراً لأن يجمع كميات محدودة مع كميات أخرى لا يتصورها ثانية إلا على أنَّها محدودة؟ أليست القدرة المطلقة، والخلود، والعلم المطلق، والكمال، عبارة عن تجريدات أو مجرد إنكار لتقييد القدرة، والمدة، والعلم؟ وإذا قيل: إنَّ الله ليس ما يمكن للإنسان معرفته، ورؤيته، والشعور به، وإذا لم يكن بالإمكان قول أيِّ شيءٍ بشكلٍ إيجابي، فسيتيح لنا ذلك على الأقل الشك في وجوده، وإذا قيل: إنَّ الله هو ما يصفه اللاهوتيون لنا، فلا يسعنا إلا إنكار وجود، أو إمكانية وجود كائن جعلوه موضوعاً لتلك الصفات التي لن يتمكن العقل البشري أبداً من تصورها، أو التوفيق بينها.

ووفقاً لـ**كلارك**: "يجب أن يكون القائم بذاته كائنًا بسيطًا، وغير قابل للتغيير، وغير قابل للفساد؛ وبلا أطرافٍ، أو شكلٍ، أو حركة، أو قابلًا للقسمة، أو أي خصائص أخرى كتلك التي نجدها في المادة؛ لأنَّ كلَّ هذه الأمور تستلزم بوضوح، وبالضرورة التناهي في فكرتها ذاتها، وهي غير متسقة تماماً مع الكمال اللامتناهي". حسناً! أليس من الممكن تكوين فكرة حقيقية عن هذا الكائن؟ إذ يتفق اللاهوتيون أنفسهم على أنَّ البشر لا يمكن أن تكون لديهم فكرة كاملة عن الله، بيد أنَّ ما قدموه لنا هنا، ليس ناقصًا فحسب، بل ينفي عن الله أيضًا كلَّ تلك الصفات التي يمكن لأذهاننا أن تحكم بها عليه. وهنا يضطر الدكتور **كلارك** للقول: "بما أنَّ الطريقة الخاصة بوجوده اللامتناه، أو تجليه في كلِّ مكان، تخالف طريقة وجود المخلوقات في مثل هذه الأماكن اللامتناهية أو تلك، فمن المستحيل لمفاهيمنا القاصرة عن

استيعابه أو شرحه، أن تكوّن كما هو الحال بالنسبة لنا فكرة مناسبة عن اللاتناهٍ". ولكن ما هذا الكائن الذي لا يمكن لأيّ إنسانٍ شرحه أو فهمه؟ إنَّه كائن خرافي لا يمكن أن يسترعي انتباه إنسان، وإنْ كان موجودًا.

ويقول **أفلاطون**، ذلك المؤلف العظيم للكينونات الخرافية: "أولئك الذين لا يعترفون بشيءٍ سوى ما يمكنهم رؤيته، والشعور به، هم كائنات غبية، وجاهلة، ويرفضون الاعتراف بواقع وجود الأشياء غير المرئية." ويخاطبنا اللاهوتيون باللغةِ ذاتها: من الواضح أنَّ دياناتنا الأوروبية قد ابتُليت بتبجيلات الأفلاطونيين، التي إتضح أنَّها ليست سوى نتيجة للأفكار الغامضة، والميتافيزيقا المبهمة للكلدانيين المصريين، والكهنة الآشوريين الذين صاغ **أفلاطون** منهم فلسفته المزعومة. وفي الواقع، إذا كانت الفلسفة تتألف من معرفة الطبيعة، فسنضطر للموافقة على أنَّ المذاهب الأفلاطونية في الوقت الحاضر تستحق هذا الاسم؛ نظراً لأنَّها لم تجذب سوى العقل البشري لتأمل الطبيعة المرئية، وليلقى به في عالم فكري، لا يجد فيه سوى كائنات خرافية. وبغض النظر عن ذلك، فهذه الفلسفة الخيالية هي من ينظّم جميع آرائنا في الوقت الراهن. ولا زال يسترشد اللاهوتيون لدينا بتعصب **أفلاطون**، ولا يخاطبون مريديهم إلا بشأنِ الأرواح، والجواهر الذكية واللامادية، والقوى الخفية، والملائكة، والشياطين ذو المناقبَ الغامضة، والتأثيرات الخارقة للطبيعة، وعن الوحي الإلهي، والأفكار الفطرية...الخ.[1] ولا تفيدنا حواسنا تماماً لكي نؤمن بها، ولا تنفعنا الخبرة في شيء، وما تغرسه تحيزات أدياننا فينا بفعل الخيال، والحماس، والتعصب، والخشية، عبارة عن إلهامٍ سماوي، وعِظات إلهية، ومشاعر طبيعية، يجب أن نفضّلها على العقل، والحكم، والحس السليم. وبعد أن تشربنا بمخيلتنا هذه

(١) كل من سيتحمل عناء قراءة أعمال أفلاطون وتلاميذه، مثل برقلس Proclus، ويامبليخوس Jamblicus، وأفلوطين Plotinus والخ. سوف يجد فيهم تقريباً جميع المذاهب، والخفايا الميتافيزيقية للاهوت المسيحي. وعلاوة على ذلك، سيجدون أصل الرموز، والطقوس، وبعبارة أخرى الأسرار المقدسة للسيمياء المستخدمة في العبادة المسيحية، وكذلك في احتفالاتهم الدينية كما هي في عقائدهم، ولن يفعلوا وبإخلاص إلى حدٍ ما، سوى اتباع الطريق الذي رسمه لهم كهنة الوثنية، ولا تختلف الحماقات الدينية عن ذلك كما يتصوروا. وفيما يتعلق بالفلسفة القديمة، باستثناء فلسفة ديموقريطس، وإبيقور، التي كانت في الغالب ثيوصوفيا حقيقية تخيلها الكهنة المصريون والآشوريون، لم يكن فيثاغورس وأفلاطون سوى لاهوتيون، مفعمين بالحماس، وربما بالحيلة. ونجد لديهم على الأقل عقلاً كهنوتياً غامضاً، ويوحي دائماً بأنَّهم يسعون إلى الخداع أو أنَّهم لا يرغبون في تثقيف البشر. ولذلك يجب أن نخلق فلسفة منطقية وحقيقية في الطبيعة، وليس في اللاهوت.

الأحاسيس، أصبح من الملائم جداً خداعنا، وتضليلنا، ومن السهل جداً عليهم جعلنا نعترف بأعظم السخافات باسم الألغاز التي تفرض نفسها، وتمنعنا من فحص ما يطلبون منا تصديقه. وما دام الأمرُ على هذا النحو، فسنردُّ على **أفلاطون**، وعلى كلّ أمثاله من الأطباء الذين يفرضون علينا ضرورة الاعتقاد بوجود ما لا يمكننا فهمه، إذ يقتضي الاعتقاد بوجود شيءٍ أن تكون لدينا فكرة عنه على الأقل، ولا يمكن أن تأتينا هذه الفكرة إلا من خلال حواسنا، وكلّ ما لا تعطينا حواسنا معرفةً به ليس شيئًا بالنسبة لنا، وإذا كانت هناك عبثية في نفي وجود ما لا نعرفه، فهناك إفراطٌ في تخصيصِ صفات غير معروفة له، ومن الغباء الخشية أمام أوهام حقيقية، أو احترام الأصنام الباطلة، ووصفها بصفاتٍ غير متوافقة، ركبها خيالنا دون أن نمتلك القدرة على الرجوع إلى التجربة والعقل.

وسيكون هذا بمثابة ردٍ على الدكتور **كلارك**، الذي يقول: "كم من السخف، والحماقة إثارة اعتراضات على وجود الله عن دون فهمٍ لماهيته! وأنْ تقدمه كشيءٍ غريب، ولا يُصدق، وأن يكون هناك أيّ جوهرٍ غير مادي، وماهية لم نتمكن من فهمها!" وقد قال في الأعلى قليلاً: "لا يوجد نبات، أو حيوان دنيء، وتافه لا يربكه الفهم الأكثر سعة على الأرض، لا بل حتى أبسط الكائنات الحية، وأصغرها ذات ماهيةٍ، أو جوهرٍ مخفي عنا في ضبابيةٍ أعمق، وأكثر غموضاً. فكم من السخف، والحماقة إثارةِ الاعتراضات على وجود الله عن دون فهمٍ لماهيتهِ!"

وينبغي أن نردّ عليه، أولاً: بأنَّ فكرة الجوهر أو الكائن غير المادي، ولا امتداد له، ليست سوى غيابٌ للأفكار، ونفيٌ للامتداد، وعندما يخبروننا أنَّ الكائن ليس بمادة، فهم يحدثوننا عمّا هو غير موجود، ولا يعلموننا عمّا هو موجود، وبإخبارنا إنَّ الكائن لا تدركه حواسنا، فإنّهم يعلِموننا أنّه ليس لدينا أيّ وسيلة لنتأكد بأنفسنا من وجوده، أو عدم وجوده.

ثانياً: يجب أن نعترف دون تردد، أنَّ أكثر البشر عبقرية، ليسوا على درايةٍ بماهية الحجارة، والنباتات، والحيوانات، ولا الموارد الخفية التي تكوّن بعضاً من تلك، وتجعل الأخرى تنبت أو تعمل، ولكننا نراها إلى حدٍ ما، وتمتلك حواسنا على الأقل معرفةً ببعض جوانبها، ويمكننا إدراك بعض آثارها التي تجعلنا نحكم عليها بالصحة، أو المرض، في حين لا يمكن لحواسنا أن تصل بأيّ حالٍ إلى فكرة الكائن غير المادي. وبالتالي، لا يمكن أن تزودنا بأيّ فكرةٍ عنه، وهذا الكائن بالنسبة لنا صفة غامضة، أو بالأحرى كائنٌ من صنع الخيال، وإذا

كنا نجهل ماهية الكائنات الأكثر مادية، أو المركب المترابط لها، فسوف نكشف على الأقل بمساعدة الخبرة، بعضًا من علاقتها بنا، ونعرف سطحها، وامتدادها، وشكلها، ولونها، ونعومتها، وصلابتها، من خلال الانطباعات التي تتركها علينا، ونحن قادرون على تمييزها، والمقارنة بينها، والحكم عليها، ورؤيتها، والانطلاق منها، وفقًا للأنماط المختلفة التي نتأثر بها، ولا يمكننا أن نحصل على المعرفة ذاتها عن الإله غير المادي، ولا عن تلك الأرواح التي يحدثنا عنها دون انقطاع بشرٌ، لا يملكون عنها سوى تلك الأفكار التي استمدوها من غيرهم من البشر.

ثالثاً: لدينا معرفة بالتغييرات التي تجري في أنفسنا، ونسميها مشاعر، وأفكار، وإرادة وعواطف، ونعزو تأثيراتها إلى علةٍ خفية؛ لكوننا نفتقر للتعرف على ماهيتها الغريبة، وطاقة المنظومة الخاصة بنا، وما يتمايز منها عنا نسميه كائنًا روحيًا؛ لأنَّها تسلك على ما يبدو بشكلٍ مختلف عن جسدنا، ولكن التأمل يثبت لنا أنَّ الآثار المادية لا يمكن أن تنبثق إلا عن علة مادية. ولن نرى في الكون سوى الآثار الفيزيائية، والمادية التي لا يمكن أن تحدث إلا من خلال علّة مماثلة لها، ولا ننسبها إلى علةٍ روحية نجهلها، بل إلى طبيعتها ذاتها التي سنعرف بعض من جوانبها، إذا ما كرسنا أنفسنا لتأملها باهتمام.

ولو لم يكن عدم فهمنا للإله علّة لإنكار وجوده، لما أثبت أحد أنَّه غير مادي، ولن نفهم كونه روحي بقدر فهمنا لكونه مادي؛ لأنَّ المادية صفةٌ معروفة، والروحانية صفة غامضة ومجهولة، أو بالأحرى، أسلوباً في الحديث لا نستغني عنه إلا لنحجب جهلنا. وسيكون الاستدلال سيئًا لدى من ولِد أعمى إذا نفى وجود الألوان، على الرغم من أنَّ هذه الألوان لا يمكن أن تكون لها علاقة بالحواس في حال غياب البصر، إلا لدى من يملكون القدرة على رؤيتها، ومعرفتها. ولكن إنْ تعّهد هذا الأعمى بتعريفها، فسيبدو سخيفاً للغاية. وإذا كانت هناك كائنات لديها أفكار حقيقية عن الله وعن روحٍ محض، وكان ينبغي على اللاهوتيين لدينا التعهد بتعريفهما، فسيكونوا سخفاء كحالِ الأعمى.

ويتكرر القول لنا: إنَّ حواسنا لا تُظهر لنا سوى الأشياء الخارجية، وأنَّ حواسنا المحدودة غير قادرة على تصور الله، ونحن متفقون على ذلك، ولكن هذه الحواس نفسها لا تُظهر لنا حتى المظهر الخارجي لهذا الإله الذي سيحدده لنا اللاهوتيون الذين ينسبون إليه سمات لا يكفّون عن المجادلة بشأنها، على الرغم من أنَّهم لم يأتوا بإثباتٍ على وجوده إلى الآن. وفي هذا

الصدد يقول لوك: "إنَّني أقدّر كثيراً، كلّ أولئك الذين يدافعون عن آرائهم بإخلاص، ولكن هناك عددٌ قليل جداً ممن هم مقتنعون تماماً بالآراء؛ التي يصرحون بها بموجب الطريقة التي دافعوا عنها، وأميلُ إلى الاعتقاد بأنَّ هناك متشككين في العالم أكثر مما نتصور عمومًا.(١)

ويخبرنا أبادي(*) أنَّ: "السؤال المطروح هو عمّا إذا كان هناك إله، وليس ما هو هذا الإله". ولكن كيف نثق بوجود كائنٍ لن نتمكن من الحصول على معرفةٍ تتعلق به؟ وإنْ لم يخبرونا ما هذا الكائن، فكيف سنشعر بأنَّه بوسعنا الحكم على إمكانية وجوده أم لا؟ وقد رأينا الأساس المدمر الذي أقام عليه البشر إلى الآن الشبح الذي صنعوه بخيالهم، وفحصنا البراهين التي استغلوها هم أنفسهم في إثبات وجوده، وأشرنا إلى الخلافات اللامتناهية التي تنتج عن تلك الصفات التي يدّعون اتصافه بها، ولا يمكننا التوفيق بينها. ولكن ما النتيجة التي يجب أن نستخلصها من كلّ هذا، سوى أنَّه غير موجود؟ صحيح أنَّه لا توجد تناقضات بين الصفات الإلهية كما يؤكدون لنا، ولكن هناك عدم تناسب بين فهمنا، وطبيعة الكائن الأسمى. ولكن إن سلّمنا بهذا؛ فما المعيار الذي يجب أن يمتلكه الإنسان ليتمكن من الحكم على إلهه؟ أليسوا بشراً من تصوّروا هذا الكائن، ووسموه بصفاتٍ نسبوها له من تلقاء أنفسهم؟ وإن كان فهم الألوهية يتطلب عقلاً غير محدود؛ فهل يمكن أن يتباهى اللاهوتيون بكونهم أنفسهم قادرين على تصوره؟ وما هو مقصدهم إذن من الحديث عنه للآخرين؟ وهل يمكن للإنسان الذي لن يكون أبداً كائنًا لامتناهيًا، أن يكون أكثر قدرةً على تصور إلهه في عالم المستقبل، مما هو عليه في العالم الذي يعيش فيه اليوم؟ وإذا لم يكن لدينا حتى الآن معرفةٌ بالله، فلا يمكننا أبداً أن نعلّق أنفسنا بالحصول عليها فيما بعد؛ لأنَّنا لن نكون أبداً آلهة.

ومع ذلك، يُزعم أنَّه من الضروري معرفة هذا الإله، ولكن كيف نثبت ضرورةَ العلم بما يستحيل معرفته؟ ويُقال لنا بعد ذلك، إنَّ الحس السليم، والعقل كافيان لإقناعنا بوجود الله. ولكن ألم يخبروني أيضاً إنَّ العقل مرشدٌ لا يؤتمن في الأمور الدينية؟ دعهم يظهرون لنا على الأقل زمناً محدداً نتخلى فيه عن هذا العقل، الذي من شأنه أنْ يقودنا إلى معرفة الله. فهل نستشيره ثانيةً إن طُرِح سؤالٌ عن البحث فيما يتعلق بهذا الإله، وعمّا إذا كان بإمكانه توحيد

(١) أنظر كتابه "رسائل مألوفة"، حيث يقول هوبز: إذا اكتشف البشر أهميته، فسوف يشككون في حقيقة كتاب العناصر لإقليدس.

* للمزيد عن أبادي راجع ترجمتنا للجزء الأول من نظام الطبيعة. (المترجم)

الصفات المتناقضة التي ينسبونها إليه، وأنْ تحدث باللغة التي ينسبونها إليه؟ ولكن لن يجيز لنا كهنتنا أبداً استشارة العقل في هذه الأمور، وسوف يواصلون القول: يجب أن نصدّق بشكلٍ أعمى ما يخبروننا به، وأنَّ الطريقة الأكثر تأكيداً هي إخضاعنا لما اعتقدوا أنَّه مناسب لاتخاذ قرار بشأن طبيعة الكائن، الذي يعترفون بأنَّهم جاهلون به، وهو معلوم اليوم عند البشر. علاوةً على أنَّ عقلنا لا يستطيع تصور اللاتناهٍ، وبالتالي لا يمكنه إقناعنا بوجود الله، وإذا كان لدى كهنتنا حجةٌ أسمى مما لدينا، فستكون مبنية على كلمات كهنتنا: أنَّنا سنؤمن بالله، ولن نكون على قناعة تامة بأنفسنا أبداً، ويمكن أن تنجم القناعة الصميمة فقط عن دليلٍ، وإثبات.

ويكون إثبات الشيء مستحيلاً، ليس لمجرد عجزنا عن امتلاك أفكار حقيقية عنه، بل كلما تعارضت الأفكار التي يمكننا تكوينها عنه، وتناقضت مع ذاتها، وشعرنا ببعض النفور. ولا يمكن أن تكون لدينا أفكارٌ صادقة عن الروح، إن كانت الأفكار التي يمكننا تكوينها عنها متناقضة. ويظهر ذلك عندما نقول: إنَّ كائناً يفتقر للأعضاء، والامتداد، يمكن أن يشعر، ويفكر، وأن تكون لديه إرادة أو رغبات. والإله اللاهوتي عاجز عن الفعل، ومن التناقض أن تمتلك ماهيته الإلهية صفات بشرية، وإذا افترضنا أنَّ هذه الصفات غير متناهية، فسيكون التوفيق بينها أكثر غموضًا، وصعوبةً، أو مستحيلاً.

وإذا كان الله بالنسبة للجنس البشري كما الألوان بالنسبة لمنْ ولد أعمى، فهذا الإله ليس له وجودٌ يتعلق بنا، وإذا قيل: إنَّه وحّد بين الصفات المنسوبة إليه؛ فهذا يستحيل على الإله. وإن كنا عمياناً، ولا نستدل لا على الله، ولا ألوانه؛ فدعونا لا ننسب إليه صفاتٍ، ولا ننشغل به. إنَّ اللاهوتيين بشر عميان يشرحون لغيرهم من المكفوفين أيضاً، ظلالاً، وألوان لوحةٍ تمثل أصلاً لن يكتشفوه حتى في الظلام.[1] دعونا لا نقول بعد ذلك إنَّ اللوحة

---

(١) أجد في كتاب الطبيب كلارك، مقطعاً لملكوار كانوس Melchoir Canus، أسقف جزر الكناري، والذي استطاع أنْ يعارض جميع اللاهوتيين في العالم، وجميع حججهم بقوله: "يمكنه القول: إنَّه لم يفهمني، إن كان قد فهم أولئك الذين تعامل معهم بحد ذاتهم" وقال هيراقليطس: لو سُئِل أعمى عمّا هو البصر، لأجاب بأنّه العمى. وأعلن القديس بولس إلهه للأثينيين على أنّه بالضبط الإله المجهول الذي أقاموا له مذبحاً. ويقول القديس دينيس الأريوباوي: عندما يعترفون بأنَّهم لا يعرفون الله، فهذا إقرارٌ بمعرفتهم له جيداً. أو نحن نعرف الله أفضل عندما نعلم أنَّنا لا نعرفه. ويتأسس كلّ اللاهوت على هذا الإله المجهول! ولا يكفّون عن الاستدلال على هذا الإله المجهول!! ومن أجل هذا الإله المجهول قطعوا رقاب البشر!!!

الأصلية، وألوانها لا توجد على الأقل؛ لأنَّ الأعمى لا يستطيع أن يشرحها لنا، ولا أن يشكّل لنفسه فكرةً عنها، بدليل هؤلاء البشر الذين يتمتعون بملكة الإبصار. ولكن أين هؤلاء الفانون المبصرون، الذين رأوا الإله، ولديهم معرفة به أكثر منا، ومن لهم الحق في إقناعنا بوجوده؟

ويخبرنا الدكتور **كلارك**: "يكفي أن تكون صفات الله ممكنة، ولا يوجد إثبات مخالف لذلك. ياله من منهجٍ غريب في الاستدلال! وهل سيكون علم اللاهوت هو العلم الوحيد الذي سُمح له بأسرع ما يمكن باستنتاج أنَّ الشيء موجود؟ وبعد جلبه لآيات لا أساس لها، وافتراضات لا يدعمها شيء، هل تخلى عنها بقوله: إنَّها حقائق؛ لكونه لا يستطيع إثبات العكس؟ ومع ذلك فمن الممكن للغاية إثبات أنَّ الإله اللاهوتي مستحيل، ولإثبات ذلك يكفي أنْ نجعله يرى ما لن نكفّ عن رؤيته على هذا النحو، ومن غير الممكن أن يوجد الكائن الذي يتألف من مركبٍ مشوه من التناقضات الأكثر إهانةً للعقل.

ومع ذلك، يؤكدون دائمًا، كما قيل لنا، أنَّه لا يمكن تصور الذكاء، أو الفكر كخصائص وتعديلات للمادة، ومع ذلك، يعترف الدكتور **كلارك**: أنَّنا نجهل القدرة والماهية، أو التي قال: إنَّ أعظم العباقرة لا يمتلكون عنها إلا أفكار سطحية، أو ناقصة. ولكن ألا يمكن أن نسأله عمّا إذا كان من الأسهل تصور الذكاء، والفكر كخصائص للروح التي لا نمتلك عنها بالتأكيد أفكاراً أكثر مما لدينا عن المادة؟ وإذا كنا لا نمتلك سوى أفكار غامضة، وناقصة عن الأجسام الأكثر حساسية وصلابة، فهل ينبغي أن نكون قادرين على الحصول على معرفة أكثر تميزاً عن جوهر غير مادي، أو إله روحي، لا يعمل بموجب أيٍّ من حواسنا، ولو عمل بها لكفّ عن كونه لامادياً؟

ليس لدى الدكتور **كلارك** مرتكزاً يخبرنا بناءً عليه أنَّ: "الجواهر غير المادية ليست مستحيلة"، أو أنَّ "الجوهر غير المادي ليس فكرةً مناقضة. وأنَّ كلّ من يؤكد اليوم تناقضها، يجب أن يؤكد أنَّ كلّ ما هو ليس بمادة ليس شيئًا". وكلّ ما تتلقاه حواسنا مادة، ولا يمكن أن تجعلنا نشعر بالجوهر المفتقر للامتداد، أو خصائص المادة، ولا تمنحنا بالتالي تصورات، أو أفكار تكونت مثلنا، ولا نمتلك أفكارًا عنه ليس لها علاقة بنا. وبالتالي، ليس من العبث التأكيد بأنَّ كلّ ما هو ليس بمادة عدماً، وفي مقابل ذلك، ليس هناك من تحيزٍ مجحف، أو خداع أقل مما يمكن أن يشكّ فيه أو انكاره، وهذه حقيقة مدهشة للغاية.

ولا يبسّط خصمنا المثقف السؤال: "هل حواسنا الخمسة هي كلّ الطرق الممكنة الوحيدة للإدراك، بحكم الضرورة المطلقة في طبيعة الشيء؟ وهل من المستحيل، والمتناقض أن يكون هناك أيّ كائن في الكون مزود بطرق إدراك مختلفة عن تلك الناتجة عن مركبنا الحالي؟ أم هل هذه الأشياء على النقيض من ذلك اعتباطية بحتة، والقوة ذاتها التي منحتنا هذه الحواس قد تمنح أخرى لغيرنا من الكائنات، ولو شاء لمنحنا أخرى في هذه الحال؟" وأجيب أولاً: أنّنا قبل أن نفترض ما يمكن أن يفعله الله، أو لا يستطيع فعله، كان من الضروري إثبات وجوده. وأجيب أيضًا: أنّه ليس لدينا في الواقع سوى خمس حواس،(١) وبمساعدتها يستحيل أن يتصور الإنسان مثل هذا الكائن، كما يُفترض أن يكون الإله اللاهوتي، وأنّنا نجهل تماماً لما بوسعنا تصوره لو كان لدينا المزيد من الحواس. وبذلك فإنّ السؤال عمّا كان يمكن أن يفعله الله في مثل هذه الحال، هو أيضًا افتراض لشيءٍ قيد البحث؛ نظراً لكوننا لا نستطيع الحصول على معرفةٍ بمدى قدرة كائن ليس لدينا أيّ فكرة عنه. وليس لدينا المزيد من المعرفة بما يمكن أن تشعر به الملائكة، والكائنات المختلفة عنا، والذكاء المتفوق علينا، ويعلموه. وإنْ كنا نجهل البيئة التي تعيش فيها النباتات، فكيف نعرف أيّ شيءٍ عن كائناتٍ ذات نظام متميز تماماً عمّا لدينا؟ ويمكننا على الأقل أن نطمئّن إلى أنّه إذا كان الإله لامتناهي، كما قيل على لسانه؛ فلا يمكن أن تتصوره الملائكة ولا أيّ ذكاءٍ تابع لها. وإذا كان الإنسان لغزاً بحد ذاته، فكيف يكون قادراً على فهم ما هو مغاير عن ذاته؟ من الضروري إذن أن نقتصر في حكمنا على الحواس الخمس التي نمتلكها. ولا يمتلك الأعمى الذي لا يستخدم سوى الحواس الأربع الحق في إنكار وجود حاسة إضافية للآخرين، لكنه يستطيع القول بصدقٍ وبحجة، إنّه ليس لديه فكرة عمّا تنتجه تلك الحاسة التي يفتقر إليها. ونعفي هذه الحواس الخمس من الحكم على الإله الذي لا يستطيع أحد من اللاهوتيين إظهاره لنا أو رؤيته أفضل منا. ألا يجوز للأعمى المحاط ببشرٍ آخرين فاقدي للبصر، أن

(١) كثيراً ما يحدثنا اللاهوتيون عن إحساسٍ باطني، وفطرةٍ طبيعية، نكتشف بواسطتها أو نشعر بالإله وبحقائق الدين المزعوم. ولكن لو درسنا هذه الأمور فحسب، لوجدنا أنّ هذا الإحساس الباطني، وهذه الفطرة لا ينجمان سوى عن العادة، والتعصب، والقلق، والتحيز، التي كثيراً ما تقودنا رغم كلّ الأسباب إلى الأحكام المسبقة الموجودة في عقلنا، وعندما نطمئن، لا يسعنا سوى الرفض.

يسألهم بأيّ حقٍ تحدثوا إليه عن حاسةٍ لا يمتلكونها هم أنفسهم، أو عن كائنٍ لم تعلمهم خبرتهم الخاصة أيّ شيء عنه؟[1]

وبعبارة أخرى، يمكننا الردّ مرة أخرى على الدكتور **كلارك**: أنَّ الافتراض مستحيل وفقاً لنظامه، ولا ينبغي افتراضه؛ نظراً لأنَّ الله كما أبلغنا هو ذاته، شاءَ بعد أن خلق الإنسان ولا شك في ذلك، بألا يكون لديه أكثر من خمس حواس، أو أن يكون على ما هو عليه بالفعل، وهو بذلك يؤكد بالضرورة الآراء الحكيمة والمخططات الثابتة التي قدمها عنه اللاهوت.

ووجد الدكتور **كلارك**، وكذلك جميع اللاهوتيين الآخرين، أنَّ وجود إلهم يستلزم وجود قوةٍ قد يكون لها القدرة على بدء الحركة. ولكن إذا كانت المادة موجودة دائماً، فهي في حركة دائمة، وهي كما أثبتنا، أساسية لها، كما هو حالُ امتدادها، وتنتج عنها خصائصها البدائية. ومن ثم فإنَّ مجرد وجود الحركة في المادة، وأن تكون الحركة نتيجة لوجودها، لا يعني أنَّ الكل العظيم نفسه يمكن أن يشغل أجزاء أخرى من المكان غير تلك التي يشغلها بالفعل، ولكن أجزائه يمكن أن تتغير، ويتغير باستمرار وضع كلّ منها، ومن ثم ينتج الحفاظ على حياة الطبيعة، التي تكون دائماً ثابتة في مجملها. ولكن لنفترض كما يحدث يومياً، أنَّ هذه المادة خاملة، أيّ غير قادرة على إحداث أيّ شيءٍ بمفردها دون مساعدة قوة متحركة تمنحها الحركة، فهل يمكننا تصور أنَّ الطبيعة المادية تتلقى حركتها من قوةٍ ليس لها وجود مادي؟ وهل يستطيع الإنسان حقًا أن يتخيل بنفسه أنَّ جوهراً ليس له أيّ من خصائص المادة، يمكنه أن يخلق المادة، ويستخلصها من مصدرها الخاص، وترتيبها، والتغلغل فيها، وتوجيه حركتها، وهديها في مسارها؟

وبذلك فإنَّ الحركة أبدية مع المادة. ومنذ الأزل، وتتصرف جسيمات الكون الواحدة تلو الأخرى بفضل طاقاتها، وماهياتها الخاصة، وعناصرها البدائية، ومركباتها المختلفة. ويجب أن تترابط هذه الجسيمات نتيجة تشابهها، أو علاقاتها، وتجذب بعضها البعض وتنافر، وتتصرف وتتفاعل، وتنجذب إحداها إلى الأخرى، وتتحد وتنحل، وتستقبل أشكالها، وتتغير بفضلِ

(١) لنفترض كما يفعل اللاهوتيون، أنَّ الله يفرض على البشر ضرورة معرفته، فسيبدو ادعاءهم غير منطقي، وحالهم كحال فكرة مالك الأرض الذي وصفوه بالهذيان بقوله: إنَّ النمل في حديقته تمكّن من معرفته، وربما استدل عليه.

تصادمها المستمر. ويجب أن تكون القوة الفاعلة في العالم المادي مادية، وتكون في مجملها ذات أجزاءٍ متحركة بالأساس، ولا يصدر عن القوة الفاعلة ما هو متميز عنها، ويجب أن يكون الكل في حالة حركةٍ دائمة من خلال طاقته الخاصة. وكما أثبتنا في موضع آخر، نشأت الحركة العامة من الحركات الخاصة التي تتواصل بها دائماً الكائنات مع بعضها البعض.

ومن هنا نرى أنَّ اللاهوت، في إفتراضه أنَّ الله يمنح الحركة للطبيعة، وهو مغاير لها، لم يفعل سوى مضاعفة عدد الكائنات، أو بالأحرى جسّد فقط مبدأ إمكانية الحركة المتأصل في المادة، ومنح هذا المبدأ الصفات الإنسانية، ولم يمنحها سوى ذكاءه، وفكره، والكمالات التي يمكن أن تكون ملائمة له في الوقت الحاضر. ويصبح كلّ ما يخبرنا به الدكتور **كلارك**، وجميع اللاهوتيين المعاصرين عن إلههم، مفهوماً في بعض الجوانب بما يكفي لتطبيقنا له على الطبيعة والمادة؛ فهو أزلي، أي أنَّه لا يمكن أن تكون له بداية، ولن تكن له نهاية أبدًا. وهو لامتناه، أيّ أنَّه ليس لدينا تصور لحدوده ...الخ. ولكن الصفات البشرية التي نستعيرها دائماً من أنفسنا، لا يمكن أن تكون مناسبة له؛ نظراً لأنَّ هذه الصفات عبارة عن أساليب للكائن، أو أنماطٍ تنتمي فقط إلى كائنات معينة، وليس إلى الكلّ الذي يحتوي عليها.

وهكذا لكي نلخص الإجابات، التي قُدمت للدكتور **كلارك**، يجب أن نقول، أولاً: يمكننا أن نتصور أنَّ للمادة وجود منذ الأزل؛ لأنَّنا لا نستطيع تصور أنَّ لها بداية. وثانياً: هذه المادة مستقلة، نظراً لأنَّ لا شيء خارج عنها، ولا تقبل التغيير؛ نظراً لأنَّه لا يمكن تغيير طبيعتها، على الرغم من أنَّها تغير شكلها أو تركيبتها دائماً. وثالثاً: هذه المادة قائمة بذاتها؛ نظراً لعدم قدرتنا على تصور أنَّه يمكن إفناؤها، ولا يمكننا أن نتصور أنَّه من الممكن أن تكون قد بدأت من حيث الوجود. ورابعاً: لا نعرف ماهية المادة، أو طبيعتها الحقيقية، على الرغم من أنَّ لدينا معرفةً ببعض خصائصها وصفاتها وفقاً للوضع الذي تحدده لنا، وهذا ما لا نستطيع قوله عن الله. وخامساً: هذه المادة، ليس لها بداية، ولن تكن لها نهاية أبداً، رغم أنَّ مركباتها، وأشكالها لها بداية ونهاية. سادساً: إذا كان كلّ ما هو موجود، أو كلّ ما يمكن أن تتصوره أذهاننا مادة، فهذه المادة لامتناهية، وهذا يعني أنَّه لا يمكن تحديدها بأيّ شيءٍ، وهي كلية الوجود، إذا لم يكن هناك مكان خارج عنها في الواقع، وإذا كان هناك مكان خارجها، فسيكون هذا خواءاً، وعندها سيكون الله هو الخواء. سابعاً: تلك الطبيعة واحدة فقط، على الرغم من أنَّ عناصرها، أو أجزائها قد تتنوع إلى مالانهاية، وتتسم بخصائص مختلفة تماماً.

ثامناً: هذه المادة المرتبة، والمتغيرة، والمركبة بطريقةٍ معينة، تُحدث في بعض الكائنات ما نسميه الذكاء، وهو أحد أنماط وجودها، لكنه ليس أحد خصائصها الأساسية.

تاسعاً: هذه المادة ليست فاعلاً حراً؛ لأنَّها لا تستطيع أن تتصرف بخلاف ما تفعله بحكم قوانين طبيعتها، أو وجودها. وبالتالي، يجب أن تسقط الأجسام الثقيلة بالضرورة، ويجب أن ترتفع الأجسام الخفيفة، ويجب أن تحرق النار، ويجب أن يشعر الإنسان بالخير والشر، وفقاً لطبيعة الكائنات التي يجري عليها الفعل. عاشراً: قوة المادة أو طاقتها ليس لها حدود أخرى غير تلك التي تحددها طبيعتها. أما الإجابة الحادي عشر، فهي أنَّ: تلك الحكمة، والعدل، والخير، وما إلى ذلك. ما هي سوى صفات خاصة بالمادة المركبة، والتغيرة كما هي موجودة لدى الجنس البشري، وأنَّ فكرة الكمال هي فكرة مجردة، وسلبية، وميتافيزيقية، أو لا يفترض نمط الأشياء المتعلقة بها وجود شيء حقيقي خارج عنا. وأخيراً الإجابة الثاني عشر: هذه المادة هي مبدأ الحركة الذي تحتويه في داخلها، حيث أنَّ المادة قادرة على منح الحركة واستقبالها فحسب، وهذا ما لا يمكن تصوره لكائن غير مادي وبسيط، ويفتقر إلى الأجزاء، ولا يستطيع بلا امتداد، وكتلة، وثقل، أن يحرك نفسه، أو يحرك أجسام أخرى – ناهيك عن ذلك، خلقها، وإحداثها، ورعايتها.

الفصل الثالث

البحث في البراهين التي قدمها ديكارت، ومالبرانش، ونيوتن، وآخرون على وجود اللّٰه.

البحث في البراهين التي قدمها ديكارت، ومالبرانش، ونيوتن، وآخرون على وجود الله.

يتحدثون عن الله بشكلٍ متواصل، ومع ذلك لم يصل أحد منهم إلى إثبات وجوده إلى يومنا هذا، وقد اضطر البشر الأكثر عبقرية إلى الركوع لهذا الجلمود، ولم يفعل أوفرهم ثقافةً سوى التلعثم في أمرٍ اتفق الجميع على اعتباره الأهم، كما لو كان من الضروري أن ننشغل بأشياء يتعذر على حواسنا الوصول إليها، ولا يمكن لعقلنا فهمها!

ولكي نقنع أنفسنا بشيءٍ من الثبات الذي قدمه أعظم البشر لتلك البراهين التي تخيلوا أن يثبتوا من خلالها وجود الله على نحوٍ متعاقب، دعونا نبحث بإيجازٍ عمّا قاله أشهر الفلاسفة، ونبدأ مع **ديكارت**، "مرمم الفلسفة الحديثة". إذ يخبرنا هذا الرجل العظيم بنفسه: "تكمن قوة الحجة التي استخدمتُها حتى الآن لإثبات وجود الله بأكملها، في اقراري بعدم إمكانية أن أكون على هذا النحو بالطبع، أي، أن تكون لدي فكرة عن وجود الله، وإذا لم يكن موجودًا حقًا، فهذا الإله نفسه، أي الذي تكمن فكرته في ذهني، يمتلك كلّ تلك الأمور الكاملة السامية التي يمكن لعقلنا أن يمتلك فكرة ضئيلة عنها، ولكن من دون أن يكون قادرًا على فهمها".(١)

وذكر أيضًا: "لكوني موجود ولدي فكرة عن أفضل كائن؛ أي عن الله فيجب بالضرورة أن نستنتج من هذا وحده إثبات وجود الله بشكلٍ جلي".(٢)

أولاً: نردّ على **ديكارت**، أنّنا لا نمتلك الحق في استنتاج وجود الشيء؛ لأنّ لدينا فكرة عنه، إذ أنّ خيالنا يقدم لنا فكرة عن **سفنكس** sphynx، أو **هيبوغريف** hippogriff، من دون أن نمتلك الحق في أن نستنتج من هذا الظرف أنّ هذه الأمور موجودة بالفعل.

---

(١) أنظر التأمل الثالث، عن وجود الله، ص ٧١-٢.

(٢) ديكارت، الكتاب نفسه، ص. ٦٩

ثانياً: نقول لـ **ديكارت**، إنَّه من غير الممكن أن يمتلك فكرة إيجابية وصادقة عن الله الذي سيثبت وجوده، كحال اللاهوتيين. ومن المستحيل على البشر، والكائنات المادية أن يشكلوا لأنفسهم فكرة حقيقية، وصادقة عن الروح، والجوهر المفتقر للوجود، والكائن اللامحسوس الذي يتصرف بموجب الطبيعة المحسوسة والمادية، وهي الحقيقة التي أثبتناها بالفعل بما يكفي.

ثالثاً: ينبغي أن نقول له، إنَّه من المستحيل أن يمتلك الإنسان أيّ فكرةٍ إيجابية، وصادقة عن الكمال، واللاتناهِ، والفيض، وغيرها من الصفات التي وصف بها اللاهوت الإله. وبذلك فإنَّ الإجابة التي سنقدمها لـ**ديكارت** هي ذاتها التي قدمناها بالفعل في الفصل السابق للافتراض الثاني عشر للدكتور **كلارك**.

وبالتالي ليس هناك ما يحسم البراهين التي يستند إليها **ديكارت** في وجود الله. فهو يجعل لهذا الإله فكرًا وذكاءً، ولكن كيف تصور الذكاء أو الفكر، من دون ذاتٍ تستلزم هذه الصفات؟ إذ يدعي **ديكارت**: أنَّنا لا نستطيع أن نتصور الله إلا "كقوة تفرض نفسها تباعًا على أجزاءٍ من الكون". ويكرر القول: "قولنا إنَّ الله له امتداد يماثل قولنا إنَّ النار موجودة في قطعة الحديد؛ التي ليس لها أيّ امتدادٍ آخر بالمعنى الصحيح غير امتداد الحديد ذاته". ولكن، وفقًا لهذه الأفكار، لدينا الحقّ في اتهامه بالتصريح بطريقةٍ واضحة جداً، أنَّه لا يوجد إله آخر غير الطبيعة، وهذه محض سبينوزية. ونحن نعلم في الواقع، أنَّ **سبينوزا** صاغَ نسقه من مبادئ **ديكارت**؛ التي انبثق عنها بالضرورة.

ومن هنا يمكننا أن نتهم **ديكارت** لسببٍ وجيه بالإلحاد؛ نظرًا لأنَّه يهدم بطريقةٍ فعالة للغاية البراهين الضعيفة، التي يقدمها عن وجود الإله. ولدينا بالتالي أساس لنقول له: إنَّ نسقه يقلب فكرة الخلق رأسًا على عقب. إذ أنَّ الله قبل أنْ يخلق المادة بالفعل، لم يكن متعايشًا معها، أو متواجداً معها، وفي هذه الحال لم يوجد إله بحسب **ديكارت**، فمجرد النظر إلى التعديلات التي تطرأ على ذاته، يستلزم تلاشي هذه التعديلات بحد ذاتها. وإن لم يكن الله سوى الطبيعة بحسب الديكارتيين، فهم سبينوسيون تمامًا، وإذا كان الله هو القوة المحركة لهذه الطبيعة، وإذا لم يعد الله موجوداً بحد ذاته، لم يعد موجودًا من الذات التي هو متأصل فيها، أي، الطبيعة التي يمثل القوة المحركة لها. وهكذا، إن لم يعد الله موجودًا بحد ذاته، بل موجودًا فقط ما دامت الطبيعة التي يحركها موجودة، فما الذي سيحدث للقوة المحركة للكون من دون

مادة، أو من دون ذاتٍ تتحرك، وتحفظ، وتُحدث؟ وإذا كان الله هو هذه القوة المحركة، فماذا سيحدث له من دون عالَمٍ يستطيع فيه الاستفادة من عمله؟[1]

ومن هنا نرى أنَّ **ديكارت** يهدم فكرة الإله بالكامل، بغض النظر عن إثبات وجوده على أساسٍ متين. وسيحدث الشيء ذاته بالضرورة لكلّ أولئك الذين يستدلّون عليه، وينتهون دائمًا إلى دحضه ومناقضة أنفسهم. وسنجد الافتقار للاستدلال ذاته، والتناقضات ذاتها، في مبادئ الأب الشهير **مالبرانش**، والتي، يبدو أنَّها تقودنا إذا نظرنا إليها بقليلٍ من الاهتمام مباشرةً إلى السبينوزية، وما الذي يمكن أن يكون متوافقاً مع لغة **سبينوزا** بالفعل، أكثر من القول: إنَّ الكون ليس سوى انبثاق عن الله، وأنَّنا نرى كلّ شيء في الله، وأنَّ كلّ ما نراه هو الله وحده، وأنَّ الله وحده يفعل كلّ ما يجري، وأنَّ كلّ فعلٍ، وكلّ عمليةٍ تحدث في الطبيعة بأكملها هي ذاته، وبعبارة أخرى، أنَّ الله هو كلّ كائن، وهو الكائن الوحيد؟"

ألا يعني هذا صورياً أنَّ الطبيعة هي الله؟ إلى جانب أنَّ **مالبرانش**، يؤكد لنا في الوقت ذاته أنَّنا نرى كلّ شيء في الله، كما يقول: "لم يتضح إلى الآن إثبات وجود المادة والأجسام، والإيمان وحده يعلّمنا هذه الألغاز، التي لا ينبغي أن تكون لدينا أيّ معرفة من دونها على الإطلاق". وكان ذلك ردًا على سؤال طُرح عليه عن الطريقة التي يمكن فيها إثبات وجود الله الذي خلق المادة، وعمّا إذا كان وجود هذه المادة بحدّ ذاتها مازال مشكلة؟

ويعترف **مالبرانش** نفسه بأنَّه لا يمكن أن يكون لدينا إثباتٌ دقيق على وجود أيّ كائنٍ آخر غير الكائن الضروري، ويضيف أنَّه "إذا بحثنا الأمر عن كثبٍ، فسيتبين أنَّه من غير الممكن أن نعرف بيقين، ما إذا كان الله خالقاً حقًا لعالم مادي، ومعقول أم لا." وأمام هذه المفاهيم، يكون من الواضح وفقاً للأب **مالبرانش**، أنَّ البشر ليس لديهم سوى إيمانهم لضمان وجود الله، لكن الإيمان ذاته يدعم هذا الوجود، وإذا لم تكن متأكداً من وجود الله، فكيف نقتنع بوجوب إيماننا بما يُقال عنه؟

ومن الواضح من ناحية أخرى أنَّ مفاهيم **مالبرانش** هذه تقلب جميع المذاهب اللاهوتية رأسًا على عقب. إذ كيف يمكن التوفيق بين حرية الإنسان وفكرة الله، الذي هو القوة المحركة للطبيعة كلّها، ويحرك المادة والأجسام مباشرة، ولا يحدث شيء في الكون من دون قبوله، وهو

(1) See The Impious Man Convinced, or Dissertation against Spinosa, p.115, and sequel. Amsterdam, 1685.

الذي يحدد للمخلوقات كلّ ما تفعله مسبقاً؟ وبموجب هذا الاعتقاد، كيف يمكنهم القول: إنَّ أنفس البشر لها القدرة على تكوين الأفكار والرغبات، وتحريكها وتعديلها من تلقاء ذاتها؟ لو افترضنا مع اللاهوتيين أنَّ حفاظه على مخلوقاته يتمثل في خلقه المستمر، أَلَا يُمَكِّنُهُمْ اللهُ مِنْ إرتكابِ الشرِّ في حفظه لهم؟ من الواضح وفقاً لنسق **مالبرانش**، أنَّ الله يفعل كلّ شيء، وأنَّ مخلوقاته ليست سوى أدواتٍ لا حول لها ولا قوة تحت رعايته، وتخصّه خطاياهم، وفضائلهم. ولا يمكن أن يكون للبشر ميزةٌ أو عيبٌ، وهذا ما يفني كلّ دين. ولذلك ينشغل علم اللاهوت على الدوام بتحطيم ذاته.(١)

ولنرى الآن إذا ما كان **نيوتن** الخالد سيمنحنا أفكاراً أكثر صدقًا، وبراهين أكثر يقينًا، عن وجود الله. إذ حطم هذا الإنسان بعبقريته الشديدة الطبيعة، وقوانينها التي حيرته حينما كان غير مبصرٍ لها، وعبداً لتحيزات طفولته، ولم تكن لديه الشجاعة للحصول على شعلة فهمه النير للكائن الخرافي، الذي ربطوه من دون مبرر بالطبيعة، ولم يتصور أن تكون قواه كافية لإحداث كلّ تلك الظواهر التي شرحها بنفسه بسعادة. وبعبارة أخرى، إنَّ **نيوتن** العظيم ليس سوى طفل رضيع، عندما يتخلى عن الفيزياء والإثبات، ويفقد نفسه في مناطق اللاهوت الخيالية؛ وإليكم هنا الطريقة التي يتحدث بها عن الإله:(٢)

يقول: "هذا الإله المهيمن على الكل، ليس بصفتِهِ نفس العالم، ولكن بصفته ربّاً، وملكاً لكلّ الأشياء. ونتيجةً لسيادته، يُدعى الإله الرب، Παντοκρατωρ، والإمبراطور الكلي. ولكن لفظة الله نسبية بالفعل، وتتعلق بالعبيد، والربوبية هي هيمنة الله أو سيادته، ليس على جسده بل على العبيد، كما يعتقد أولئك الذين ينظرون إلى الله على أنّه نفسٌ لعالم الفكر".

ومن هنا نرى أنَّ **نيوتن**، وكذلك جميع اللاهوتيين، يجعلون إلههم روحًا محضًا، تترأس الكون، وملكٌ، وربٌّ عظيم، وطاغية؛ أي إنسان قوي، وأمير، يُحتذى بحكومته، وبوصفه نموذجًا يحتذي به ملوك الأرض أحياناً للهيمنة على رعاياهم، وتحويلهم إلى عبيد، وجعلهم عادةً يشعرون بوطئة سلطتهم، بطريقةٍ مؤلمةٍ للغاية. وهكذا، فإنَّ إله **نيوتن** طاغية؛ أيّ إنسان يتمتع بامتياز أن يكون خيراً متى يشاء، وظالما ومنحرفًا عندما يحدده خياله. ولكن وفقًا لأفكار **نيوتن**، لم يكن العالم موجودًا منذ الأزل، وقد تشكّل عبيد الله على مرّ الزمن؛ لذلك

(1) See The Impious Man Convinced, p. 143 and 214 .
(2) See Principia Mathematica, p.528, and sequel. London edition. 1726.

يجب أن نستنتج منه أنَّه قبل خلق العالم، كان إله نيوتن ذو سيادة بلا رعايا، أو أملاك. ودعونا نرى ما إذا كان هذا الفيلسوف العظيم أكثر انسجاماً مع نفسه، في الأفكار اللاحقة التي قدمها لنا عن طاغيته المؤله.

إذ يقول: "الله العظيم كائنٌ أزلي، ولا متناهٍ، وكاملاً بالمطلق، ولكن مهما كان كاملاً، إنْ لم يكن له سلطان، فهو ليس إلهٌ عظيم، ولفظة الله تعني الرب، لكن ليس كلّ ربّ هو الله، إنَّ سيادة الكائن الروحاني التي تعيين لفظة الإله؛ هي السيادة الصادقة التي تعيّن لفظة الإله الحق، والسيادة العظمى التي تعيّن لفظة الإله العظيم، هي سيادة زائفة تؤلف إلهًا مزيفًا. وينبثق عن السيادة الحقّة أنَّ الإله الحق حيّ، وذكيّ، وقادرٌ، ويترتب على كمالاته الأخرى كمالٌ مطلق، أو سيادي. وهو أزلي، ولامتناهٍ، وعليم، وهذا يعني أنَّه موجود منذ الأزل وباقٍ إلى الأبد: Durat ab aterno ab infinito in infinitum؛ ويهيمنُ على الجميع، ويعرف كلّ ما يجري، أو يمكن أن يجري. وهو ليس الأزلية، أو اللانهائية، بل أبدي ولامتناهٍ، وبلا مكان ولا زمان، لكنه موجود وحاضر (adest).[١]

ولا نرى في كلّ هذه المعضلة المبهمة، سوى جهوداً لا تصدق على التوفيق بين السمات اللاهوتية، أو الصفات المجردة، والصفات الإنسانية الممنوحة للملك المؤلَّه؛ ونرى فيه صفات سلبية، لم تعد مناسبة للإنسان، بل ممنوحة لسيادة الطبيعة التي يفترضون أنَّها ملكاً، ومهما كان الأمر، فهناك دائماً الإله العظيم الذي يتيح لرعاياه إثبات سيادته، وبالتالي يحتاج الإله إلى البشر ليمارس إمبراطوريته التي لن يكون ملكاً من دونها. ولو لم يكن هناك شيئاً، لما كان الربّ إلهاً. ومهما كان أمر هذا الرب، وهذا الملك الروحي، ألا يمارس إمبراطوريته الروحية عبثاً على كائنات تخرج عن مشيئته في كثيرٍ من الأحيان، وتناضل باستمرار ضده، وتعيث فساداً في ملكوته. إنَّ هذا الملك الروحي سيدًا لعقول رعاياه، ونفوسهم، وإراداتهم، وعواطفهم، التي ترك لهم بفضلها حرية التمرد ضده. وهذا الملك اللامتناهٍ، الذي تفيض عظمته في كلّ شيء، ويهيمن على كلّ شيء، هل يهيمن على من يذنب، وهل يوجّه أفعاله، أليس في داخله عندما يسيء إلى إلهه؟ أليست إمبراطورية الشيطان، والإله المزيف، وأساس الشر، أكثر اتساعاً من إمبراطورية الإله الحق، الذي تتغير مقاصده باستمرار وفقاً اللاهوتيين؟ أليس الملك

---

(١) يبدو أنَّ كلمة adest التي يستخدمها نيوتن في النص، وضعتْ لتجنب القول: إنَّ الله موجودًا في مكان ما.

الحق هو من تؤثر قدرته في حال ما على أكبر عددٍ من رعاياه؟ وإذا كان الله كلّي الوجود، أليس هو الشاهد الحزين، والشريك في تلك الأهوال التي تتعرض لها جلالته الإلهية في كلّ مكان؟ وإذا كان في كلّ شيء، أليس ممتداً، ألا يتطابق مع مختلف أبعاد المكان، ومن ثم ألا يكفّ عن كونه روحانياً؟

ويتابع **نيوتن**: "الإله واحد، وهو ذاته خالدًا، وفي كلّ مكان، وليس من حيث تأثيره فحسب، أو قدرته، بل أيضًا من خلال جوهره".

ولكن كيف يمكن للكائن الذي يحدث كلّ تلك التغييرات التي تجري على الكائنات، أن يكون هو ذاته دائماً؟ وما الذي تفهمه من خلال تأثير الله أو قدرته؟ وهل تقدّم هذه الكلمات الغامضة أيّ فكرةٍ واضحة لأذهاننا؟ وماذا نفهم عن الجوهر الإلهي؟ وإذا كان هذا الجوهر روحياً، وخاليًا من الامتداد، كيف يمكن أن توجد فيه أجزاء؟ وكيف يمكنه تحريك المادة؟ وكيف يمكن تصورها؟

ومع ذلك يخبرنا **نيوتن** أنَّ "كلّ الأشياء متضمنة فيه، ومتحركه فيه، ولكن من دون فعل متبادل (sed sine mutua passione). ولا يعتري الله شيئًا بفعل حركة الأجسام، وهذه الخبرة ليست معارضة على الإطلاق لوجوده الكلّي".

وهنا يبدو أنَّ **نيوتن** يقدم ميزات إلهية لا تصلح إلا للفراغ والعدم، ولا يمكننا أن نتصور من دون ذلك إمكانية ألا يكون هناك فعلٌ لتلك الجواهر المتغلغلة التي تحيط به من جميع الجوانب، أو علاقة متبادلة بينها. ومن الواضح هنا أنَّ المؤلف لا يفهم ذاته.

"تقول حقيقة لا جدال فيها: إنَّ الله موجود بالضرورة، وتلزمه الضرورة ذاتها بالوجود دائماً، وفي كلّ مكان؛ فمن أين استنتجنا أنَّه مماثل في كلّ شيء لذاته، وأنَّه كلّ العيون، وكلّ الأذان، وكلّ العقول، وكلّ الأذرع، وكلّ المشاعر، وكلّ ذكاء، وكلّ عمل، ولكنه ليس بشرياً بأيّ حال من الأحوال، وليس مادياً بأيّ حال من الأحوال، ومجهولٌ تماماً بالنسبة لنا. وكما أنَّ الأعمى لا يمتلك بالطريقة ذاتها أيّ فكرةٍ عن الألوان، فنحن أيضًا ليس لدينا أيّ فكرةٍ عن الطريقة التي يشعر الله فيها، ويفهم".

إنَّ وجود الإله الضروري هو بالضبط الشيء المعني، ومن الضروري أن تثبت البراهين هذا الوجود، وأن يكون الإثبات واضحًا، وقويًا، كما في الجاذبية، والتجاذب. ولو كان الأمر ممكناً، لأحاطت به عبقرية **نيوتن** بلا شك. ولكن آه أيُّها إنسان! كم كنت عظيمًا جدًا،

وقويًا جدًا، عندما كنت مهندساً، وكم كنت ضئيلاً جداً وضعيفًا جدًا عندما أصبحت لاهوتيًا، أي عندما تفكر فيما لا يمكن تفسيره، أو إخضاعه للتجربة، إذ كيف يمكنكَ أن تفكر في التحدث إلينا عن كائن اعترفتَ بذاتك أنَّه بالنسبة لك كما الصورة بالنسبة للأعمى؟ لماذا تتخلى عن الطبيعة، وتبحث في الأماكن الخاوية عن تلك العلل، والقوى، وتلك القدرة؟ وما الذي ستطلعكَ عليه الطبيعة في حدّ ذاتها، إذا كنت على استعداد لاستشارتها بدهائك العادي؟ لكن نيوتن العظيم لم تعد لديه أيُّ شجاعة، وتجاهلها طواعية، وكلما كانت المسألة مجحفة، رآها مقدسة بفعل العرف. ومع ذلك، دعونا نواصل البحث في مدى قدرة عبقرية الإنسان على تضليله، عندما يتخلى عن الخبرة والعقل، ويعاني بنفسه من استرشاده بخياله.

إذ يتابع أبو الفلسفة الحديثة: "الله يفتقر تمامًا للجسم، والشكل المحسوس، ولا ينبغي عبادته بأيّ شكلٍ مادي، بسبب عدم إمكانية رؤيته، أو لمسه، أو فهمه".

ولكن ما الأفكار التي يمكن صياغتها عن كائنٍ لا نمتلك أيُّ معرفةٍ بشأنه؟ وما العلاقات المفترض وجودها بيننا وبينه؟ وما الغاية من عبادته؟ ولو كنت تعبده بالفعل، لاضطررت رغمًا عن أنفك إلى جعله كائنًا مشابهًا للإنسان: حساسًا، وكريمًا، ومعطاءً، وودوداً مثله، وبعبارة أخرى، ستجعله ملكًا، وسيفرض احترامه على كلّ رعاياه كأولئك الموجودين في الأرض. ويضيف بالفعل:

"لدينا أفكارٌ عن صفاته، لكننا لا نعلم عنه أيّ جوهر، ونرى فقط أشكال الأجسام، وألوانها، ولا نسمع إلا الأصوات، ولا نلمس سوى المظاهر الخارجية، ولا نشمّ سوى الروائح، ولا نتذوق سوى النكهات، ولا يمكن أن توضح لنا أيّ من حواسنا، ولا أيّ من تأملاتنا، الطبيعة الصميمية للجواهر، ولا يزال لدينا القليل من الأفكار عن الله.

وإذا كانت لدينا فكرة عن صفات الله؛ فهذا لأنَّنا نمنحه تلك التي تنتمي لنا فحسب، ولا نفعل سوى تضخيم سموه، أو المبالغة به لجعلهم يحيدون عن تلك الصفات التي عرفناها في البداية. وإذا كنا لا نعلم من كلّ تلك الجواهر التي تمسّ حواسنا سوى ما تحدثه علينا من آثار، ووصفنا بموجبها تلك الصفات التي تمثل على الأقل شيئاً ما، فستولد فينا أفكارًا مميّزة، وواضحة. ومع أنَّ تلك المعرفة التي تزودنا بها حواسنا ضحلة، بيد أنَّها الوحيدة التي يمكن أن نمتلكها، ونكوّنها إذا جاز التعبير، ونجد أنفسنا مضطرين للاكتفاء بها، ونرى أنَّها تفي بغرضنا،

ولكننا لا نمتلك حتى الفكرة الأكثر اضمحلالاً عن إلهٍ متميز عن المادة، أو عن جميع الجواهر المعروفة، ومع ذلك نفكر فيه باستمرار!

"لا نعرف الله إلا من خلال صفاته، وخصائصه، والترتيب الفائق، والحكيم الذي أعطاه لكلّ الأشياء، وعللها الغائية، ونعجبُ به بفضل كمالاته".

أكرر أنَّنا لا نعرف الله إلا من خلال صفاته التي نستعيرها من أنفسنا. ولكن من الواضح أنَّها لا يمكن أن تصبح مناسبة للكائن الكلّي، الذي لا يمكن أن تكون له الطبيعة ذاتها، ولا الخصائص ذاتها ككائنات بعينها مثلنا. وبعد أن نسبنا بأنفسنا للإله ذكاءً، وحكمةً، وكمالاً، وجردناه مما نسميه عيوبًا فينا. سنجد أنَّ ترتيب الكون، أو نظامه الذي خلقه الله، بديعًا وحكيمًا، عندما يكون في صالحنا، أو عندما لا تعكر العلل التي تتعايش معنا صفو وجودنا، ونتذمر بخلافِ ذلك من الفوضى، وتلاشي العلل الغائية. وننسب إلى إلهٍ غير قابل للتغيير، عواطفًا استعرناها بالمثل من أسلوب عملنا؛ لنعكر صفو الترتيب الجميل، الذي يعجبنا في الكون. وهكذا يكون دائمًا في داخلنا، وفي نمط شعورنا الذي نستنبط منه أفكارنا عن الترتيب، وصفات الحكمة، والتفوق، والكمال الذي نصف به الإله، في حين يكون كلّ خير، وكلّ شر يحدث في العالم عبارة عن نتائج ضرورية لماهيات الأشياء، والقوانين العامة للمادة؛ أي، الجاذبية، والتجاذب، والتنافر، وقوانين الحركة التي طورها نيوتن بجد ذاته جيداً، لكنه لم يجرؤ على تطبيقها، حيث كانت هناك مسألة تتعلق بالشبح الذي ينسب إليه التحيزُ شرف كلّ تلك المعلولات التي تعدّ الطبيعة العلّة الحقيقي لها.

"نحن نقدس الله، ونعبده بسبب سيادته، ونعبده بوصفنا عبيده، ولن يكن الإله المفتقر للسيادة، والعناية الإلهية، والعلل الغائية سوى الطبيعة، والقدر".

ونحن نعبد في الحقيقة الله كعبادة العبيد الجهلاء الذين يرتعشون تحت وطأة سيدٍ لا يعرفونه، ونصلي له بحماقة، رغم وصفه لنا على أنَّه ثابت، ورغم أنَّ هذا الإله ليس في الواقع سوى طبيعة تتصرف بالضرورة بموجب قوانين مجسّدة على نحوٍ ضروري، أو القدر الذي نطلق عليه اسم الله.

ومع ذلك، يخبرنا نيوتن: "عن ضرورةٍ مادية، وعمياء، تقودنا في كلّ مكان، وهي دائماً ذاتها، ولا يمكن أن يصدر أيّ تنوعٍ لدى الكائنات؛ ولا يمكن أن يكون للتنوع الذي نراه أساسًا إلا بموجب أفكار كائن موجود بالضرورة، وبفضل مشيئته".

لكن لماذا لا يحدث هذا التنوع نتيجة عللٍ طبيعية، وعن مادة تعمل من تلقاء ذاتها، وتجذب الحركة إليها، وتجمع بين كينوناتٍ مختلفة أو تفصل بينها، بمساعدة جواهر فرعية غير مناسبة لتوحيدها؟ أليس الخبز نتيجة مزيجٍ من الدقيق، والخميرة، والماء. أما فيما يتعلق بالضرورة العمياء، كما قيل في مكانٍ آخر، فهي تلك التي نجهل طاقتها، أو لا نبصرها بأنفسنا، ولا نمتلك معرفة بطريقة عملها. إذ يشرح الفلاسفة جميع الظواهر من خلال خصائص المادة، وعلى الرغم من رغبتهم في معرفة العلل الطبيعية، غير أنّهم لا يؤمنون باستنتاجها من خصائصها، أو عللها. كم الفلاسفة ملحدين في هذا! وإلا لأجابوا بأنَّ الله واجدٌ لكلّ هذه الظواهر.

"يُقال مجازاً: إنَّ الله يرى، ويسمع، ويتكلم، ويبتسم، ويحبّ، ويكره، ويرغب، ويعطي، ويتقبل، ويبتهج، أو يغضب، ويقاتل، ويصنع ويشكّل...الخ؛ لأنَّ كلّ ما يُقال عن الله، مستعار من سلوك البشر بنوعٍ من التشبيه الناقص".

ولم يتمكن الناس من العمل بخلافِ ذلك، لعدم تمكنهم من التعرّف على الطبيعة، وسبلها، وتخيلوا طاقةً خاصة أطلقوا عليها اسم الله، وجعلوه يتصرف وفقاً للمبادئ ذاتها، التي عملوا بها هم أنفسهم، أو التي تصرفوا وفقاً لها. ولو كانوا أربابًا من هذه الروحانية التي انبثقت عنها كلّ تلك الأفكار السخيفة، والخطيرة في كثيرٍ من الأحيان، وتأسست عليها جميع ديانات العالم، لعبدوا جميعهم في إلههم رجلًا، قويًا، وشريرًا. وسنرى في النتيجة الآثار المدمرة التي نتجت عن الأجناس البشرية، وعن تلك الأفكار؛ التي شكلوها لأنفسهم عن الإله الذي لم ينظروا إليه إلا على أنَّه ذو سيادة مطلقة، ومستبد وطاغية. أما حالياً فدعونا نواصل دراسة البراهين التي قدّمها لنا الربوبيون عن وجود إلههم الذي يتخيلون أنَّهم يرونه في كلّ مكان.

وبالفعل، يرددون على مسامعنا باستمرار: أنَّ الحركة المنتظمة، والترتيب الثابت الذي نراه يسود في الكون، وتلك المنافع التي تنهال على البشر، تفصح عن حكمةٍ، وذكاءٍ، وخيرٍ، لا يمكننا بموجبها أن نرفض الاعتراف بالعلّة التي تحدث هذه المعلولات العجيبة. وقد نجيب: بأنَّ الحركة المنتظمة التي نشهدها في الكون تمثلُ النتيجة الضرورية لقوانين المادة، ولا يمكن أن تكفّ عن التصرف بالطريقة التي تعمل بها، طالما أنَّ العلل ذاتها تؤثر فيها، وتتوقف هذه الحركات المنتظمة، ويحلّ النظام محل الاضطراب، بمجرد أن يحصل تشويش في العلل الجديدة، أو تكفّ الأولى عن التأثير. وكما شاهدنا في موضعٍ آخر، فإنَّ النظام هو النتيجة الوحيدة

الحاصلة لنا من سلسلة الحركات، ولا يمكن أن يكون هناك أيّ اضطراب حقيقي يتعلق بالكلّ العظيم، حيث يكون كلّ ما يحدث ضرورياً، وتحتمه قوانين لا يمكن أن يغيرها شيء.

وقد يتناقض نظام الطبيعة، أو ينتفي بالنسبة لنا، لكنه لا يتناقض أبداً مع ذاته؛ لأنَّه لا يمكن أن يكون بخلاف ذلك. وإذا نسبنا الذكاء، والحكمة، والخير إلى العلة المجهولة، أو المفترضة لهذه المعلولات بموجب ما نراه من حركة منتظمة، ومنظمة جيداً، فنحن ملزمون بطريقة مماثلة بأنَّ ننسب إليه التهور والخبث، وتصبح هذه الحركات مضطربة في كلّ حين، وإذا جاز التعبير، تكفّ عن أن تكون مضطربة بالنسبة لنا، أو تحدث تشويشاً لنا ولنمط وجودنا.

ويُقال: إنَّ الحيوانات تقدم دليلًا مقنعًا على وجود علّة قويةٍ لوجودها، وأنَّ التناغم الرائع بين أجزائها، والذي نرى أنَّه يمنح بعضها البعض العون المتبادل لبلوغ الغاية من آداء وظائفها، والحفاظ عليها معاً، يفصح لنا عن صانعٍ يوحد بين الحكمة، والقدرة.(١)

ولا يمكننا الشكّ في قوة الطبيعة التي تحدث جميع الحيوانات التي نراها بفضلِ تركيب المادة ذات الفعل المستمر، وينجم الانسجام القائم بين أعضاء هذه الحيوانات ذاتها عن القوانين الضرورية لطبيعتها، وتركيبها، وبمجرد انتهاء هذا التناغم يفنى الحيوان بالضرورة. ولكن ما الذي يحدث إذن لحكمة هذه العلّة المزعومة، وذكاؤها، أو خيرها، والتي ينسبون إليها شرف هذا الانسجام الذي يتباهون به كثيراً؟ ألا تفنى دائماً هذه الحيوانات الرائعة جدًا؛ التي

---

(١) لاحظنا بالفعل في مكانٍ آخر أنَّ العديد من المؤلفين اقتبسوا أجزاءًا كاملة من علم التشريح، وعلم النبات؛ بهدف إثبات وجود ذكاء إلهي، ولم يثبتوا سوى وجود عناصر في الطبيعة ملائمة لتوحيدها، وتنظيمها، وإدارتها بطريقةٍ تشكّل كليات، أو مجموعات يمكن أن تحدث تأثيرات معينة. وهكذا لا تكشف هذه الكتابات التي حازت على سعة الاطلاع، إلا عن وجود كائنات في الطبيعة تتنوع من حيث تنظيمها، ومكونة بطريقة معينة، ومناسبة لاستخدامات معينة، وما كان لها أن توجد بالشكل الذي هي عليه في الوقت الحاضر، لو كفتْ جزيئاتها عن العمل على هذا النحو، وهذا يعني أنَّها منظمة بطريقةٍ تؤدي إلى نجاح بعضها البعض. ولا يثير دهشتنا وجود حيوان، أو نباتٍ، أو شجرة بقدر ذهولنا من أنَّ دماغ الحيوان، وقلبه، وعينيه، وشرايينه وكليتاه تعمل بالشكل الذي هي عليه، وأنَّ جذور النبات تمتص السوائل، أو الشجرة تثمر فاكهة. ولو كفتْ هذه الكينونات عن التصرف على هذا النحو، لما كانت موجودة أو ما عادت كما نعرفها، وهذا ما يحدث عندما تموت. وإذا كان تكوينها، وتركيبها، وطرق عملها، والحفاظ على حياتها لفترة من الزمن، دليلاً على أنَّ هذه الكينونات ناجمة عن علّة ذكية، فيجب أن يثبت فناؤها، وانحلالها، والتوقف التام لأسلوب عملها، وموتها بالطريقة ذاتها، أنَّ هذه الكينونات ناجمة عن علّةٍ تفتقر إلى الذكاء، والآراء الدائمة. وإذا قيل لنا: إنَّ آرائه مجهولة لنا، فيجب أن نسأل: بأيّ حقٍ إذن يمكن أن يعزونها إلى هذه العلّة، أو كيف يمكن تفسيرها؟

أحدثها كما قيل إلهٌ لا يتبدل، ولا يتغيّر باستمرار؟ أين الحكمة، والخير، والبصيرة، وعدم القابلية للتبدل، لصانعٍ يبدو أنَّه مشغولٌ فقط بتشويش، وتحطيم موارد تلك الآلات التي تُعلَن لنا على أنَّها تحفاً ناجمة عن قوته، وقدرته. وإذا لم يستطع هذا الإله العمل بخلافِ ذلك، لم يعد حراً، ومقتدراً. وإذا غيّر مشيئته، لم يعد ثابتاً. وإذا أجازَ لتلك الآلات التي جعلها محسوسة، أن تعاني الألم، فهو يريد صلاحها. وإذا لم يكن قادراً على جعل أعماله أكثر صلابةً، فهو يفتقر إلى القدرة. وعندما نرى أنَّ الحيوانات، وكذلك جميع أعمال الإله الأخرى، تتحلل، لا يمكننا منع أنفسنا من أن نستنتج من ذلك أنَّ كلّ ما تفعله ضروري، وليس سوى نتيجة لقوانينها، أو أنَّ الصانع الذي صنعها يفتقر إلى الخطة، والقدرة، والاستقرار، والمقدرة، والخير.

إنَّ الإنسان الذي ينظر إلى نفسه على أنَّه تحفة الإله، يقدم أكثر من أيّ إنتاج آخر، دليلاً على عجز موجده المزعوم، أو خبثه، وفي هذا الكائن العاقل، والذكي، والمفكّر الذي يعتقد أنَّه موضوعًا ثابتًا للميل الإلهي، ويشكّل إلهه وفقاً لنموذجه الخاص به، لا نرى سوى آلةً متقلبةً، وهشة، وعرضة للانحراف عن ذاتها؛ بسبب تعقيدها الكبير، أكثر من الكائنات الفظة. وتكون الحيونات المحرومة من معرفتنا، والنباتات، والحجارة الخالية من الشعور في نواحٍ كثيرة، كائنات مفضلة أكثر من الإنسان؛ لكونها معفية على الأقل من مآسي العقل، ومن تباريح الفكر، ومن هذه الكآبة النهمة، التي كثيراً ما يقع فريسةً لها. ولكن من ذا الذي لم يكن حيواناً أو حجراً، في كلّ مرة يسترجع في مخيلته خسارة أمرٍ محبب له، ولا يمكن تعويضه؟ أليس من الأفضل أنْ تكون جماداً على أنْ تكون كائنًا قلقًا، ومؤمنًا بالخرافات، ولا يفعل شيئاً سوى أن يرتعش تحت نير إلهه في الحياة الدنيا، ويتنبأ مرةً أخرى بعذاباتٍ لا متناهية في الآخرة؟ إذ لا تتأثر الكائنات المفتقرة للشعور، والحياة، والذاكرة، والتفكير، بفكرة الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولا تؤمن بحدّ ذاتها في خطورة أن تصبح تعيسة إلى الأبد؛ نتيجة تفكيرها السيئ، مثل العديد من الكائنات المفضلة التي تدّعي بأنَّ معماري العالم هو من بنى الكون لها وحدها.[1]

---

(١) يقول شيشرون: "الاختلاف الأهم بين الإنسان وحيوان الغابة، هو أنَّ الأخير يتكيف مع ما هو موجود وما هو حاضر، ولا يكترث بشأن للماضي وللمستقبل"، وبالتالي، فإنَّ ما يتوق إليه الإنسان باعتباره امتيازاً له، ليس سوى عيبٌ حقيقي. وقال سينيكا: "وما عذابنا سوى بفعل الرغبة في خوض غمار للماضي؛ لأنَّ الذاكرة ـــ

وهنا لا يسعنا سوى القول: إنَّنا لا نستطيع أن نمتلك فكرة العمل من دون أن يكون لدينا أيضاً ما يميز الصانع عمّا صنعه. والطبيعة ليست مصنوعة، وكانت دائماً موجودة بذاتها، ويعمل كلّ شيء في كنفها في هذه الحياة الدنيا. وهي معقدة للغاية، ومزودة بالمواد، وتصنع الأدوات التي تعينها على العمل، وكلّ أعمالها ناجمة عن طاقتها الذاتية، وتلك العوامل، أو العلل التي تحدثها، وتحتويها، وتعمل عليها. وتكون العناصر الأزلية، وغير المخلوقة، وغير القابلة للفناء، دائمة الحركة، وتركب بعضها البعض على نحوٍ مغاير، وتلد جميع الكائنات، وجميع الظواهر التي تراها أعيننا، ونشعر بكلّ النتائج سواء أكانت خيرة أم شريرة، ولا نميز بين الترتيب والفوضى أبداً، إلا من خلال الأنماط المختلفة التي نتأثر بها؛ أي، كلّ تلك الظواهر الرائعة التي نتأملها، ونفكر فيها. ولهذا الغرض، لا تؤلف هذه العناصر سوى خصائصها، سواء كانت منفردة أو متحدة، والحركة التي تعتبر ضرورية لها، من دون أن يكون من الضروري إرجاعها إلى صانعٍ مجهول لترتيبها، وتصميمها، وتركيبها، وحفظها، وتحليلها.

ولكن، لنفترض على سبيل المثال، أنّه كان من المستحيل تصور الكون من دون صانعٍ شكّله، وكان رقيباً على عمله، فأين سنضع هذا الصانع؟ هل سيكون داخل الكون أم خارجه؟ أهو مادة، أم حركة، أو بالأحرى هل هو مجرد مكان، أم عدماً، أم خواءً؟ إما أنّه لا شيء من كلّ هذه الحالات، أو أنّه متضمن في الطبيعة ويخضع لقوانينها. فإنْ كان في الطبيعة، فلا أستطيع أن أرى مادة متحركة، وأن أستنتج منها أنَّ الفاعل الذي يحركها محسوس ومادي، ويخضع بالتالي للاضمحلال. وإذا كان هذا الفاعل خارج الطبيعة، فلم تعد لدي أيّ فكرةٍ عن المكان الذي يشغله، ولا يمكنني تصور كائن غير مادي، ولا الوضع الذي يمكن فيه لروحٍ بلا امتداد أن تعمل على مادة منفصلة عنها. وليس لتلك الأماكن المجهولة التي يضعها الخيال خارج حدود العالم المرئي، وجود بالنسبة للكائن الذي لا يرى أبعد من أخمص قدميه، ولا يمكن أن استخلص من ذهني القوة المثالية الكامنة فيها، ولكن عندما تجمع مخيلتي عشوائياً بين الألوان الخيالية؛ التي اضطر دائماً إلى استخلاصها من عالمي، فلن

تسترجع لنا رعشة الخوف، وتتوقع العناية الإلهية، وما من بائسٍ سوى الحاضرون". ألا يمكننا أن نسأل، كلّ نزيه يخبرنا أنَّ الإله الخير خلق الكون من أجل سعادة جنسنا العاقل، أخلقتَ بنفسك عالماً يحتوي على الكثير من البائسين؟ ألم يكن من الأفضل الامتناع عن خلق هذا العدد الكبير من الكائنات العاقلة، بدلاً من جلبهم إلى الحياة بغرض جعلهم يعانون؟

أفعل في هذه الحالة، أكثر من إعادة إنتاج الفكرة التي كانت حواسي قد أدركتها حقًا، وسيعود هذا الإله الذي أسعى لتمييزه عن الطبيعة، أو وضعه خارج كنفها، إليها دائماً بالضرورة رغمًا عن أنفي.(١)

وسيأكدون أنَّه: إذا عُرض تمثال، أو ساعة على بربري لم يسبق له أن شاهدها من قبل، فلن يكون قادرًا على منع نفسه من الاعتراف أنَّ هذه الأشياء كانت من عملِ فاعلٍ ذكي، لديه قدرة واجتهاد أكثر منه؛ وسوف نستنتج بناءً على ذلك أنَّنا ملزمون بأسلوبٍ مماثل على الاعتراف بأنَّ آلة الكون، والإنسان، وظواهر الطبيعة المختلفة، أعمال لفاعلٍ يفوق ذكاءه، وقدرته ما لدينا من قدرةٍ بكثير.

وأجيب في المقام الأول: أنَّه لا يمكننا الشك في أنَّ الطبيعة قوية للغاية، ودؤوبة بذاتها، ونحن معجبون بفاعليتها، وفي كلّ مرة نتفاجأ بتلك التأثيرات الواسعة، والمتنوعة، والمعقدة التي نجدها في تلك الخاصة بعملها، ونتحمل عناء التأمل فيها، ومع ذلك فهي ليست دؤوبة في عملٍ أكثر من غيره. ولم نعدْ نفهم كيف كانت قادرة على إنتاج حجرٍ، أو معدن، أكثر من رأسٍ منظم مثل رأس نيوتن. ونحن نسمي ذلك الرجل دؤوباً، ويستطيع أن يفعل أشياءً لا نستطيع نحن أنفسنا القيام بها، ويمكن للطبيعة فعل كلّ شيء؛ ومجرد وجود الشيء، دليلاً على أنَّها كانت قادرة على صنعه. وبالتالي، لا يسعنا سوى أن نحكم بأنفسنا على الطبيعة بأنَّها دؤوبة، ثم نقارنها بأنفسنا. وبما أنَّنا نتمتع بخاصية نسميها الذكاء، ومساعدة تلك التي ننتج بها الأعمال، أو نظهر بها صناعتنا، فإنَّنا نستنتج أنَّ أعمال الطبيعة التي تذهل أكثرنا، لا تنتمي إليها، بل يجب أن تُنسب إلى صانعٍ ذكي مثلنا، والذي نقدّر فيه الذكاء لما تثيره أفعاله فينا من دهشة، أيّ بضعفنا، وجهلنا.

وفي المقام الثاني: قد يمتلك البربري الذي سنجلب له تمثالاً أو ساعةً، أفكاراً عن الصناعة البشرية أو تكون لديه مثل هذه الأفكار، وفي حال كانت لديه أفكار عنها، فسيشعر أنَّ هذه الساعة أو هذا التمثال، قد يكون من عمل كائنٍ من نوعه، ويتمتع بتلك

---

(١) يقول هوبز: "العالم مادي؛ له أبعاد الحجم، أيّ الطول والعرض والعمق. وكلّ جزء من الجسم، جسم وله الأبعاد ذاتها، وبالتالي، فإنَّ كل جانب من جوانب الكون هو عبارة عن جسم، وما ليس جسماً، فهو ليس طرفاً من الكون، ولكن بما أنَّ الكون هو كلّ شيء، فإنَّ من يصنع طرفاً منه، ليس طرفا فيه ولا يمكن أن يكون كذلك". (See Hobbes' Leviathan, chap.46.)

للملكات التي يفتقر إليها هو ذاته. وإذا لم تكن لدى البربري أيّ فكرةٍ عن الصناعة البشرية، ومصادر الفن، عند نظره إلى الحركة الذاتية للساعة، فسوف يعتقد أنّها حيوان، ولا يمكن أن تكون من عمل الإنسان. وتؤكد الخبرات المتعددة أسلوب التفكير الذي أنسبه إلى هذا البربري.(1) وهكذا، بالطريقة ذاتها التي يؤمن بها عددٌ كبير من البشر الذين يؤمنون بأنّهم أكثر فطنةً منه، سينسب هذا البربري التأثيرات الغريبة التي يراها إلى الجان، والروح، والإله؛ أي إلى القوة المجهولة التي سينسب لها قدرات يعتقد أنَّ أبناء جنسه يفتقرون لها تماماً، وبهذا لن يثبت شيئاً سوى أنَّه يجهل ما يمكن للإنسان صنعه. ومن ثم فإنَّ الناس البدائيين، وغير المثقفين ينظرون إلى السماء في كلِّ مرة يشاهدون فيها بعض الظواهر غير المعتادة. وبهذا يُسمي الناس كلّ هذه المعلولات العجيبة للعلل الطبيعية التي يجهلونها، معجزات، وخوارق، وإلهية. والجزء الأكبر منهم لا يعرف علّة أيّ شيء، وكلّ شيء معجزة بالنسبة لهم، أو يتصورون على الأقل أنَّ الله هو علّةُ كلِّ خيرٍ، وكلّ شر يعانون منه. وبعبارة أخرى، يحلّ اللاهوتيون جميع الصعوبات في عزو كلّ ما يجهلونه، أو لا يرغبون أن يفهم البشر علله الحقيقية إلى "الله".

في المقام الثالث: قد يشعر البربري عندما يفتح الساعة، ويفحص أجزائها، أنَّ هذه الأجزاء تمثل عملاً لا يمكن أن ينجم سوى عن عملٍ بشري. وسيرى أنّها تختلف عمّا تحدثه الطبيعة مباشرةً، والتي لم يرها تحدث عجلات مصنوعة من المعدن المصقول. وسيرى مرة أخرى أنَّ هذه الأجزاء، منفصلة عن بعضها البعض، ولم تعد تتصرف كما كانت معاً، وبموجب هذه الملاحظات، سينسب البربري الساعة إلى براعة الإنسان، أيّ إلى كائنٍ مثله، ولديه أفكارٌ عنه، لكنه يرى أنَّه قادرٌ على القيام بأشياءٍ لا يعرف هو نفسه كيف يفعلها. أي أنَّه سينسب شرف هذا العمل إلى كائنٍ يعرفه في بعض النواحي، ويزوده ببعض الملكات المتفوقة على ملكاته، لكنه لن يفكر في أنَّ الفعل المادي يمكن أن يكون نتيجةً لعلّةٍ غير مادية، أو فاعلٍ يفتقر إلى الأعضاء، والامتداد، ومن المستحيل أن يتصور أنَّ الفعل ناجمٌ عن كائنات مادية، بينما ننسب، لعدم معرفة الكائن بقوة الطبيعة، شرف عملها إلى كائنٍ لدينا معرفة به أقل بكثيرٍ منها، وننسب إليه على الأقل ما نفهمه من أفعالها دون دراية منا.

(1) نظر الأمريكيون إلى الإسبان على أنَّهم آلهة؛ لأنَّهم استخدموا البارود وركبوا الخيل، وامتلكوا سفناً تبحر لوحدها تماماً. أما سكان جزيرة تينيان الذين لم يكن لديهم علمٌ بالنار قبل وصول الأوروبيين فقد اعتبروها عند رؤيتهم لها لأول مرة، حيواناً يلتهم الحطب.

وبالنظر إلى العالم، نعترف بوجود علّةٍ مادية لتلك الظواهر؛ التي تحدث فيه، وهذه العلّة هي الطبيعة التي تظهر طاقتها لمن يدرسها.

دعونا لا نقول بموجب هذه الفرضية: إنّنا ننسب كلّ شيء إلى علّةٍ عمياء، وإلى تلاقي الذرات بالمصادفة؛ أي الصدفة. ونسمي تلك فقط بالعلل العمياء التي لا نعرف تركيبها، وقدرتها، وقوانينها. ونطلق اسم المصادفة على تلك المعلولات التي نجهل عللها، ويمنعنا جهلنا، وقلّة خبرتنا من التنبؤ بها. وننسب إلى الصدفة كلّ تلك المعلولات التي لا نرى ترابطاً ضروريًا بعللها. ولكن الطبيعة ليست علّة عمياء، ولا تتصرف بالصدفة، ولا شيء تفعله سيكون مصادفةً بالنسبة لمن ينبغي أن يعرف أسلوب عملها، ومواردها، ومسارها. وكلّ ما تنتجه ضروري، ولا ينجم سوى عن قوانينها الراسخة، والثابتة، وكلّ شيء فيها متصل بروابط غير مرئية، وكلّ تلك التأثيرات التي نراها تنتج بالضرورة من عللها، سواء كنا نعرفها أم لا. ومن الممكن جداً أن يكون هناك جهلٌ من جانبنا، لكن الألفاظ: الله، والروح، والذكاء، لن تشفينا من هذا الجهل، ولن تفعل أكثر من مضاعفته من خلال منعنا من البحث عن العلل الطبيعية لتلك المعلولات التي تُطلعنا عليها ملكاتنا المرئية.

وقد يكون هذا بمثابة إجابةٍ على الاعتراض الأزلي، والموجه إلى أنصار الطبيعة الذين يُتهمون باستمرار بنسب كلّ شيء إلى الصدفة. وهي كلمةٌ خالية من المعنى، أو على الأقل تشير فقط إلى جهل من يستخدمها. ويُقال لنا رغم ذلك، ويتكرر ذلك باستمرار، أنَّ العمل المنتظم لا يمكن أن يُنسب إلى توليفات الصدفة. ولن يكون من الممكن أبداً على حدّ علمنا، الوصول إلى صياغة قصيدة، مثل الإلياذة، عن طريق الحروف التي أُلقيت، أو رُكبت عشوائيًا معاً. ونتفق عليها من دون تردد، ولكن هل تُلقى تلك الحروف باليد مثل النرد، وتؤلف قصيدةً ببراعة؟ قد يكون من المفيد أنْ نقول: إنّه يمكننا نطق الخطاب بالقدمين. وأنَّ الطبيعة هي التي تجمع بموجب قوانين معينة وضرورية، رأساً منظماً بطريقة ما لتأليف قصيدة، وهي التي تمنح الإنسان دماغاً قادرًا على إحداث مثل هذا العمل، وهي التي تمكّنه بفضل المزاج، والخيال، والعواطف التي تمنحها للإنسان، من صناعة تحفةٍ، يجعلها دماغه المعدل بطريقةٍ معينة، والمزين بالأفكار، أو الصور، متقنة بحسب الظروف، ويمكن أن تصبح المصفوفة الوحيدة التي يمكن من خلالها تصور القصيدة، وتطويرها. بيد أنَّ رأساً منظمًا مثل رأس **هوميروس**، مزودًا بالقوة ذاتها والخيال ذاته، وغنيًا بالمعرفة ذاتها، وموضوعاً في الظروف ذاتها،

سينتج بالضرورة، وليس عن طريق الصدفة، قصيدة الإلياذة؛ على الأقل إذا لم ينكروا أنَّ العلل المتشابهة في كلّ شيء، يجب أن تنتج معلولات متطابقة تمامًا.(١)

ومن ثم، من السخف، أو التملّق الحديث عن التأليف وكأننا نتحدث عن شيء ترميه اليد، أو أنّنا جمعنا الحروف معاً بالصدفة؛ ذلك أنَّ التأليف لا يمكن القيام به إلا بمساعدة دماغٍ منظم، ومعدل بطريقةٍ معينة. ولا تنمو البذرة البشرية من تلقاء ذاتها بالصدفة، ولا يمكن تصورها، أو تشكيلها إلا في رحم المرأة. ومجموعة مشوشة من الصفات، أو الأشكال ليست سوى مجموعة من العلامات تهدف إلى صياغة الأفكار، ولكن من أجل صياغة هذه الأفكار، كان من الضروري أن يتلقاها دماغ الشاعر سابقاً، ويدمجها، ويتزود بها، ويطورها، ويربطها، وتثمر وتنضج بحسب الظروف، ونتيجة خصوبة التربة التي ألقيت فيها هذه البذور الفكرية، ودفئها، وقدرتها. وعند تجميع الأفكار والتوسّع بها، والربط بينها، وضمها إلى بعضها بعض، تشكّل كلاً مثل كلّ أجسام الطبيعية؛ ويمتعنا هذا الكل عندما يولد بأفكارٍ مقبولة في أذهاننا، ويعرض علينا صوراً تثيرنا بطريقةٍ مفعمةٍ بالحيوية، ومن ثم فإنَّ قصيدة **هوميروس** المصممة في دماغه، لها القدرة على إمتاع أدمغة مماثلة له، وقادرة على الشعور بجمالها.

ومن ثم نرى أنَّه ما من شيءٍ يُصنع بالصدفة. وتنبثق جميع أعمال الطبيعة من بعض القوانين الموحدة، والثابتة، سواء كان بوسع أذهاننا أن تتبع سلسلة من العلل المتعاقبة المحدثة لها، أو إذا كنا نجد في أعمالها الأكثر تعقيدًا، صعوبة في التمييز بين المصادر المختلفة التي

---

(١) ألا يجب أن نندهش إذا كان هناك مائة ألف نرد في صندوق النرد، ورأيناها تحمل جميعها الرقم ستة على التوالي؟ نعم سيُقال بلا شكٍ: لا بدّ أن نتوقف عن الدهشة، إن كان كلّ هذا النرد محكومٌ، أو محشو. ومن ثم يمكن مقارنة جسيمات المادة بالنرد المحكوم، أي تنتج دائماً نتائج محددة، ومعينة، وتتنوع هذه الجسيمات في حدّ ذاتها بالأساس، من حيث تركيبها، وتكون محكومة بعددٍ لا نهائي من الأنماط المختلفة. ولم يكن دماغ هوميروس، أو فيرجيل سوى مجموعة من الجسيمات، أو إذا اختاروا من النرد المحكوم بالطبع، سيكون مجموعة من الكائنات المركبة، والمشكلة بطريقةٍ تؤلَّف فيها الإلياذة، أو الإنيادة. كما يمكن أن يُقال بالقدر ذاته عن جميع المنتجات الأخرى، سواء كانت من الذكاء، أو من عمل يد البشر. وفي الواقع ما البشر إلا نردٌ محكوم، أو آلات جعلتها طبيعتها قادرة على إنتاج أعمالٍ من نوع معين؟ وينتج العبقري عملاً جيداً بالطريقة ذاتها التي تنتج بها شجرةٌ أنواعاً ذات مذاق طيب، فإنْ وضعنَاها في أرض خصبة وزُرعت بعناية، فستنتج ثماراً ممتازة.

تسبيها.[١] إنَّ ولادة الطبيعة لشاعرٍ عظيمٍ، قادر على تأليف عملٍ مثيرٍ للإعجاب، أسهل من إنتاجها لمعدنٍ لامعٍ، أو حجر ينجذب نحو المركز. ولا نجهل بالقدر ذاته الطريقة التي تتخذها لاحداث هذه الكائنات المختلفة، إن لم نتأمل فيها. إذ يولد الإنسان بفضل التوافق الضروري بين بعض العناصر، وينمو، ويزداد قوةً بالطريقة ذاتها كالنبات أو الحجر، والتي تنمو أيضاً مثله بفضل تلك المواد التي تدخل إليها، وتندمج مع بعضها بعض في داخلها، ويشعر هذا الإنسان، ويفكر ويتصرف، ويتلقى الأفكار، أي أنَّه يتعرض بفضل منظومته الخاصة لتحولاتٍ، لا تكون بمقدور النبات والحجر تماماً: ونتيجة لذلك، ينتج العبقري الأعمال ويثمر النبات الفاكهة، وكليهما تسرنا، وتذهلنا؛ لما تثيره فينا من احساسات، أو بحسب ندرة النتائج التي تجعلنا نشعر بها، وحجمها، وتنوعها. وأكثر ما نجده مثيراً للإعجاب في إنتاجات الطبيعة، وعند الحيوانات أو البشر، ليس أكثر من تأثير طبيعي لأجزاء من المادة، مرتبة، ومجمعة على نحوٍ مختلف، ومن هنا ينتج عنها أعضاءٌ، وأدمغة، وأمزجة، وأذواق، وخصائص، ومواهب مختلفة.

وبذلك لا تصنع الطبيعة سوى ما هو ضروري، ولا تنتج الكائنات التي نراها من خلال الاتفاقات العرضية، وعن طريق رميات الصدفة، وكلّ رمياتها يقينية، وكلّ العلل التي تحدث بها معلولاتها معصومة من الخطأ. ونادراً ما يحدث أن تنتج كائنات غير عادية، ورائعة، ونادرة،

(١) لا توفر لنا اليقظة المتواصلة والبحث المضني في كثيرٍ من الأحيان، للمعلومات التي نبحث عنها، ولكن في بعض الأحيان يكافأ العمل الدؤوب للفيلسوف بإلقاءِ الضوء على عمليات الطبيعة الأكثر غموضاً. وهكذا أدّت شهرة نيوتن الواسعة، وجهده الاستثنائي، إلى تطوير النظام الشمسي الذي استعصى على بحث جميع علماء الفلك؛ الذين سبقوه لآلاف السنين. وهكذا فإنَّ حكمة هارفي التي أمدته بالقوة لتطبيقه، أخرجته من الغموض الذي دُفن فيه لقرونٍ لا حصر لها تقريباً، وهو المسار الصحيح الذي اتبعه السائل الدموي، فمتى سرى في عروق وشرايين الإنسان منح الفاعلية لعضويته، وأنعش منظومته، ومكّنه من أداء تلك المهام التي كثيراً ما تصيب العالم المفعم بالدهشة والحسرة. وهكذا صمد غاليليو بفضل سرعة بديهته، وعمق تفكيره المميز له، أمام عالمٍ مثير للإعجاب، وهو الشكل، والوضع الفعلي للكوكب الذي نعيش فيه، والتي غابت حينها عن ملاحظة العباقرة الأعمق تفكيراً — للميتافيزيقيين الأكثر دهاءً- والتي اعتبرت عند الاعلان عنها لأول مرة، متناقضة جداً مع جميع الآراء الواردة آنذاك، (إلى جانب زيف قصة يشوع الذي أوقف الشمس، كما هو مدون في الكتاب المقدس!) وصُنف على أنَّه مجدِّف عاق، لعقد شراكة مع من سيؤمنْ بالتأكيد للعامة ملاذاً في مناطق العذاب الأبدي، وفي الواقع، حرم البابا غريغوري الذي شغل بعد ذلك الكرسي البابوي، كلّ من تجرأ على تبني عقيدة بغيضة!

عند ترتيب الأشياء، أو الظروف اللازمة، أو تزامن العلل المنتجة لهذه الكائنات. وحالما تتواجد هذه الكائنات التي تُنسب إلى الطبيعة، يكون كلّ شيء بالنسبة لها سهلاً على حدٍ سواء، ويكون كلّ شيء ممكناً على قدم المساواة، عندما تجتمع الأدوات، أو العلل اللازمة للعمل. لذلك دعونا لا نحدّ من قوى الطبيعة. ويمكن أن تحدث الرميات، والتركيبات التي تصنعها منذ الأزل بسهولة كلّ الكائنات، ويجب أن يجلب مسارها الأبدي بالضرورة، والظروف الأكثر ادهاشاً، والأكثر ندرة، مراراً وتكراراً تلك الكائنات التي لا يمكن أخذها بالحسبان للحظة فقط، من دون أن تستلزم وقتًا، أو وسيلة للبحث في العلل الأساسية. وتكفي الرميات اللامتناهية منذ الأزل، والعناصر والتركيبات المتنوعة إلى أقصى حد، لإنتاج كلّ ما لدينا معرفة به، والعديد من الأشياء الأخرى التي لن نعرفها أبداً.

وبالتالي، لا يمكننا في كثيرٍ من الأحيان أنْ نردد كلمة Deicolists المؤلهون، أو مؤيدي وجود الله، الذين ينسبون عمومًا آراء سخيفة لخصومهم، من أجل الحصول على انتصارٍ سهل وعابر من وجهة نظر أولئك المتحيزين؛ الذين لا يجرؤون على التوغل في فحص أيّ شيء، ولا تكون هذه الصدفة سوى كلمة متخيلة، كحال لفظة "الله"، لإخفاء جهل البشر بالعلل الفاعلة في طبيعةٍ لا يمكن تفسير مسارها في كثيرٍ من الأحيان. وما من صدفة أحدثت العالم، بل إنَّه موجود على ما هو عليه بالضرورة، ومنذ الأزل. ومهما كانت طرق الطبيعة مخفية، ولا يعتري وجودها الشك، يكون نمط عملها معروفًا لنا على الأقل أكثر بكثيرٍ مما يخص الكائن الذي لا يمكن تصوره، والذي قيل: إنَّه مرتبط بها ومتميز عنها، وقد افترضَ أنَّه ضروري وقائم بذاته، على الرغم من أنَّه لم يكن من الممكن إثبات وجوده حتى الآن، وتحديده، وقول أيّ شيءٍ محسوسٍ عنه، ولا صياغة أيّ تفسيرٍ لشيءٍ عنه سوى تخميناتٍ، تتبدد بمجرد أن نفكر بها.

الفصل الرابع

وحدة الوجود أو الأفكار الطبيعية عن الإله

وحدة الوجود أو الأفكار الطبيعية عن الإله

نفهم مما سبق ذكره، أنَّ جميع البراهين التي يزعم اللاهوت أنَّه اكتشف وجود إلهه بفضلها، قائمة في مبدأ كاذب مفاده: إنَّ المادة ليست قائمة بذاتها، ومن غير الممكن أن تتحرك بطبيعتها من تلقاء ذاتها. ولا يمكنها بالتالي أن تُحدث تلك الظواهر التي تسلب أنظارنا المذهلة في امتداد العالم الشاسع. وبموجب هذه الافتراضات غير المبررة، والزائفة، كما أظهرنا حقًا في موضعٍ آخر،[1] اعتُقد أنَّ المادة لم تكن موجودة دائمًا، بل تدين بوجودها، وحركتها إلى علةٍ متميزة عنها، وفاعلٍ غير معروف، ولمن كانت تابعة له. كما اكتشف البشر في حدّ ذاتهم ملكةً يسمونها ذكاءً، تدير جميع أفعالهم، ويبلغون بمساعدتها الغاية التي يقررونها لأنفسهم؛ فنسبوا الذكاء إلى هذا الفاعل غير المرئي، لكنهم وسعوا نطاق هذه الملكة لديه، ومجدوها، وبالغوا في تقديرها؛ لأنَّهم جعلوه خالقًا لمعلولاتٍ ظنوا أنَّهم عاجزين عن خلقها، أو افترضوا أنَّ العلل الطبيعية لا تمتلك ما يكفي من القوة لإحداثها.

ونظرًا لعدم القدرة على إدراك هذا الفاعل، أو تصور أسلوب فعله، ابتكروا لفظة "الروح"، وهي كلمة تعيّن مدى جهلنا بماهيته، أو أنَّها تتصرف كحال النَفس التي لا يمكننا إقتفاء أثرها. وكذلك الأمر عند تعييننا لروحانيته، فإنَّنا لم نفعل سوى منح الله ملكةً غامضة، وحكمنا بملائمتها لكائنٍ مخفي دائمًا، ويتصرف باستمرار في وضعٍ لا تدركه الحواس. ومع ذلك يبدو أنَّ المقصود بكلمة "روح" بالأصل هو تحديد مادة أكثر رقةً من تلك التي تلتصق بخشونة بالأعضاء، وهي قادرة على اختراق هذه المادة، وإيصال الحركة والحياة إليها، وإحداث تلك المركبات، والتعديلات التي تكشفها أعضائنا المرئية. وكما رأينا، كان هذا

(١) انظر الجزء الأول، الفصل الثاني، حيث أظهرنا أنَّ الحركة ضرورية للمادة. وما هذا الفصل إلا ملخصًا للفصول الخمسة الأولى من الجزء الأول، والتي من المفترض أن يستذكرها القارئ، وسوف ينقله تذكره لهذه الأفكار إلى ما بعدها.

"المشتري"، الذي صُمم بالأساس ليمثّل في لاهوت القدماء المادة الأثيرية التي تخترق جميع الأجسام التي تشملها الطبيعة، وتمنحها نشاطًا وحيوية.

وسنخدع أنفسنا بالفعل إن اعتقدنا أنَّ فكرة روحانية الله ظهرتْ في المراحل الأولى للعقل البشري كما نجدها اليوم. وكما أفدنا سابقًا، كانت هذه المادية؛ التي تستبعد أيّ مماثلة، وتشابهٍ مع أيّ شيء يمكننا معرفته، نتيجة بطيئة ومتأخرة لخيال البشر الذين اضطروا إلى التأمل بالمحرك الخفي للطبيعة، من دون أن يستعينوا بالخبرة، وتوصلوا تدريجيًا إلى تشكيل هذا الشبح المثالي، وهذا الكائن سريع الزوال، الذي جعلنا نعشقه دون أن نكون قادرين على تحديد طبيعته، بخلاف الكلمة التي يتعذّر علينا ارفاقها بأيّ فكرة صحيحة.(١) وبالتالي لم تعد لفظة "الله" تمثل أيّ صورة بفعل التفكير، والتمحيص، ويستحيل فهمها بمجرد حديثهم عنها؛ نظرًا لأنَّ كلّ منهم رسمها بطريقته الخاصة، ولم يستشر في لوحته التي قدمها سوى مزاجه الغريب، ومخيلته، وتبجيلاته الخاصة. وإنْ كانوا متفقين في بعض النقاط التي اعتقدوا أنّها مناسبة للكائن المبهم، الذي ولدوا بفضله؛ بيدَ أنّهم لم يميزوه إلا بصفاتٍ لا يمكن تصورها، ولم ينجم عن مجموعة هذه الصفات غير المتوافقة سوى الكل، الذي من المستحيل وجوده بالمطلق. وبعبارة أخرى، لم يعد سيد العالمين، ومحرك الطبيعة المقتدر، وذلك الكائن الذي قيل لنا: "إنَّه أهم ما يجب معرفته بفضل التخيلات اللاهوتية"، أكثر من لفظةٍ غامضة تفتقر إلى المعنى؛ أو بالأحرى لفظ فارغ ربطه كلّ منهم بأفكاره الخاصة. إنَّه الله الذي استُبدل بالمادة، والطبيعة، وهو المعبود الذي لا يجوز للبشر الامتناع عن تبجيله.

---

(١) انظر ما قيل عن هذا في الفصل السابع من الجزء الأول. على الرغم من أنَّ الأطباء الأوائل للكنيسة المسيحية قد استمدوا من الفلسفة الأفلاطونية مفاهيمهم الغامضة عن الجواهر الروحانية، وغير المحسوسة وغير المادية، والقوى الفكرية، وما إلى ذلك. علينا فقط أنْ نتصفح كتبهم، لنقنع أنفسنا أنَّه ليس لديهم تلك الفكرة عن الإله؛ الذي قدمه لنا اللاهوتيون في يومنا هذا. وكما قلنا في مكان آخر: نظر ترتليان إلى الله على أنَّه محسوس. وروى سرافيس باكيًا: أنَّهم حرموه من إلهه، وجعلوه يتبنى رأي الروحانية، التي لم تكن مع ذلك دقيقة كما كانت حينها. وأعطى العديد من آباء الكنيسة لله شكلاً بشريًا، وعاملوا أولئك الذين جعلوه روحًا على أنَّهم هراطقة. كما يُنظر إلى كوكب المشتري في اللاهوت الوثني على أنَّه أصغر أبناء زحل، أو الدهر، والإله الروحي عند المسيحيين هو النتيجة الأحدث للدهر؛ وما هذا سوى خضوع لهذا الإله الذي تشكل تدريجيًا، والغالب لكلّ الآلهة الذين سبقوه. وتصبح الروحانية للملاذ الأخير للاهوت؛ الذي وصل إلى جعل الله أكثر من نفخة أمل، ولا شك في الواقع أنَّ هذا الإله يتعذر بلوغه، وهو على هذا النحو؛ لأنَّ مهاجمته مجرد وهم.

ومع ذلك، وجِدَ بشر يمتلكون من الشجاعة ما يكفي لمقاومة هذا الفيض من الآراء، والهذيان؛ لاعتقادهم أنَّ ما أعلن عن نفسه أنَّه الأهم بالنسبة للفانين، والأساس الوحيد لأفعالهم وأفكارهم، يتطلب بحثًا دقيقًا. واستنتجوا: أنَّه لو كان من الممكن الاستفادة من الخبرة، أو الحكم، أو العقل، لاعتبرناها من دون شك على أنَّها السلطان العظيم الذي حكم الطبيعة، ونظّم مصير كلّ ما تحتويه من كائنات. وسرعان ما أدركوا عدم قدرتهم على تأييد الرأي العام للجاهل؛ الذي لا يختبر أيّ شيء، ولا يتبّع ارشاداتهم، ويخدع الآخرين، أو خدعهم، ومنعهم من فحصها، أو ربما كانوا هم أنفسهم غير قادرين على إجراء مثل هذا الاختبار لها. وهكذا تجرّأ بعض المفكرين على التخلص مما فُرض عليهم من نيرٍ في طفولتهم، وعبّروا عن اشمئزازهم من المفاهيم الغامضة، والمتناقضة، وغير المنطقية؛ التي اعتدنا على ربطها، ومن دون تفكير بالاسم الغامض للإله؛ الذي استحال عليهم تعريفه، ودعمه بالعقل. ونظرًا لما خلفه لهم هذا الوهم الهائل من رعبٍ، ثاروا على الرسوم البشعة التي زُعم أنَّها تمثّله، وكانت لديهم الجرأة لتمزيق حجاب الضلال، والخداع، واعتبروا وهم مطمئنين، أنَّ هذه القوة المزعومة باتت موضوعًا دائمًا للآمال، والمخاوف، وأحلام اليقظة ومشاجرات البشر العميان. وسرعان ما اختفى الشبح من أمامهم؛ وسمحت لهم راحة بالهم برؤية كلّ مكان، بيد أنَّ الطبيعة تتصرف وفقًا لقوانين ثابتة، تتخذ من العالم مسرحًا لها، ويمثل فيها البشر، وكذلك جميع الكائنات الأخرى أعمالًا، وأدوات، ملزمة بإنجاز قرارات الضرورة الأبدية.

ومهما كانت الجهود التي نبذلها لسبر أغوار الطبيعة، بيد أنَّنا لا نكتشفها أبدًا، وكما ردّدنا مرات عدة، بأنَّ المادة لا تتنوع في حدّ ذاتها، وتتعدل بتنوع من دون مساعدة الحركة. ولا تظهر لنا بمجملها، وكذلك جميع أجزائها، إلا بصورة علل، ومعلولاتٍ ضرورية ينشأ أحدها من الآخر، ويستطيع عقلنا بمساعدة الخبرة إلى حدٍ ما أن يكتشف الصلة بينها. وبفضلِ هذه الخصائص المحددة، فإنَّ جميع الكائنات التي نراها تتحرك بفعل الجاذبية، وتنجذب، وتتنافر من بعضها البعض؛ وتولد وتفنى، وتتلقى الحركة، والصفات، والتعديلات، وتنقلها، وتحتفظ بها لفترة ما ضمن وجودٍ معين، أو تنقلها إلى نمطٍ جديد من الوجود. وما هي سوى تقلبات مستمرة ننسبها إلى كلّ الظواهر التي يشهدها العالم، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، وعادية أم استثنائية، ومعروفة أم مجهولة، وبسيطة أم معقدة.

وأصبح لدينا بفضل هذه التغييرات معرفةً بالطبيعة؛ ولم تعد غامضة إلا لأولئك الذين ينظرون إليها عبر حجاب التحيز، ويكون مسارها دائمًا بسيطًا لأولئك الذين ينظرون إليها دون رأيٍ مسبق.

ولكي نعزو المعلولات التي تشهدها أعيننا إلى الطبيعة، وإلى المادة المركبة على نحوٍ مختلف، وإلى الحركة المتأصلة فيها، فإنَّنا نمنحها سببًا عامًا، ومعروفًا للتغلغل بعمق أكثر، ونغرق أنفسنا في مناطق خيالية، لا نجد فيها سوى هاوية من الشكوك، والغموض. ولذلك دعونا لا نسعى إذن إلى مبدأ محرك خارج الطبيعة، وماهيته دائمة الوجود، ويتحرك من تلقاءِ ذاته، ولا يمكن تصوره بالتالي من دون خصائص، كأن يكون متحركًا، وجميع أجزائه تعمل، وتستجيب، وتبذل جهودًا متواصلة؛ ولا يمكن العثور على جزيءٍ واحد في حال سكون مطلق، دون أن يشغل بالضرورة المكان الذي حددته له قوانين ضرورية. ولما كانت حركة المادة نابعة بالضرورة من وجودها، وامتدادها، وأشكالها، وجاذبيتها، وما إلى ذلك، وكان توقف الطبيعة عن العمل ليس ناجمًا عنها، فما الداعِ إذن لأن نبحث خارج المادة عمّا يمنحها القوة الدافعة؟

وإذا طُرح علينا سؤال: كيف يمكننا أن نكوّن بأنفسنا فكرة مفادها: أنَّ المادة تستطيع إحداث جميع المعلولات التي نشهدها بفعل طاقةٍ خاصة بها؟ سأجيب: إذا كانت المادة مصممة بصلابة لا نفهم منها سوى أنَّها كتلة ميتة، وخاملة، ومفتقرة لأيّ خاصية، وليست بالفعل، وغير قادرة على تحريك نفسها، فلن يعد لدينا بعد الآن فكرةٌ عن المادة. وبمجرد وجودها، يجب أن تكون لها خصائص، وصفات؛ وحالما تكون لها خصائص لا يمكن أن توجد بدونها، يجب أن تتصرف بحكم خصائصها؛ لكوننا لا نستطيع معرفة وجودها، وخصائصها إلا من خلال عملها. ويتضح أنَّنا إذا فهمنا المادة بخلاف ذلك، أو أنكرنا وجودها، فلن نتمكن من أن نُنسب إليها تلك الظواهر؛ التي تنقلها لنا أعضائنا البصرية. ولكن إذا فُهمت طبيعتها على ما هي عليه حقًا، كحفنةٍ من مادة موجودة، ومزودة بخصائص، فسنكون ملزمين بالاعتراف بأنَّ الطبيعة يجب أن تتحرك من تلقاء ذاتها، وتكون قادرة بحركتها المتنوعة، ومن دون عونٍ مغاير لها، على إحداث المعلولات التي نراها، وسنجد أنَّ لا شيء يمكن أن ينجم عن لا شيء، وما من شيءٍ يحدث بالصدفة. وأنَّ طريقة عمل كلّ جسيمٍ من المادة يتحدد بالضرورة بفعل ماهيته الخاصة، أو خصائصه الفردية.

وقلنا في موضعٍ آخر: إنَّ ما لا يمكن إفنائه، أو إهلاكه لا يمكن أن تكون له بداية في الوجود. وما لا يمكن أن تكون له بداية، فهو موجود بالضرورة، أو يحتوي في ذاته على العلّة الكافية لوجوده الخاص. ومن غير المجدي إذن البحث فيما وراء الطبيعة، أو عن علة قائمة بذاتها، وتكون معروفة لنا على الأقل في بعض النواحي، وعلة أخرى نجهل وجودها تمامًا. وإن كنا نعرف بعض الخصائص العامة في المادة، ونكتشف بعض صفاتها، فلماذ نبحث عن وجودها في علة غامضة، لا يمكننا أن نعرف فيها أيّ خاصية؟ ولماذا نرجع إلى عمليةٍ وهمية غير قابلة للتصور، وتحددت بكلمة "الخلق"؟[1] ألا يمكننا تصور أنَّ كائنًا غير مادي، استطاع أن يستخلص المادة من أصله؟ وإذا كان الخلق قد نشأ من العدم، ألا نستنتج من ذلك أنَّ الله الذي أحدثه من أصله الغريب، قد خلقه من عدمٍ، وهو نفسه عدمًا؟ وأولئك الذين يتحدثون إلينا باستمرار عن فعل القدرة الإلهية؛ التي استبدلت بالعدم كتلةً لامتناهية من المادة دفعة واحدة، هل يفهمون جيدًا ما يخبروننا به؟ هل يقتنع هنا الإنسان على الأرض، أنَّ كائنًا خاليًا من الامتداد، يمكن أن يوجد، ويصبح علّةً لوجود الكائنات؛ التي لها امتداد، وتعمل بموجب المادة، وتستخلصها من ماهيتها الخاصة، وتحركها؟ ولكننا في الحقيقة، كلما نظرنا أكثر إلى اللاهوت، ورواياته المضحكة السخيفة، زادت قناعتنا بأنَّه لم يفعل أكثر من اختراع الكلمات الخالية من المعنى، واستبدال الحروف بالحقائق المعقولة.

بيد أنَّنا ألقينا بأنفسنا في عالمٍ فكري، شغلناه بالأوهام، بسبب حاجتنا إلى الخبرة الاستشارية، ودراسة الطبيعة والعالم المادي. ولم نتواضع للنظر في الأمر، ومتابعته في أطواره، وتغيراته المختلفة. وخلطنا بسخافة، أو ببراعة بين الانحلال، والتحلل، والفصل بين الجسيمات الأولية؛ التي تتكون منها الأجسام، وتفكيكها جذريًا، ولم نكن راغبين في رؤية أنَّ العناصر كانت غير قابلة للفناء، على الرغم من أنَّ أشكالها كانت عابرة، وتعتمد على مركبات زائلة. ولم نميز بين تغيير الشكل، والوضع، والملمس، حيث تكون المادة مسؤولة عن

(١) اعترف بعض اللاهوتيين بصراحة أنَّ نظرية الخلق مبنية على فرضية يؤديها احتمالٌ ضعيف، وابتُكرت بعد عدة قرون من يسوع للمسيح. ويفترض أحد المؤلفين، الذين سعوا إلى دحض سبينوزا، أنَّ ترتليان كان أول من قدم هذا الرأي ضد فيلسوف مسيحي آخر أيد خلود المادة. راجع: "قناعة الإنسان غير التقي" نهاية التصريح. كما أنَّ مؤلف هذا الكتاب، يعترف أنَّه من المستحيل محاربة سبينوزا دون الاعتراف بالتعايش الأبدي بين المادة والله.

فنائها، وهو أمرٌ مستحيل تمامًا، واستنتجنا خطأً أنَّ المادة لم تكن كائنًا ضروريًا، وأنَّها بدأت في الوجود، ومدينةً بوجودها لكائنٍ مجهول، وضروري أكثر منها؛ وأصبح هذا الكائن المثالي هو الخالق، والقوة المحركة، والحافظ لأسرار الطبيعة. وهكذا، استُبدل اسم فارغ بالمادة التي تزودنا بأفكارٍ حقيقية عن الطبيعة، ولو لم تحجب آراؤنا المجردة أعيننا باستمرار، لاختبرنا فيها الفعل، والقوة في كلّ لحظة، وامتلكنا معرفةً أفضل بكثير.

ولكن في حقيقة الأمر، تُظهر لنا أبسط مفاهيم الفلسفة، أنَّ الأجساد على الرغم من تغيرها وتلاشيها، إلا أنَّها لا تفقد شيئًا من طبيعتها، كما أنَّ المخلفات المتنوعة للجسد المتحلل، تكون مفيدة لعناصر الأجساد الأخرى، وموادها، وأساس تكوينها، ونموها، والحفاظ عليها. ولا تستمر الطبيعة كلّها، ويحافظ عليها إلا من خلال السيرورة، والتغير، والتحول، والإزاحة الدائمة للجسيمات، والذرات غير المحسوسة، أو المركبات المحسوسة للمادة.

ويستمر الكل العظيم من خلال هذا التناسخ Palingenesia، أو الانبعاث الروحي، كحال زحل عند القدماء؛ الذي انشغل دائمًا بالتهام أبنائه. ولكن يمكن القول من جوانب أخرى: إنَّ الإله الميتافيزيقي الذي انتزع عرشه، حرمه من ملكة الإنجاب، والعمل منذ أن احتل عرشه.

ولذلك دعونا نعترف أنَّ المادة موجودة بذاتها، وأنَّها تعمل من خلال طاقتها الخاصة، ولن تفنى أبدًا. ونفترض أنَّ هذه المادة أبدية، وأنَّ الطبيعة كانت منهمكة بالكون والفساد، والفعل والعطالة، بموجب القوانين المترتبة على وجودها الضروري، وستظل على هذا النحو. ونظرًا لأنَّ كلّ ما تفعله لا يحتاج إلا إلى الجمع بين العناصر والمادة المتنوعة بالأساس، فستنجذب إلى بعضها البعض، وتتنافر، وتتصادم مع بعضها البعض، أو توحد معًا، وتبتعد عن بعضها البعض، أو تقترب من بعضها، وتتماسك معًا، أو تنفصل عن بعضها البعض. ومن ثم تنجم عنها النباتات، والحيوانات، والبشر، أو كائنات منظمة، وعاقلة، ومفكرة، بالإضافة إلى تلك التي تفتقر للشعور، والتفكير. ولا تعمل كلّ هذه الكائنات إلا لمدة خاصة بكلّ منها، ووفقًا لقوانين ثابتة تحددها خصائصها، وتكوينها، وكتلها، ووزنها، وما إلى ذلك. وها هو الأصل الحقيقي لكل ما يمثلُ أمام ناظرنا، يظهر الوضع الذي تكون فيه الطبيعة بقوتها الخاصة، وفي حال إحداثها لكلّ تلك المعلولات التي تشهدها أعيننا، وكذلك جميع الأجساد التي تعمل بتنوعٍ بموجب الأعضاء التي زودتْ بها، والتي لا نحكم عليها إلا وفقًا

للطريقة التي تتأثر بها هذه الأعضاء. ونقول: إنَّها خيِّرة، عندما تكون ملائمة لنا، أو تسهم في الحفاظ على الانسجام فينا، وشريرة عندما تعكّر صفو هذا الانسجام، وننسب بالتالي مقصدًا، وأفكارًا، وتصاميم إلى الكائن الذي جعلناه قوةً محركة للطبيعة التي افترضنا أنَّها تفتقر إلى التخطيط، والذكاء.

ولكن الطبيعة محرومة منه فعليًا، ولا تمتلك ذكاءً أو غاية، وتتصرف بالضرورة؛ لأنَّها موجودة على هذا النحو. وتكون قوانينها قابلة للتحول، وقائمة على ماهية الأشياء، فماهية مني الذكر على سبيل المثال: مكونة من عناصر بدائية تعمل على أساس كائنٍ منظم، وتتحد بذاتها مع بويضة الأنثى، لتخصبها، وتحدث من خلال دمجها معها كائنًا منظمًا جديدًا، وضعيفًا من حيث أصله؛ بسبب افتقاره لوجود كمية كافية من جزيئات المادة المناسبة لمنحه الاتساق، ولكنه يقوى تدريجيًا، بإضافة الجسيمات اليومية والمستمرة، والمماثلة والمناسبة لوجوده؛ وهكذا يحيا، ويفكر، ويتغذى، ويلد بدوره كائنات منظمة مماثلة له. ولا يحدث التكاثر إلا عندما تكون الظروف اللازمة لإحداثه ملائمة لتتحد معا؛ نتيجة القوانين الفيزيائية الثابتة. ولا يحدث هذا التوالد بالصدفة، ولا يلد الحيوان إلا حيوانًا من جنسه؛ لأنَّ هذا هو الحيوان الوحيد الذي يماثله، أو الذي يضم الصفات المناسبة ليلد كائنًا مشابهًا له، ولن يلد شيئًا من دون هذا، ولن يلد إلا كائنًا نسميه مسخًا؛ لأنَّه سيكون مختلفًا عنه. ومن ماهية بذور النبات: أن تأتي أُوكُلُها ببذرةٍ قادرة على حمل الزهرة، وتتطور من تلقاء ذاتها نتيجةً لذلك في باطن الأرض، وتنبت بفضل الماء، وتجذب لذلك الغرض جزيئات مماثلة، ويتكون النبات تدريجيًا، من شجيرة إلى شجرة قابلة للحياة، والعمل، والحركة، ومناسبة لتؤتي ثمارها. ومن ماهية ذرات التراب الموهنة، والمقسمة، والمنفصلة بفعل الماء، والحرارة، أن تتحد مع ما يماثلها من تلقاء ذاتها في كنفِ الجبال، وبحسب تماثلها أو تشابهها إلى حدٍ ما، تشكل بمجملها أجسامًا صلبة، ونقية نوعًا ما، ونسميها بلورات، وحجارة، وفلزات، ومعادن. ومن ماهية الزفير المتصاعد بفعل حرارة الغلاف الجوي، أن يتحد، ويتجمع من تلقاء ذاته، ويتصادم مع بعضه البعض، ليحدث اتحاده أو تصادمه نيازكًا، ورعدًا. ومن ماهية بعض للمواد القابلة للاشتعال أن تتجمع، وتتخمر، وتسخن من تلقاء ذاتها في كهوف الأرض، لتحدث تلك الانفجارات الرهيبة، وتلك الزلازل التي تدمر جبالًا، وسهولًا، ومساكن أممٍ مرعوبة، ويتضرع سكانها لكائن مجهول بشأن الشرور التي جعلتهم الطبيعة يكابدونها، بقدر ما

أغدقت عليهم من فوائد. وبعبارة أخرى، من ماهية مناخ معين أن يجعل البشر أكثر تنظيمًا، وتعديلًا، بحيث يصبحوا مفيدين للغاية، أو يلحقون الضرر بنوعهم، بالطريقة ذاتها التي تطرح بها بقاع معينة من التربة ثمارًا مقبولة، أو سمومًا خطيرة.

ولا غاية للطبيعة في كلّ هذا، وهي موجودة بالضرورة، وتحدد قوانين معينة أنماط تصرفها، وتنجم هذه القوانين عن الخصائص المكونة للكائنات المختلفة؛ التي تحتويها، وتلك الظروف؛ التي يجب أن تحدثها الحركة المستمرة بالضرورة. ونحن نمتلك بأنفسنا هدفًا ضروريًا، وهو الحفاظ على أنفسنا، وبهذا ننظم كلّ الأفكار التي نشكلها بأنفسنا عمّا يؤثر فينا من عللٍ، ونحكم عليها من خلالها. ونحيا، ونعيش كحال المتوحشين، وننسب نفسًا، وحياةً إلى كلّ ما يؤثر فينا، وننسب تفكيرنا وذكائنا إلى كلّ ما هو ذكي، ويفكر. ولكن لكوننا نرى مادة غير قادرة على تعديل نفسها بنفسها، نفترض أنّها تحركت بفعل فاعل أو علةٍ أخرى، ونماثل دائمًا بيننا وبينها. وننجذب بالضرورة إلى ما هو نافع لنا، وننفر مما يلحق الضرر بنا، ونكفّ عن التفكير في أنّ أنماط شعورنا ناتجة عن تنظيمنا الخاص، وتتغير بفضل العلل المادية؛ فتجعلنا نخطئ من جهلنا للأدوات التي يستخدمها كائن ننسب إليه أفكارنا، وآرائنا، وعواطفنا، وطريقة تفكيرنا وتصرفنا.

وإذا طُرح علينا سؤال بعد هذا: ما غاية الطبيعة؟ ينبغي أن نجيب: إنّها تعمل على كيانها ككل، وتبقيه، وتحافظ عليه. وإذا سألونا: ما الداعي لوجودها؟ ينبغي أن نجيب: بأنّها موجودة بالضرورة، وأنّ جميع عملياتها، وحركاتها، وأعمالها، ما هي إلا نتائج ضرورية لوجودها الضروري. ويوجد ما هو ضروري، وهو الطبيعة أو الكون، وهذه الطبيعة تفعل ما تفعله بالضرورة. وإذا كنتَ ترغب في أن تستبدل بلفظة "الله" كلمة الطبيعة، فربما يُطرح عليك للسبب ذاته السؤال التالي: ما الداعي لوجود هذا الإله؟ كما يمكن أن تُسأل: ما الغاية من وجود الطبيعة؟ وهكذا، فإنّ لفظة "الله" لن تخبرنا عن الغاية من وجوده. ولكن عند الحديث عن الطبيعة، أو الكون المادي، ينبغي أن تكون لدينا أفكار ثابتة، ومحددة عن العلة التي نتحدث عنها، باستثناء أنّنا في حديثنا عن الإله اللاهوتي، لن نعرف أبدًا ما يمكن أن يكون، أو ما إذا كان موجودًا، ولن نكن منصفين في الصفات التي يمكننا تخصيصها له. وإذا منحناه سمات معينة، فسوف نكون دائمًا نحن من يجب أن يمنحها، وسوف نشكّل الكون لنا وحدنا، وهي أفكار دحضناها بالفعل بما فيه الكفاية. ولكي نحرر أنفسنا من الأوهام، يكفي أنْ نفتح أعيننا، ونرى أنّنا نخضع

من حيث أسلوبنا إلى مصير نشترك فيه مع جميع الكائنات المجتمعة في الطبيعة، وتخضع مثلنا للضرورة التي لا تزيد عن مجموع تلك القوانين التي تلتزم الطبيعة باتباعها.

وهكذا يثبت لنا كلّ شيء أنَّ الطبيعة، أو المادة موجودة بالضرورة، ولا يمكن أن تنحرف عن تلك القوانين التي يفرضها وجودها عليها. وإن لم يكن فناؤها ممكنًا؛ فلا يمكن أن تكون لها بداية. ويتفق اللاهوتيون أنفسهم على ضرورة أن يكون هناك فعل من أفعال القدرة الإلهية المطلقة، أو ما يسمونه معجزة لإفناء كائنٍ ما، ولكن إن لم يتمكن الكائن الضروري من خلق معجزة، أو الانتقاص من القوانين اللازمة لوجوده، فيجب أن نستنتج: أنَّه إذا كان الله هو الكائن الضروري، فكلّ ما يفعله نتيجةً لضرورة وجوده، وأنَّه لا يمكنه أبدًا أن يحطّ من قدر قوانينه. ولكن قيل لنا من ناحية أخرى: إنَّ الخلق معجزة، بيد أنَّه يستحيل أن يكون عن كائنٍ ضروري، وعاجزًا عن التصرف بحرية في أيّ من أفعاله. إلى جانب أنَّ المعجزة ليست بالنسبة لنا سوى أثرٌ نادر، نتجاهل علته الطبيعية، وهكذا، عندما يُقال لنا: إنَّ الله يخلق معجزة، فإنَّنا لا نتعلم شيئًا، إلا أنَّ علةٍ مجهولة أحدثتْ بطريقةٍ غير معروفة، معلولًا لم نكن نتوقعه، أو يبدو غريبًا بالنسبة لنا. وتسليمًا بهذا، فإنَّ تدخل الله لا يفيد سوى زيادتها، بغض النظر عن استبعاد الجهل الذي نجد أنفسنا فيه أمام قوة الطبيعة، ومعلولاتها. ولا يمثل خلق المادة، والعلة التي يُنسب إليها شرف هذا الخلق، بالنسبة لنا سوى أمرين غامضين، أو مستحيلين، كحال فنائهما.

دعونا نستنتج بناءً على ذلك، أنَّ لفظة (الله)، وكذلك كلمة الخلق، التي لا تقدم للعقل أيّ فكرة حقيقية، يجب استبعادها من لغة كلّ أولئك الذين يرغبون في التحدث حتى يفهموا. وما هي سوى كلمات مجردة افتعلها الجهل، ولا تُحسب إلا لإرضاء البشر المحرومين من الخبرة، أو البليدين للغاية، أو من يهابون دراسة الطبيعة، وطرقها، لإقناع المتحمسين الذين يسعد خيالهم الفضولي بالتبحر فيما يتجاوز العالم المرئي، والسعي وراء الأوهام. وبكلمة أخرى، لا تفيد هذه الكلمات سوى أولئك الذين لا شغل لهم سوى إطراب آذان الجاهل بكلماتٍ رنانة، لا يفهمونها هم أنفسهم، ولا يتفقون مع بعضهم البعض فيما يتعلق بمعناها ومغزاها.

كما أنَّ الإنسان كائن مادي، ولا يمكن أن تكون لديه أيّ أفكار إلا عمّا هو مادي مثله؛ أي ما يمكن أن يؤثر على أعضائه، أو ما له على الأقل صفاتٍ مماثلة له. ويعيّن دائمًا

رغما عنه لإلهه خصائص مادية، وقاده عدم استيعابه لها إلى افتراض أنَّه روحاني، ومتميز عن الطبيعة، أو العالم المادي. ولكن إما أنَّه غير راضٍ بالفعل عن عدم فهمه، أو يمتلك أفكارًا مادية عن "الله"، الذي من المفترض أن يكون خالقًا للمادة، ومحركًا لها، وحافظًا لها، وربما يرهق العقل البشري نفسه إن أراد ذلك، ولن يدرك أبدًا أنَّ التأثيرات المادية يمكن أن تنتج عن علةٍ غير مادية، أو تكون هذه العلة لا صلة لها بالكائنات المادية. وهذا يبرر كما رأينا، اعتقاد البشر بأنَّهم ملزمون بمنح الله تلك الصفات الأخلاقية التي يمتلكونها بأنفسهم، وينسون حينها أنَّ هذا الكائن الروحاني المحض لا يمكن أن يمتلك منظومتهم، أو أفكارهم، أو أساليب تفكيرهم وتصرفهم، وبالتالي لا يمكنه امتلاك ما يسمونه ذكاءً، وحكمةً، وخيرًا، وغضبًا، وعدلًا، وما إلى ذلك. وفي الحقيقة، تفترض الصفات الأخلاقية التي تُنسب إلى الإله، ماديته، ولا تستند الأفكار اللاهوتية الأكثر تجريدًا إلا إلى تجسيمٍ حقيقي لا يمكن إنكاره.(١)

وعلى الرغم من كلّ البراعة التي يتحلى بها اللاهوتيين، لكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا بخلاف ذلك، وحالهم كحال جميع البشر، لديهم معرفة بالمادة وحدها، وليس لديهم فكرة حقيقية عن الروح المحض. وعندما يتحدثون عن الذكاء، والحكمة، والعزيمة في الألوهية، فهم دائمًا ينسبونها إليه، ويتمادوا في منحها لكائنٍ لا ينسبون ماهيته له، ولا يعرضوه بها. وكيف نفترض وجود كائنٍ ليس لديه فرصة لشيء، ويفي بذاته، ويجب تنفيذ مقاصده بمجرد تشكيلها، لتكون لديه إرادة، وعواطف، ورغبات؟ كيف ننسب الغضب إلى كائنٍ لا دم له، ولا صفراء؟ كيف يمكن السماح للمقتدر؛ الذي تتمتع بحكمته، ونظامه الجميل؛ الذي أنشأه بنفسه في الكون، بأن يتعرض هذا النظام الجميل للاضطراب باستمرار، نتيجة اختلاف العناصر، أو عن طريق ما ترتكبه المخلوقات البشرية من جرائم؟ وبعبارة أخرى، لا يمكن أن يمتلك الإله، كما وصِف لنا، أيًا من الصفات البشرية التي تعتمد دائمًا على تنظيمنا الخاص، ورغباتنا، ومؤسساتنا التي ترتبط دائمًا بالمجتمع الذي نعيشه فيه. ولكن اللاهوتيون يسعون عبثًا إلى تعظيم الصفات الأخلاقية التي يخصصونها لإلههم، والمبالغة في الفكرة، وإيصالها إلى درجة الكمال بفعل قوة الأفكار المجردة، وعبثًا يخبروننا أنَّها ذات طبيعة مختلفة لديه عمّا هي عليه في مخلوقاته، وأنَّها مثالية، ولامتناهية، وسامية، وعظيمة. بيد أنَّهم

(١) يفترض التجسيم أنَّ الله ذات شكلٍ جسدي: ظهرت مجموعة من هذه الاعتقادات في مصر، ٣٥٩ من العصر المسيحي.

باعتقادهم بهذه اللغة، لن يعودوا يفهموا أنفسهم؛ وليس لديهم أيُّ فكرة عن الصفات التي يتحدثون عنها إلينا؛ نظرًا لأنَّ الإنسان لا يستطيع تصورها إلا بقدر ما تحمل تشابهًا مع الصفات ذاتها التي لديه.

ونتيجة التبسيط لا تمتلك الأخلاق بالتالي أيّ فكرة ثابتة عن الإله؛ الذي ولدوا بفضله. وباقتناع القليل منهم بإله مادي، وذو طبيعة فعالة، ومادة قادرة على إنتاج كلّ شيء، لابدّ أن يسلبوه القوة التي يمتلكها بحكم ماهيته، من أجل حصرها في روح محض، ويضطرون إلى تكرار الكائن المادي، بمجرد ميلهم إلى تكوين فكرة عنه بأنفسهم، أو جعله مفهومًا لدى الآخرين. وعند تجميعهم لأعضاء الإنسان؛ التي لا يسعهم سوى تضخيمها، وإطالتها إلى أقصى حد، يعتقدون أنَّهم يشكلون إلهًا. ويشكلون نفس الطبيعة، أو الفاعل الخفي الذي يحركها بناءً على نموذج النفس البشرية. وبعد أن جعلوا الإنسان مزدوجًا، جعلوا الطبيعة مزدوجة، وافترضوا أنَّها تحيى بفعل الذكاء. وفي استحالة معرفتهم لهذا الفاعل المزعوم، وتلك التي ميزوها دون مبرر عن جسدهم، وأطلقوا عليها اسم الروحانية، أي الجوهر المجهول الذي لا يمتلكون عنه أيّ أفكار، خلصوا من هذا إلى أنَّ الجوهر الروحي كان أكثر نبلاً من المادة، وأنَّ رقته الفائقة التي أطلقوا عليها اسم البساطة، والتي لم تكن سوى نتيجة لتجريداتهم الميتافيزيقية، حصنته من حالة الفساد، والانحلال، ومن كلّ التحولات؛ التي تتعرض لها الأجسام المادية بوضوح.

وبذلك يفضّل البشر دائمًا ما هو خارق للطبيعة على ما هو بسيط، وما لا يفهمونه على ما يمكنهم فهمه، ويزدرون تلك الأمور المألوفة لهم، ويثمّنون الأشياء التي لا يستطيعون تقديرها بمفردهم، واستنتجوا من تلك التي لديهم أفكار غامضة عنها، أنَّها تحتوي على ما هو مهمّ، وخارق للطبيعة، وإلهي. وبعبارة أخرى، هم بحاجة إلى الغموض؛ لإعمال خيالهم، وتدريب عقولهم، وإرضاء فضولهم؛ الذي لا يؤثر أبدًا أكثر مما يفعله عندما يكون مشغولاً بالألغاز التي يستحيل تخمينها، والتي يحكمون عليها منذ ذلك الحين، بأنَّها جديرة للغاية بأبحاثهم.[1] وهذا بلا شك، هو السبب الذي يجعلهم ينظرون إلى المادة؛ التي تقع عليها

(١) عبدت الكثير من الأمم الشمس، والتأثيرات المحسوسة لهذا النجم؛ التي يبدو أنَّها تبثّ الحياة في كلّ الطبيعة، ولابدّ أنَّها دفعت البشر إلى عبادتها بصورة طبيعية. ومع ذلك، تخلى كلّ الناس عن هذا الإله المرئي، ليتبنوا إلهًا مجردًا وميتافيزيقيًا. وإذا كان لابدّ من طرح سبب لهذه الظاهرة، فسنرد: أنَّ الإله المجهول والأكثر حجبًا،

أبصارهم، ويرونها تتصرف، وتغير أشكالها كشيءٍ جدير بالازدراء، وكائن عرضي ليس له وجود ضروري، وبذاته. وهذا ما دفعهم إلى تخيل روح غير قابلة للتصور أبدًا، ولهذا السبب يعلنون أنَّها متفوقة على المادة، وموجودة بالضرورة بذاتها، وسابقة على الطبيعة، وخالقة لها، ومحركة لها، وحافظة لها، وموكلة بأمرها. ووجد العقل البشري قوته في هذا الكائن الصوفي؛ وانشغل به من دون انقطاع، وزخرفه الخيال على طريقته الخاصة، وتغذى الجهل بذاته من الخرافات التي سُردتْ عنه، وحددت العادة هذا الشبح بوجودِ الإنسان، وباتَ ضروريًا له، واعتقدَ الإنسان أنَّه سقطَ في خواءٍ عندما حاول فصله عنه، لإعادتهِ إلى طبيعةٍ اعتاد منذ فترة طويلة أن يزدريها، أو يعتبرها كتلةً واهنة من المادة، وخاملة، وميتة، ومن دون طاقة، أو تجمعًا مبتذلًا من التركيبات، والأشكال الآيلة للهلاك.

وعندما ميز البشر بين الطبيعة ومحركها، سقطوا في العبثية ذاتها التي وقعوا فيها عندما ميزوا بين روحهم وجسدهم، وبين الحياة والكائن الحي، وملكة التفكير والكائن المفكر. وخُدعوا بشأن طبيعتهم الخاصة، وقوة أعضائهم، بالطريقة ذاتها التي خُدعوا بها بشأن منظومة الكون، وفرّقوا بين الطبيعة وذاتها؛ وحياة الطبيعة والطبيعة الحية، والعمل في هذه الطبيعة والطبيعة الفاعلة. ووصفوا نفس العالم هذه، وطاقة الطبيعة، وهذا المبدأ النشط الذي جسدوه، ثم فصلوه بفضل التجريد، في بعض الأحيان بسماتٍ خيالية، وأحيانًا أخرى بصفاتٍ مستعارة من ماهياتها الخاصة. والتي لم تكن بدورها سوى مواد أثيرية استفادوا منها بحد ذاتهم ليؤلفوا إلههم، وكانت أنفسهم أنموذجًا، وخُدعوا بطبيعتها، ولم تكن لديهم أبدًا أيّ أفكار حقيقية عن الإله الذي كان مجرد نسخة مبالغ فيها، أو مشوهة إلى حدٍ كبير، من حيث الخطأ في النموذج الأولي الذي تشكل على أساسه في الأصل.

وإذا كان من غير الممكن أبدًا تكوين أيّ أفكار حقيقية عنه، نظرًا لتميزها عن الإنسان، فإنَّ التمييز بين الطبيعة وطرقها كان دائمًا خاطئًا؛ بسبب تمييز الطبيعة عن ذاتها. ولكن

وغموضًا، يجب أن يكون دائمًا مرضيًا للسبب ذاته لخيال الجهل أكثر من إله يرونه يوميًا. إنَّ النغمة غير المفهومة والغامضة ضرورية بالأساس لقساوسة جميع الأديان؛ ذلك أنَّ الدين الواضح والمعقول، وغير المبهم، سيبدو أقل إلهية لعموم الناس، وسيكون أقل فائدة للنظام الكهنوتي الذي لا مصلحة له سوى ألا يدرك الناس شيئًا مما يعتقدون أنّه أهم شيءٍ بالنسبة لهم. وهذا هو بلا شك سر رجال الدين. إذ يجب أن يكون للكاهن إله مبهم، يجعله يتكلم، ويتصرف بطريقة غير مفهومة، ويحتفظ لنفسه بالحق في شرح أوامره على طريقته الخاصة.

البشر توقفوا عن دراسة الطبيعة، ليعودوا بالفكر إلى علتها المزعومة، وقوتها المحركة الخفية، وإلى المطلق الذي منحها إياها. وتحولتْ هذه القوة المحركة إلى كائنٍ لا يمكن تصوره، ونُسب إليه كلّ ما يحدث في الكون. ولكونه كان متناقضًا دائمًا، بدى سلوكه غامضًا، وفائقًا للطبيعة، وقد افتُرِضَ أنَّ حكمته وذكائه مصدرين للنظام، وأنَّ خيره كان أساسًا لكلّ ما هو نافع، وعدله الصارم، أو سلطته التعسفية كانا سببين خارقين للطبيعة لكلّ ما ابتلينا به من فوضى، وشرور. ونتيجة لذلك، لم يكن الإنسان مشغولاً إلا بمخاطبة نفسه بشأن العلة الوهمية التي قرنها دون مبرر بالطبيعة، بدلاً من الاستعانة بها على الطبيعة، واكتشاف وسائل الحصول على نعَمها، أو التخلص من نقمها، وافساح المجال للخبرة الاستشارية. وبدلاً من العمل على ما هو نافع لسعادته، قدم إجلاله للسلطان الذي منحه لهذه الطبيعة، وتوقع منه كلّ شيء، ولم يعد يعتمد على نفسه، أو على عون الطبيعة التي باتت عاجزة ومبتذلة في ناظريه.

وما من شيءٍ قد يكون أكثر تحيزًا للبشر من هذه النظرية المتطرفة، التي أصبحت مصدرًا لكل شرورهم كما سنثبت الآن، ولم ينشغل البشر إلا بالسلطان الوهمي الذي نصبوه على عرش الطبيعة، ولم يستشيروا أيّ شيء، وأهملوا الخبرة، واستخفوا بأنفسهم، وأخطأوا في فهم قوتهم الخاصة، ولم يسعوا في سبيل رفاهيتهم، بل صاروا عبيدًا يرتجفون تحت نزوات طاغية مثالي، توقعوا منه كلّ خير، أو انتابتهم الخشية مما ألحقه بهم من شرور. واستُغلتْ حياتهم في تقديم الولاء العبودي لصنمٍ، اعتقدوا أنَّهم جديرون دائمًا بخيره، ونيل عدله، وتهدئة سخطه، ولم يسعدوا إلا عند استشارتهم للعقل، واسترشادهم بالخبرة؛ حيث تجردوا من أفكارهم الرومانسية، وتحلوا بالشجاعة، وأفسحوا في المجال لصناعتهم، وأسقطوا ذواتهم على الطبيعة؛ التي استطاعت أن توفر لهم بمفردها وسائل إشباع حاجاتهم، ورغباتهم، والتخلص من تلك الشرور التي اجبروا على مكابدتها أو التقليل منها.

ولذلك دعونا نعيد البشر الحائرين إلى مذبح الطبيعة، ونقضي على تلك الكائنات الخرافية التي اعتقد خيالهم الجاهل، والمضطرب أنَّها ستتربع على عرشها. ودعونا نقول لهم: ما من شيءٍ يعلو على الطبيعة، أو يتجاوزها، ولنعلّمهم أنَّ الطبيعة قادرة على إنتاج كلّ تلك الظواهر؛ التي يعجبون بها دون أيّ عونٍ خارجي، وكلّ المنافع التي يرغبون فيها، وكذلك كلّ الشرور؛ التي يكابدونها. ودعونا نبلغهم أنَّ الخبرة ستوصلهم إلى معرفةٍ بهذه الطبيعة، التي تُسرّ بإماطة اللثام عن ذاتها لمن يدرسها، وتبوح بأسرارها لأولئك الذين يجرؤون على انتزاعها منها،

وتكافئهم دائمًا على سمو نفسهم، وشجاعتهم، وصناعتهم. ودعونا نخبرهم أنَّ العقل وحده كفيلٌ بإسعادهم، وأنّه ليس أكثر من علم الطبيعة المطبق على سلوك الناس في المجتمع؛ ونوجههم بشأن تلك الأشباح التي انشغلت بها أذهانهم ردحًا من الزمن، ومن دون جدوى؛ والتي لا يمكنها أن تجلب لهم ما يبغونه من سعادة بصوت عالٍ، ولا أن تجنب رؤوسهم تلك الشرور الحتمية التي أخضعتهم لها الطبيعة، والتي يجب أن يعلمهم العقل أن يؤيدوها عندما لا يستطيعون تجنبها بالوسائل الطبيعية. ودعونا نعلمهم أنَّ كلّ شيءٍ ضروري، وأنَّ منافعهم، وآلامهم ناجمة عن الطبيعة التي تتبع في جميع أعمالها قوانين لا يمكن لأيّ شيءٍ أن يبطلها. وبعبارة أخرى، دعونا نكرر لهم بلا توقف، أنَّهم سيصلون من خلال إسعاد أقرانهم، إلى السعادة التي يتوقعونها عبثًا من السماء، عندما لا تمنحها لهم الأرض.

إنَّ الطبيعة هي سبب كلّ شيء، وهي قائمة بذاتها، وستبقى دائمًا، وهي علة ذاتها، وما حركتها سوى نتيجة ضرورية لوجودها الضروري، ولا يمكن أن يكون لدينا من دون حركتها أيّ تصورٍ عنها في ظل هذا الاسم الجماعي الذي نطلقه على مجموعة من المواد؛ التي تتصرف بحكم طاقاتها الخاصة. وتسليمًا بهذا نسأل: لأيّ غرضٍ نتطفلُ على كائنٍ أكثر غموضٍ منها لنشرح أساليب عملها الخارقة للطبيعة للجميع بلا شك، بل والاستفاضة في ذلك لأولئك الذين لم يدرسوها؟ هل سيكون البشر أكثر تقدمًا أم أكثر تشويشًا عند إخبارهم أنَّ الكائن الذي لم يُخلقوا لفهمه، هو خالق تلك المعلولات المرئية، والعلل الطبيعية التي لا يمكنهم فكّ ألغازها؟ وبعبارةٍ أخرى، هل الكائن غير القابل للتفسير الذي يسمونه الله، سيمكّنهم من الحصول على معرفةٍ أفضل بالطبيعة؛ التي يعملون دائمًا بموجبها؟[١]

وإذا كنا راغبين بالفعل في أن نُلحق معنى ما بلفظة "الله"؛ التي يصوغ عنها البشر أفكارًا خاطئة وغامضة من هذا القبيل، فسنجد أنَّها لا تحدد سوى الطبيعة الفعالة، أو مجموع القوى المجهولة التي تحيي الكون، وتُلزم الكائنات بالتالي بالتصرف بحكم طاقاتها الخاصة، ووفقًا للقوانين الضرورية وغير القابلة للتغيير. بيد أنَّ لفظة "الله" ستكون في هذه الحال مرادفة للمصير، والقدر، والضرورة، مع أنَّها فكرة مجردة، ومشخصة، ومؤلهة، وينعتونها بالروحانية، التي تمثل فكرة مجردة أخرى لا يمكننا صياغة أيّ تصور عنها. وهي تجريدٌ لما حددناه باسم

---

(١) دعونا نقول مع شيشرون: إنَّه لحماقة كبيرة أن نجعل الآلهة خالقة لهذه الأشياء، ولا نبحث عن عللها. [Cic. de divinitat .lib. ii]

الذكاء، والحكمة، والخير، والعدل، والتي لا يمكن أن يكون هذا الكائن موضوعًا لها. وكما يُقال: سيكون للجنس البشري علاقة مباشرة بهذه الفكرة الميتافيزيقية. وتُنسب الإرادة، والعواطف، والرغبات، وما إلى ذلك، إلى هذه الفكرة المشخصة، والمؤلهة، والإنسانية، والروحانية، والموسومة بصفات أكثر تنافرًا. ولكن ياللا هذه الفكرة المشخصة التي يجري الحديث عنها في الأسفار المختلفة؛ التي يبلغ عنها في كلّ بلد على أنَّها مبعوثة من السماء!

ويترتب على ذلك أنَّ كلّ شيء يثبت لنا أنَّ البحث في الإله ليس من طبيعتنا. ودعونا نقول في حال رغبنا في أن نمتلك فكرة عنه: إنَّ الطبيعة هي (الله)، وأنَّ الطبيعة تحتوي على كلّ ما يمكننا معرفته عنه، بما أنَّها جامعة لكلّ الكائنات القادرة على التصرف بموجبنا، والتي يمكنها بالتالي إثارة اهتمامنا. ودعونا نقول: إنَّ هذه الطبيعة هي التي تفعل كلّ شيء، وأنَّ ما لا تفعله، يستحيل عليها القيام به، وأنَّ ما يُقال: إنَّه موجود خارجها، لا وجود له، ولا يمكن أن يكون له وجود، نظرًا لأنَّه لا يمكن أن يكون هناك شيء غير الكل العظيم. ودعونا نقول بعبارة أخرى: إنَّ تلك القوى غير المرئية، التي صنع بفضلها الخيال محركات الكون، إما أنَّها عبارة عن قوى الطبيعة الفاعلة، أو لا شيء.

وإذا لم نكن نمتلك سوى معرفة ناقصة عن الطبيعة، وطرقها، وليس لدينا سوى أفكار سطحية، وغير كاملة عن المادة، فلماذا ينبغي أن نفخر بكوننا نعرف، أو نمتلك أفكار معينة عن كائنٍ سريع الزوال، ويصعب التفكير به أكثر بكثير من العناصر، والمبادئ المقوّمة للأجسام، وخصائصها الأولية، وأنماط عملها ووجودها؟ وإذا لم نتمكن من الرجوع إلى العلة الأولى، فدعونا نكتفي بالعلل الثواني، وتلك المعلولات التي تظهرها لنا الخبرة، ولنجمع الحقائق الصادقة، والمعروفة، وهي كافية لجعلنا نحكم على ما لا نعرفه. ولما كنا لا نمتلك الوسائل التي تمكننا من اكتساب أعظم منها؛ فدعونا نحصر أنفسنا فيما تزودنا به حواسنا من بصيص الحقيقة الضعيف.

ودعونا لا نكترث بعلوم أولئك الذين ليس لديهم أساس آخر غير خيالنا، ولا يمكنهم أن يكونوا سوى حالمين. ولنتشبث بالطبيعة التي نراها، ونشعر بها، وتؤثر علينا، لنعرف على الأقل القوانين العامة لها. وإذا كنا نجهل المبادئ الخفية التي تستخدمها في أفعالها المعقدة، فنحن على يقين على الأقل من أنَّها تتصرف بأسلوبٍ دائم، وموحد، ومماثل، وضروري. دعونا إذن نراقب هذه الطبيعة، ولا نتخلى عن الروتين الذي تصفه لنا؛ لأنَّنا لو فعلنا ذلك،

فلن نكن معصومين من العقاب على أخطاءٍ هائلة تشوش أذهاننا، وتبعدنا عن العقل – وستكون النتيجة الضرورية أحزانًا لا حصر لها، بيد أنّنا قد نتجنبها. دعونا لا نعبد، ولا نزهو على طريقة البشر؛ فالطبيعة صماء، وتتصرف بالضرورة، ولا يمكن لأيّ شيءٍ أن يغير مسارها. فلا نتضرع للكل الذي لا يسعه سوى الحفاظ على ذاته، بفضل تنافر عناصره، ومنه ينشأ الانسجام الكلي واستقرار الكل. ولنأخذ بالاعتبار أنّنا أجزاء محسوسة من الكلّ المفتقر للشعور؛ الذي تتلاشى فيه جميع الصور والمركبات بعد نشأتها، واستمرارها لفترةٍ تطول أو تقصر. ودعونا ننظر إلى الطبيعة كمختبرٍ ضخم يحتوي على كلّ ما تحتاجه لتعمل، وتجري فيها كلّ تلك الأعمال التي نشهدها. ونعترف بأنَّ قدرتها تكون متأصلة في ماهيتها. ولا نعزو أعمالها لعلةٍ وهمية ليس لها وجود سوى في دماغنا. بل دعونا بدلاً من ذلك نبعد إلى الأبد عن أذهاننا شبحًا معدًّا لإزعاجه، ونوقف سعينا وراء الوسائل البسيطة، والطبيعية، والخاصة التي يمكن أن تقودنا إلى السعادة. ودعونا إذن نعيد لهذه الطبيعة؛ التي كانت مخطئة منذ أمدٍ طويل حقوقها المشروعة، فلنستمع إلى صوتها، الذي يكون العقل له مترجمًا أمينًا، ونسكت ذلك المتعصب والدجال؛ اللذان أبعدانا لسوء الحظ عن العبادة الوحيدة المناسبة للكائنات الذكية.

الفصل الخامس

التوحيد أو الربوبية، ونسق التفاؤلية، والعلل النهائية

التوحيد أو الربوبية، ونسق التفاؤلية، والعلل النهائية

من النادر أن تجد إنسانًا يمتلك الشجاعة للبحث في مسألة الإله؛ الذي يتفق جميعنا على الاعتراف به، ولا يكاد يوجد من يجرؤ على أن يشك بوجوده، على الرغم من عدم إثبات ذلك، حيث يتلقى كلّ منهم في طفولته دون أيّ تمحيص اسم الله المبهم الذي يلقنه له آباؤه، ويحشون دماغه بأفكارٍ غامضة مرتبطة به، ويحشدون كلّ ما من شأنه أن يجعله يعتاد عليه، ولكن كلّ منهم يعدله على طريقته الخاصة، وكما لاحظنا مرارًا وتكرارًا، لا يمكن أن تكون المفاهيم المتغيرة عن الكائن الخيالي هي ذاتها عند جميع أفراد الجنس البشري، إذ أنَّ لكلّ منهم طريقته في النظر إليه؛ وكلّ منهم يجعل لنفسه إلهًا خاصًا به، وبحسب مزاجه الخاص، وميوله الطبيعية، وخياله، وأحواله الفردية إلى حدٍ ما، والتحيزات التي تلقاها، والأسلوب الذي تأثّر فيه في أزمنة مختلفة. فمن يتمتع بالرضا، والعافية، لا يرى إلهه كما يراه ذلك الكئيب والمريض، أو من لديه ارتفاع في ضغط الدم، أو من لديه خيال متقدْ، أو يعاني من الصفراء، ولا يراه في الصفات ذاتها التي يتمتع بها من يمتلك نفسًا أكثر وداعةً، ولديه خيال مقيد، وذو طبعٍ أكثر برودًا. وليس ذلك وحسب، بل إنَّ الشخص ذاته لا يراه بالطريقة ذاتها في مختلف فترات حياته، ويُخضع آلية إلهه لكلّ التغيرات، وجميع التحولات في مزاجه، وتلك التقلبات المستمرة التي يعاني منها كيانه. ويُنظر إلى فكرة الإله ووجوده، على أنّهما أمرٌ يمكن إثباته، ويُزعم أنَّ هذه الفكرة فطرية، أو مغروسة في جميع البشر، ونحن متيقنين من أنَّ الطبيعة كلّها مخلصة في تزويدنا بالبراهين التي تثبت ذلك، ولكن هذه الفكرة متقلبة دائمًا في ذهن كلّ منا، وتتنوع في كلّ لحظة لدى جميع البشر، ولا يجتمع اثنان على الاعتراف تمامًا بالإله ذاته، ولا يوجد شخص واحد إلا ويراه مختلفًا في ظروف مختلفة.

لا تتفاجؤوا إذن من ضعف ما زودونا به من براهين على وجود كائنٍ لن يراه الناس أبدًا إلا في أذهانهم. ولا تندهشوا من رؤيتهم منسجمين إلى حدٍ ما مع بعضهم البعض على الأنظمة المختلفة التي شيدوها نسبيًا له، وعبادتهم له، ونزاعاتهم على تفسيره، وحاجتهم إلى

الاستدلال العادل في آرائهم، وقلة الاتساق والترابط في أنظمتهم، والتناقضات التي يقعون فيها دائمًا عندما يتحدثون عنه، وعدم اليقين الذي يجده عقلهم تعسفيًا للغاية في كلّ مرة ينشغلون به. وقد لا يبدو ذلك غريبًا لنا، ولكن يجب أن يتجادلوا بالضرورة حينما يفكرون في موضوعٍ يختلفون بشأنه، إذ لا يوجد من يستطيع أن يتوافق دائمًا مع ذاته في مختلف الظروف.

البشر جميعهم متفقون على تلك الأمور التي يمكنهم الخضوع لها ليعاينوا خبرتهم، ولا نسمع أيّ نزاع على مبادئ الهندسة، والحقائق الواضحة، والمثبتة التي لا تتغير أبدًا في أذهاننا، ولا نشك أبدًا في أنَّ الجزء أقل من الكل، وأنَّ اثنين واثنين يساوي أربعة، وأنَّ الإحسان صفة ودية، وأنَّ العدالة ضرورية للإنسان في المجتمع. لكننا لا نجد شيئًا سوى النزاعات، والشك، والتقلبات التي تعتري جميع تلك الأنظمة؛ التي امتلكت معبودًا لموضوعها، ولا نرى انسجامًا في مبادئ اللاهوت، كما أنَّ وجود الله؛ الذي يصرحون لنا به في كلّ مكان على أنَّه حقيقة واضحة، ومثبتة، ينطبق على أولئك الذين لم يتأكدوا من البراهين التي بُني عليه. وغالبًا ما تبدو هذه البراهين كاذبة، أو واهنة بخلاف ذلك عند أولئك الذين لا يشككون بأيّ حال من الأحوال في وجوده، وفي الاستقراءات أو النتائج المباشرة المستمدة من هذه الحقيقة المزعومة؛ التي يقال إنَّها واضحة جدًا، بيد أنَّها ليست ذاتها عند شعبين أو حتى فردين، إذ لا يكفّ المفكرون من جميع الأعمار، وجميع البلدان عن النزاع بشأن الدين، وفرضياتهم اللاهوتية، والحقائق الأساسية التي يبنونه عليها، وسمات الله، وصفاته الذي يشغلون أنفسهم بها عبثًا. كما أنَّ فكرتهم عنها تتغير باستمرار في عقولهم.

ولابدّ أن تقنعنا هذه النزاعات، والتقلبات الدائمة على الأقل أنَّ أفكارنا عن الإله لا تمتلك ما يُنسب إليها من دليلٍ، ويقين، وقد تفسح في المجال للتشكيك في واقعية كائن يراه الناس على نحوٍ مختلف جدًا، ولا يتفقون عليه أبدًا، وغالبًا ما تختلف صورته لديهم. وعلى الرغم من كلّ جهود المدافعين المتحمسين عنه ودهائهم، فإنَّ وجود الله ليس محتملًا، وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن تمتلك جميع الاحتمالات في العالم القوة لإثبات ذلك؟ أليس من المدهش ألا يكون لوجود أهم كائنٍ في الإيمان والمعرفة أيّ احتمال في صالحه، في حين يبرهنون لنا بوضوح على الحقائق الأقل أهمية؟ ألا ينبغي أن نستنتج من هذا أنَّه ما من إنسانٍ على يقينٍ تام من وجود كائن يراه في قرارة نفسه عرضةً للتنوع، ولا يظهر ولو يومين متتاليين

بالسمات ذاتها في ذهنه؟ لا يوجد ما يختصر الأدلة التي يمكن أن تقنعنا تمامًا. ولا تتضح لنا الحقيقة إلا عندما تبدو لنا الخبرة المتواصلة، والتأملات المتكررة من وجهة النظر ذاتها. وإن كان هذا الدليل، واليقين الذي يحدث بمفرده قناعةً كاملة ناجمٌ عن العلاقة الثابتة التي تصنعها الحواس جيدة التكوين، فما مصير اليقين بوجود الإله إذن؟ هل يمكن لصفاته المتنافرة أن توجد في الموضوع ذاته؟ هل يوجد احتمال في صالح من لا يمثل سوى مجموعة من التناقضات؟ وهل يمكن لمن يعترفوا به أن يقتنعوا في قرارة أنفسهم به؟ وفي هذه الحال، ألا ينبغي أنْ يسمحوا لنا بالشكّ في تلك الحقائق المزعومة التي يعلنون عن أنّها مثبتة وواضحة، وهم أنفسهم يشعرون بالتردد في أذهانهم حيالها؟ لا يمكن أن يكون وجود هذا الإله، وصفاته الإلهية أمورًا مثبتة لأيّ إنسانٍ على وجه الأرض، وسوف يكون عدم وجوده، واستحالة الصفات غير المتوافقة التي يعيّنها له اللاهوت، مثبتة بوضوح لمن يشعر أنّه من المستحيل أن تتمكن الذات نفسها من توحيد تلك الصفات التي تنفي بعضها البعض على حدٍ سواء، ولن تتمكن كلّ الجهود التي يبذلها العقل البشري من التوفيق بينها.(١)

ومهما كان شأن هذه الصفات، سواء متناقضة، أو غير المفهومة تمامًا، بيد أنَّ اللاهوتيون يصفون بها كائن لا يمكن تصوره بالفعل، ويجعلونه خالقًا للعالم، أو صانعًا له، ولكن ما الذي يمكن أن يجنيه الجنس البشري من افتراض أن يكون لديه ذكاء، وأفكار؟ هل

---

(١) قال شيشرون: "لا يمكن أن تكون الكثير من التناقضات صحيحة". من هنا نرى أنّه ما من استدلال، ولا وحي، ولا معجزة يمكن أن توضح ذلك الزيف الذي أثبتته لنا الخبرة، ولا يوجد ما يقلل من تشوش العقول، وتقلّبها؛ والذي من شأنه أن يحدث تناقضات مسلّم بها. ووفقًا لما ذكره وولف Wolfe في كتابه المعروف "الوجود" الفقرة ٩٩: "من الممكن ألا تحتوي في حدّ ذاتها أي تناقضات، أو قد تفتقر إلى التناقض". وبموجب هذا التعريف، يجب أن يبدو وجود الله مستحيلًا، نظرًا لوجود تناقض في القول: إنَّ الروح غير الممتدة يمكن أن توجد في مادة منبسطة، أو متحركة ذات امتداد. ويقول القديس توما Saint Thomas: لا تتعارض الكينونة مع الوجود. ويُسلّم كما هو معروف بأنَّ الإله ليس سوى كائن من صنع الخيال؛ لأنّه لا يمكن أن يكون له وجود في أيّ مكان. وبحسب ما قاله بيلفينجر Bilfinger في كتابه "الله، والروح والعالم"، الفقرة ٥: "للماهية أول تصور أساسي للأشياء، أو مغاير لها، وبفضلها يمكن إظهار ما بقي قوله عن أيّ شيء." وفي هذه الحال، ألا يمكن أن نسأله: إن كان لدى أحد فكرة عن الماهية الإلهية؟ وأيُّ فهم يؤلف فكرة عمّا هو الإله، ومن أين ينبثق إثبات كلّ ما يُقال عنه؟ اسأل اللاهوتي إذا كان بإمكان الله أن يرتكب الإثم؟ وسيجيبك: ليست من ماهيته؛ نظرًا لأنَّ الإثم تناقض العدالة. ولكن عندما يفترض هذا اللاهوتي أنَّ الله روحًا، لا يرى أنَّ القول: "من المناقض لماهيته أن يكون قد خلق المادة، أو حركها"، يماثل القول: "إنَّ ارتكاب الإثم يتناقض مع عدالته".

يمكن لذكاءٍ كلّي تطال عنايته كلّ ما موجود، أن تكون له صلات مباشرة، ووثيقة بالإنسان؛ الذي لا يشكل سوى جزء غير محسوس من الكل العظيم؟ هل بنى ملك الكون مسكنه، وزيّنه، لإضفاء البهجة على الحشرات، والنمل في حديقته؟ هل يجب أن نكون مؤهلين للحصول على معرفة تصوراته، والتنبؤ بمقصده، وقياس حكمته بأعيننا الواهنة، وهل بمكننا أن نحكم أفضل على أعماله من وجهات نظرنا الضيقة؟ وإن كانت الآثار التي نتخيل أن تنجم عن قدرته المطلقة، وعنايته، سواء كانت خير أم شر، ونافعة لنا أم ضارة، غير ضرورية كالآثار الناجمة عن حكمته، وعدله، وشرائعه الأبدية، فهل بمكننا أن نفترض في هذه الحال، أنَّ إلهًا حكيمًا، وعادلًا، وذكيًا للغاية سيغير ما قدّره لنا؟

وهل سينظم شرائعه الثابتة، والمهيمنة على صلواتنا، وولاءنا العبودي من أجل إرضاءنا؟ هل سينزع عن الكائنات ماهياتها، وخصائصها؟ هل سيلغي قوانين الطبيعة الأبدية بمعجزاته؛ التي تثير الاعجاب بحكمته وخيره؟ هل سيحدث ذلك لصالحنا، وتتوقف النار عن الإحراق ما أن نقترب منها؟ هل سيأمر بتوقف الحمى، والنقرس عن تعذيبنا عندما نجمع ما تحدثه هذه الآفات بالضرورة من أخلاط؟ هل سيمنع صرحًا يتداعى خرابًا من أن يسحقنا بانهياره، حينما نمرّ بجانبه؟ هل ستمنع صيحاتنا الباطلة، وتضرعاتنا الأشد حماسًا من أن يكون بلدنا تعيسًا، حين يُدمرها جلمودٌ شرير، أو يحكمها طُغاة يضطهدونها؟

وإذا كان هذا الذكاء اللامتناهي ملزمًا دائمًا بأنْ يعطي لتلك الأحداث التي أعدّها حكمته مسارًا حرًا، وإنْ لم يحدث شيء في هذا العالم إلا بموجب مقاصده المبهمة، فليس لدينا ما نسأله عنه، ولن نكن عقلاء إن تصدينا لهم، وقد نوجه إهانة لحكمتهِ إذا كنا راغبين في ضبطها. ويجب ألا يفخر الإنسان بنفسه كونه أكثر حكمةً من إلهه، وذو قدرةٍ على التدخل في تغيير مشيئته، ولديه القوة لجعله يتخذ وسائل أخرى غير تلك؛ التي اختارها لتنفيذ قضائه، وقدره، والإله الذكي وحده من يتخذ التدابير الأكثر عدلاً، والوسائل الأكثر تأكيدًا للوصول إلى غايته، ولو كان قادرًا على تغييرها، لما أمكن تسميته حكيمًا، أو ثابتًا، أو حافظًا. وإذا عطّل الله للحظة تلك القوانين؛ التي حددها بنفسه، وكان بإمكانه تغيير أيّ شيءٍ في مقصده؛ فذلك لأنَّه لم يكن بإمكانه توقع دوافع هذا التعطيل، أو هذا التغيير، ولو لم يكن قد جعل هذه الدوافع تدخل في مقصده، لما توقعها، وإذا توقعها، دون أن يدخلها في مقصده، فهذا يعني أنَّه لم يكن قادرًا. وهكذا، وبغض النظر عن الطريقة التي نتأمل بها

هـذه الأشياء، فإنَّ الصلوات التي يؤديها الناس للإله، والعبادة المختلفة التي يسدونها له، تفترض دائمًا اعتقادهم أنَّ من واجبهم التعامل مع كائنٍ ذو حكمةٍ، وعناية ضئيلة، وقادرًا على التغيير، بيد أنَّه رغم قدرته المطلقة لا يستطيع أن يفعل ما يشاء، أو ما سيكون مفيدًا للبشر، ولمن يُقال: إنَّه خلق العالم لأجلهم.

ومع ذلك تأسستْ جميع ديانات الأرض على هذه المفاهيم الموجهة على نحوٍ رديء للغاية. ونرى في كلّ مكانٍ إنسانًا يركع لإلهٍ حكيم، ويسعى إلى ضبط سلوكه؛ لتفادي أقداره، وإعادة تكوين مقاصده، وينشغل آخر في كلّ مكان بكسبِ مآربه بوسائله الخبيثة، وهباته، ويظفر بعدله بقوة الصلاة. وبفضل العادات، والشعائر، والتكفيرات؛ التي يعتقد الإنسان أنَّها ستجعله يغير قراراته، افترض أنَّه يمكن أن يسيء إلى خالقهِ في كلّ مكان، ويعكّر صفو سعادته الأبدية، ويسجد في كلّ مكانٍ أمام الله المقتدر الذي يتعذر عليه جعل خليقته كما ينبغي أن تكون، ليقضي أوامره الإلهية، ويحقق حكمته!

ونرى بالتالي أنَّ جميع ديانات العالم لا تتأسس إلا على تلك التناقضات الواضحة؛ التي يقع فيها الناس في كلّ مرة يسيئون فيها فهم الطبيعة، وينسبون الخير أو الشر؛ الذي يعانونه على يديها، إلى علةٍ ذكية، ومتميزة عنها، ولا يستطيعون أن يشكلوا بأنفسهم أيّ أفكار معينة عنها. وكما قلنا مرات عدة: سيُختزل الإنسان دائمًا إلى ضرورة أن يجعل من إلهه إنسانًا؛ لكن الإنسان كائنٌ متغير، وذكاءه محدود، وعواطفه متباينة، وقد وضِع في ظروف مختلفة، ويبدو أنَّه يتناقض في كثيرٍ من الأحيان مع نفسه: وهكذا، على الرغم من اعتقاده أنَّه يبجّل إلهه، بمنحه صفاته الخاصة، فهو لا يفعل أكثر من أن يضفي عليه ثباته، وضعفه، ورذائله. وقد يميز اللاهوتيون، أو مبتدعو الإله بين كمالاته المزعوم، ويستغلوها، ويبالغوا بشأنها، ويجعلوها غير مفهومة كما يحلو لهم، وستكون كذلك دائمًا، ذلك أنَّ الكائن؛ الذي يغضب، وتُرضيه الصلاة، ليس ثابتًا، والكائن؛ الذي يتعرض للإهانة ليس مقتدرًا، ولا سعيدًا تمامًا، والذي لا يمنع شرًا يمكنه كبحه، يكون موافقًا على ارتكابه، ومن منح حرية الخطيئة، وأقرّها في أقداره الأبدية، لابدّ أن يرتكب هذه الخطيئة، ومن يعاقب على أخطاءٍ سمح بارتكابها، هو صاحب سيادة غير عادلة، وغير عقلانية، والكائن اللامتناه الذي يحتوي على صفاتٍ متناقضة إلى أقصى حد، يستحيل وجوده، وهو مجرد وهم.

فلا تدعونا نتحدث بعد الآن عن أنَّ وجود الله مشكلة بحدّ ذاته. فالإله الذي يصفه اللاهوتيون مستحيل تمامًا، وكلّ الصفات التي يمكن تخصيصها له، وجميع الكماليات التي ينبغي أن يتحلى بها، سنجدها متناقضة في كلّ لحظة. أما بالنسبة للصفات المجردة والسلبية؛ التي قد زودوه بها، فستظل دائمًا غير مفهومة، وستثبت فقط عدم جدوى ما يبذله العقل البشري من جهود، عندما يرغب في تحديد كائنات لا وجود لها. وبمجرد أن يعتقد البشر أنَّهم يهتمون بشدة بمعرفة شيء ما، فإنَّهم يعملون على تكوين فكرة لأنفسهم عنه، وإذا صادفتهم عقبات كبيرة، أو حتى تعذّر تثقيفهم، فسوف يؤدي ما يشهدونه من نجاحٍ صغير في أبحاثهم إلى جعلهم يتصرفون بسذاجة؛ وبذلك يستفيد الكهنة البارعون، أو المتعصبون من هذه السذاجة؛ لتمرير ابتكاراتهم، أو أوهامهم (التي يظهرون أنَّها حقائق دائمة، ولا يطالها الشك).
ومن ثم فإنَّ الجهل، واليأس، والكسل، والافتقار للعادات الفكرية، يضع الجنس البشري في حالٍ من الاعتماد على أولئك المكلفين بالعناية بهم، وبناء تلك الأنظمة على أمور ليس لديهم أيّ فكرة عنها. وبمجرد أن يكون هناك سؤال عن الإله، والدين، أي عن الأمور التي يستحيل فهم أيّ شيء منها، يفكر البشر بطريقةٍ غريبة جدًا، أو ينخدعون بالاستدلالات المضللة للغاية. وبمجرد أن يروا أنفسهم في حالة استحالة تامة لفهم ما يُقال، يتخيلون أنَّ أولئك الذين يتحدثون إليهم يعلمون بالأشياء التي يخاطبونهم بها أفضل منهم؛ ولا يفشل هؤلاء في أن يرددوا لهم أنَّ "الطريقة الأكثر تأكيدًا؛ هي قبولهم بما يخبرونهم به"، والسماح لهم بتوجيههم، وحجب أعينهم؛ إذ يهددونهم بغضب الشبح الثائر، إذا رفضوا تصديق ما يقولونه لهم، وعلى الرغم من أنَّ هذه الحجة تفترض فقط الشيء المعني، إلا أنَّها تغلق فم الفانين المساكين، الذين يقتنعون بهذا المنطق الغالب، ويخشون إدراك التناقضات الملموسة للعقائد المعلنة لهم، ويتفقون اتفاقًا أعمى مع أدلتهم، ولا يشككون في أنَّ لديهم أفكارًا أوضح عن تلك الأشياء العجيبة التي لا يكفّون عن الاستمتاع بها، وتجبرهم مهنتهم على التأمل فيها.
ويعتقد غير المطلعين أنَّ كهنته لديهم حواس أكثر منه، ويعتبرهم مؤلهيين، أو أنصاف الآلهة. ولا يروا فيما يعبده إلا ما يخبرهم به الكهنة، وينجم عمّا يقولونه عنه أن يعتقد كلّ إنسان أنَّ الله ما هو إلا كائن من صنع الخيال، وشبح يتسم بتلك الصفات؛ التي حكم الكهنة أنَّه من المناسب وصفه بها، ليضاعفوا من جهل البشر، وتشكيكهم، وخوفهم. وبالتالي، فإنَّ سلطة الكهنة هي من تقرر، ولا يلتمسون من الشيء إلا ما ينفع الكهنوت.

وعندما نميلُ إلى العودة إلى أصل الأشياء، سنجد دائمًا أنَّ الجهل، والخوف هما من يخلق الآلهة، ويزخرفها الخيال، والحماس، والخداع، أو يشوهها، وأنَّ ضعفنا هو من يجعلنا نعبدها، وتعززها سذاجتنا، وتبجلها عاداتنا، ويساندها استبدادنا، حتى يستفيد الطغاة من حماقة البشر.

ولكنهم يحدثوننا باستمرار عمّا يمنحه التوحيد من مزايا للبشر، وفي خضم ذلك، سوف ندرس الآن ما إذا كانت هذه المزايا حقيقية كما يُقال لنا، ودعونا نتأكد من فكرة وجود الله، هل هي خاطئة، أم صحيحة؟ وإن كانت خاطئة، فلا يمكن أنَ تكون نافعة للجنس البشري، وإذا كانت صحيحة، فلابدّ أن تخضع لبراهين واضحة بحيث يستوعبها جميع الناس؛ الذين من المفترض أن تكون صحتها ضرورية ونافعة لهم. ولا يترتب من ناحية أخرى على نفع الفكرة أن تكون أكثر يقينًا. وهذا يكفي للرد على سؤال الدكتور كلارك فيما لم تكن فكرة وجود إله، وكائن ذكي وحكيم، وعادل، وخيّر، ويحكم العالم شيئًا مرغوبًا به للغاية، ويتمنى أيّ حكيمٍ أن تكون صحيحة من أجل منفعة البشر، وسعادتهم العظمى؟ سنجيبه، أولاً: أنَّ الخالق لطبيعة تلزمنا في كلّ لحظة أن نرى فيها الفوضى إلى جانب النظام، والشر إلى جانب الخير، والحماقة إلى جانب الحكمة، والعدالة إلى جانب الظلم، لا يمكن أن يكون مؤهلاً لأن يكون خيرًا، وحكيمًا، وذكيًا، وعادلًا أكثر من أن يكون شريرًا، وغير عقلاني وسيء الطباع، وبالقدر ذاته على الأقل، يوجد مبدآن في الطبيعة متساويان من حيث القوة، ويدمر أحدهما بلا توقف أعمال الآخر. ويجب أن نقول ثانيًا: إنَّ المنفعة الناجمة عن الافتراض، لا يجعلها أكثر يقينًا، أو أكثر احتمالية. وإن كان الشيء مفيدًا في الواقع، فما الذي يحملنا إلى حد استنتاج أنَّه موجود بالفعل؟ ويجب أن نقول ثالثًا: أن كلّ ما يرتبط بذلك حتى اللحظة الراهنة، يثبت أنَّه يتعارض مع جميع المفاهيم الشائعة، ومن المستحيل أنْ نصدّق وجود كائن مقترن بالطبيعة. وسنقول أخيرًا: إنَّه من المستحيل أن نصدّق عن حسن نية وجود كائنٍ ليس لدينا أيّ فكرةٍ حقيقية عنه، ولا يمكننا أن نُلحق به أيّ شيء لا يفنيه على الفور. هل يمكننا تصديق وجود كائن لا يمكننا تأكيد أيّ شيء عنه، سوى مزيد من أمور تنفي كلّ ما نعرفه عنه؟ وباختصار، هل من الممكن أن نصدق قطعًا بوجود كائنٍ، لا يستطيع العقل البشري أن يثبت أيّ حكم عليه لا يتعارض معه على الفور؟

لكن متى كانت النفس قابلة للإحساس بمتعتها، وعندما يمتلك الخيال المسترسل فرصة ليرسم لنفسه شيئًا مغريًا يمكنه أن يشكره على لطفه المزعوم، سيسأل المتعصب السعيد: "لماذا تحرمني من إلهٍ أراهُ بصفة صاحب السيادة المليء بالحكمة والخير؟ أيُّ راحةٍ لا أجدها عندما أشكّل لنفسي ملكًا قويًا وذكيًا وصالحًا، وأنا المفضل لديه، ويشغل نفسه برفاهيتي، ويراقب سلامتي بلا هوادة، ويتدبر حاجياتي، ويوافق على أن أتحكم تحت إمرته في الطبيعة بأكملها؟ وأؤمن برؤيته يفيض بنعمهِ على الإنسان باستمرار، وأرى الرعاية الإلهية تعمل من أجله دون كللٍ أو ملل، فيملأ الأرض بالخضار، ويثقل الأشجار بثمارٍ لذيذة لإرضاء ذوقه، ويملأ الغابة بالحيوانات المناسبة لتغذيته، ويعلق فوق رأسهِ الكواكب، والنجوم، لتضيء له أثناء النهار، وتوجه خطواته التائهة في الليل؛ ويحيطه بالسماوات اللازوردية، ليبهج عينيه، ويزيّن المروج بالورود، ويجرف مسكنه بالينابيع والجداول والأنهار. آه! دعوني أحمد الخالق على نعمه العديدة. ولا تحرموني من شبحي الخلاب، فلن أجد أوهامي جذابة جدًا في ضرورةٍ شديدة، وصارمة، وفي مادة عمياء وجامدة، وفي طبيعة تفتقرُ إلى الذكاء والشعور".

وسيقول المتشائم، الذي حرمه مصيره بصرامة من تلك النعم التي أُغدقتْ على كثيرين آخرين: "لماذا سلب الضلال عزيز عليّ؟ ولماذا تدحض لي إلهًا، تجفف فكرته المعزية منبع دموعي، وتخفف أحزاني؟ ولماذا تحرمني من شيء، أعتبره بنفسي أبًا عطوفًا، وحنونًا، ويوبخني في هذا العالم، لكني ألقي نفسي بين ذراعيه بكلّ ثقة، عندما يبدو أنَّ الطبيعة بمجملها قد تخلت عني؟ لنفترض أن هذا الإله ليس أكثر من مجردِ وهم، ولديه ما يبرر التعاسة، ليقيهم من اليأس المخيف: أليس من غير الإنساني والقسوة أن نرغب باغراقهم في الفراغ، من خلال سعينا لتحريرهم من الأوهام؟ أليس الخطأ النافع، أفضل من تلك الحقائق التي تحرم العقل من كلّ سلوى، ولا تريحه من مآسايه؟

وسأردُّ على هؤلاء المتعصبين، بـ(لا!)، لا يمكن أنْ تشعرك الحقيقة بالسعادة؛ التي تمنحنا حقًا العزاء، وهي كنزٌ مخفي، وأفضل بكثيرٍ من تلك الأشباح التي ابتكرها الخوف، ويمكن أن تبهجَ القلب، وتمنحه الشجاعة لتحمّل أعباء الحياة، وتُهذبُ العقل، وتجعله فعالًا، وتزودهُ بوسائل لمقاومة هجمات القدر، والتصدي بنجاحٍ للحظ السيئ. ومن ثم أسألهم: ما الذي يؤسسون عليه هذا الخير؛ الذي ينسبونه إلى إلههم بحماقة؟ لكني أسألهم عن هذا الإله: هل هو رؤوفٌ إذن بالناس كافة؟ ألا يوجد مقابل كلّ إنسان ينعم بالوفرة، ومحاسن النعمة،

ملايين يعانون من العوز، والبؤس؟ أمن يتخذون النظام نموذجًا يفترضون بناءً عليه أنَّ هذا الإله هو الخالق، هم إذن الأكثر سعادةً في هذا العالم؟ ألا يتعارض خيرُ هذا الكائن مع ذاته، فيما يخصّ تفضيل فرد بعينه؟ ألا يصرّحون أنَّ تلك المعزيات التي يبحث الخيال في خضمها عبارة عن نقمٍ نشأت عن أقداره، وهو خالقها؟ أليست الأرض مليئة بالتعساء؛ الذين يأتون إليها فقط ليتألموا، ويئنوا، ويموتوا؟ هل تخلد هذه العناية الإلهية للنوم أثناء تلك العدوى، والأوبئة، والحروب، والاضطرابات، وتلك الثورات الأخلاقية والمادية؛ التي يذهب الجنس البشري ضحيةً لها؟ ألا تكون هذه الأرض التي يُنظر إلى خصوبتها على أنَّها نعمة من السماء، جافةً، وقاحلةً، وقاسية في آلاف الأماكن منها؟ ألا ينتج عنها سمومٌ إلى جانب ألذ الثمار؟ ألا تستمر تلك الأنهار، والبحار؛ التي يُعتقد أنَّها خلقت لري مسكننا، وتسهيل تجارتنا، في اغراق حقولنا، وهدم مساكننا، وجرف البشر وقطعانهم في طريقها؟[1] وبعبارةٍ أخرى، أليس هذا الإله الذي يتربع على عرش العالم، ويراقب مخلوقاته باستمرار ويحفظهم، هو من يكبلهم دائمًا بقيود العديد من السلاطين غير الإنسانيين؛ الذين يسخرون من بؤس رعاياهم التعساء، بينما يعلّل هؤلاء البؤساء أنفسهم عبثًا بالجنة، وبأنَّ مصائبهم المتزايدة قد تنتهي، مع أنَّها ترجع بوضوحٍ إلى إدارةٍ غير عقلانية، وليس إلى غضب السماء؟

---

(١) بيد أنَّه لا يوجد على العموم ما نطلق عليه شرٌّ حقيقي، إذ تجد الحشرات على سبيل المثال ملاذاً آمنًا تحت أنقاض القصر؛ الذي يسحق الإنسان عند سقوطه، ويوفر بموتهِ طعامًا لعددٍ لا يحصى من الحشرات الوضيعة، في الوقت الذي لم يكن يزيده القضاء على آلاف الحيوانات إلا ضخامةً، وبقاءه لفترة طويلة صريعًا الحمى. كما يبتهج طائر الرفراف بالزوبعة، ويضرب جناحيه بالعاصفة طواعيةً، ويمتطي الموجة بقناعة، مستمتعًا بعصف الريح الشمالية المخيف، ويطفو بسعادةٍ على الأمواج المتلاطمة؛ التي حطمت بلا رحمة سفينة ملاحٍ بائس غرق في هاوية اليأس، وتعلّق بحطام السفينة بعاطفة مرتعشة، ويراقب بيأسٍ رهيب تحطيم آماله الرحبة قبل أوانها – يتنهد بعمقٍ عند تفكيره بمنزله – يفكر بقلبٍ موجوع في أصدقاء أعزاء لن تراهم عيناه الغارقتان بالدموع أبدًا — وتسكن في ألمه المبرح مودته المخلصة لمحبوبته، من لن يسند رأسها المتدلي على صدرهِ القوي مرةً أخرى – يزداد مع تذكره المروع لفلذات كبدهِ؛ الذين لن تطوقهم ذراعيه المرهقتان أبدًا بولعه الأبوي؛ ثم يغرق إلى الأبد ضحيةً تعيسة للظروف المحمّلة ببهجة طائرٍ يرفرف، ويراهُ يستسلم للقوة الساحقة للموجات الغاضبة. وقد يستعرض المنتصر مهارته العسكرية، وخوضه لمعركةً دموية، وهزيمته لعدوه، وتدمير بلاده، واغتياله للآلاف من رفاقه، ولكنه يُغرق مناطق بأكملها بالدموع، ويملأ الأرض بأنين اليتيم، والأرامل المنتظرات، حتى يصبح للغربان مأدبة — ويا لها من وحوشٍ شرسة تتغذى بشراسة على الدماء البشرية التي تعيش عليها الديدان مترفةً!

أما التعيس الذي يبحث عن تعزية لنفسه بين ذراعي إلهه، فيجب أن يتذكر على الأقل أنَّ هذا هو الإله ذاته؛ الذي يقسم الخير والشر؛ كونه الآمر باسم الجميع. وإذا اعتقدَ أنَّ الطبيعة خاضعة لأنظمته السامية، فسيكون هذا الإله في كثيرٍ من الأحيان ظالمًا، ومليءٌ بالغلّ، والتهور، واللاعقلانية، بقدرِ ما يتحلى بالخير، والحكمة، والإنصاف. ولو كان المحبُّ أقلّ تحيزًا، وأكثر اتساقًا، لفكّر قليلاً، وظنّ أنَّ إلهه غريب الأطوار، وأنَّه سبّب له المعاناة، ولما سعى إلى تعزية نفسه بين ذراعي جلاده؛ الذي يمتلك من الحماقة ما يسيءُ به لصديقه، أو والده.

ألا نرى في الطبيعة مزيجًا ثابتًا من الخير والشر حقًا؟ وليس من المعقول أن نتمادى في النظر إلى الخير فقط دون إدراكنا للشر. فنرى الهدوء يتبع العاصفة، والمرض تتبعه الصحة، والسلام بعد الحرب. وتنبت الأرض في كلّ بلدٍ نباتات ضرورية؛ لتغذية الإنسان، وأخرى مهلكة له. وكلّ فردٍ من الجنس البشري مؤلف بالضرورة من صفاتٍ خيرة، وشريرة. وتقدم لنا جميع الأمم مشهدًا متنوعًا من الرذائل، والفضيلة؛ فما يُفرح فردًا بعينه، يغرق كثيرين آخرين في حدادٍ، وأحزان، وما من حدثٍ يحصل ليس له ميزات للبعض، وعيوبًا للآخرين. وتُظهر لنا الطبيعة بمجملها كائنات ينتابها تباعًا اللذة، والمرارة، وولدت؛ لتموت، ومعرضة لتلك التقلبات المستمرة؛ التي لا يُستثنى منها أحد. ويكفي أن نلقي عليها نظرةً سطحية؛ لتحررنا من فكرة أنَّ الإنسان هو السبب الأخير للخلق، وهو الموضوع الدائم لأعمال الطبيعة، أو أعمال خالقها؛ الذي لا يمكنهم أن ينسبوا إليه خيرًا، أو خبثًا، وعدالةً، أو جورًا، وذكاءً، أو حمقًا، وفقًا للحالة الواضحة للأشياء، والثورات المستمرة للجنس البشري. وبعبارة أخرى، عندما نمعن النظر في الطبيعة دون تحيز، سنجد أنَّ جميع الكائنات في الكون مفضلة على قدم المساواة، وأنَّ كلّ ما هو موجود يخضع للقوانين الضرورية؛ التي لا يمكن استثناء أيّ كائن منها.

وبالتالي، في حال وجود سؤالٍ يتعلق بفاعلٍ ما، ونراه يتصرف بصورةٍ مختلفة للغاية كالطبيعة، أو محركها المزعوم، فمن المستحيل تحديد صفاته وفقًا لأعماله؛ التي تكون مفيدة في بعض الأحيان ومضرة للجنس البشري في أحيان أخرى؛ أو سيُلزم كلّ إنسان على الأقل بالحكم عليه بموجب وضع غريب يتأثر به، ولن تكون هناك نقطة ثابتة، أو معيارًا في الأحكام؛ التي سيشكلها البشر عنه، وسيظّل أسلوبنا في الحكم مبنيًا دائمًا على أسلوب رؤيتنا، وشعورنا، وسيعتمد أسلوبنا في الشعور على مزاجنا، ومنظومتنا، وظروفنا الخاصة؛ التي لا يمكن أن تكون هي ذاتها لدى جميع أبناء جنسنا. وبذلك ستوفر دائمًا أنماط التأثر المختلفة هذه ألوان الصور؛ التي قد يرسمها الناس لأنفسهم عن الإله، وبالتالي لا يمكن أن

تكون هذه الأفكار ثابتة أو مؤكدة، ولا يمكن أبدًا أن تكون النتائج التي قد يستمدونها منها، ثابتة أو موحدة، وسيحكم كلّ منهم دائمًا بموجب ذاته، ولن يرى أبدًا في إلهه أيّ شيء سوى ذاته، أو موقفه الخاص.

وتسليمًا بهذا، فإنَّ البشر الذين يتمتعون بالقناعة، ولديهم نفسٌ حساسة، سيصفون الإله بأجملِ الصفات، وسوف يعتقدون أنَّهم لن يروا في الطبيعة كلّها؛ التي تثير لديهم بلا توقف أحاسيس مقبولة، سوى براهين على الإحسان، والخير، وسوف يتخيلون في نشوتهم الشعرية أنَّهم يدركون في كلّ مكانٍ انطباعًا عن وجود ذكاءٍ مثالي، وحكمةٍ لامتناهية، وعناية إلهية تتلطف برفاهية الإنسان، وسوف يضيفُ إلى هذه الصفات السامية حبّ الذات، وسيفترض الرعاية المتناهية لإقناعهم بأنَّ الكون مخلوقٌ فقط للجنس البشري، وسوف يسعون عبر خيالهم ليقبّلوا عن طيبِ خاطر اليد التي يعيشون بفضلها، ويتلقون منها الكثير من المنافع، متأثرين بهذه النعم، ومستمتعين بعطرِ هذه الورود؛ التي لا يرون منها أشواكًا، أو يمنعهم هذيان النشوة من الشعور بها، سوف يعتقدون أنَّهم لا يستطيعون أبدًا الاعتراف بما يكفي بالآثار الضرورية؛ التي يبحثون عنها كأدلةٍ لا يطالها الشكّ على الميول الإلهية للإنسان. وبسبب إدمانهم على هذه الأفكار المسبقة، لن يدرك المتعصبون تلك المآسي وهذا الاضراب الذي يتخذُ من العالم مسرحًا له، أو إذا لم يتمكنوا من منعهم بأنفسهم من رؤيتهم، فسيقتنعون برؤية العناية الإلهية المحسنة، بأنَّ هذه الكوارث ضرورية لحصول الإنسان على أعلى مستويات السعادة؛ وتدفعهم الإتكالية؛ التي وضعوها في إله يتخيلون اعتمادهم عليه، إلى الاعتقاد بأنَّ الإنسان لا يعاني إلا من أجل خيره، وأنَّ هذا الكائن المنتج للنعم، سيعرف كيف يجعله يجني فائدة من الشرور؛ التي يعانيها في هذا العالم. وهكذا لن يرى ذهنهم المشغول إلا ما يعبّر عن إعجابهم، وامتنانهم، وثقتهم؛ حتى تلك الآثار الطبيعية جدًا، والضرورية، تبدو بالنسبة لهم معجزات من الإحسان، والخير، والإصرار على رؤية الحكمة، والذكاء في كلّ مكان، ويتغاضون عن الاضطرابات؛ التي يمكن أنْ تتعارض مع تلك الصفات الودية؛ التي ينسبونها إلى الكائن الذي يأسر قلوبهم، فتكفّ أعتى المصائب، وأشد الأحداث إيلامًا للجنس البشري، عن الظهور لهم بمظهر الاضطرابات، ولا تزودهم إلا ببراهين جديدة على الكمالات الإلهية: يقنعون أنفسهم بأنَّ ما يظهر لهم معيبًا، أو ناقصًا ليس سوى مظهر، ويعجبون بحكمةِ إلههم وفضله، حتى في أفظع النتائج وأنسبها لتثبيطهم.

ومما لا شك فيه أنَّ هذه النشوة الحمقاء، وهذه الفتنة الغريبة، التي يُعزى إليها نسق التفاؤلية؛ الذي يبدو من خلاله المتعصبون، والمفعمون بالخيال الرومانسي، وكأنَّهم قد تخلوا عن أدلة حواسهم، وهكذا يجدون أنَّ كلّ ما في الطبيعة خيرٌ للإنسان، حيث يوجد الخير مصحوبًا دائمًا بالشر، والأذهان الأقل تميزًا، والتخيلات الأقل شاعرية، وسيحكمون بأنَّ كلّ شيء لا يكون إلا كما ينبغي أن يكون، وأنَّ الخير والشر ضروريان على قدم المساواة، وأنَّهما نابعان من طبيعة الأشياء، وليس من يدٍ وهمية يمكن وصفها بالشر بقدر ما يقال إنَّها مليئة بالخير، إن كانت موجودة بالفعل، أو فعلت كلّ ما نراه. ولكي نتمكن إلى جانب ذلك من تبرير العناية الإلهية بالشرور، والرذائل، والاضطرابات؛ التي نراها في الكل الذي يُفترض أن يكون من عمل يديه، فيجب أن نعرف الهدف من الكل. ولكن الكلّ لا يمكن أن يمتلك هدفًا؛ لأنَّه لو كان ذو هدف، أو اتجاه، أو غاية، لما كان كلاًّ.

وسيُقال لنا: إنَّ ما نراه في هذا العالم من اضطراباتٍ، وشرورٍ نسبية وظاهرية فحسب، ولا تثبت ما يخالف الحكمة الإلهية وخيرها. ولكن ألا يمكن أن نجيب بأنَّ الكثير من الفوائد التي تباهى بها، والنظام البديع الذي تقوم عليه حكمة الله، وخيره، هما على نحوٍ مماثل نسبيان، ومظهران فحسب؟ نظرًا إلى أنَّ ما يشكل نظام الطبيعة المتعلق بنا، والذي يخولنا بأنْ ننسب الحكمة أو الخير لخالقهما هو عبارة عن نمط شعورنا الموحد، وتعايشنا مع ما يحيط بنا من علل، ألا ينبغي أن تسمح لنا أنماط شعورنا، ووجودنا بأنْ نسمي ذلك الاضطراب؛ الذي يؤذينا، وننسب الحماقة أو الخبث إلى الكائن الذي نفترض أنَّه يحرك الطبيعة؟ وبعبارة أخرى، يتضافر ما نراه في العالم لإثبات أنَّ كلّ شيء ضروري، وأنَّ لا شيء يحدث بالصدفة، وأنَّ جميع الأحداث، سواء كانت خيرة أو شريرة بالنسبة لنا، أو لكائناتٍ من نظامٍ مختلف، ناجمة عن عللٍ تتصرف وفقًا لقوانين معينة وحتمية، وليس هناك ما يخولنا أن ننسب أيًا من صفاتنا البشرية إلى الطبيعة، أو القوة المحركة التي مُنحت لها.

أما فيما يتعلق بأولئك الذين يدّعون أنَّ صاحب الحكمة السامية سيعرف كيف يجني أعظم الفوائد لنا، حتى في خضم تلك الشرور؛ التي يُسمح لنا بارتكابها في هذا العالم، فسوف نسألهم عمّا إذا كانوا هم أنفسهم مقربين من الإله، أو على ماذا يبنون آمالهم الجميلة؟ وسيخبروننا بلاشكٍ أنَّهم يحكمون على سلوك الله من خلال "القياس"، وأنَّهم يمتلكون حقًا عادلًا بموجب البراهين الفعلية على حكمته، وخيره، في أن يقرروا لصالح فضله، وحكمته في

المستقبل. وسنردُّ عليهم، بأنَّهم يعترفون وفقًا لهذه الافتراضات غير المبررة، بأنَّ خير إلههم، وحكمته كثيرًا ما يتناقضان في هذا العالم، ولا يوجد ما يمكن أن يؤكد لهم أنَّ سلوكه لن يكفّ عن أن يكون هو ذاته فيما يخصّ هؤلاء البشر؛ الذين يلمسون في هذه الأرض في بعض الأحيان لطفه، وأحيانًا أخرى أذيته. وعلى الرغم من أنَّ الله المقتدر خيّر، لكن ما الذي يجعلنا نعتقد أنَّه سيكون قادرًا على تحقيقه، أو مستعدًا له في عالم آخر، إذا لم يكن قادرًا، أو راغبًا في إسعاد مخلوقاته العزيزة بالكامل في هذا العالم؟

وهكذا، لا تُبنى هذه اللغة إلا على فرضيات مدمرة لا أساس لها سوى خيال متحيز، وتُظهر فقط أنَّ البشر لا يسعهم أن يتخيلوا بأنفسهم أنَّه سيوافق على جعل مخلوقاته تعيسة على الدوام، بمجرد إقناعهم بخير إلههم، من دون دوافع، أو حجة. ولكننا نسأل من ناحية أخرى: ما الخير الحقيقي، والمعروف؛ الذي نرى الجنس البشري يجنيه من ذلك العقم، وتلك المجاعات، والأمراض المعدية، وتلك المعارك الدامية التي تتسبب في موتِ ملايين البشر، ولا تكفّ عن تهجير السكان، وتخريب العالم الذي نعيش فيه؟ وهل هناك من يستطيع أنْ يتأكد من المزايا الناجمة عن كلّ الشرور التي تحاصرنا من كلّ حدب وصوب؟ ألا نرى كلّ يوم كائنات مخصصة للبؤس منذ لحظة ولادتها إلى حين نزولها إلى القبر الصامت، ووجدتْ بصعوبة كبيرة متسعًا للتنفس، وعاشتْ مغامرة دائمة من المحن، والحزن، وتقلبات الدهر؟ وكيف سيستخلص هذا الإله الكريم الخير من الشرور؛ التي يجلب بها المعاناة للبشرية، ومتى؟

إن أكثر المتفائلين المتعصبين، والموحدون أنفسهم، وأنصار الدين الطبيعي، (الذي يمثل أيّ شيء غير طبيعي، أو مبني على العقل) وكذلك الأكثر سذاجةً، وإيمانًا بالخرافات، ملزمون بالعودة إلى نظام الحياة الأخرى، لتبرئة الإله من تلك الشرور التي قدّر أن يعاني منها أولئك الذين يُفترض أن يكونوا أكثر قبولًا في نظره. وهكذا، عندما نحدد فكرة أنَّ الله خيّر ومفعم بالعدالة، لا يمكننا الاستغناء عن الاعتراف بسلسلةٍ طويلة من الفرضيات؛ التي لا أساس لها سوى الخيال، بالإضافة إلى فكرة وجود هذا الإله؛ التي أظهرنا بالفعل عدم جدواها. ومن الضروري العودة إلى عقيدة الحياة المستقبلية، وخلود النفس؛ لتبرير الإله، وهو احتمال ضئيل للغاية، ونحن ملزمون بالقول: إنَّه نتيجة عدم قدرته على إسعاد الإنسان في هذا العالم أو رغبته في ذلك، سيمنحه سعادة لا تتغير عندما لا يعود موجودًا، أو عندما لا تكون لديه هذه الأعضاء التي تمكنه من الاستمتاع بها في الوقت الحاضر.

ومع ذلك لا تكفي هذه الفرضيات العجيبة لتبرر للإله شره، أو ظلمه العابر. وإذا كان الله ظالما وقاسيًا على سبيل المثال، وأنقص من كمالاته الإلهية على الأقل في تلك اللحظة؛ فهو متغير إذن، ويتناقض خيره مع عدله لبعض الوقت، وفي هذه الحال نسأل: من يضمن أنَّ الصفات التي نثق بها لن تتعارض مع ذاتها حتى في الحياة المقبلة، وابتُكرت لتبرّر لله تلك الاطرادات التي يسمح بها في هذا العالم؟ ما هو سوى إله ملزم دائمًا بالتخلي عن مبادئه، ويجد نفسه عاجزًا عن إسعاد من يحبهم، دون أن يلحق بهم الإثم ظلماً، على الأقل في حياتهم الدنيا؟ وبالتالي، سنظطر للعودة إلى فرضياتٍ أخرى لنبرر للإله، ونفترض أنَّ الإنسان يمكن أن يسيء إلى إلهه، ويعكر صفو نظام الكون، ويضر ببهجة من يمتلك سعادة سيادية، ويعرقل مقاصد الكائن المقتدر. ولابدّ لنا من العودة إلى نظام حرية الإنسان؛ لكي نوفق بين أمورٍ كثيرة.[1] وسنجد أنفسنا مضطرون دائمًا، واحدًا تلو الآخر، إلى الاعتراف بأكثر الأفكار استحالة، وتناقضًا، وزيفًا، بمجرد أن نعترف بأنَّ الكون يحكمه ذكاءٌ مليء بالحكمة، والعدالة، والخير. وإذا كنا متزنين فسوف يفي هذا المبدأ وحده، بقيادتنا من دون وعيٍ إلى أفظع السخافات.

وتسليمًا بهذا، فإنَّ كلّ الذين يتحدثون عن الخير الإلهي، والحكمة، والذكاء الذي تتحلى به أعمال الطبيعة، ومن يقدمون هذه الأعمال ذاتها كأدلةٍ لا جدال فيها على وجود إلهٍ، أو فاعل مثالي، هم أناس متحيزون، أو متهورون نتيجة خيالهم، ولا يرون سوى زاوية من صورة الكون، من دون أن يأخذوا الكل بالحسبان. وهم مخمورون من الشبح؛ الذي شكّله عقلهم عنه، ويشبهون أولئك العشاق الذين لا يلاحظوا أيّ خللٍ في الأشياء؛ التي تثير اهتمامهم، ويلغون رذائلهم، وعيوبهم، ويخفونها، ويبررونها، وينتهون في كثيرٍ من الأحيان إلى الخلط بينها وبين الكمالات.

ومن هنا نرى أنَّ البراهين على وجود ذكاءٍ سيادي، ومستمد من النظام، والجمال، وانسجام الكون، هي براهين مثالية تمامًا، وليست حقيقية إلا بالنسبة لأولئك؛ الذين ينتظمون، ويتغيرون وفق وضعٍ معين، أو من بُني خيالهم المبهج لخلقٍ كائنات خيالية مقبولة، وينمقونها بحسب خيالهم. ولكن لابدّ أن تتبدد هذه الأوهام في كثيرٍ من الأحيان بحدّ ذاتها

(١) أيوجد أيّ شيء غير حاسم أكثر من أفكار بعض المؤمنين الذين ينكرون حرية الإنسان، ويصرون بقوة رغم من ذلك، على الحديث عن الله للمنتقم، والمثيب؟ كيف يمكن أن يعاقب الله العادل على أفعالٍ ضرورية؟

عندما تصبح الآلة مشوشة، ويتعرض مشهد الطبيعة الذي بدا لهم مبهجًا، ومغريًا للغاية في ظروفٍ معينة، للإضطراب والفوضى. ولا يستطيع الإنسان ذو المزاج السوداوي، والمتوتر بفعل المحن، أو العاهات، أن ينظر إلى الطبيعة وخالقها من المنظور ذاته للإنسان السليم؛ الذي يتمتع بحسٍ فكاهي مرح، ومتقبل لكلّ شيء. ولا يمكن للإنسان العنيد، والمحروم من السعادة، أن يجد سوى الاضطراب، والانحراف، وأمور تسوءه، ولا يتصور الكون إلا مسرحًا لحقد طاغيةٍ غاضب، أو انتقامه، ولا يستطيع أن يحب هذا الكائن الخبيث بصدق؛ لكونه يكرهه من أعماق قلبه، وإن جعله أكثر استعبادًا؛ يرتجف، ويعبد ملكًا بغيضًا، ولا تولد فكرته عنه سوى مشاعر عدم الثقة، والخوف، والجبن. وبعبارة أخرى، يصبح مؤمنًا بالخرافات، وساذجًا، وغالبًا ما يكون قاسيًا على غرار سيده؛ الذي يعتقد أنَّه ملزم بخدمته وتقليده.

ونتيجة لهذه الأفكار؛ التي ولدت في مزاج التعيس، والمرِح العنيد، ينتاب المؤمنين بالخرافات الرعب باستمرار، وانعدام الثقة، والرهبة. ولا يمكن للطبيعة أن تلقي بمفاتنها عليهم، ولا يشاركون في مشاهدها المبهجة، ولا ينظرون إلى هذا العالم البديع، والخير للغاية للمتعصبين الراضين، إلا على أنَّه وادي من الدموع، ألقاهم فيه الإله الغيور، والمنتقم؛ ليكفّروا فقط عمّا أقترفوه بحق أنفسهم، أو آبائهم من جرائم. ويعتبرون أنفسهم هنا ضحايا، وتسلية لجبروته، ويخضعوا لمحاكمات مستمرة، إلى أن يصلوا إلى وجودهم الجديد إلى الأبد، ويكونوا فيه سعداء، أو بائسين، وفقًا للسلوك؛ الذي يجب أن يتوجهوا به إلى الإله الخيالي الذي يحمل مصيرهم بين يديه.

هذه هي الأفكار الكئيبة التي وضعت لكلّ العبادات، وكلّ الخرافات الأكثر حماقةً، وقسوة، وكلّ الممارسات اللاعقلانية، وكلّ الأنظمة السخيفة، وكلّ الأفكار، والآراء المبالغ فيها، وكلّ المذاهب، والاحتفالات والطقوس. وبعبارة أخرى، لكلّ الأديان على الأرض؛[1] التي كانت، وستظل دائمًا، مصدرًا أبديًا للرهبة، والشقاق، والهذيان، لأولئك الحالمين المصابين بالصفراء، أو المخمورين من الغضب الإلهي، والذين يوجهون حسّهم الفكاهي

(١) يزخر التاريخ بتفاصيل عن أكثر الأعمال الوحشية فظاعةً تحت الاسم المهيب "إرادة الله"، و"أحكام الله:" لم يعتبر للمعجبون بالخرافات أيّ شيء خيالي أو شائن للغاية. فذبح الآباء أطفالهم، وضحى العشاق بأشياء تخص عاطفتهم، وأهلك الأصدقاء بعضهم البعض، وتأججت أكثر الخلافات دموية، وولدت عداوات لا حصر لها، لإرضاء نزوة الكهنة المتعنتين، الذين أثّروا في الناس بفضل ابتكاراتهم الماكرة.

الرديء باتجاه الشر، ويحولهم خيالهم الهائم إلى متعصبين، ويهيئهم جهلهم لسرعة التصديق، ويخضعون من دون تفكير لكهنتهم؛ الذي يحثوهم على أن يسلبوا من الآخرين ما حرموا هم أنفسهم منه، في سبيل مصالحهم الخاصة، والاستفادة دائمًا من تحفيز إلههم الشرس، والمتزمت لهم لارتكاب الآثام.

وبالتالي ينبغي أن نبحث في تنوع الأمزجة، والعواطف عن الفرق بين إله الموحد، والمتفائل، والمتحمس السعيد، وذلك المؤيد للخرافات، والمتعصب الذي كثيرًا ما تؤدي به الثمالة إلى جعله غير اجتماعي، وقاسٍ. وهم جميعًا غير عقلانيين على قدم المساواة، ومخدوعين بمخيلتهم، فلا يرى أحدهم الله إلا من الجانب المرضِ؛ أي الناقل لمحبتهم؛ في حين لا يراه الآخرون إلا من الجانب غير المرضِ. وفي كلّ مرة نضع افتراضًا زائفًا، تشكل فيه كلّ الاستدلالات التي نجريها بشأنه سلسلة طويلة من الأخطاء، وفي كلّ مرة نتخلى فيها عن أدلة حواسنا، وخبرتنا، وطبيعتنا، وعقلنا، يصبح من الصعب علينا أن نحسب الحدود التي سيتوقف عندها الخيال. صحيح أنَّ أفكار المتحمس السعيد ستكون أقل خطورة عليه وعلى الآخرين، من أفكار إنسانٍ ردئ مؤمن بالخرافات، وسيجعله مزاجه جبانًا وقاسيًا، لكن آلهة أحدهم ليست أقل خيالية من الآخر، فالأول ناجمة عن أحلام مريحة، والثاني نتيجة العابر المزعج للدماغ.

ولن يوجد سوى خطوة واحدة بين التوحيد والخرافات. ويكفي أبسط تحوّل في الآلة، وضعف طفيف، ومصيبة غير متوقعة، لتغيير مسار الأمور المرحة، وتعكير المزاج، وقلب نظام آراء الموحد، أو المحب السعيد، وبمجرد تشويه صورة إلهه، سينقلب نظام الطبيعة الجميل عليه نسبيًا، وسوف تغرقه الكآبة تدريجيًا في الخرافة، والجبن، وفي كلّ تلك المخالفات التي تؤدي إلى التعصب والسذاجة.

ويجب أن يأخذ الإله الذي لا يوجد إلا في مخيلة البشر، طبيعته بالضرورة من شخصيتهم، وسوف تكون لديه عواطفهم، وسوف يتابع باستمرار التحولات التي تعتري آلتهم، وسيكون مرحًا أو حزينًا، ومرضيًا أو مجحفًا، وودودًا أو معاديًا، واجتماعيًا أو عنيفًا، وإنسانيًا أو قاسيًا، وفقًا لما يحمله في دماغه سيكون هو ذاته. ولا يستطيع الفانِ المندفع من حال اليأس إلى البؤس، ومن الصحة إلى المرض، ومن البهجة إلى المحنة، في هذه التقلبات أن يحافظ على الإله ذاته. وما هذا إلا إله يعتمد في كلّ لحظة على ما يعتري أعضاء الإنسان

من اختلافات ناجمة عن عللٍ طبيعية؟ يا له من إله غريب حقًا! الذي تعتمد الفكرة الهائمة عنه إلى حدٍ ما على حرارة دمائنا وسيولتها!

ولا شكّ أنَّ الله الخيّر على الدوام، والمفعم بالحكمة، والموسوم بصفاتٍ ودودة، ومرضية للإنسان، سيكون وهمًا أكثر إغراءً من إله المتعصبين، والمؤمنين بالخرافات، ولهذا السبب لن يكون سوى كائن خرافي، وسيصبح خطيرًا عندما تتغير ظروف المتأملون الذين سينشغلون به أو مزاجهم، وسيرى هؤلاء الذين ينظرون إلى إلههم على أنّه خالق كلّ الأشياء، بأنّه يتغير، أو سيكونوا ملزمين على الأقل باعتباره كائناً مليئًا بالتناقضات؛ التي لا يمكن الاعتماد عليها على وجه اليقين، ومن هنا سوف تمتلأ عقولهم بالشكوك، والخوف. وسيصبح هذا الإله الذي تخيلوه جذابًا للغاية في البداية، موضوعًا مرعبًا لهم، ومن المرجّح أن يغرقهم في الخرافات الأكثر كآبة، والتي ظهروا للوهلة الأولى بفضلها وكأنّهم بعيدين إلى أقصى حد.

وبالتالي، لا يمكن أن تكون هناك مبادئ معينة للتوحيد، أو الدين الطبيعي المزعوم، ويخضع أولئك الذين يصرحون به بالضرورة لتنوع آراءهم عن الإله، وسلوكهم الناجم عنهم. ولابدّ أن يتحول نظامهم في الوقت الراهن إلى تعصبٍ، وخرافات بمجرد أنْ تتغير الظروف، وهو مبني في الأصل على إلهٍ حكيمٍ، وذكي، ولا يمكن أن يتناقض خيره مع ذاته. ولابدّ أن يكون لهذا النظام الذي يتأمل فيه المتعصبون سمات مختلفة، كأن يشهد فروقات متواترة، ويبتعد بسرعة عن بساطته البدائية المزعومة. ويميل القسم الأكبر من هؤلاء الفلاسفة إلى استبدال التوحيد بالخرافات، لكنهم لا يدركون أنَّ التوحيد تكوّن ليشوه ذاته، ويفسدها. وفي الواقع، تثبت الأمثلة المدهشة هذه الحقيقة المحتومة، وأنَّ التوحيد تشوه في كلّ مكان. وتشكّلت تدريجياً تلك الخرافات، والطوائف المتطرفة، والمتحيزة التي ابتلي بها الجنس البشري. وحالما يوافق الإنسان على الاعتراف بالقوى غير المرئية، والخارجة عن الطبيعة؛ والتي لن تمكن عقله المتوتر على الدوام من إصلاح أفكاره، سيكون خياله وحده قادرًا على رسمها له، ولا يجرؤ حينها على الرجوع إلى عقله نسبيًا، بوجود هذه القوى الخيالية، ولابدّ أن تقوده هذه الخطوة الأولى الزائفة بالضرورة إلى الضلال، ويصبح سلوكه، وآرائه على المدى الطويل، سخيفة تمامًا.[1]

(١) يبدو أنَّ ديانة إبراهيم تمتلك في الأصل إيمانًا متخيلًا بإعادة صياغتها لخرافات الكِلْدَانِيِّين، حيث صحّف موسى التوحيد عند إبراهيم، واستفاد منه لتشكيل الخرافات اليهودية. وكان سقراط موحدًا مثل إبراهيم، وآمن

ونحن نطلق لفظ الموحدون، أو الربوبيين فيما بيننا على أولئك الذين لم يقترفوا عددًا كبيرًا من الأخطاء الجسيمة؛ التي يحدثها الجهل، والخرافات تباعًا، ويتمسكون ببساطة بمفهوم غامض عن الإله؛ الذي يعتبرونه فاعلاً مجهولًا، ووهب ذكاءً، وحكمةً، وقوةً، وخيرًا. وبعبارة أخرى، مفعمٌ بالكمالات اللامتناهية. وهذا الكائن متميز عن الطبيعة برأيهم، واكتشفوا وجوده بفعلِ النظام، والجمال الذي يسود في الكون. وشغلوا بالهم بعنايته الخيّرة، وتمادوا في عدم رؤية الشرور؛ التي يُفترض أن يكون هذا الفاعل الكلي علّة لها متى لم يستغل سلطته لمنعها. وبالافتتان بهذه الأفكار؛ التي أظهرنا أساسًا ضعيفًا لها، ليس من المستغرب أن يكون هناك القليل من الانسجام في أنظمتها، وفي العواقب التي تنجم عنها. ويفترض البعض في الواقع أنَّ هذا الكائن الخيالي، والمتقوقع في عمق ماهيته، بعد أن أخرج المادة من العدم، منحها الحركة مرة واحدة وتركها إلى الأبد. ولديهم سببٌ فقط لأنْ يحدث الله الطبيعة، وهو أنَّ كلّ ما يحدث فيها ما هو إلا نتيجة ضرورية للدفعة التي مُنحت لها في أصل الأشياء، وكان على استعداد لأنْ يوجد العالم، ولكنه كان أعظم من أن يدخل في تفاصيل حكمه، فسلّم جميع الأحداث إلى عللٍ ثانوية، أو طبيعية، وبقي في حالٍ من اللامبالاة المطلقة تجاه مخلوقاته التي لا علاقة لها به على الإطلاق، ولا يستطيعون بأيّ حال أن يعكروا صفو سعادته غير المتغيرة. ومن هنا نرى أنَّ أدنى الخرافات عند الربوبيين تجعل من إلههم كائنًا عديمة الفائدة للبشر، ولكن لديهم سببًا للكلمة لتعيين العلة الأولى أو القوة المجهولة؛ التي يعتقدون أنَّهم يجب أن ينسبوا تكوينها البدائي، أو ترتيب مادتها الأبدية إذا رغبوا إلى الله؛ بسبب جهلهم بطاقة الطبيعة.

بالإلهام الإلهي، وزيّن تلميذه أفلاطون توحيد سيده بالألوان الصوفية؛ التي استعارها من الكهنة المصريين والكِلْدانيين، وعدّل عليها من دماغه الشعري. وكان تلاميذ أفلاطون مثل برقليس Proclus ويامبليخوس Jamblichus وأفْلُوطين Plotinus وفرفوريوس الصُّوري Porphyrus و...إلخ، من المتعصبين الحقيقيين، الذين انغمسوا في أفظع الخرافات. وبعبارة أخرى، كانوا أول الأطباء المسيحيين أفلاطونيون، وجمعوا بين الخرافات اليهودية؛ التي أعاد صياغتها الرسل أو يسوع، والأفلاطونية. ونظر كثيرٌ من الناس إلى يسوع على أنَّه موحدٌ حقيقي، وقد حُرفَ دينه تدريجيًا. وفي الكتب التي تحتوي على الشريعة المنسوبة إليه بالفعل، لم يردْ ذكر للعبادة، أو للكهنة، أو الذبائح، أو القرابين، أو الجزء الأكبر من عقائد المسيحية الفعلية؛ التي باتت الأكثر تحيزًا من بين كلّ خرافات الأرض. وكان محمد (ص)، عند محاربته للشرك في بلاده، راغبًا فقط في إعادة العرب إلى التوحيد البدائي لإبراهيم، وابنه إسماعيل، ومع ذلك انقسم المحمديون إلى اثنتين وسبعين طائفة، وكلّ هذا يثبت أنَّ التوحيد ممزوج دائمًا نوعًا ما بالتعصب؛ الذي ينتهي عاجلًا أو آجلًا بإحداث الخراب والبؤس.

ويفترض موحدون آخرون، مزودون بخيالٍ أكثر حيوية، علاقات أكثر خصوصية بين الفاعل الكلي، والجنس البشري، وكلّ واحد منهم يوسّع، أو يقلّل من هذه العلاقات وفقًا لخصوبة عبقريته، ويفترض واجبات من الإنسان تجاه خالقه، ويعتقد أنّه يجب أن يقلّد خيره المزعوم لإرضائه، ويعمل الخير مثله لمخلوقاته. ويتخيل البعض أنّ هذا الإله يحتفظ بالثواب لمن يفعل الخير، ويلحق العقاب بأولئك؛ الذين يرتكبون الشر بحقّ أقارنهم؛ لكونه عادلاً. من هنا نرى أنّ هؤلاء يأنسنون إلههم أكثر بقليل من الآخرين، عندما يجعلونه أشبه بالملك؛ الذي يعاقب رعاياه، أو يكافئهم، بحسب إخلاصهم في أداء واجباتهم، والقوانين التي يفرضها عليهم، ولا يستطيعون مثل الربوبيين الصادقين، أن يقنعوا أنفسهم بإلهٍ غير متحرك، وغير مبالٍ، ويحتاجون إلى إلهٍ يتقرّب منهم، أو يمكنه أن يفيدهم على الأقل في شرح بعض تلك الألغاز؛ التي يفرضها هذا العالم عليهم. ولما كان كلٌّ من هؤلاء المتأملون؛ الذين نطلق عليهم اسم الموحدون لتمييزهم عن سابقيهم، يصنعون له نظامًا دينيًا منفصلاً، فهم في الوقت الحاضر متفقون في عباداتهم، وليس في آرائهم، ويوجد بينهم ظلال غير مدركة في كثير من الأحيان من الربوبية البسيطة؛ التي يؤدي بعضها إلى الخرافات، وبعبارة أخرى، لا ينسجمون إلا قليلًا مع أنفسهم، ولا يعرفون ما الذي يجب إصلاحه.(1)

ويجب ألا نندهش، فإذا كان إله الربوبي عديم الفائدة، فإنّ إله الموحد مليء بالضرورة بالتناقضات، وكلاهما يعترف بالكائن الذي لا يؤدي أيّ وظيفة. ولكن هل يجعلونه ماديًا؟

---

(1) من السهل أن ندرك أنّ كتابات الموحدين والربوبيين تمتلئ عمومًا بالمغالطات، أو الأقيسة المنطقية الخاطئة، والتناقضات، مثل تلك الخاصة باللاهوتيين، وتكون أنظمتهم في كثيرٍ من الأحيان غير منطقية في نهاية المطاف. إذ يقول أحدهم: إنّ كلّ شيء ضروري، وينكر روحانية، وخلود النفس، ويرفض تصديق حرية الإنسان. ولكن ألا يمكننا أن نسألهم في هذه الحال: أي عبودية يمكن أن تكون لإلههم؟ وهنا لديهم مبرر للكلمة؛ التي جعلها العرف ضرورية لهم. ويوجد عددٌ قليل جدًا من البشر في العالم يجرؤون على تحقيق الاتساق: ولكن دعونا ندعو المنكرين لوجود الله، أو للمؤيدين له، أيًا كانت المِلّة التي نخدعهم بها، ونستفسر بشأنهم، إذا كان من الممكن أن نربط أيّ فكرة مؤكدة، ودائمة، وثابتة، ومتوافقة دائمًا مع طبيعة الأشياء، بالكائن الذي يسمونه باسم الله، وسوف يرون أنّه بمجرد تمييزه عن الطبيعة، لن يعودوا يفهموا أيّ شيءٍ عنه. وتشبه الكراهية؛ التي يبديها القسم الأكبر من البشر من أجل الإلحاد تمامًا الرعب من الفراغ: لديهم سبب لتصديق شيء ما، ولا يمكن أن يبقى العقل في حال ترقب، ولكن عندما يقنعون أنفسهم بأنّ الشيء يثير اهتمامهم بطريقةٍ حيوية للغاية، سوف يؤمنون بعد ذلك بكلّ ما هو مرغوب فيه بدلاً من تصديقهم لأيّ شيء، وسوف يتخيلون أنّ الوضع الأكثر تأكيدًا هو المشاركة.

هل يعود حينها إلى الطبيعة. وهل يجعلونه روحانيًا؟ وإن لم يعد لديهم أيّ أفكارٍ حقيقية عنه، فهل يمنحونه صفات أخلاقية؟ ويجعلون منه على الفور إنسانًا، ولا يعرضون عنه الكماليات، بل صفاته؛ التي تتناقض في كلّ لحظة، بمجرد افتراضهم لكونه خالق كلّ الأشياء. وهكذا، كلما واجه أحدٌ من البشر محنًا، ستراه ينكر العناية الإلهية، ويسخر بشأنِ العلل النهائية، ويضطر للإقرار بأنَّ الله عاجزٌ، أو أنَّه يتصرف بطريقةٍ تتعارض مع خيره. ومع ذلك، ألا يظطر أولئك المؤيدون لوجود إلهٍ عادل، لافتراض واجبات، وأنظمة منبثقة من هذا الكائن؛ الذي لا يمكنهم الإساءة إليه إن لم يعرفوا شيئًا عن مشيئته؟ لذلك، لكي يشرح الموحد لأحدهم تلو الآخر، سلوك إلهه، يجد نفسه في حرجٍ دائم، ولا يعرف كيف يتهرب منه؛ ولكن عند قبوله لكلّ التخيلات اللاهوتية، حتى دون استثناء تلك الخرافات السخيفة؛ التي كان يتصور أنَّها تقدم تفسيرًا للتدبير الغريب لهذا الكائن الخير للغاية، والحكيم للغاية، والمليء بالإنصاف، فسيكون من الضروري، العودة من افتراض إلى آخر، إلى خطيئة آدم، أو سقوط الملائكة المتمردين، أو جريمة بروميثيوس، وصندوق باندورا، لاكتشاف الطريقة التي تسلّل بها الشر إلى عالمٍ خاضع لذكاءٍ خيّر. وسيكون من الضروري افتراض الفاعلية الحرة للإنسان، ولابدّ من الاعتراف بأنَّ المخلوق يستطيع أنْ يسيء لإلهه، ويثير غضبه، ويهيج عواطفه، ويهدئها بعد ذلك بالكفارات، والشعائر الخرافية. وإن كانوا يفترضون أنَّ الطبيعة تخضع لفاعلٍ مخفي، يتّسم بصفاتٍ مبهمة، ويتصرف بطريقة غامضة، ألا ينبغي الافتراض أنَّ الشعائر، وحركات الجسد، والكلمات، والطقوس، والمعابد والتماثيل يمكن أن تحتوي على فضائل سرية، ومناسبة للتوفيق بينهم وبين الكائن الغامض الذي يعبدونه؟ بل لما لا يؤمنون بالقوى الخفية للسحر، والسيمياء، والأمور الفاتنة، والتمائم، والتعويذات؟ ولماذا لا يؤمنوا بالأفكار الملهمة، والأحلام، والرؤى، والنذور، والعرافيين؟ من يدري ما إذا كانت القوة الدافعة للكون، لم تكن قادرة على استخدام طرق مبهمة، ولم تلجأ إلى عمليات التحوّل، والتجسد، والاستحالة؛ لكي تظهر ذاتها للإنسان؟ ألا تخلق كلّ التخيلات الناتجة عن المفاهيم السخيفة؛ التي شكّلها البشر لأنفسهم عن الإله؟ كلّ هذه الأمور، والفضائل المرتبطة بها يتعذر تصورها، وهي أقل قابلية للتصديق من أفكار الموحد؛ التي تفترض أنَّ إلهًا لا يمكن تصوره، وغير مرئي، وغير مادي كان قادرًا على خلق المادة، وتحريكها، وأنَّ إلهًا معدوم الأعضاء يمكن أن يمتلك الذكاء، ويفكر مثل الناس، وأن تكون له صفات أخلاقية، وأنَّ الإله الحكيم، والذكي يمكن أن يقبل بالاضطراب، وأنَّ الله العادل، وغير القابل للتغيير يمكن

أن يسمح بالطعن بتلك البراءة لبعض الوقت؟ وعند الاعتراف بإلهٍ شديد التناقض، أو شديد المعارضة لأوامر الحس السليم، فلن يكون هناك أيّ شيءٍ يجعل العقل يثور عليه. وبمجرد أن يفترضوا وجود مثل هذا الإله، يمكنهم تصديق أيّ شيء، ومن المستحيل الإشارة إلى الموضع؛ الذي يجب أن يوقفوا فيه تقدم خيالهم. وإذا افترضوا وجود علاقة بين الإنسان وهذا الكائن المذهل، فعليهم أن يقيموا له المذابح، ويقدمون له الأضاحي، ويتضرعوا له بصلواتٍ مستمرة، ويهبوه العطايا. وإذا لم يكن من الممكن تصور أيّ شيءٍ عن هذا الكائن، ألن تكن هذه هي الطريقة المؤكدة للإشارة إلى كهنته؛ الذين كان يجب أن يتأملوه حتى يعرّفوا الآخرين به؟ وبعبارة أخرى، لا يوجد وحيٌ، ولا أحجيةٌ، ولا ممارسةٌ لا تقضي بالضرورة الاعتراف بكلمة الكهنة؛ الذين اعتادوا في كلّ بلدٍ، على تعليم البشر ما يجب عليهم التفكير فيه بشأن الآلهة، ويقترحون عليهم وسائل لاسترضائهم.

ونرى بالتالي أنَّ الربوبيين، أو الموحدون، ليس لديهم أساسٌ حقيقي لفصل أنفسهم عن المؤمنين بالخرافات، وأنَّه من المستحيل تحديد الخط الفاصل؛ الذي يفصلهم عن أكثر البشر سذاجةً، أو عن الأقل منهم دينًا. ولكن من الصعب في الواقع أن نحسم بدقة الجرعة الحقيقية للحماقة؛ التي يمكن السماح لهم بها. فإذا رفض الربوبيون اتباع الخرافات في كلّ خطوة تقودهم لها سذاجتهم، فسيكونوا أكثر تناقضًا من السابقين؛ الذين يتبنون أيضًا بناءً على التقرير، وسائل مضحكة، وغريبة، وتوفرت لهم لجعله في صالحهم، بعد أن اعترفوا بالإله الذائع الصيت، والسخيف، والمتناقض، والخيالي. ويقدم الأول افتراضًا زائفًا يرفضون عواقبه الضرورية، ويعترف الآخرون بالمبدأ والنتيجة.[1] كما أنَّ الله الموجود فقط في الخيال يطلب

(١) لاحظ فيلسوف متعمقٌ للغاية، ولسببٍ وجيه، أنَّ الربوبية يجب أن تخضع للعديد من البدع، والانشقاقات مثل الدين. ولدى الربوبيون مبادئ مشتركة مع الخرافات، وكثيرًا ما يتميزون في نزاعاتهم ضدهم. ولكن إن كان هناك إله؛ أيّ كائن ليس لدينا فكرة عنه، ولا تربطه بنا علاقات، فلماذا لا نعبده؟ وما القاعدة؛ التي يجب أن نتبعها في العبادة؛ التي يجب أن نقدمها له؟ ستكون أفضل طريقة هي تبني عبادة آبائنا وكهنتنا. ولن نتكبد عناء البحث عن آخر، ولكن أليست هذه عبادة سخيفة؟ ألن يُسمح لنا بدراسته. فقد نبرهن عليه بالتالي مهما كان الأمر سخيفًا، وستكون الطريقة الأكثر تأكيدًا هي التوافق معه، وقد نلتمس كذريعة لذلك، أنَّ علة مجهولة يمكن أن تتصرف بطريقةٍ مبهمة لنا، وأنَّ للمشاهد الإلهية هاوية منيعة، ومن المناسب جدًا تركها لمرشدينا من دون تفكير، وأن نتصرف بحكمةٍ عندما ننظر إليهم على أنَّهم معصومين من الخطأ...إلخ. ومن هنا نرى أنَّ التوحيد الناجم يمكن أن يقودنا خطوة تلو الأخرى، إلى السذاجة الأكثر فظاعة، والخرافات، وحتى إلى التعصب الأكثر خطورة. إذن أليس التعصب شيءٌ آخر مغاير للشغف غير العقلاني بكائنٍ لا وجود له إلا في

عبادةٌ خيالية، وكلّ علم اللاهوت مجرد خيال. ولا توجد درجاتٌ للباطل، وليس هناك سوى الحق. وإذا كان الله موجودًا، فلابدّ من تصديق كلّ ما يقوله عنه كهنته، ولا تصدق كلّ خيالات الخرافة لديهم أكثر من الألوهية المتوافقة؛ التي تفيد أساسهم، ولا تكون هذه الخيالات بالنسبة لهم سوى نتائج مباشرة منبثقة بدقة إلى حدٍ ما، وهي نتائج استنتجها المتعنتون، أو الحالمون من ماهيته المبهمة، وطبيعته غير المفهومة، وصفاته المتناقضة. فلماذا اعترضوا الطريق إذن؟ هل توجد في أيّ دين في العالم معجزة يستحيل تصديقها أكثر من تلك الخاصة بالخلق، أو الاستنباط من العدم؟ هل يوجد لغزٌ يتعذر فهمه أصعب من فهم إلهٍ يستحيل تصوره، ومع ذلك نضطر للاعتراف به؟ وهل هناك شيئًا متناقضًا أكثر من فاعلٍ ذكي ومقتدر، لا يحدث إلا الفناء؟ هل يوجد ما هو أكثر تشويهًا من أن نقرن بالطبيعة فاعلًا لا يستطيع شرح أيّ من ظواهر الطبيعة؟

دعونا نستنتج إذن أنَّ الإنسان المؤمن بالخرافات بسذاجة أكثر، يفكر بطريقةٍ أكثر حسمًا، أو على الأقل أكثر اتساقًا، من أولئك الذين توقفوا دفعة واحدة، بعد أن اعترفوا بإلهٍ ليس لديهم أيّ فكرة عنه، ورفضوا الاعتراف بأنظمة السلوك؛ التي تمثل النتيجة المباشرة،

الخيال؟ وفيما يتعلق بالخرافة، والتوحيد؛ الذي كان اصلاحًا، أو البروتستانتية، وديانة الروم الكاثوليك، لم يتنازع الإصلاحيون الذين صدمتهم بعض الألغاز السخيفة، مع الآخرين الذين كانوا أقل إثارة للاشمئزاز. وبمجرد قبول الإله اللاهوتي، لا يوجد شيءٌ آخر في الدين لا يمكن تبنيه. ومن ناحية أخرى، إذا كان البروتستانتيون غير متسامحين في كثيرٍ من الأحيان على الرغم من إصلاحهم، فسوف يُخشى من أن يكونوا هم أنفسهم موحدين، ومن الصعب ألا تغضب من تفضيل أمرٍ نعتقد أنَّه ذو أهمية قصوى. ولا يخشى الإله إلا إن كانت مصالحه تعكر صفو المجتمع. ولا يمكن أن ننكر في هذه الأثناء، أنَّ التوحيد الخالص، أو ما يسمى بالدين الطبيعي، أفضل من الخرافات، كما أنَّ الإصلاح قد منع إقتراف العديد من الانتهاكات في تلك البلدان التي اعتنقته. ولا يوجد شيءٌ أقل من حرية الفكرة المطلقة، وغير القابلة للانتهاك، والتي يمكن أن تضمن دائمًا سلامًا أكيدًا للعقل. ولا تكون أفكار البشر خطرة إلا عندما تكون مقيدة، أو عندما يكون من الضروري جعل الآخرين يفكرون بالطريقةِ ذاتها؛ التي نفكر بها. ولن تكون الأفكار، ولا حتى تلك الخرافات خطرة، إذا لم يعتقد المؤمنون بالخرافات أنَّهم مضطرون لاضطهادهم، ولم تكن لديهم القدرة على فعل ذلك، ومن الضروري القضاء على هذا التحيز لصالح البشرية، وإذا كان الأمر مستحيلًا، فإنَّ للموضوع الذي تفترضه الفلسفة لنفسها منطقيًا، سيجعل أصحاب السلطة يشعرون بأنَّه ليس من واجبهم أبدًا السماح لرعاياهم بارتكاب الشر؛ بسبب أفكارهم الدينية. وفي هذه الحال، لن يُسمع عن الحروب تقريبًا بين البشر، وبدلاً من مشاهدة للمشهد الكئيب لإنسان ينحرُ أخيه الإنسان؛ لأنَّه لن يرى إلهه بعينيه، سنراه يعمل بالأساس من أجل سعادته، من خلال تعزيز سعادة جاره، وزراعة الحقول، وإخراج منتجات الطبيعة، بدلاً من إرباك دماغه بالنزاعاتِ اللاهوتية؛ التي لا يمكن أن تكون ذات فائدة لأيّ شخص باستثناء الكهنة.

والضرورية لخطأ جذري وبدائي. وبمجرد أن يؤيدوا مبدأً معارضاً للعقل، وإن وجدوه سخيفًا، فهل يحق لهم أن يجادلوا في عواقبه؟

ولا يمكننا أن نكرر في كثيرٍ من الأحيان في سبيل تحقيق سعادة البشر أنَّ العقل البشري قد يعذب نفسه بقدر ما يشاء، وكلما تخلص من طبيعته المرئية، قاد نفسه إلى الضلال، ولكنه ملزم حاليًا بالعدول عن ذلك. وإذا كان الإنسان مخطأً بشأن الطبيعة، وطاقتها، ولديه ما يبرر تحريك الله لها، فلن يعد لديه أيّ أفكار عنها، وهو ملزمٌ على الفور بتكوين إلهٍ يكون بمثابة أنموذج له، ويعتقد أنَّه صنع إلهًا عندما منحه صفاته الخاصة؛ التي يظن أنَّه جعله بها أكثر استحقاقًا للملك العالم، مع أنَّه يقضي عليها بتضخيمها، وباستخدامه للمجردات، والتناقضات، والمبالغات، أو يجعلها مبهمة تمامًا. وعندما لم يعدْ يفهم نفسه، فقد ذاته في خيالاته الخاصة، وتخيل أنَّه صنع إلهًا، في حين أنَّه لم يصنع إلا كائنًا خياليًا. كما أنَّ الإله الموسوم بصفات فانية، يكون دائمًا الإنسان نموذجًا له، وإله يتسم بصفات اللاهوت، لا مكان لنموذجه، وغير موجود نسبيًا بالنسبة لنا، ولا يمكن أن ينتج عن التركيبة السخيفة، والمتطرفة لكائنين مختلفين للغاية، سوى وهم محض، لا يمكن أن يكون لأذهاننا أيّ علاقة به، ومن غير المفيد أن نشغل أنفسنا به.

ما الذي يمكن أن نتوقعه حقًا من إلهٍ كالذي نفترضه؟ وماذا يمكن أن نطلب منه؟ وإن كان روحانيًا، فكيف يحرك المادة ويسلحها ضدنا؟ وإذا كان هو الذي يسنّ قوانين الطبيعة، وكان هو من يمنح الكائنات ماهيتها وخصائصها، وكان كلّ ما يحدث دليلٌ، ونتيجة لعنايته اللامتناهية، وحكمته البالغة، فما الغاية من الإبتهال به بالصلاة؟ هل نصلي إليه ليغير مجرى الأمور لصالحنا؟ هل يمكنه تعطيل أقداره الثابتة متى شاء، أو مراجعة خطواته؟ ولكي يرضينا، هل نطلب أن يجعل الكائنات تتصرف بطريقةٍ معاكسة للماهية التي منحها إياها؟ هل يستطيع أن يمنع جسمًا صلبًا بطبيعته مثل الحجر، ألا يجرح عند سقوطه جسمًا هشًا كجسد الإنسان الذي يشعر بماهيته؟ لذلك دعونا لا نطلب معجزات من هذا الإله أيًا كانت، فعلى الرغم من القدرة المطلقة؛ التي من المفترض أن يمتلكها، بيد أنَّ ثباته سيعارض ممارسته لقدرته، ويعارض خيره ممارسة عدالته الصارمة، وسوف يعارض ذكائه تلك التغييرات؛ التي قد يميل لإجرائها في قضاءه. ومن هنا نرى أنَّ اللاهوت نفسه، بحكم صفاته المثيرة للخلاف، يجعل من إلهه كائنًا غير قادر على الحركة، وعديم الفائدة لإنسان تكون المعجزات مستحيلة تمامًا بالنسبة له.

ربما يُقال لنا: إنَّ العلم اللامتناهِ لخالق كلّ شيء، يعرف أنَّه شكّل في الكائنات موارد مخبأة لدى البشر الأغبياء، وأنَّه قادر من دون تغيير أيّ شيء، سواء في قوانين الطبيعة، أو في ماهية الأشياء، على إحداث تأثيرات تتجاوز فهمنا الضعيف، ولكن دون أن تتعارض هذه التأثيرات مع النظام الذي أنشأته بنفسها. وأجيب أولًا: إنَّ كل شيءٍ يتوافق مع طبيعة الكائنات، لا يمكن أن يُسمى خارقًا للطبيعة، ولا معجزات. وتوجد بلا شكّ أشياء كثيرة تفوق تصورنا، لكن كلّ شيء يحدث في العالم طبيعي، ويمكن أن يُنسب إلى الطبيعة ببساطة أكثر من أن ننسبه إلى فاعلٍ ليس لدينا أيّ فكرة عنه. وفي المقام الثاني: نقصد بكلمة معجزة التأثير؛ الذي يُعتقد أنَّ الطبيعة غير قادرة على إحداثه، بسبب عدم معرفتنا بها. وفي المقام الثالث: يدّعي اللاهوتيون في جميع البلدان بأنَّهم لا يشيرون بالمعجزة إلى عمليةٍ استثنائية في الطبيعة، بل تأثيرًا مخالفًا لقوانين من طبيعتها، ولكننا على يقينٍ من أنَّ الله قد شرّع قوانينه.[1] وإذا كان الله من ناحية أخرى،لا يفعل في أعماله التي تفاجئنا أو التي لا نفهمها، سوى أن يمنح البشر موارد يجهلونها، فلا ننظر في الطبيعة بهذا المعنى، إلى شيء إلا على أنَّه معجزة، حيث نرى أنَّ العلّة التي تجعل الحجر يسقط، غير معروفة لنا، وينطبق ذلك على العلّة التي تجعل الكرة الأرضية تدور. وبعبارة أخرى، إذا كان الله لا يفيض علينا من المعرفة التي يمتلكها عن الطبيعة عندما يحدث معجزة، لتفاجئنا بأنَّه يتصرف ببساطة مثل بعض البشر الأكثر حنكةٍ من الآخرين، أو الموعز إليهم أكثر من غير المطلعين؛ الذين يذهلونهم بحيلهم، وأسرارهم الرائعة، وباستغلالِ جهلهم، أو عجزهم. وعندما نشرح ظواهر الطبيعة من خلال المعجزات، فهذا يعني أنَّنا جاهلون بالعللِ الحقيقية لهذه الظواهر، وعندما ننسبها إلى إلهٍ، فهذا يعني الاعتراف بأنَّنا لا نعرف موارد الطبيعة، وأنَّنا بحاجة لكلمة للدلالة عليها، وهذا يعني الإيمان بالسحر. وعندما ننسب تلك المعجزات التي ينتقص بها من قوانينه إلى كائنٍ ذكي، وثابت، ومقتصد، وحكيم، يعني أنَّنا ننزع هذه الصفات عنه.[2] ولن يكون لدى الله المقتدر سببًا

---

(١) يقول جان بودان BUDDEUS: إنَّ للمعجزة عبارة عن عملية تُعلق من خلالها قوانين الطبيعة التي يعتمد عليها نظام الكون وحفظه. انظر: "رسالة في الإلحاد"، ص.١٤٠.

(٢) عندما يُطرد الربوبي، واللاهوتي من الأرض كلّها، فإنَّ الملاذ الأخير هو الإمكانية لكلّ ما يؤكده، ويصوغه في العقيدة: "أنَّ لا شيء مستحيل عند الله". وهم يشيرون إلى هذا الافتراض بدرجةٍ من الرضا عن الذات، وبنوعٍ من الانتصار؛ الذي من شأنه أن يقنع المرء تقريبًا بأنَّهم لم يخطئوا بكلّ تأكيد مع من لا يغوص أبعد من السطح، وهم على قناعةٍ كاملةٍ بذلك. لكن إذا درسنا قليلاً طبيعة هذا الافتراض، فسنجد أنَّه لا يمكن الدفاع

للمعجزات ليحكم العالم، ولا لإقناع مخلوقاته؛ التي سيتولى رعاية عقولها وأفئدتها. ولا تثبت كلّ المعجزات التي أعلنتها جميع ديانات العالم كدليل على الاهتمام الذي يوليه لها العلي القدير، سوى تقلّب هذا الكائن واستحالة إقناعه الناس بما سيغرسه فيهم.

وبعبارةٍ أخرى، وكمصدرٍ أخير، يطرح السؤال: أليس من الأفضل الاعتماد على كائنٍ خير، وحكيم، وذكي، بدلاً من الاعتماد على طبيعةٍ عمياء، لا نجد فيها أيّ صفة ترضينا، أو على ضرورة قاتلة لا ترحم صرخاتنا على الدوام؟ وأجيب أولاً: لا تحدد مصلحتنا حقيقة الأشياء، وحتى لو كان من الأفضل لنا أن نتعامل مع كائنٍ مفضل كما أوحى لنا الله، فإنَّ هذا لن يثبت وجود هذا الكائن. ثانيًا: يُقدم لنا هذا الكائن، الخير والحكيم جدًا، من ناحية أخرى، طاغيةً غير عقلاني، وسيكون من الأفضل للإنسان أن يعتمد على طبيعة عمياء، بدلاً من كائنٍ تتناقض صفاته الحسنة في كلّ لحظة مع اللاهوت ذاته الذي اخترعها. ثالثًا: تزودنا تلك الطبيعة المدروسة كما ينبغي، بكلّ ما هو ضروري لجعلنا سعداء على النحو الذي تقرره ماهيتنا. وعندما نستشير الطبيعة، بمساعدة الخبرة، أو ننمي عقلنا، ستكشف لنا واجباتنا؛ أيّ الوسائل التي لا يمكننا الاستغناء عنها، والتي ربطت بها قوانينها الأبدية، والضرورية بالحفاظ علينا، وعلى سعادتنا، وسعادة هذا المجتمع. وسنجد في الطبيعة ما يلبي رغباتنا المادية، ومن الطبيعي أن نجد تلك الواجبات المحددة؛ التي لا يمكننا أن نعيش من دونها سعداء في فلكنا. ولا نجد خارج الطبيعة سوى الكائنات الخرافية الضارة؛ التي تجعلنا نشكّ فيما ندين به لأنفسنا وللكائنات الأخرى التي نقترن بها.

ومن ثم فإنَّ الطبيعة ليست زوجة أبانا، ولا نعتمد على مصيرٍ لا يرحم. ودعونا نعتمد حقًّا على الطبيعة وحدها، وستقدم لنا العديد من الفوائد، عندما نوليها الاهتمام الذي

عنه. في المقام الأول: إنَّ إمكانية شيءٍ ما، لا تثبت بأيّ حالٍ من الأحوال وجوده المطلق؛ فقد يكون الشيء ممكنًا للغاية، ومع ذلك لا يكون كذلك. ثانيًا: إذا كانت هذه حجة مُعترف بها ذات مرة، فستكون هناك في الواقع، غاية للأخلاق بمجملها. وهنا يقول أسقف تشيستر، الدكتور جون ويلكنز John Wilkins: "لما لا يأخذ هؤلاء البشر بالحسبان عمومًا ذكاءهم، وقدرتهم على إسعاد أنفسهم من خلال الاستمتاع بآمال فعلية في أيّ شيء، لمجرد تفسير إمكانيته، أو يتعبون أنفسهم بمخاوف فعلية من كلّ هذه الشرور الممكنة؟ هل يمكن أن نتخيل ما هو أكثر وحشية، وتطرفًا من هذا؟ ثالثًا: ستبدو الاستحالة منطقية على الجانب الآخر، وبعيدًا عن كون العدم مستحيلًا، سيبدو كلّ شيء خاطئ على هذا النحو؛ لأنَّه، إذا كان الله موجود، فلا يمكنه أن يحب الرذيلة، ويعتز بالجريمة، أو أن يسعد بالفساد، أو يرتكب إثمًا. وهنا يقلب الحجة عليهم، ولا يترك لهم بديلًا سوى الانسحاب من وراء الدرع الذي تخيلوا أنّهم تحصنوا به.

تستحقه، وستوفر لنا ما يلزم للتخفيف من شرورنا الجسدية والمعنوية، عندما نكون مستعدين للتشاور معها، ولا تعاقبنا، أو تظهر لنا صرامة، إلا عندما نزدريها لكي ندع بخورنا لأصنام رفعها خيالنا إلى عرشٍ يخصها. وبسبب عدم اليقين، والشقاق، والتهور، والهذيان، يتضّح أنَّها تعاقب كلّ أولئك؛ الذين نصّبوا مكانها الإله الوحش.

لنفترض ولو للحظة، أنَّ تكون هذه الطبيعة خاملة، وغير حية، أو عمياء، أو إذا أرادوا أن يتيحوا فرصةً لإله الكون، ألن يكون الاعتماد بالمطلق على العدم أفضل من الاعتماد على إلهٍ يفرض علينا معرفته، ولا يمكننا تكوين أيّ فكرة عنه، أو إذا كنا سنشكل فكرةً واحدة، فنحن ملزمون بعدم إرفاقها بأفكارٍ أكثر تناقضًا، وأكثر سوءًا، وأكثر تمردًا، وأكثر إضرارًا براحة البشر؟ ألم يكن الاعتماد على القدر، أو المصير أفضل من الاعتماد على ذكاءٍ غير عقلاني بقدر معاقبته لمخلوقاته على قلة الذكاء، والفهم الذي كان مسرورًا لمنحهم إياها؟ ألم يكن من الأفضل أن نلقي بأنفسنا بين أحضان الطبيعة العمياء، والمحرومة من الحكمة، والأفكار، بدلاً من الارتعاش طوال حياتنا في ظل ويلات الذكاء المقتدر؛ الذي جمع بين مقاصده السامية بطريقةٍ تجعل البشر الضعفاء يتمتعون بحرية مواجهتها والتغلب عليها، وبالتالي يصبحون ضحايا دائمين لغضبه اللدود.(١)

(١) على الرغم من أنَّ اللورد شافتسبري Shaftesbury موحدًا متشددًا للغاية، إلا أنَّه يقول ولسبب وجيه: "إنَّ العديد من الشرفاء سيكون لديهم عقل أكثر اطمئنانًا، إذا تأكدوا من أنَّهم لم يمتلكوا إلا قدرّ أعمى لمرشدهم، وهم يرتجفون عند تفكيرهم في وجود الله، أكثر مما لو كانوا يعتقدون أنَّه غير موجود". أنظر كتابه: "رسالة عن التعصب Letter on Enthusiasm"؛ أنظر أيضًا الفصل الثالث عشر.

الفصل السادس

البحث في المزايا الناتجة عن مفاهيم البشر عن الإله، أو تأثيرها على الأخلاق، والسياسة، والعلوم، وسعادة الأمم، والأفراد

البحث في المزايا الناتجة عن مفاهيم البشر عن الإله، أو تأثيرها على الأخلاق، والسياسة، والعلوم، وسعادة الأمم، والأفراد.

فهمنا إلى الآن الأساس الضعيف لتلك الأفكار التي يؤلفها البشر بأنفسهم عن الإله. وتذبذب البراهين؛ التي يفترضون من خلالها وجوده، وعدم إتساق الآراء؛ التي شكلوها عن هذا الكائن، الذي يصعب أيضًا على سكان الأرض معرفته، وأظهرنا التناقض بين تلك الصفات؛ التي ينسبها إليه اللاهوت، وأثبتنا أنَّ هذا الكائن الذي يثير اسمه لوحده قوة باعثة للخوف، ليس سوى نتيجة بشعة لجهلٍ، وخيالٍ مروع، وحماسة، وكآبة. وأظهرنا أنَّ المفاهيم؛ التي صاغها عنه الناس، قد دونوا أصلها فقط من تحيزات طفولتهم؛ التي تنتقل إليهم عبر التعليم، والقوة التي تولدها العادة، ويغذيها الخوف، وتحفظها السلطة، أو تدمرها. وبعبارة أخرى، لابدّ أن يقنعنا كلّ شيء بأنَّ فكرة الإله السائدة عمومًا على الأرض، ليست أكثر من أخطاءٍ كلية للجنس البشري. ويبقى الآن أن نبحث فيما إذا كان هذا الخطأ مفيدًا أم لا.

لا يمكن أن يكون في الحقيقة لأيّ خطأ مزايا عند البشر؛ لكونه ناجم عن جهلهم أو حماقة عقولهم. وكلما زاد اهتمامهم بأفكارهم المسبقة، زادت العواقب المضرة لأخطائهم. وهكذا، كان لدى **بيكون** سبب وجيه للقول: "إنَّ أسوأ الأشياء كلّها ضلالٌ مؤلَّه". وكانت العقبات الناتجة عن أخطاءنا الدينية في الواقع أفظعها وأكثرها شمولاً، وستظل دائمًا. وكلما حازت هذه الأخطاء على اهتمامنا، شغلت عواطفنا، وأزعجت أذهاننا، وجعلتنا غير عقلانيين، وعظُم تأثيرها على مجمل سلوك حياتنا. ولا يوجد سوى احتمال ضئيل بأنَّ من يتخلى عن عقله فيما يعتبره الأهم لسعادته، سوف ينصت إليه بأيّ مناسبة أخرى.

وإذا تأملنا قليلاً، فسنجد الدليل الأكثر إقناعًا لهذه الحقيقة المحزنة، وسنرى في تلك المفاهيم المصيرية؛ التي اعتزّ بها الناس عن الإله، مصدرًا حقيقيًا لتلك الأحكام المسبقة، والمآسي المتنوعة؛ التي ذهبوا ضحيةً لها. ولكن كما قلنا في موضعٍ آخر، لابدّ أن تمثل المنفعة القاعدة الوحيدة، والمعيار الموحد لتلك الأحكام المبرمة على الآراء، والمؤسسات، والأنظمة، وأفعال الكائنات الذكية، ويجب أنْ نوليها تقديرنا حسب السعادة التي توفرها لنا هذه الأشياء، ويجب أن نزدريها متى كانت عديمة النفع. وبمجرد أنْ تصبح ضارة، يجب أنْ نرفضها، ويحتم علينا العقل بأن نبغضها بما يتناسب مع حجم الشرور التي تسببها لنا.

دعونا نبحث بتروٍ في النتائج التي أحدثتها مفاهيم الألوهية على الأرض، انطلاقًا من هذه المبادئ المبنية على طبيعتنا، والتي ستبدو غير قابلة للجدال عند كلّ كائنٍ عاقل. وأظهرنا بالفعل في أكثر من جزءٍ من هذا الكتاب، أنَّ الأخلاق التي يهدف الإنسان من وراءها إلى المحافظة فقط على نفسه، وحياته في المجتمع، لا تشترك بشيءٍ مع تلك الأنظمة الخيالية التي يمكنه تشكيلها لنفسه بناءً على قوة متميزة عن الطبيعة، وأثبتنا أنَّه يكفي التأمل في ماهية الكائن الحساس، والذكي، والعقلاني، للبحث عن دوافع تخفّف من روعه، ومقاومة نزعاته الشريرة، وتحريره من عاداته الإجرامية، وجعله مفيدًا، ومحبوبًا لتلك الكائنات التي يحفل دائمًا بها. ولاشك أنَّ هذه الدوافع أكثر صدقًا، وواقعية، وقوةً من تلك التي يُعتقد أنَّه يجب أنْ يستعيرها من كائنٍ خيالي، ويؤخذ بالحسبان أنَّ كلّ الذين يتأملون فيه ينبغي أنْ يروه بصورةٍ مختلفة. وأثبتنا أنَّ التعليم عندما يجعلنا نتعهد في فترةٍ مبكرة من حياتنا بعاداتٍ خيرة، وتصرفات مواتية تعززها القوانين، واحترام الرأي العام، وأفكار الحشمة، والرغبة في جعلنا جديرين باحترام الآخرين، والخوف من فقدان تقديرنا، وسيكون كافيًا لتعويدنا على سلوكٍ جديرٍ بالثناء، وحرفنا عن تلك الجرائم السرية؛ التي نضطر لمعاقبة أنفسنا عليها بالخوف، والعار، والندم. وتثبت الخبرة أنَّ نجاح أول جريمة سرية ينحو بنا إلى ارتكاب الثانية، ومن ثم الثالثة، وأنَّ الإجراء الأول هو بداية العادة، وأنَّ هناك مسافةً بين الجريمة الأولى والمئة، أقل بكثيرٍ من المسافة من البراءة إلى الإجرام، وأنَّ الإنسان الذي يسمح لنفسه بارتكابِ سلسلة من الأفعال السيئة، ضمانًا للإفلات من العقاب، يخدع نفسه، ويرى أنَّه ملزم دائمًا بمعاقبةِ نفسه، ولا يستطيع علاوة على ذلك، أن يعرف متى سيتوقف. وأظهرنا أنَّ تلك العقوبات التي يحقّ للمجتمع أن يوقعها على كلّ من يعكر صفوه، في سبيل الحفاظ عليه، تمثل بالنسبة

لأولئك الذين لا يتأثرون بسحر الفضيلة، أو المزايا التي تنجم عن ممارستها، عقوبات أكثر واقعية، وفاعلية، وإلحاحًا من الغضب المزعوم، أو العقوبات البعيدة لقوةٍ غير مرئية، وتنجم عنها في كلّ مرة فكرة الاعتقاد أنَّ الإفلات من العقاب في هذا العالم أمرٌ مؤكد. وبعبارة أخرى، من السهل أنْ نشعر أنَّ السياسة القائمة على سذاجة الإنسان، والمجتمع، والمسلحة بقوانين عادلة، والحذرة فيما يتعلق بأخلاق البشر، والمخلصة في الإثابة على الفضيلة، والمعاقبة على الجريمة، ستكون ملاءمة لجعل الأخلاق محبوبة، ومقدسة أكثر من السلطة الوهمية لذلك الإله الذي يعبده العالم بأسره، ولا يقيد أبدًا أيّ شخص سوى أولئك الذين قيدهم بالفعل مزاجٌ معتدل، ومبادئ فاضلة بما فيه الكفاية.

وأثبتنا من ناحية أخرى أنَّه لا يوجد ما هو أسخف، وأخطر من عزو الصفات البشرية إلى الإله، واكتشفنا في الواقع أنَّها متناقضة دائمًا مع ذاتها؛ حيث نرى الخير، والحكمة، والإنصاف، توازي، أو تنفي في كلّ لحظة الشر، والفوضى، والاستبداد الظالم الذي ينسبه جميع اللاهوتيين في العالم في جميع الأوقات إلى هذا الإله ذاته. ومن السهل جدًا أن نستنتج منها أنَّ الله، الذي يظهر لنا في ظل هذه الجوانب المختلفة، لا يمكن أن يكون نموذجًا لسلوك الإنسان، وأنَّ سمته الأخلاقية لا يمكن أن تكون مثالًا يُحتذى به للكينونات التي تعيش معًا في المجتمع، ولا تشتهر بالفضيلة إلا عندما ينحرف سلوكها عن الإحسان، والعدل اللذين تدين بهما لأقرانها. ولا يمكن أن يكون الله الذي يسمو على كلّ شيء، ولا يدين بشيءٍ لرعاياه، ولا يحسب حسابًا لأحد، نموذجًا للمخلوقات المليئة بالرغبات، ويترتب عليها بالتالي واجبات.

يقول **أفلاطون**: "إنَّ الفضيلة تتمثل في التشبّه بالله". ولكن أين نجد هذا الإله الذي يجب أن يشبهه الإنسان؟ هل هو في الطبيعة؟ واحسرتاه! من يفترض أن يكون المحرك لها، وينشر بلا مبالاة على الجنس البشري الشرور البالغة، والمنافع العظيمة، وكثيرًا ما يكون ظالمًا لأنقى النفوس، ويعطي أعظم النعم إلى البشر الأكثر ضلالًا. وكما يؤكدون لنا، إذا كان لابدّ أن يُظهر نفسه يومًا ما أكثر إنصافًا، فسنكون مضطرين إلى انتظار ذلك الوقت الذي ينظم فيه سلوكنا بمفرده.

هل يجب أن نضع أفكارنا عن الفضيلة في الديانات السماوية؟ واحسرتاه! ألا يبدو أنَّهم متفقون جميعًا في إعلان إلهٍ مستبد، وغيور، ومنتقم، وأناني، ولا يعرف قانونًا، ويتّبع نزواته في

كلّ شيء، ويحب أو يكره، ويختار أو يستنكر، وفقًا لأهوائه، ويتصرف بصورةٍ غير عقلانية، ويتلذذ بالمجازر، والنهب، والجريمة، ويتلاعب برعاياه الضعفاء، ويثقلهم بقوانين صبيانية، ويضع لهم أفخاخًا مستمرة، ويمنعهم بشدة من استشارة عقلهم؟ ماذا سيحدث للأخلاق، إذا افترض الناس هذه الآلهة نماذج لهم؟

ومع ذلك، تعشق جميع الأمم إلهًا بهذا الطبع. وهكذا نرى نتيجة لهذه المبادئ، أنَّ الدين بعيدًا عن أن كونه مواتيًا للأخلاق، لكنه يهزها ويقضي عليها في جميع البلدان. ويقسّم البشر في محراب توحيدهم، وفي مكان محبة بعضهم البعض، وإغاثة أحدهم الآخر؛ فيتنازعون مع بعضهم البعض، ويزدرون بعضهم البعض، ويكرهون بعضهم البعض، ويضطهدون بعضهم البعض، وكثيراً ما ينحرون بعضهم البعض نتيجة آراء غير عقلانية. ومجرد اختلاف بسيط في مفاهيمهم الدينية، يجعلهم للحظة من هؤلاء الأعداء، ويفصل بين مصالحهم، ويدخلهم في خلافاتٍ مستمرة. وقد تتعارض الأمم مع بعضها فيما يتعلق بالتخمينات اللاهوتية، ويسلح الملك نفسه لمواجهة رعاياه، ويشن المواطنون حربًا ضد إخوانهم، ويبغض الآباء أبناءهم، ويطعن هؤلاء صدر والديهم بالسيف، وينفصل الأزواج عن الزوجات، وينسون ما بينهم من علاقات، وتتحطم جميع الروابط الاجتماعية، وينقسم المجتمع إلى أشلاء بأيديهم، بينما يدّعي كلّ منهم في خضم هذه الفوضى المروعة، بأنَّه يتوافق مع آراء الإله؛ الذي يعبده، ولا يلوم نفسه على أيّ من تلك الجرائم التي يرتكبها في دعم قضيته.

ونجد مرة أخرى روح النزوة ذاتها، والجنون في الطقوس، والشعائر، والممارسات التي يبدو أنَّ جميع العبادات في العالم قد جعلتها تسمو فوق الفضائل الاجتماعية، أو الطبيعية. وهنا تسلّم الأمهات أطفالهن لإطعام إلههن، ويجمع هناك رعايا أنفسهم في حفلٍ لمواساة ربهم على ما اقترفوه بحقه من إساءات، ويذبحون لأجله ضحايا بشرية. وفي بلدٍ آخر يذرف رجلٌ مجنون الدموع لتهدئة غضب إلهه، ويحكم على نفسه بعذابٍ شديد مدى الحياة. وها هو يهوه اليهود، طاغية مشبوه، لا يتنفس سوى الدم، والقتل، والمجازر، ويطالبهم بتزويده بأبخرة الحيوانات. وجوبيتر (المشتري) عند الوثنيين هو وحش فاسق. ومولوخ عند الفينيقيين هو آكل لحوم البشر، وقضى العقل المحض عند المسيحيين أن يصلب ابنه من أجل تهدئة غضبه. ولا يمكن إرضاء الإله الهمجي عند المكسيكيين من دون آلاف البشر الذين ذُبحوا لارضاء شهيته الدموية.

وهذه هي النماذج التي يقدمها الإله للبشر في جميع المواقف الخارقة في العالم. أليس من المدهش إذن أن يصبح اسمه علامة على الرعب، والجنون، والقسوة، والوحشية لجميع الأمم، ويعبد كذريعةٍ مستمرة لانتهاك الواجبات الأخلاقية الأكثر خزيًا ووقاحة؟ إنَّها الميزة المخيفة التي يمنحها الناس في كلّ مكان لإلههم؛ الذي ينزع الخير إلى الأبد من قلوبهم، والأخلاق من سلوكهم، والسعادة، والعقل من مساكنهم، وفي كلّ مكان ينزعج الإله من الوضع الذي يفكر فيه البشر التعساء، ويسلحهم بالخناجر لمواجهة بعضهم البعض، ويكتمون صرخات الطبيعة، ويجعلهم بربريين تجاه أنفسهم وفظيعين تجاه أقرانهم، وبعبارة أخرى، يصبحون غير عقلانيين، وغاضبين في كلّ مرة يرغبون فيها أن يقتدوا بالإله؛ الذي يعشقونه، ويستحقوا حبه، ويعبدوه بتعصب.

ينبغي ألا نبحث إذن في السماء عن نماذج للفضيلة، أو قواعد السلوك الضرورية للعيش في المجتمع. إذ يحتاج الإنسان إلى الأخلاق البشرية المبنية على طبيعته الخاصة، وخبرته الثابتة، وعقله؛ في حين أنَّ أخلاق الآلهة ستُلحق الضرر بالأرض دائمًا، ولا يمكن أن يعبد آلهة قاسية كهذه إلا رعايا يشبهونها. ماذا يحدث إذن لتلك المزايا العظيمة؛ التي تُخيّل أنَّها نجمت عن المفاهيم التي مُنحت لنا دائمًا عن الإله؟ نرى أنَّ جميع الأمم تعترف بإلهٍ شريرٍ مطلق، وتتفق مع بعضها بشأن آرائه، ويدوسون تحت أقدامهم واجبات الإنسانية الأكثر وضوحًا، ويبدو أنَّهم يتصرفون كما لو كان الأمر يتعلق فقط بالجرائم، والجنون؛ الذي تمنوا أن يسحبوه بأنفسهم من مزايا الذكاء السيادي الذي يتباهون بخيره كثيرًا. وبمجرد وجود مسألةٍ عن الدين؛ أي عن الكائن الخرافي الذي جعلهم غموضه يرفعونه فوق العقل أو الفضيلة، يرى البشر أنَّ من واجبهم التخلي عن جميع عواطفهم، وأنَّهم يخطئون في أوضح تعاليم الأخلاق، وحالما يتيح لهم كهنتهم أن يفهموا أنَّ الإله يأمرهم بارتكاب الجرائم، أو الآثام؛ سيتمكنون من الحصول على العفو عن أخطائهم.

في الواقع، لا يُبلغ الناس بنبوءات السماء التي سنجد فيها فضائل حقيقية، على يد هؤلاء البشر الموقرين المنتشرين على الأرض كلّها. وهؤلاء المستنيرين الذين يطلقون على أنفسهم اسم كهنة "العلّي"، ولا يبشرون في كثيرٍ من الأحيان إلا بالكراهية، والبغضاء، والغضب باسمه: فالإله، بعيدًا عن أن يكون له تأثير نفعي في أخلاقهم، لا يزيدهم إلا طموحًا، وطمعًا، وقسوةً، وعنادًا، وفخرًا. ونراهم لا يكفّون عن خلق العداوات، بفضل

نزاعاتهم غير المعقولة. ونراهم يتصارعون مع السلطة السيادية؛ التي يزعمون بأنَّها خاضعة لسلطتهم. ويسلحون زعماء الأمة ضد قضاتهم الشرعيين. ونراهم يوزعون أسلحةً على الناس السذّج؛ ليذبحوا بعضهم البعض في تلك النزاعات غير المجدية، التي تجعل الغرور الكهنوتي يتجاوز المسائل ذات الأهمية. ولكن هل يستفيد هؤلاء البشر؛ الذين يتمتعون بقناعةٍ بالغة بوجود الله، ويهددون الناس بانتقامه الأبدي، من هذه المفاهيم الرائعة لارضاءٍ كبريائهم، وجشعهم، وسخريتهم الانتقامية، والمضطربة؟ وهل هم أعداء ذلك الفجور، وهذا التعصب، وتلك التجاوزات التي يحرّمها الإله القاسي على عباده في تلك البلدان، حيث تأسست إمبراطوريتهم بأقوى الطرق، وينعمون بالإفلات من العقاب؟ على العكس من ذلك، ألا نراهم يتجرأون من حينها على الجريمة، ويجسرون على ارتكاب الإثم، ويمنحون مجالًا رحبًا لمخالفاتهم، وانتقامهم، وكراهيتهم، ووحشيتهم المشبوهة؟ وبعبارة أخرى، يمكن أن نتقدم دون خوفٍ، ونقول: إنَّ أولئك الذين يبلغون في كلّ جزء من الأرض عن إلهٍ رهيب، ويجعلون الناس يرتعدون تحت نيره، هم بشرٌ دائمي التأمل فيه، ويتعهدون بإثبات وجوده للآخرين، ويزينونه بسمات أبهى، ويعلنون أنفسهم كمفسرين له، ويضفون جميع الواجبات الأخلاقية عليه، وهم من يسهم إلههم هذا في جعلهم فاضلين، وإنسانيين، ومتسامحين، واجتماعيين على الأقل. وعند التفكير في سلوكهم، يجب أن نميل إلى الاعتقاد بأنَّهم غير مقبولين تمامًا فيما يتعلق بالوثن؛ الذي يعبدونه، وأنَّ لا أحد أقل منهم خداعًا بتلك الوعود التي ينطقون بها باسمه. ويشبّه الإله برأس ميدوسا الذي يرعب كلّ الآخرين دون أن يضر بمن أظهره برعاية كهنة جميع البلدان. والكهنة عمومًا هم أكثر الناس مكرًا، وأفضلهم شرًا حقًا.

هل تُفرض فكرة الإله المنتقم، وذو الثواب أكثر على هؤلاء الأمراء، وآلهة الأرض الذين وجدوا قوتهم، وألقاب عظمتهم عند الإله نفسه، أيستغلون اسمه الرائع لترهيبهم، ويجعلون الناس يقدسونهم، وكثيرًا ما يكونوا تعساء بفعل نزواتهم؟ واحسرتاه! لم تصنع الأفكار اللاهوتية، والخارقة للطبيعة التي تبنّاها كبرياء الملوك، سوى أنظمةً سياسية فاسدة حولتها إلى طغيان. إنَّ كهنة العلّي، هم دائمًا الطغاة بحد ذاتهم، أو محبو الطغاة، أليسوا هم من يصرخ بلا انقطاع في وجه الملوك، بأنَّهم صورٌ للربوبية؟ ألا يخبروا الناس السذّج أنَّ السماء طلبت منهم التأوه تحت وطأة أبشع ظلمٍ، وأكثره تنوعًا، وأنَّ معاناتهم هي ميراثهم، وأنَّ أمراءهم يشبهون الكائن الأسمى، ولهم حقٌ لا جدال فيه بالتصرف في الخيرات، والأشخاص، وحرية

رعاياهم، وحياتهم؟ ألا يتخيل زعماء الأمم، الموسومون باسم الإله، أنَّ كلّ شيءٍ مسموح لهم؟ ألا يمارس المبارون للقوة السماوية، وممثلوها والمنافسون لها، أكثر أنواع الاستبداد تعسفًا، كما تفعل هي؟ ألا يفكرّون، عندما يغرقهم التملق الكهنوتي في الثمالة، بأنَّهم أشبه بالإله، وليسوا مسؤولين أمام الناس عن أفعالهم، ولا يدينون بشيءٍ لبقية البشر، ولا تربطهم أيّ روابط بشؤونهم البائسة؟

يتضح إذن أنَّنا يجب أن ننسب إلى المفاهيم اللاهوتية، والتملق الكبير لكهنة الإله، استبداد الأمراء، وطغيانهم، وفسادهم، وفجورهم، وحماقة من يتخلون باسم السماء عن حبهم للحرية، والعمل من أجل سعادتهم الخاصة، ومعارضة العنف، وممارسة حقوقهم الطبيعية. فهؤلاء الأمراء المخمورين وإن كانوا يعبدون إلهًا منتقمًا، ويلزمون الآخرين بعبادته، بيد أنَّهم لا يتوقفون أبدًا عن إغضابه بمخالفاتهم، وجرائمهم. وهنا نسأل بالفعل، أتمثل هذه الأخلاق أخلاقًا لمن يقدمون أنفسهم كصورٍ حية للإله، وينطقون باسمه؟ وبالتالي، أهم ملحدون أولئك الملوك؛ الذين اعتادوا الظلم، وانتزاع الخبز من أيادي شعبٍ جائع دون أن يعتريهم الندم، لكي يتدبروا رفاهية حاشيتهم النهمين، والأدوات الدنيئة لآثامهم؟ أهم ملحدون، أولئك الغزاة الطموحين؛ الذين لا يرضى سوى قلة منهم عن اضطهاد رعاياهم، ويعيثون الخراب، والبؤس، والموت، بين رعايا آخرين؟ ما الذي نراه في هؤلاء القضاء الذين يحكمون على الأمم بالحق الإلهي، ويستثنون بشرًا فانين طموحين لا يمكن أن يأسرهم شيء، وتغفل قلوبهم تمامًا عن مآسي البشرية؟ هل أولئك الذين أهملوا الواجبات الأشد وضوحًا، ولم يتفضلوا بها حتى يتعرفوا عليها، هم أنفسٌ بلا قدرة، ولا فضيلة؟ هل من يرتقون بوقاحة فوق قواعد العدالة الطبيعية هم أناس أقوياء؟[1] أليسوا أوغاد من يهزأون من الصدق؟ هل نجد قليل من

(١) اعتاد الإمبراطور تشارلز الخامسCharls the Fifth ؛ لكونه محاربًا، أن يقول: "يُشق عليه أن يكون ذو ضمير، أو دين". وقال قائد جيشه، ماركيز دي بيسكاير the Marquis de Pescaire: "إنه لا يوجد أصعب من أن يعبد الجميع وفي الوقت ذاته إله للمريخ، ويسوع للمسيح". ويمكن القول عمومًا: لا شيء يتعارض مع روح المسيحية أكثر من مهنة السلاح. ومع ذلك، امتلك الأمراء للمسيحيين عددًا كبيرًا من الجيوش، وكانوا في حال حرب على الدوام. علاوة على أنَّ رجال الدين للمسيحي سيأسفون بشدة؛ لأنَّ مبادئ الإنجيليين، أو الوداعة للمسيحية يجب أن تُتّبع بصرامة، وهي تتفق في الوقت الحاضر مع مصالحهم. ويعطي رجال الدين هؤلاء فرصة للجنود لإضفاء القوة على عقائدهم وحقوقهم. وهذا يثبت إلى أيّ درجة يؤخذ بالحسبان أمر فرض الدين على عواطف البشر.

الإخلاص في التحالفات؛ التي يبرمها هؤلاء الملوك فيما بينهم؟ هل نلتقي بقدرٍ ضئيل من الفضيلة الحقّة عند هؤلاء الأمراء في حال خضعوا للخرافات بأبشع طريقة؟ لا نراهم سوى لصوص ومتعجرفين، وليسوا بشرًا، وبدلًا من أن يكونوا عادلين، يصنعون بمفردهم لأنفسهم رمزًا للغدر، والعنف، والخيانة. ولا نرى فيهم سوى كائنات شريرة، ومستعدة لأن تخدع، وتباغت، وتؤذي بعضها البعض. ولا نجد لديهم سوى الغضب، ودائمًا في حالة حربٍ من أجل مصالح أقل نفعًا، وإفقار شعبهم، وينزعون عن بعضهم البعض بقايا الأمم الدموية، وقد يُقال: إنَّهم يتنازعون بشأن من يصنع أكبر عدد من البشر البائسين على الأرض! وبعد أن سئموا مطولاً من غضبهم، أو أجبرتهم يد الضرورة على إقامة السلام، يشهدون على أكثر المعاهدات غدرًا باسم الله، وعلى استعداد للحنث بأقسامهم المقدسة، بمجرد أن تقتضيها أصغر مصلحة.(١)

هذه هي الطريقة التي تفرض بها فكرة الله على أولئك؛ الذين يسمّون أنفسهم صوره، ويدّعون بأنَّهم لا يمتلكون أيّ تفسير يقدمونه إلا له وحده! ومن الصعوبة أن نجد بين هؤلاء الناطقين باسم الإله على مرّ آلاف السنين، شخصًا يتمتع بالإنصاف، والحساسية، أو المواهب، والفضائل العادية جدًا. إذ يعاني الناس الذين صاروا وحوشًا بفعل الخرافات من أطفالٍ أعياهم التملق، ويحكموهم بصولجانٍ حديدي، وما هؤلاء المجانين سوى أسياد الناموس؛ الذين تحولوا إلى آلهة. وهم يقررون للمجتمع الذي عقد لسانهم، ولديهم القدرة على خلق كلّ من العادل، والظالم، ويستثنون أنفسهم من تلك القواعد التي تفرضها نزواتهم على الآخرين، ولا يعرفون العلاقات، ولا الواجبات، ولم يتعلموا أبدًا الخوف، أو الحياء، أو الشعور بالندم، ولا حدود لفسقهم؛ لأنَّ من المؤكد أنَّهم سيبقون بلا عقاب. ولذلك هم يحتقرون الرأي العام، واللياقة، وأحكام الناس الذين تمكنوا من التغلب عليهم بسبب ثقل سلطتهم الهائلة. ونراهم عادة مستسلمين للرذيلة والفجور؛ لأنَّ الخمول، والاشمئزاز اللذان يتبعان فائض المشاعر المشبعة، يجبرانهم على العودة إلى ملذاتٍ غريبة وحماقاتٍ باهظة الثمن، لإيقاظ النشاط في نفوسهم الفاقدة للإحساس. وبعبارة أخرى، من لم يعتادوا إلا على مخافةِ الله، يتصرفون كما لو أنَّهم لا يخشون شيئًا.

---

(١) ما من شيءٍ يعوقه عن الإيمان به متى سبح في مياه الإله. (Juvenalis Sat. , 4.v. 79,1)

لا يظهر لنا التاريخ في جميع البلدان سوى عدد كبير من الملوك الأشرار، والمؤذين، والقليل من الملحدين. وعلى العكس من ذلك، تقدم سجلات الأمم برأينا عددًا كبيرًا من الأمراء المؤمنين بالخرافات، والذين قضوا حياتهم غارقين في الترف، والخُنث، وهم غرباء عن كلّ فضيلة، وخير موحد لحاشيتهم الجياع، وغير مدركين لمآسي رعاياهم، وتستحوذ عليهم عشيقات، ومحبوبات تافهات، ويعقدون عصبة مع الكهنة ضد السعادة العامة، وبعبارة أخرى، إنَّ المضطَهِدون؛ الذين يرضون الله أو يكفّرون عن مخالفاتهم المخزية، ضموا إلى جميع جرائمهم الأخرى، جرائم الاستبداد على الفكر، وقتل المواطنين بسبب آرائهم. إذ ترتبط الخرافة عند الأمراء بأبشع الجرائم، وجميعهم تقريبًا لديهم دين، وقليل منهم لديهم معرفة بالأخلاق الحقيقية، أو يمارسون أيّ فضيلة مفيدة. ولا تؤدي المفاهيم الدينية إلا إلى جعلهم أكثر حمقًا وشرًا، ويعتقدون بأنَّهم يؤكدون فضل السماء، ويظنون أنَّهم يرضون آلهتهم، إذا أظهروا لبعض الوقت ارتباطهم بالعادات العقيمة، والواجبات السخيفة التي تفرضها عليهم الخرافات. خذ **نيرون** القاسي على سبيل المثال، فمازالت يديه ملطختان بدماء والدته، وكان مصممًا على الانطلاق في ألغاز **إليوسيس**. ووجد **قسطنطين** البغيض في الكهنة المسيحيين، شركاء ميالين للتكفير عن جرائمه. و**فيليب** سيئ السمعة الذي يُطلق عليه بسبب طموحه القاسي "شيطان الجنوب"، بينما اغتال زوجته وابنه، وتسببَ في نحرِ **الباتافيين** بسبب آرائهم الدينية. ومن هنا يقنع التهور الخرافي الملوك بأنَّهم يستطيعون التكفير عن جرائمهم بجرائم أكبر.

ولذلك دعونا لا نستنتج من سلوك العديد من الأمراء المتدينين للغاية، سوى القليل جدًا من الفضيلة، وأنَّ مفاهيم الإله، بمعزلٍ عن كونها مفيدة لهم، أفادت فقط في إفسادهم، وجعلهم أكثر شرًا مما طبعوا عليه. دعونا نستنتج أنَّ فكرة الإله المنتقم لا يمكن أبدًا أن تفرض ضبط النفس على طاغية مؤله، وقوي بما فيه الكفاية، أو غير مدرك بما فيه الكفاية، ولا يهاب توبيخ الناس، أو كراهيتهم، وأصبح قاسيًا لدرجة عدم تعاطفه مع مآسي البشر؛ الذين يعتقدون أنَّهم متميزون عنه، ولا يوجد في السماء، ولا الأرض أيّ علاجٍ لكائن منحرفٍ إلى هذا الحد، ولا يوجد حدّ قادر على كبح جماح عواطفه؛ التي يطلقها الدين بحدّ ذاته باستمرار، ويجعله أكثر تسرعًا وتهورًا. وكلّ مرة يتفاخرون فيها بأنَّهم يكفّرون بسهولة عن جرائمهم، يلحقون بأنفسهم جريمة أكبر. وغالبًا ما يكون البشر الأكثر فجورًا هم المرتبطين

بشدة بالدين؛ الذي يزودهم بوسائل تعوضهم عمّا يفتقرون له من أشكال أخلاقية. وأن يؤمنوا بالعقائد، أو يتبنوها، ويلتزموا بشعائرها، أيسر عليهم من تخليهم عن عاداتهم، أو مقاومة عواطفهم.

لكن زعماء الأمم اضطروا لمواصلة فجورهم رغم وجود الدين. وتكيف العظماء بجدّ ذاتهم مع رذائل كهنتهم، واتّبع الناس نموذج هؤلاء البشر المتميزين الذين اعتقدوا لجهلهم أنَّهم سعداء، وأصبحت المحاكم بؤرًا للفساد، مما أدى إلى استمرار عدوى الرذيلة. والقانون المتقلب، والتعسفي وحده من يحدد الصدق، وكان الفقه جائرًا ومتحيزًا. وكانت العدالة تعصم عينيها عن الفقراء فقط. ومُحيت الأفكار الحقيقية للإنصاف من جميع العقول، ولم يفد التعليم المنبوذ، إلا في خلق كائناتٍ جاهلة، وغير عقلانية؛ فالمتعصبين مستعدون دائمًا لإيذاء أنفسهم، وتولى الدين، الذي يسانده الطغيان أمر كلّ شيء، وحجبَ أعين الناس الذين اعتزمت الحكومة سلبهم، وجعلهم مذعنين.(١)

أصبحت هذه الأمم متدينة، وفاسدة؛ لكونها تفتقر للإدارة العقلانية للقوانين المنصفة، والتعليمات المفيدة، والتعليم المعقول، وبقاءها دائمًا بفضل حاكمها، وكاهنها في الجهل، والقيود. وجهلت على قدم المساواة طبيعة الإنسان، والمصالح الحقيقية للمجتمع، والميزة الحقيقية للحاكم، والشعب الذي أخطأ في يوم من الأيام، وأخلاق الطبيعة التي بُنيت على ماهية إنسان يعيش في المجتمع. وأغفلت أنَّ الإنسان لديه حاجات، وأنَّ المجتمع تشكّل فقط ليسهل وسائل إشباعها، وأنَّ الحكومة يجب أن تسعى لإسعاد هذا المجتمع، والحفاظ عليه، ويجب أن يستفيد بالتالي من الدوافع المناسبة ليكون لها تأثير إيجابي على الكائنات الحية. ولم يُلاحظ أنَّ المكافآت، والعقوبات تشكل مصادر قوية يمكن أن تستفيد منها السلطة العامة بفاعلية لتفرض على المواطنين الدمج بين مصالحهم، والعمل على تحقيق سعادتهم، من خلال العمل لصالح الجسد؛ الذي هم أعضاء فيه. وكانت الفضائل الاجتماعية غير معروفة، وأصبح حب الوطن وهمًا، ولم يكن لدى البشر المترابطين مصلحةً سوى إيذاء بعضهم البعض، وأن يكونوا جديرين بفضل الحاكم؛ الذي ظن نفسه معنيٌّ بإيذاء الكل.

(١) مكيافيلي، في الفصل: ١١-١٣ من كتابه "خطبًا سياسية عن تيتوس ليفي"، يحاول فيه إظهار فائدة الخرافة للجمهورية الرومانية، لكن للمثال الذي يفترضه يثبت لسوء الحظ، أنَّ لا أحد ربح سوى مجلس الشيوخ من حماقة الشعب، واستفاد منهم بإبقائهم تحت نيره.

هذا هو الوضع الذي قد ينحرف فيه قلب الإنسان، وهذا هو المصدر الحقيقي للشر الأخلاقي، وهذا الفساد الوراثي، والوبائي المتأصل؛ الذي نراه يسود على الأرض كلّها. وبغرض معالجة الكثير من الشرور، لجأ إلى الدين الذي أنتجه هو نفسه، لتخيله أنَّ أخطار السماء ستكبح تلك المشاعر؛ التي تظافر كلّ شيء لإيقاظها في كلّ القلوب، وأقنع البشر أنفسهم بحماقة أنَّ الحاجز المثالي، والماورائي، وتلك الخرافات الرهيبة، والأشباح البعيدة، ستكفي لقمع رغباتهم الطبيعية، ونزعاتهم اللاإرادية، واعتقدوا أنَّ القوى غير المرئية ستكون أكثر فعالية من جميع القوى المرئية، والتي من الواضح أنَّها تدعو البشر إلى ارتكاب الشر. واعتقدوا أنَّهم حصلوا على كلّ شيء عندما شغلوا عقولهم بأوهام كئيبة ومكفهرة، وفي رعبٍ غامض، وإلهٍ منتقم، وأقنعت السياسة نفسها بحماقة أنَّ مصلحتها الخاصة تكمن في أن يخضع الشعب جزافًا لكهنة الإله.

وماذا نتج عن هذا؟ لم يكن لدى الأمم سوى الأخلاق الكهنوتية، واللاهوتية، التي تتكيف مع آراء الكهنة، ومصالحهم المتغيرة، ومع ذلك الذي استبدل الآراء والتأملات بالحقيقة، والعادات بالفضيلة، والتهور الورع بالعقل، والتعصب بالتآلف. وكنتيجة ضرورية لتلك الثقة التي منحها الشعب لكهنة الإله، تأسست سلطتان متميزتان في كلّ دولة، كانتا في حال خلافٍ، وحربٍ باستمرار مع بعضهما البعض، وقاتل الكاهن الملك بسلاح الرأي المهيب، وأثبت عمومًا أنَّه قوي بما يكفي لزعزعة العروش.(1) ولا يطمئن الحاكم أبدًا، إلا عندما يكرّس نفسه بفظاظة لكهنته، ويتلقى دروسهم بطواعية، ويقدم دعمه لجنونهم. وكان هؤلاء الكهنة دائمًا قلقين، وطموحين، وغير متسامحين؛ فحرضوا الملك على تدمير ولاياته، وشجعوه على الاستبداد، وصالحوه مع السماء عندما خشي غضبها. وهكذا، عندما توحدت قوتان متنافستان، لم تكسب الأخلاق شيئًا من اتحادهما، ولم يكن الشعب أكثر سعادة، ولا أكثر فضيلة، وطغت القوى المتحدة بإله السماء وإله الأرض على أخلاقهم،

---

(1) من الجيد أن نلاحظ أنَّ الكهنة الذين يهيبون على الدوام بالناس ليخضعوا لملوكهم؛ لأنَّ سلطتهم مستمدة من السماء، ولأنَّهم صور الإله، يغيرون لغتهم، وإن لم يخضع الحاكم لهم جزافًا. ويؤيد رجال الدين للمسيحي الاستبداد فقط ليبطشوا بأعدائهم، لكنهم ينقلبوا عليه عندما يجدوه مخالفًا لمصالحه. ولا يلقي قساوسة القوى الخفية عظةً إلا في طاعة القوى المرئية عندما تُكرس بتواضع لهم.

ورفاههم، وحريتهم. أما الأمراء الذين يهتمون دائمًا بالمحافظة على الآراء اللاهوتية، والمتباهون للغاية بغرورهم، والمحبين جدًا لسلطتهم المغتصبة، فقد عقدوا في الغالب صفقةً مشتركة مع كهنتهم، واعتقدوا أنَّ النظام الديني؛ الذي تبنوه هم أنفسهم يجب أن يكون الأكثر ملاءمة، وفائدة لمصالح رعاياهم، وبالتالي، عاملوا أولئك الذين رفضوا تبنيها كأعداء. وأصبح الحاكم الأشد تدينًا جلادًا لقسم من رعاياه سياسيًا، أو من خلال التقوى، واعتقد أنَّه واجبًا مقدسًا للاستبداد على الفكر، والتغلب على أعداء كهنته، وسحقهم، ويعتقد دائمًا أنَّهم أعداء سلطته. وتخيل أنَّه فعل بنحرهم ما أملاه عليه واجبه على الفور تجاه السماء، وما يدين به لأمنه. ولم يستوعب أنَّه من خلال التضحية بالضحايا لكهنته، قد قوّى أعداء سلطته، وخصوم عظمته، والأقل خضوعًا من رعاياه.

ونظرًا للمفاهيم الخاطئة التي استحوذت على عقول الملوك، والمؤمنين بالخرافات لفترة طويلة، نجد في الواقع أنَّ كلّ شيء في المجتمع يتعاون لإرضاء كبرياء النظام الكهنوتي، وشغفه، وانتقامه. ونرى في كلّ مكانٍ أنَّ البشر الأكثر قلقًا، وأخطرهم، وأقلهم نفعًا، هم أولئك الذين يكافأونَ أكثر من غيرهم. ونرى أولئك الذين ولدوا أعداءً للسلطة السيادية؛ التي تكرمهم، وتعتز بهم، في حين يُنظر إلى الرعايا الأكثر تمردًا على أنَّهم أعمدة العرش، أنَّهم يجعلون مفسدو الشباب المدرسين الحصريين للتعليم؛ ويبذلون مجهودًا أقل من المواطنين الذين دفعوا أموالًا سخية مقابل بطالتهم، وتكهناتهم غير المجدية، وتنافسهم المميت، وصلواتهم غير الفعالة، وكفاراتهم، لذا فهم خطرون جدًا على الأخلاق، ومناسبون للغاية لتشجيع الجريمة.

وقد كانت الأمم، والملوك منذ آلاف السنين ينهبون أنفسهم محاكاةً لإثراء كهنة الآلهة، وتمكينهم من الانغماس بالوفرة، وتزويدهم بالشرف، وتزيينهم بالألقاب، والامتيازات، والحصانات، مما يجعلهم مواطنين سيئين. ولكن ما الغنائم التي جناها الشعب، والملوك من لطفهم غير الحكيم وتبذيرهم؟ هل أصبح الأمراء أقوى، وهل أصبحت الأمم أكثر سعادة، وازدهارًا، وعقلانية؟ لا! لا شك أنَّ الحاكم أضاع النصيب الأكبر من سلطته؛ كان عبدًا لكهنته، أو كان مضطرًا إلى مقارعتهم باستمرار؛ وكان الجزء الأكبر من ثروات المجتمع مخصصًا لدعم البطالة، والرفاهية، والبهاء، والأقل نفعًا، والأكثر خطورة على أعضائه.

هل أثبتت أخلاق الناس بوجود هذه الأدلة أنَّهم دفعوا أموالًا سخية؟ للأسف! لم يعرفها المؤمنون بالخرافات قط، واحتل الدين مكان كلّ شيء آخر لديهم. ولم يتكر كهنتها الذين يكتفون بالحفاظ على المذاهب، والعادات المفيدة لمصالحهم الخاصة، سوى جرائم وهمية، ومضاعفة العادات المؤلمة، أو السخيفة، إلى أن استغلوا تجاوزات عبيدهم في منفعتهم الخاصة. وتداولوا في كلّ مكان مارسوا فيه احتكار التكفير، العفو المزعوم من السماء، ووضعوا كتابًا لمعدلات الجرائم، وكان أخطرها دائمًا تلك التي اعتبرها الأمر الكهنوتي الأكثر ضررًا على آرائه. وكانت "المعصية، والبدعة، وتدنيس المقدسات، والكفر...إلخ"، عبارة عن كلماتٍ غامضة، وخالية من المعنى، ومن الواضح أنَّها لا تملك أيّ شيء آخر غير الكائنات الخرافية، ولا تثير سوى اهتمام الكهنة، وترعب عقولهم أكثر بكثير من الجرائم الحقيقية؛ التي تهمّ المجتمع حقًا. وهكذا انقلبت أفكار الشعب كليًا، وأخافتهم الجرائم الوهمية أكثر بكثير من الجرائم الحقيقية. وكان الإنسان الذي لم تنسجم آرائه وأنظمته المجردة مع آراء الكهنة، أكثر بغضًا من سفاحٍ، وطاغية، وظالم، ولصٍ، ومغوي، أو مفسد. وكان الإستهزاء بما كانت تعتبره الكهنة مقدسًا من أعظم الشرور.(١) وصادقت القوانين المدنية أيضًا على هذا الخلط بين الأفكار، وعاقبوا بأبشع طريقة على تلك الجرائم المجهولة؛ التي بالغوا في تخيلها. وحُرق الزنادقة، والكفار، والصابئون، ولم يُفرض أيّ عقاب على مفسدي البراءة، والزناة، والمحتالين، والمفترين.

ماذا حصل للشباب في ظل هذه التعاليم؟ كان من المخزي أن يذهبوا ضحيةً للخرافات. لقد سمموا الإنسان منذ طفولته بمفاهيم غير مفهومة، ولقنوه الأسرار، والخرافات. وغمروه بعقيدة كان ملزمًا بارضائها دون أن يتمكن من فهمها، وعكروا صفو عقله بأوهامٍ عبثية؛ فحشروا عبقريته بتفاهاتٍ مقدسة، وواجبات طفولية، ومناسك آلية.(٢) وأضاعوا وقته

(١) يقول جوردون Gordon المعروف: "إنَّ أبغض البدع هو الإعتقاد بوجود إله آخر غير الذي يعبده رجال الدين".

(٢) ترسخت الخرافة في العقل البشري إلى هذه الدرجة، وجعلتهم مجرد آلات بشرية، وتوجد العديد من البلدان، لا يفهم فيها الناس اللغة التي يستخدمونها للتحدث إلى إلههم. ونرى نساء ليس لديهن مهنة أخرى طوال حياتهن، غير الغناء باللاتينية، دون فهم كلمة واحدة في اللغة. والناس الذين لا يستوعبون أيّ جزءٍ من عباداتهم، يؤدونها بمواعيد دقيقة للغاية، لإعتقادهم أنَّه يكفي إظهارها لإلههم، الذي يعتبرها نوعًا مما يجب أن تأديته في هذه المعابد، ويتعبوا أنفسهم به.

الثمين في العادات، والشعائر، وملأوا رأسه بالمغالطات، والأخطاء، واسكروه بالتعصب، وشغلوه إلى الأبد عن العقل، والحقيقة. وكُبلت طاقة عقله بأصفادٍ مستمرة، ولم يستطع أن يرتقي أبدًا، أو أن يجعل نفسه مفيدًا لأقرانه، وأدت الأهمية التي يعلقونها على العلم الإلهي، أو بالأحرى الجهل المنهجي؛ الذي أفاد كأساسٍ للدين؛ إلى استحالة أن تنتج التربة الخصبة أيّ شيء سوى الأشواك.

وهنا نسأل: هل تشكل التربية الدينية، والكهنوتية مواطنين، وأرباب أسرٍ، وأزواجًا، وأسيادًا، وعبيدًا مخلصون، ورعايا متواضعين، وصُحبةً مسالمة؟ لا! إما أن تجعلهم مخلصين، ومتحمسين، ومتعصبين، وغير متكيفين مع أنفسهم، والآخرين، أو أناسًا بلا مبادئ، وسرعان ما ينغمسون في الأهوال التي تشبعوا بها، ولم يعرفوا أبدًا قوانين الأخلاق. ورُفع الدين فوق كلّ شيء، وقيل للمتطرف: "إنَّ طاعة الله خير من طاعة الإنسان". ونتيجة لذلك، اعتقد أنَّه يجب أن يثور على أميره، وينفصل عن زوجته، ويكره طفله، ويبتعد عن صديقه، وينحر زملائه المواطنين، والتشكيك في كلّ مرة في مصالح السماء. وبعبارة أخرى، عندما كان للتعليم الديني تأثير، لم يفدْ إلا في إفساد قلوب الناشئة، وإبهار عقول اليافعين، وإضعاف عقول الشباب، وجعل الإنسان يخطأ، ويدين بخطأه لنفسه، وللمجتمع، والكائنات المحيطة به.

ولكن يالها من مزايا تلك التي قد لا تجنيها الأمم، لو وظفت بأمور مفيدة تلك الثروات؛ التي أغدقها الجهل بخزيٍ شديد على كهنة الدجل! ويا له من تقدم ذلك الذي لم يكن بإمكان العبقرية أن تحرزه على مدى عدة عصور، لو تمتع بتلك المكافآت أولئك الذين يعارضون سموها في كلّ الأزمنة! وما كان لتلك العلوم المفيدة، والفنون، والأخلاق، والسياسة، والحقيقة أن تكتمل، لو كانت قد حصلتْ على الإمدادات ذاتها مثل الباطل، والهذيان، والتعصب، وعدم النفع!

من الواضح إذن أنَّ المفاهيم اللاهوتية كانت متعارضة دائمًا مع السياسة السليمة، والأخلاق السليمة، وستظل كذلك؛ فهي تقلب الملوك إلى آلهة خبيثة، وساخطة، وغيورة، وتحول رعاياهم إلى عبيد حسودين، وأشرار، ويتخيلون أنَّهم بمساعدة بعض الشعائر غير المجدية، أو من خلال انصياعهم الظاهري لبعض الآراء غير المفهومة، يعوضون إلى حدٍ كبير عن الشر الذي يرتكبونه ضد بعضهم البعض. وأولئك الذين لم يجرؤوا قط على البحث في وجود إله، يكافئ ويعاقب، وأولئك الذين يقنعون أنفسهم بأنَّ واجباتهم مبنية على الإرادة

الإلهية، وأولئك الذين يدّعون بأنَّ هذا الإله يرغب في أن يعيش الناس في سلام، يعتزون بعضهم البعض، ويمدون يد العون لبعظهم، ويمتنعون عن الشر، وينبغي أن يفعلوا الخير لبعضهم البعض، وقد غابت عنهم هذه التكهنات العقيمة في الوقت الحالي، حالما أطلقوا ساقهم للاهتمامات الراهنة، أو عواطف، أو عادات، أو نزوات مزعجة تعجل بها. أين سنجد إذن الإنصاف، والاتحاد، والسلام والوفاق، الذي تعدُ به هذه المفاهيم السامية، المدعومة بالخرافة، والسلطة الإلهية، تلك المجتمعات التي لا تكفّ عن مراقبتها؟ لا أرى في تأثير المحاكم، والقساوسة الفاسدين، الذين هم إما محتالون أو متعصبون، ولا ينسجمون أبدًا مع بعضهم البعض، إلا أناسًا أشرار، ومنحطون بفعل الجهل، ومستعبدين لعاداتٍ إجرامية، ومتأثرين بمصالح عابرة، أو ملذات مخزية، ولا يفكرون حتى في إلههم. فالحاكم يواصل على الرغم من أفكاره اللاهوتية، حياكة مؤامراته السوداوية، ويعمل لإرضاء طموحه، وشغفه، وكراهيته، وانتقامه، وكلّ تلك العواطف المتأصلة في انحراف كيانه؛ الذي يسيء به إلى هذا الجحيم الذي تثير فكرته لوحدها الرعب. وتصرّ المرأة الفاسدة على مكائدها، وخداعها، وعهرها. والقسم الأكبر من الرجال الذين ملأوا المدن، والمحاكم فسقًا، وفجورًا، وخروجًا عن الأخلاق، سيرتدون على أعقابهم مرعوبين، إذا ظهر لهم أدنى شكّ في وجود ذلك الإله الخير الذي أثاروا سخطه. ولكن لماذا ينتج الخير عن ممارسة هذا الرأي الشامل، والعقيم جدًا، والذي لم يكن له أبدًا أيّ نوع آخر من التأثير على السلوك، سوى أن يكون بمثابة ذريعة لأخطر المشاعر؟ وعند مغادرة هذا المعبد الذي كانوا يضحون فيه، ويسلمون بالوحي الإلهي، والجريمة المرعبة باسم السماء، ألا يعود المستبد الديني الذي كان سيتردد في حذف الواجبات المزعومة التي تفرضها الخرافة عليه، إلى رذائله، وظلمه، وجرائمه السياسية، وتعديه على المجتمع؟ ألا يعود الكاهن إلى مضايقاته، والقاضي إلى مكائده، والمرأة المغازلة لبغاءها، وصاحب الحانة إلى ابتزازاته، والتاجر إلى خدعه، وحيله؟

هل سيدعي هؤلاء السفاحون، وأولئك اللصوص، والتعساء، الذين تضاعف ظلمهم أو إهمالهم لحكومتهم، والذين تنتزع منهم القوانين حياتهم بوحشية في كثيرٍ من الأحيان، بأنَّ هؤلاء الأشرار الذين يملأون كلّ يوم مشانقنا، وسقالاتنا، هم مرتابون أو ملحدون؟ لا! لا يخامرنا الشك في أنَّ هذه الكائنات البائسة، والمنبوذة من المجتمع، تؤمن بالله؛ حيث تكرر اسمه لهم في طفولتهم، وروي لهم عن العقوبات المقررة للجرائم، واعتادوا أن يرتعشوا في بداية

حياتهم من قضاءه. ومع ذلك أثاروا غضب المجتمع، ولم تكن أهوائهم الأقوى من مخاوفهم بقادرة على كبح جماح الدوافع المرئية؛ ولم تقيدها دوافع خفية؛ لأسباب أقوى بكثير، ولن يتمكن الإله المحجوب، وعقوباته البعيدة من إعاقة تلك المخالفات التي لا يستطيع العذاب الحالي، والمؤكد منعها.

وبعبارة أخرى، ألا نرى في كلّ لحظة، أناسًا مقتنعين بأنَّ إلههم ينظر إليهم، ويسمعهم، ويحيط بهم، ومع ذلك لا يقنعون بهذا التفسير عندما تكون لديهم الرغبة في إرضاء أهوائهم، وارتكاب الأعمال الأكثر خسة؟ إنَّ الإنسان ذاته الذي يخشى رقابة آخر، ويمنعه وجوده من ارتكاب فعل سيئ، ويسلم نفسه إلى رذيلة فاضحة، يسمح لنفسه بفعل كلّ شيء، عندما يعتقد أنَّه ما من أحد يراه سوى إلهه. فما الغرض إذن من الاقتناع بوجود هذا الإله، وعلمه المطلق، ووجوده المطلق، أو وجوده في كلّ مكان، والإجابة بكونه يفرض درسًا كبيرًا على سلوك الإنسان، من فكرة أن يراه أقل أقرانه من الناس؟ ومنْ لم يجرؤ على ارتكاب إثم في حال وجود طفل رضيع، لن يتردد في ارتكابه بجرأة، عندما لا يمتلك سوى الله شاهدًا عليه. قد تكون هذه الحقائق التي لا جدال فيها بمثابة ردٍ على أولئك الذين سيخبروننا أنَّ مخافة الله أنسب لكبح أفعال الناس، من فكرة عدم وجود ما يخشى منه. فعندما يعتقد الناس أنَّهم لا يخشون سوى إلههم، لا يوقفهم عادةً أيّ شيء.

إنَّ هؤلاء الأشخاص الذين لا يشكّون في المفاهيم الدينية الأكثر تفاهة، وفي فعاليتها، نادرًا ما يستخدمونها عندما يكونون ميالين للتأثير على سلوك أولئك التابعين لهم، وإعادة توجيههم إلى مسارات العقل. وعندما ينصح الأب ابنه الشرير، أو المجرم، يعرض له العقبات الحالية، والعابرة التي تعترض سلوكه، بدلاً من الخطر الذي قد يواجهه عند إهانة الإله المنتقم، وجعله يتنبأ بالعواقب الطبيعية المترتبة على مخالفاته، وصحته المعتلة بفجوره، وفقدان سمعته، وتبديد ثروته على اللعب، وعقوبات المجتمع...إلخ. وهكذا فإنَّ المؤله نفسه يعتمد في أهم فرص حياته على قوة الدوافع الطبيعية أكثر بكثير من الدوافع الخارقة للطبيعة التي يمده بها الدين. كما أنَّ الإنسان ذاته الذي يشوه الدوافع التي توجب على الملحد إمكانية فعل الخير، والامتناع عن الشر، يستفيد منها في هذه المناسبة؛ لأنَّه يشعر بقوتها الكاملة.

ومع أنَّ جميع الناس يؤمنون تقريبًا بانتقام الله، وثوابه، لكننا نجد في جميع البلدان أنَّ عدد الأشرار يتجاوز بكثير عدد الشرفاء. وإذا تتبعنا السبب الحقيقي لهذا الفساد العام، فسنجده في المفاهيم اللاهوتية ذاتها، وليس في تلك المصادر الخيالية التي ابتكرتها الديانات المختلفة في العالم، من أجل تفسير الانحراف البشري. إنَّ الناس فاسدون؛ لكونهم محكومين إلى أبعد حد في كلّ مكان في الغالب، ولا قيمة لهم؛ لأنَّ الذين يؤله الملوك، وأولئك المنحرفين الذين يؤكدون فكرة الإفلات من العقاب، وجعلوا شعوبهم بالضرورة بائسين وأشرار. إذ خضع الناس للقساوسة اللاعقلانيين، ولم يوجههم العقل أبدًا. وحجب الكهنة المحتالون أعينهم، وأصبح عقلهم عديم الفائدة، وتضافرت جهود الطغاة، والكهنة بنجاح لمنع الأمم من أن تصبح مستنيرة، وتبحث عن الحقيقة، وتحسّن حالتها، أو جعل أخلاقها أكثر صدقًا، وتنال حريتها.

ويمكننا أن نتعهد بأنفسنا بأنْ نجعل الناس أفضل، وأكثر سعادة من خلال تثقيفهم، وإثبات الحقيقة لهم. ومن خلال تعريف الملوك، ورعاياهم بعلاقاتهم، ومصالحهم الحقيقية، ستصبح السياسة مثالية، وتشعر أنَّ فن حكم البشر ليس فن حجب تفكيرهم، أو خداعهم، أو الاستبداد عليهم. دعونا نستشير إذن العقل، ونستدعي الخبرة لمساعدتنا، ونستجوب الطبيعة، وسنجد ما يلزم أن نفعله بفاعلية من أجل سعادة الجنس البشري. وسنرى أنَّ الخطأ هو المصدر الحقيقي لشرور جنسنا البشري، ويمكننا أن نبحث بسلامٍ عن الحقيقة في بهجة قلوبنا، وعندما نبدد تلك الأشباح الباطلة، التي تجعلنا نرتعد من فكرتها، ونجتث الخرافة من جذورها، نجد في الطبيعة الشعلة التي يمكن أن ترشدنا للسعادة. دعونا ندرس الطبيعة إذن، ونراقب قوانينها الثابتة. ونبحث في ماهية الإنسان، ونشفيه من تحيزاته، وبهذه الوسائل سنوجهه بانحرافٍ سهل، ودمثٍ إلى الفضيلة التي سيشعر أنَّه لا يمكن أن يكون سعيدًا دائمًا من دونها في العالم الذي يعيش فيه.

دعونا لا نتلقى من البشر إذن ما يتعلق بتلك الآلهة؛ التي لا تُحدث في كلّ مكان سوى التعساء. ونستبدل الطبيعة المرئية بالقوى المجهولة التي لم يعبدها في جميع الأوقات إلا العبيد المرتعدون، أو المتحمسون المصابون بالهذيان. ونقول لهم: يجب أن تتوقفوا عن الخوف؛ لكي تكونوا سعداء.

وكما رأينا فإنَّ أفكار الإله غير نافعة، بقدر مخالفتها للأخلاق السليمة، ولا تجلب مزايا تلفت أنظار الأفراد أكثر من المجتمع. ورأينا أنَّ الإله وصف في كلّ بلدٍ في صفات أكثر اشمئزازًا، وكان المؤمن بالخرافات كائنًا بائسًا على الدوام؛ لأنَّ الخرافة عدو داخلي يحمله دائمًا في داخله، وإن اتفقت مع مبادئه. وسيعاني أولئك الذين سيشغلون أنفسهم بجدية بهذا الشبح الهائل، من عذاباتٍ، وقلقٍ مستمرين، وسوف يهملون تلك الأمور التي تستحق اهتمامهم؛ بسبب سعيهم وراء الكائنات الخرافية، وعادةً ما يقضون أيامهم الحزينة في الشكوى، والصلاة، والتضحية، والتكفير عن الذنوب الحقيقية، أو المتخيلة التي يعتقدون أنَّها من المحتمل أن تسيء إلى إلههم القاسي. وسوف يعذبون أنفسهم في كثيرٍ من الأحيان في فورة غضبهم، وسيجدون أنَّ من واجبهم أن يلحقوا بأنفسهم أبشع العقوبات الهمجية لمنع المصائب التي ينزلها الله بهم، وسوف يسلحون أنفسهم ضد بعضهم، على أمل أن ينتزعوا سلاح الانتقام، والقسوة من سيدٍ سفاح، لظنهم أنَّهم أقلقوا راحته، وسيعتقدون أنَّهم يسترضون إلهًا غاضبًا إن اصبحوا جلادين لأنفسهم، ويلحقون بأنفسهم كلّ أنواع الأذى التي يمكن أن يبتكرها خيالهم. ولا يجني المجتمع أيّ نفعٍ من المفاهيم الكئيبة لهؤلاء الأتقياء اللاعقلانيين، ويجد عقلهم نفسه مستغرقًا باستمرار في أحلامهم الحزينة، وتبديد وقتهم في الشعائر اللاعقلانية. وعادةً ما يكون الناس الأشد تديناً مبغضين للبشر، ولا نفع إطلاقًا منهم للعالم، ويلحقون الضرر بأنفسهم. وإذا أظهروا مقدرةً، فإنَّ الأمر يتعلق فقط بتخيل وسائل إيذاء أنفسهم، وتعذيبها، وحرمانها من الأشياء التي تشتهيها طبيعتهم. ونجد في جميع بلدان الأرض أنَّ التائبين مقتنعون باطنيًا أنَّهم يستحقون بفعل البربرية التي تُمارس عليهم، والانتحار المستمر، فضل إلهٍ شرس، الذي ينشرون خيره في كلّ مكان. ونرى مجانين من هذا النوع في جميع أنحاء العالم، مع أنَّ فكرة وجود إله رهيب في جميع الأوقات، والأماكن ولدت أبشع أنواع التطرف!

إذا لم يضر هؤلاء المحبين اللاعقلانيون سوى أنفسهم، وحرموا المجتمع من تلك المساعدة التي يدينون بها له، فسيبقون من دون شك، أقل أذية من أولئك المتعصبين المضطربين، والمتحمسين المفعمين بأفكارهم الدينية، لاعتقادهم أنَّهم مضطرون لتعكير صفو العالم، وارتكاب جرائم فعلية للحفاظ على أساس شبحهم السماوي. ويصدف في كثيرٍ من الأحيان، أن يفترض المتعصب أنَّه بأخلاقه الفاحشة سيجعل نفسه مقبولًا لإلهه. ويجعل الكمال كامنًا في تعذيب نفسه لصالح مفاهيمه الخيالية، أو قطع أقدس العلاقات التي صنعتها الطبيعة للبشر.

دعونا نعترف إذن بأنَّ أفكارنا عن الألوهية ليست أكثر ملاءمةً للحصول على رفاهية الأفراد، وقناعتهم، وسلمهم من المجتمع الذي هم أعضاء فيه. وإذا وجد بعض المتحمسين المسالمين، والصادقين، والمترددين العزاء والراحة في أفكارهم الدينية، فهناك الملايين ممن هم أكثر جزمًا في مبادئهم، لكنهم تعساء طوال حياتهم، وتهاجمهم دائمًا الأفكار الكئيبة لإله مميت تظهره مخيلتهم المضطربة لهم في كلّ لحظة. وأمام هذا الإله المهيب، يكون المخلص المادئ، والمسالم هو الإنسان الذي لم يفكر فيه. وبعبارة أخرى، يثبت كلّ شيء أنَّ الأفكار الدينية ذات تأثير أقوى في تعذيب الناس، وتشتيتهم، وجعلهم تعساء، لكونها توقد العقل، وتسمم العواطف، دون أن تكبحها أبدًا، إلا عندما يكون المزاج أضعف من أنْ يدفعهم قدمًا.

الفصل السابع

لا يمكن أن تكون المفاهيم اللاهوتية أساسًا للأخلاق: مقارنة بين الأخلاق اللاهوتية والطبيعية، وأنَّ علم اللاهوت ضار بتقدم عقل الإنسان

لا يمكن أن تكون المفاهيم اللاهوتية أساسًا للأخلاق: مقارنة بين الأخلاق اللاهوتية والطبيعية، وأنَّ علم اللاهوت ضار بتقدم عقل الإنسان

لابدّ أن يسعد البشر إن كان الافتراض مفيدًا. ولكن ما الحق الذي يخولنا لأن نفخر بكون الفرضية التي تجعلنا هنا كائنات تعيسة، قد تقودنا ذات يوم إلى السعادة الدائمة؟ إذا كان الله قد جعل البشر يرتعدون، ويئنون فقط في هذا العالم الذي يعرفونه، فما الأساس الذي يمكن أن يتوقعوا أنَّ يعاملهم بموجبه بمزيد من اللطف في عالم يجهلونه في النهاية؟ إذا رأينا إنسانًا يقترف ظلمًا شنيعًا، ولو على نحوٍ عابر، ألا ينبغي أن يجعلنا هذا نرتاب بشدة منه، ويفقد ثقتنا به إلى الأبد؟

إنَّ الافتراض الذي يجب أن يلقي الضوء على كلّ شيء من ناحية أخرى، أو الذي يجب أن يعطي حلًا سهلًا لجميع الأسئلة التي يمكن طرحها، من المحتمل أن يكون صحيحًا وإن لم يكن بالإمكان إثبات يقينه، ولكن من المؤكد أنَّ النظام؛ الذي لا يحجب سوى المفاهيم الأشد وضوحًا، ويعقد حلّ جميع المشكلات المراد حلها بوسائله، سيُنظر إليه على أنّه كاذب، وعديم النفع، وخطير. ولإقناع أنفسنا في هذا المبدأ، دعونا نبحث دون تحيزٍ عمّا إذا كان وجود الإله اللاهوتي قد أعطى حلًا لأيّ مشكلة. وهل تقدم الفهم الإنساني خطوةً واحدة بمساعدة اللاهوت؟ أليس هذا العلم المهم للغاية، والسامي جدًا، هو من حجب الأخلاق تمامًا؟ ألم يشكك في أهم واجباتنا، ويعقِدها؟ ألم يشوش بصورةٍ مخزية كلّ مفاهيم العدالة، والظلم، والرذيلة، والفضيلة؟ ما الفضيلة بالفعل في أفكار لاهوتيينا؟ سيخبروننا: إنّها تتوافق مع إرادة الكائن المبهم؛ الذي يحكم الطبيعة. لكن من هذا الكائن الذي لا يكفّون عن الحديث عنه دون أن يتمكنوا من فهمه؛ وكيف يمكننا معرفة إرادته؟ سوف يخبرونك على الفور عمّا لا يكون عليه هذا الكائن، دون أن يكونوا قادرين على إخبارك بماهيه؛ وإذا

تعهدوا بإعطائكَ فكرةً عنه، فسوف يكدسون على هذا الكائن الافتراضي العديد من السمات المتناقضة، وغير المتوافقة، والتي ستشكل وهمًا من المستحيل تصوره، أو سيحيلونك إلى التجليات الفائقة للطبيعية، والتي جعلت هذا الشبح يعرّفَ مقاصده الإلهية للناس. ولكن كيف سيثبتون أصالة هذه التجليات؟ سيكون ذلك من خلال المعجزات! وكيف يمكننا تصديق المعجزات المخالفة، كما رأينا، لتلك المفاهيم التي يقدمها لنا اللاهوت عن الإله الذكي، والثابت، والمقتدر؟ وسيكون من الضروري منح الفضل في الصدق، وحسن النية للكهنة، والمكلفون بالإعلان عن الوحي الإلهي كمصدرٍ أخير. ولكن من سيؤكد لنا مهمتهم؟ أليس هؤلاء القساوسة أنفسهم الذين يعلنون لنا أنَّهم المفسرون المعصومون لإلهٍ يعترفون بعدم معرفتهم له؟ مما يمنح الكهنة؛ أي الرجال المشكوك فيهم للغاية، ونادرًا ما ينسجمون فيما بينهم، أن يكونوا محكمين للأخلاق، وسيقررون وفقًا لمعرفتهم غير اليقينية، أو عواطفهم، تلك القوانين التي يجب اتباعها، ويكون التعصب، أو المصلحة هما المعيار الوحيد لقراراتهم، وتكون أخلاقهم متغيرة كحال نزواتهم، وأهوائهم. ولن يعرف أولئك الذين يستمعون إليهم أبدًا أيّ مسار سلوك يجب أن يلتزموا به، وسنجد في كتبهم الملهمة دائمًا إلهًا للأخلاق الضعيفة؛ الذي سيرتكب أحيانًا جريمة، وأمورًا سخيفة، وسيكون في بعض الأحيان صديقًا للجنس البشري، وفي أحيان أخرى عدوًا له، وسيكون في بعض الأحيان محسنًا، وعاقلًا، وعادلاً، وأحيانًا غير عقلاني، وغريب الأطوار، وظالم، ومستبد. ولكن ما الذي سيستنتجه العقلاني من كلّ هذا؟ أنَّ الآلهة المتقلبة، أو كهنتهم الذين تختلف مصالحهم في كلّ لحظة، لا يمكن أن يكونوا نماذج، أو محكمين للأخلاق التي يجب أن تكون منتظمة، ويقينية كقوانين الطبيعة الثابتة التي لا نرى انحطاطها أبدًا.

لا! لا يمكن أن تفيد الآراء التعسفية، وغير الحاسمة، والمفاهيم المتناقضة، والتخمينات المجردة، والمبهمة، كأساسٍ لعلم الأخلاق. إذ يجب أن تكون مبادئها واضحة، وناجمة عن طبيعة الإنسان المبنية على رغباته، ومستوحاة من التعليم، وتصبح مألوفة بحكم العادة، ومقدسة بفضل القوانين، وستعزز هذه القناعة في عقولنا، وتجعل الفضيلة مفيدة ومحبّذة لنا، وستحصل شعوب الأمم على أناسٍ أمناء، ومواطنين صالحين. ولا يمثل الإله المبهم بالضرورة دائمًا، سوى فكرة غامضة لخيالنا، الذي يضلله إلهٌ رهيب، ومتغير، ويتناقض مع نفسه على الدوام، وسيمنعنا دائمًا من تحري الطريق الذي يجب أن نتبعه. وتتناقض الوعود التي منحها

لنا كائن خيالي باستمرار مع طبيعتنا التي خلقها، ولا تقود إلا إلى عدم قبول الفضيلة فحسب، والخوف وحده من يجعلنا نمارس بسرور ما يفرضه عقلنا، ومصلحتنا المباشرة. والأمر سيان سواء كان الإله رهيبًا، أو شريرًا، فلن يقلق سوى الصادقين، ولا يوقف تقدم المسرفين، والفاسقين، وسوف يكفّ القسم الأكبر من الناس عن التفكير في الإله الرهيب عندما يتخلصون من الخطيئة، أو يستسلمون لميولهم الشريرة، وسوف يرون الله رَّحْمَنٍ، وملهمٌ بالخير، ولا ينظرون أبدًا إلى الأمور إلا من الجانب الأكثر توافقًا مع رغباتهم.

وإن كان خير الله يبهج الشرير، فإنَّ قسوته تزعج الإنسان الصادق. ولذلك فإنَّ الصفات التي يعزوها اللاهوت إلى إلهه، تصبح بحدّ ذاتها غير مواتية للأخلاق السليمة. وبناءً على هذا الخير اللامتناه، سيكون لدى الناس الأكثر فسادًا الجرأة ليتخذوا قرارًا يحثّهم على ارتكاب الجريمة، أو تخليهم عن الرذيلة المعتادة. وإذا حدثناهم عن إلههم، فسيخبروننا أنَّ "الله خير"، وأنَّ عفوه ورحمته لا حدود لهما. ألا تكرر عليهم الخرافة باستمرار، وهي شريكة في آثام البشر، أنَّهم يستطيعون بمساعدة بعض الشعائر، والصلوات، وأعمال التقوى، أن يهدأوا من روع إلههم، والترحيب بهذا الإله اللين، واللطيف؟ ألا يحتفظ كهنة جميع الأمم بأسرارٍ معصومة؛ لكي يتوافق الناس الأكثر انحرافًا مع إلههم؟

ويجب أن نستنتج من هذا أنَّه مهما كانت وجهة النظر التي يتخذونها عن الإله؛ الذي لا يمكن أن يفيد كأساسٍ للأخلاق، تبقى ذاتها ثابتة على الدوام. ولا يفيد الإله الغاضب سوى أولئك الذين تكمن مصلحتهم في المرعوبين، وقد يستفيدون من جهلهم، ومخاوفهم، وكفّاراتهم. ولن يرى نبلاء الأرض هذا الإله العظيم، وهم عادةً ما يكونون من البشر الأكثر افتقارًا للفضيلة، والأخلاق، ومع ذلك سوف يستغلونه؛ لترعيب الآخرين عندما يميلون إلى اقتحام عواطفهم، ويستعبدونهم، ويضعوهم تحت وصايتهم، في حين أنَّهم لن يفكروا في هذا الإله إلا ضمن سماته الخيّرة، وسوف يرونه دائمًا متسامحًا مع تلك الإساءات التي يرتكبونها ضد مخلوقاته، شريطة أن يقدّروه بأنفسهم، علاوة على أنَّ الدين سوف يزودهم بوسائل سهلة لتهدئة غضبه. ويبدو أنَّ هذا الدين لم يُبتكر إلا لتزويد قساوسة الإله بفرصةٍ للتكفير عن جرائم الطبيعة البشرية.

لكن الأخلاق لا تُبرم لمتابعة نزوات الخيال، والعواطف، ومصالح الناس، ويجب أن تحوز على الثبات، وأن تكون ذاتها عند جميع أفراد الجنس البشري، وألا تختلف في البلد ذاته، أو

من عصرٍ إلى آخر، وليس للدين الحق في إخضاع قواعده الثابتة لقوانين آلهته القابلة للتغيير. ويوجد منهج واحد فقط ليمنح الأخلاق هذه القوة المتينة، التي أشرنا إليها أكثر من مرة في سياق هذا الكتاب،[1] ولا توجد طريقة أخرى للعثور عليها إلا في واجباتنا، وطبيعتنا الإنسانية، والعلاقات القائمة بين الكائنات الذكية التي تعشق سعادة بعضها البعض، وتنشغل في الحفاظ على ذواتها، وتعيش معًا في المجتمع، حتى تتمكن بالتأكيد من تحقيق هذه الغايات. وبعبارةٍ أخرى، يجب أن نأخذ بالحسبان الأمور اللازمة كأساسٍ للأخلاق.

وعند التفكير مليًا في هذه المبادئ المستمدة من الطبيعة، والواضحة بذاتها، والتي تؤكدها الخبرة المستمرة، والمثبتة بالعقل، ستكون لدينا أخلاق معينة، ونظام سلوك لا يتناقض أبدًا مع ذاته. ولن يكون لدى الإنسان أيّ فرصة لتكرار الأوهام اللاهوتية لتنظيم سلوكه في العالم المرئي. وسنكون مؤهلين بعد ذلك للردّ على أولئك؛ الذين يقولون بعدم وجود أيّ أخلاق من دون إله، وأنَّ هذا الإله، بحكم قوته، والإمبراطورية السيادية التي تُنسب إليه على مخلوقاته، له وحده الحق في فرض القوانين، وإخضاعها لتلك الواجبات التي يلتزمون بها. وإذا فكرنا في السلسلة الطويلة من لأخطاء، والضلالات التي تنجم من مفاهيمنا الغامضة عن الإله، وعن الأفكار المشأومة التي تقدمها جميع الأديان في كلّ بلد، فسنجد أنَّها أكثر توافقًا مع حقيقة مفادها: إنَّ كلّ الأخلاق السليمة، وكلّ الأخلاق النافعة للأنواع البشرية، وكلّ الأخلاق المفيدة للمجتمع، لا تتوافق تمامًا مع كائنٍ لا يتمثّل أبدًا للناس إلا على شكل ملكٍ مطلق، وتفسد صفاته الخيرة باستمرار عن طريق النزوات الخطرة. ولكي نوطد الأخلاق على أساسٍ راسخ، من واجبنا أن نعترف بناءً على ذلك بضرورة البدء بقلب الأنظمة الوهمية؛ التي أسسوا عليها إلى يومنا هذا الصرح المدمر للأخلاق الخارقة للطبيعة، والتي بشروا بها عبثًا سكان الأرض على مدار عصورٍ طويلة.

وأيًا كانت العلة التي وضعت الإنسان في موطنه الذي يعيش فيه، وأعطته ملكاته، وسواء كنا نعتبر الجنس البشري من صنع الطبيعة، أو نفترض أنَّه مدين بوجوده لكائنٍ ذكي يتميز عن الطبيعة، فوجوده على ما هو عليه هو الحقيقة، ونحن نرى فيه كائنًا يشعر، ويفكر،

(1) See vol. i. chap.viii. of this work; also, what is said in chap. xii., and at the conclusion of chap. xiv. of the same volume.

ويمتلك ذكاءً، ويحب ذاته، ويميل إلى الحفاظ عليها، ويسعى في كلّ لحظة من حياته إلى أن يحظى وجوده بالقبول، وكلما كان من السهل إرضاء رغباته، وحصل على متعته الذاتية، يعيش في المجتمع مع كائنات مشابهة له، ويمكنه أن يجذبها بسلوكهِ إليه، أو ينفرها منه. وبناءً على هذه المشاعر العامة المتأصلة في طبيعتنا، والتي ستبقى طالما بقي الجنس البشري، ينبغي أن نجد الأخلاق؛ التي هي عبارة عن علم واجبات من يعيشون في المجتمع.

ها هي إذن الأسس الحقيقية لواجباتنا، وهذه الواجبات ضرورية، نظرًا إلى أنّها تنتج عن طبيعتنا الغريبة، ولا نستطيع الوصول إلى السعادة التي نفترضها لأنفسنا، إذا لم نأخذ بالوسائل التي لن نحصل عليها من دونها أبدًا. ولكي نكون سعداء دائمًا، فنحن ملزمون بأن نستجدي عطف أولئك الذين نرتبط بهم، ونساعدهم، ولن يأخذ هؤلاء على عاتقهم محبتهم لنا، وتقديرنا، ومساعدتنا في مشاريعنا، والعمل على سعادتنا الخاصة، إلا بما يتناسب مع عزمنا على العمل لأجل سعادتهم. وهذه هي الضرورة التي تُسمى "الالتزام الأخلاقي"؛ والذي تأسس على التفكير، والدوافع القادرة على تحديد الكائنات العاقلة، والذكية التي تصبو نحو الغاية، وتتبع السلوك اللازم للوصول إليها. ويمكن أن تبثّ هذه الدوافع فينا الرغبة فقط، ونحن نجددها دائمًا، لجلب الخير لأنفسنا، وتجنب الشر. وتمثل المتعة، والألم، والأمل بالسعادة، أو الخوف من البؤس، الدوافع الوحيدة القادرة على إحداث تأثير فعال على إرادة الكائنات العاقلة، وإجبارهم. ومن ثم يكفي وجود هذه الدوافع، وربما فهمها، للتعرّف عليها، ويكفي النظر في دستورنا الذي يمكن أن نحب بموجبه، أو نثبت في أنفسنا تلك الإجراءات التي تنتج عنها حقيقتنا، ومنفعتنا المتبادلة، وتشكّل فضيلتنا. ونتيجة لذلك، نحن مضطرون لكي نحافظ على أنفسنا، ونستمتع بالأمان، أن نتابع السلوك اللازم لتحقيق هذه الغاية، ولكي يهتم الآخرون في حفظنا، نحن ملزمون بالاهتمام في حفظهم، أو عدم القيام بأيّ شيءٍ قد يعطل فيهم إرادة التعاون معنا لتحقيق سعادتنا. وهذه هي الأسس الحقيقية لـ"الالتزام الأخلاقي".

وعندما نقدم أيّ أساسٍ آخر للأخلاق غير طبيعة الإنسان، سنخدع أنفسنا دائمًا، ولن نتمكن من الحصول على ما هو أقوى، وأكثر يقينًا. وقد اعتقد بعض المؤلفين حتى الشرفاء منهم، أنّه لحصول تلك الواجبات التي تفرضها الطبيعة عليهم، وتحوز احترام أكثر، وقداسةً لدى الناس، كان من الضروري أن يضفوا عليها سلطة كائن جعلوه متفوقًا على الطبيعة،

وأقوى من الضرورة. ونتيجة لذلك غزى اللاهوت الأخلاق، أو سعى إلى ربطها بالنظام الديني، وقد اعتقدوا أنَّ هذا الاتحاد سيجعل الفضيلة أكثر قداسة، وأنَّ الخوف من السلطة غير المرئية التي تحكم الطبيعة، من شأنه أن يزيد من أهمية، وفعالية قوانينها، وبعبارة أخرى، خُيل لهم بأنَّ الناس الذين أقتنعوا بضرورة الأخلاق واعتبارها متحدة بالدين، سوف ينظرون إلى هذا الدين على أنَّه ضروري بحدّ ذاته لسعادتهم. وتفيد الفرضية بأنَّ الله ضروري بالفعل لدعم الأخلاق؛ التي تحافظ على الأفكار اللاهوتية، والقسم الأكبر من النظم الدينية للأرض، ويُظنُّ أنَّ الإنسان لن يمتلك من دون الله معرفة، ولن يباشر ما يدين به للآخرين. ويُعتقد دائمًا بمجرد نشوء هذا التحيز، أنَّ الأفكار الغامضة عن الإله الميتافيزيقي ترتبط بهذه الطريقة مع أخلاق المجتمع، ورفاهيته، وأنَّ الإله لا يمكن مهاجمته دون أن نقلب في الوقت ذاته واجبات الطبيعة. ويُعتقد أنَّ افتقار المجتمع، والأفراد للسعادة، ورغبتهم، واهتمامهم الواضح بها، ستكون دوافع لا بأس بها، إذا لم يستعيروا كلّ قوتهم، وإقرارهم من كائنٍ وهمي أصبح حكمًا على جميع الأشياء.

ولكن من الخطورة أن نربط دائمًا الخيال بالحقيقة، والمجهول بالمعروف، وهذيان التعصب بهدوء العقل. إذ ما الذي ينتج بالفعل عن التحالف المضطرب؛ الذي صنعه اللاهوت بين الأوهام العجيبة والحقائق؟ لا شيء سوى خيالٍ مضطرب، وحقيقة زائفة، ودين يسيطر بمساعدة شبحه، على الطبيعة، ويجعل العقل ينحني تحت نيره، ويُخضع الإنسان إلى نزواته الغريبة، ويُلزمه في كثيرٍ من الأحيان باسم اللاهوت بكبت طبيعته، وينتهك بشدة الواجبات الأخلاقية الأشد وضوحًا. وفي الوقت الذي كان فيه هذا الدين نفسه يرغب في تقييد البشر؛ الذين حرص على جعلهم متهوريين وغير عقلانيين، لم يمنحهم سوى القيود، والدوافع المثالية، وتمكّن من استبدال العلل الوهمية فقط بعللٍ حقيقية، والقوى المحركة العجيبة، والخارقة للطبيعة بتلك التي كانت طبيعية، ومعروفة، والروايات، والخرافات بالحقائق. ولم يعد للأخلاق أيّ أساسٍ ثابت بفضل هذا التحول في المبادئ، واعتمدت الطبيعة، والعقل، والفضيلة، والبراهين، على إلهٍ غير محدد المعالم، ولم يتحدث أبداً بوضوح، وأسكت العقل، ولم يفصح عنه إلا كائنات ملهمة، ومحتالة، ومتعصبة، ولا يهتم هذيانها، أو رغبتها في انتفاعها من ضلالات البشر، إلا في تبشيرهم بالخضوع الذليل، والفضائل الزائفة، والشعائر التافهة، وبعبارة أخرى، تتوافق الأخلاق التعسفية مع أهوائهم الخاصة، وغالبًا ما تكون ضارة للغاية لباقي البشر.

وهكذا، عندما استنبطوا الأخلاق من الله، أخضعوها في الواقع إلى أهواء البشر. وفي ميلهم لتأسيسها على الكائن الخرافي، أقاموها على العدم، وشكّل كلٌّ منهم لنفسه فكرة مختلفة، عندما استنبطوها من كائنٍ وهمي، وفسّر بشر يهذون، أو محتالون وحيه الغامض، وأثبتوه بناءً على إرادته المزعومة، وخيره أو شره. وبعبارة أخرى، عندما اقترح الإنسان نموذجًا له، كائنًا يُفترض أن يكون قابلاً للتغيير، أضعف اللاهوتيين، أو أبطلوا ما قدمته الطبيعة، ولم يحلوا محلها سوى الشك، بغض النظر عن منحهم الأخلاق أساسًا ثابتًا. إذ يمثل هذا الإله، من خلال الصفات التي مُنحت له، لغزًا لا يمكن تفسيره، في حين يشرحه كلّ منهم على طريقته الخاصة، ويوضحه كلّ دين بأسلوبه الخاص، ويكتشف فيه جميع اللاهوتيين في العالم كلّ ما يناسب غرضهم، ويشكّل وفقًا له كلّ إنسان على حدة أخلاقه المتوافقة مع شخصيته الغريبة. وإذا أخبر الله الإنسان المعتدل، والمتسامح، والمنصف، بأن يكون خيرًا، ورحيمًا، ومحسنًا، فإنَّه يخبر الإنسان المحتد، وهو معدوم من الرحمة، بأن يكون غير متسامح، وغير إنساني، ومن دون شفقة. وتختلف أخلاق هذا الإله عند كلّ إنسان، ومن بلدٍ إلى آخر؛ ويرتجف بعض الناس من الرعب عند رؤيتهم لتلك الإجراءات؛ التي ينظر إليها الآخرون على أنَّها مقدسة، وجديرة بالتقدير. وينظر البعض إلى الله على أنَّه مفعمٌ باللطف، والرحمة، ويحكم عليه الآخرون بأنَّه قاسٍ، ويتخيلون أنَّ بإمكانهم الحصول على ميزة إرضائه من خلال القسوة.

إنَّ أخلاق الطبيعة واضحة، وهي كذلك حتى بالنسبة لأولئك الذين يسيئون إليها. وليس الأمر كذلك مع الأخلاق الدينية، فهي غامضة كالإله الذي وصفوه، أو بالأحرى قابلة للتغيير كأهواء، وطباع أولئك الذين يتحدثون عنه، أو الذين يعبدونه. وإذا تُركت الأخلاق إلى علماء اللاهوت، فيجب اعتبارها علم أكثر تعقيدًا، وأكثر ريبة، والأصعب من حيث تهذيبها. وسيتطلب الأمر عبقرية أكثر ملائمةً، وعمقًا، وعقلًا أكثر نفاذًا ونشاطًا، لاكتشاف مبادئ واجبات الإنسان تجاه نفسه، والآخرين. ومن ثم ألا يؤخذ بالحسبان أنَّ المصادر الحقيقية للأخلاق معروفة فقط لعددٍ صغير من المفكرين، أو الميتافيزيقيين؟ إنَّ استنباطها من إلهٍ لا يراه أحد إلا في داخله، ويعدله كلّ منهم بموجب أفكاره الخاصة، يعني اخضاعها لنزوة كلّ إنسان. ويعني استخلاصها من كائنٍ لا يمكن لأيّ إنسان على الأرض أن يتباهى بمعرفته، أنَّهم لا يعرفون من أين يمكن أن تأتي إلينا. ومهما كان الفاعل الذي أوكلوا إليه أمر الطبيعة، وكلّ الكائنات التي تحتوي عليها، ومهما كانت القوة التي قد يفترضون أنَّه

يمتلكها، فمن المحتمل جدًا أن يوجد الإنسان، أو لا يوجد، ولكن طالما أنَّه خلقه بهذا الحال، وجعله عاقلًا، ويحب كينونته الخاصة، ويعيش في المجتمع؛ فلا يستطيع، دون أن يفنيه، أو يعيد خلقه من جديد، أن يجعله موجودًا على خلاف ما هو عليه. ووفقًا لماهيته الفعلية، والصفات، والتعديلات، التي تعينه كائنًا من الجنس البشري، فإنَّ الأخلاق ضرورية له، وسيضطر بسبب رغبته في الحفاظ على نفسه إلى تفضيل الفضيلة على الرذيلة، ويفضل بالضرورة دائمًا اللذة على الألم.(١)

والمقصود بالقول: إنَّ الإنسان لا يمكن أن يمتلك أيّ مشاعر أخلاقية دون فكرة الله، أنَّه لا يستطيع التمييز بين الرذيلة والفضيلة، والإدعاء بأنَّه لولا فكرة الله، لما شعر الإنسان بضرورة الأكل ليحيي، ولما كان ميز طعامه، أو اختاره، والإدعاء أنَّه من دون التعرف على اسم من يدبر لنا الفوضى، وعلى شخصيته، وصفاته، لن نحكم في هذه حال على ما إذا كانت هذه الفوضى مقبولة، أو غير مقبولة؛ وخيرة، أو شريرة. ومن لا يعرف ما هو الرأي الذي يجب أن نعتنقه عن وجود سمات أخلاقية للإله، أو من ينكرها صوريًا، لا يمكن أن يشكّ على الأقل في وجوده، وصفاته، ونمط شعوره، وحكمه، ولا يمكنه أن يشكّ في وجود كائنات أخرى منظمة مثله، ويكتشف كلّ شيء فيها صفات مماثلة له، ويمكنه من خلال أفعال معينة، أن يؤثر فيها حبًا، أو كراهيةً، ويساعدها، أو يبدي نية سيئة تجاهها، ويقدرها أو يزدريها، وتكفي هذه المعروفة لتمكينه من التمييز بين الخير والشر الأخلاقي. وبعبارة أخرى، يتمتع كلّ إنسان بمنظومة منتظمة، أو ملكة صناعة الخبرة الحقيقية، وسيكون مضطرًا فقط للالتزام بالقالب نفسه، لكي يكتشف ما يدين به للآخرين، وسوف تثقفه الطبيعته أفضل بكثير من واجباته تجاه تلك الآلهة، التي لا يستطيع أن يسترشد إليها إلا من خلال عواطفه، أو تلك الخاصة ببعض المتعصبين أو المحتالين. ولكي يحافظ على نفسه سوف يسمح بتأمين رفاهيته الدائمة، ويلتزم بمقاومة دافع رغباته المتهورة في كثيرٍ من الأحيان، ولكي

(١) وفقًا للاهوت، يمتلك الإنسان فرصة النعمة الخارقة لفعل الخير: كانت هذه العقيدة مؤلمة للغاية بلا شك للأخلاق السليمة. وكان الإنسان ينتظر دائمًا "دعوة من السماء" ليفعل الخير، ولم يستخدم أولئك الذين يحكمونهم دعوات من الأرض؛ أي الدوافع الطبيعية لإثارة الفضيلة. ومع ذلك، يقول لنا ترتليان Tertullian: "لماذا تزعجون أنفسكم طالبين شريعة الله، وأنتم تمتلكون ما تشتركون به مع العالم كله، ومكتوب على ألواح الطبيعة؟".(Tertull. De Corona Militis).

يستميل إحسان الآخرين، يجب أن يتصرف بما يتوافق مع منفعتهم، وعندما يفكر على هذا النحو، سوف يكتشف معنى الفضيلة.(١)

وإذا وضع هذه النظرية موضع التنفيذ، فسيكون فاضلًا، وسيُثاب على سلوكه، بفضل الانسجام الجذل لبنيته، والتقدير المنطقي لذاته؛ الذي أكده لطف الآخرين تجاهه، وإذا كان يتصرف بأسلوبٍ معاكس، فإنَّ تعقيد بنيته واضطرابها سيحذرانه بسرعة من أنَّ الطبيعة التي يعيقها، تستهجن ما يلحقه به سلوكه من ضرر، وسيضطر لإضافة إدانة الآخرين؛ الذين يكرهونه، ويلومونه على أفعاله. وإذا كانت ضلالات عقله تمنعه من رؤية العواقب الأكثر إلحاحًا لمعاصيه، فلن يدرك أيّ من الثواب، والعقاب البعيد للملك المحجوب، الذي وضعوه عبثًا في الإمبراطورية، ولن يتحدث معه هذا الإله أبدًا بطريقةٍ متميزة بقدر ضميره الذي سيكافئه أو يعاقبه على الفور.

ويثبت كلّ ما تقدم بوضوح أنَّ الأخلاق الدينية خاسرة إلى أقصى حد، بالمقارنة مع أخلاق الطبيعة، التي وجدنا أنَّها متناقضة على الدوام. فالطبيعة تحثّ الإنسان بأن يحب ذاته، ليحافظ على نفسه، ويزيد مجموع سعادته، ويأمره الدين أن يحب فقط الإله العظيم؛ الذي يستحق أن يكره، ويتجاهل نفسه، للتضحية لمعبوده المرعب بملذات قلبه الأكثر متعةً، ومنطقية. وتخبر الطبيعة الإنسان باستشارة العقل، واتخاذه دليلًا له، ويعلمه الدين أن يفسد عقله، وأنَّه مجرد مرشدٍ غادر، قدمه إلهٌ مخادع لقيادة مخلوقاته الضالة. وتخبر الطبيعة الإنسان أن يثقف نفسه للبحث عن الحقيقة، وتعلمه واجباته: ويأمره الدين بالبحث في العدم، ليبقيه جاهلًا، ويخشى الحقيقة، ويقنعه أنَّه لا توجد علاقات أهم من تلك التي بينها كائن لا يعرف شيئًا عنه. وتتحدث الطبيعة عن الكائن الذي يحب رفاهيته، ويحدد مدى أهوائه، ويقاومها عندما تكون مدمرة له، لتحقيق التوازن بين دوافعه الحقيقية المستعارة من الخبرة، ويخبر الدين الكائن العاقل أن يتجرد من عواطفه، ويكون كتلة غير محسوسة، أو يقاوم نزعاته بدوافع مستعارة من الخيال، ومتغيرة كذاته.

---

(١) لا يعرف اللاهوت إلى اليوم كيف يقدم تعريفًا حقيقيًا للفضيلة. وهنا وفقًا له هو تأثير النعمة؛ التي تقرر علينا القيام بما هو مقبول للإله. لكن منْ الإله؟ ما النعمة؟ كيف يتصرف الإنسان بموجبها؟ ما للقبول بالنسبة لله؟ لماذا لا يعطي هذا الإله لجميع البشر نعمة أن يفعلوا ما هو مقبول في نظره؟ " لا تزال المسألة قيد الحكم". ويُطلب من البشر ألا يكفوا عن فعل الخير؛ لأنَّ الله يطلب ذلك، ولم يبلغوهم أبدًا لماذا كان عليهم أن يفعلوا الخير، ولم يتمكن الكهنة من إخبارهم بما كان عليه الله، ولا ما كان يرغب في فعله.

وتخبر الطبيعة الإنسان بأن يكون أنيسًا، ويحب أقرانه، وأن يكون عادلًا، ومسالمًا، ومتسامحًا، وخيرًا، وأن يجعلهم يتمتعون في آرائهم أو يعانون منها، ويحمله الدين على تبديد المجتمع، والانفصال عن أقرانه، وبغضهم، عندما لا يمنحهم خيالهم أحلامًا تتوافق مع أحلامه، وقطع الروابط الأكثر قداسة لإرضاء إلهه، وإلحاق العذاب بأولئك الذين لن يعملوا بطريقته الخاصة، وابتزازهم، واضطهادهم، وذبحهم. وتخبر الطبيعة الإنسان في المجتمع أن يعتز بالمجد، والعمل على تقدير ذاته، وأن يكون نشيطًا، وشجاعًا، ومجدًّا، ويخبره الدين أن يكون متواضعًا، وخاضعًا، وجبانًا، ليعيش في الجهالة، ويشغل نفسه بالصلوات، والتأملات، والشعائر، ويقول له: كن نافعًا لنفسك، ولا تفعل شيئًا للآخرين.[1] وتقترح الطبيعة على المواطن نموذجًا، وأن يتمتع الناس بأنفسًا صادقة، ونبيلة، وحيوية، ويخدموا زملائهم بما ينفعهم، ويثني الدين على النفوس الدنيئة، ويمجّد المتعصبين الأنقياء، والتائبين المحمومين، والمتعصبين الذين عكروا صفو الإمبراطوريات، بسبب آراءهم الأكثر سخافة. وتخبر الطبيعة الزوج أن يكون وفيًا، وأن يتعلق بشريكته، ويحتضنها، ويجرّم الدين حنانه، وغالبًا ما يلزمه بالنظر إلى الروابط الزوجية كحالة من الدنس، والعيوب. وتخبر الطبيعة الأب أن يفتخر بأبنائه، وجعلهم أعضاء مفيدين في المجتمع، ويطلب منه الدين أن يربيهم على الخوف من الله، ويجعلهم متهورين، ومؤمنين بالخرافة، وغير قادرين على خدمة المجتمع، ما عدا إعدادهم جيدًا لإقلاق راحته. وتخبر الطبيعة الأبناء أن يكرموا آبائهم، ويحبونهم، وينصتوا إليهم، ويساندوهم في شيخوختهم، ويطلب منهم الدين أن يفضّلوا الموحى إليهم من إلههم، وأن يطأوا والدهم، وأمهم بأقدامهم، لدعم المصالح الإلهية. وتقول الطبيعة للفيلسوف: اشغلْ نفسك بأمورٍ نافعة، وكرّس اهتماماتك لبلدك، وقدّم له اكتشافات مفيدة، وتوخى الكمال في حالته، ويقول له الدين: اشغل نفسك بالتبجيلات غير المجدية، والنزاعات غير المحدودة، والأبحاث المناسبة لزرع بذور الفتنة، والملاحم، والمحافظة بحزمٍ على آراءٍ لن تفهمها أنت ذاتك. وتطلب الطبيعة من الإنسان المنحرف أن يخجل من رذائله، ونزعاته المخزية، وجرائمه، وتُظهر له أنَّ مخالفاته السرية ستؤثر بالضرورة على سعادتهِ، ويقول الدين للإنسان الفاسد،

---

(١) من السهل جدًا أن ندرك أنَّ العبادة الدينية تؤدي إلى إلحاق ضررٍ حقيقي بالمجتمعات السياسية، بفعل هدر الوقت، والكسل، والتقاعس، الذي تحدثه، وتجعله من واجبها. ويعطل الدين بالفعل العمال الأكثر فائدة خلال فترة كبيرة من العام.

والشرير: "لا تُغضب إلهًا لا تعرفه، ولكن إنْ استسلمت للجريمة، وعارضت قوانينه، فتذكّر أنَّه سيرضى بسهولة، واذهب إلى معبده، وتذلل عند أقدام كهنته، وكفّر عن معاصيك بالذبائح، والهبات، والشعائر، والصلوات، وسوف تريح هذه الشعائر المهمة ضميركَ، وتطهركَ في عيون الخالد".

ولا يقلّ المواطن أو الرجل في المجتمع انحرافًا عن الدين الذي يتناقض دائمًا مع السياسة السليمة. وتقول الطبيعة للإنسان: أنت حر، ولا يمكن لأيّ قوةٍ على الأرض أن تحرمكَ شرعيًا من حقوقك، ويصرخ الدين في وجهه: أنَّه عبد، وحكم عليه إلهه أنْ يئن طوال حياته تحت صولجان الناطقين باسمه. وتطلب الطبيعة من الإنسان أن يحب البلد الذي ولد فيه، ويخدمه بأمانة، وأن يدمج مصالحه معه؛ لمواجهة كلّ من يحاولون إيذائها، ويأمره الدين أنْ يطيع الطغاة؛ الذين يضطهدون بلده دون تذمر، ويناصرهم عليه، ليخصوه بنعمهم، عن طريق استغلال نوازع أقرانه الجامحة. ولكن إنْ لم يكن الملك مخلصًا بما فيه الكفاية لكهنته، فإنَّ الدين يغيّر لغته بسرعة، ويناشد رعاياه بأن يصبحوا متمردين، ويجعل من واجبهم مقاومة سيدهم، ويهيب بهم: "أنَّ إطاعة الله أفضل من طاعة الإنسان". وتخبر الطبيعة الأمراء أنَّهم بشر، وأنَّ نزواتهم ليست هي من يقرر ما هو عادل، وما هو غير عادل، وأنَّ الجمهور سوف يخدع القانون، ويقول لهم الدين في بعض الأحيان: إنَّهم آلهة، ولا يجب أن يعترضهم شيء في هذا العالم، ويحولهم في بعض الأحيان إلى طغاةٍ على من تتلهف لهم السماء، ويُضحى بهم لتهدئة غضبها.

ويُفسد الدين الأمراء، وهؤلاء يفسدون بدورهم القانون الذي يصبح ظالما مثلهم، وتنحرف جميع المؤسسات، ولا يشكل التعليم سوى بشرًا منحطين أعمتهم التحيزات، وفتنتهم أمورٍ عبثية، وثروات، وملذات تمكنوا من الحصول عليها بوسائلهم الغاشمة فحسب. فكانت الطبيعة خاطئة، والعقل لا حدود له، ولم تعد الفضيلة سوى وهم، وسرعان ما ضحوا بأدنى مصالحهم. وبعيدًا عن أنَّ الدين يمثل علاجًا لهذه الشرور التي أحدثها، بيد أنَّه لازال يضاعف من تفاقمها، ولا يسبب سوى الأسى على التطهّر الذي يتلاشى بسرعة، وبالتالي، فإنَّ الإنسان ملزمٌ بالاستسلام على سبيل المثال لفيض العادة، والنزعات، والإسراف، والتي تتضافر معًا لتحثّ كلّ أبناء جنسهِ الذين لن يتخلوا عن رفاهيتهم على ارتكاب الجرائم.

وإليكم الوضع الذي يوحد فيه الدين، والسياسة جهودهم لتضليل قلب الإنسان، والإساءة إليه، وإفساده، ويبدو أنَّ جميع المؤسسات البشرية لا هدف لها سوى جعل الإنسان منحطًا أو شريرًا. فلا تدعونا نشعر إذن بالدهشة على الإطلاق، وإذا كانت الأخلاق في كلّ مكان مجرد تكهنات عقيمة، فسيضطر كلّ واحد للانحراف في مهنته، إذا لم يخاطر بجلب التعاسة إليه. ولا يمكن أن يكون البشر أخلاقيين إلا عند تخليهم عن تحيزاتهم، واستشارتهم لطبيعتهم، حيث تجبرهم الدوافع المستمرة التي تتلقاها عقولهم كلّ لحظة من جانب دوافع أقوى، بسرعة على نسيان تلك القواعد التي تشير بها الطبيعة إليهم. في حين أنَّنا نرى أنَّ من يتأرجحون باستمرار بين الرذيلة والفضيلة، لا يكفّون عن التناقض مع أنفسهم. وإذا شعروا في بعض الأحيان بقيمة السلوك الصادق، فستوضح لهم التجربة حالًا أنَّ هذا السلوك لا يمكن أن يقودهم إلى أيّ أمرٍ صالح، بل من الممكن أن يصبح عقبةً منيعة أمام تلك السعادة التي لا يكفّ قلبهم أبدًا عن البحث عنها. بل ومن الضروري أنْ تصبح فاسدًا في المجتمعات الفاسدة، لكي تصبح سعيدًا.

أما المواطنون الذين ضللهم مرشدون روحيين، وعابرين في الوقت ذاته، لم يعرفوا لا العقل ولا الفضيلة. وقد امتلك عبيد الآلهة والبشر كلّ الرذائل المرتبطة بالعبودية، وظلوا في حال تخيل دائمة، ولم تكن لديهم معرفة، ولا مبادئ، ولم يعرف أولئك الذين بشروهم بالفضيلة شيئًا عنها بأنفسهم، ولم يتمكنوا من تحريرهم مما يتعلق بتلك الدمى؛ التي تعلموا أنْ يألفوا سعادتهم من خلالها. ولا جدوى من أن يهيبوا بهم؛ لكي يكبتوا تلك الأهواء التي تعاون كلّ شيء على إطلاقها، وعبثًا جعلوا رعد الآلهة يدوّي لترهيب البشر؛ الذين أصمت الأهواء الصاخبة آذانهم. وسرعان ما أدركوا أنَّ آلهة السماء كانوا أقل خوفًا من آلهة الأرض، وأنَّ امتيازات هؤلاء تؤمّن رفاهية مؤكدة أكثر بكثير من وعود الآخرين، وأنَّ ثروات هذا العالم كانت أفضل من تلك الكنوز التي احتفظت بها السماء لمحبيها، وأنَّه كان من الأفضل بكثير أن يتكيف البشر بأنفسهم مع آراء القوى المرئية أكثر من تلك التي تتمتع بقوى لم يروها من قبل.

وبعبارة أخرى، لا يمكن أن ينجب المجتمع الذي يفسده زعماؤه، وتوجهه نزواتهم، إلا أطفالًا فاسدين. ولا يلد إلا مواطنين جشعين، وطموحين، وغيورين، وفاسقين، ولم يروا السعادة أبدًا إلا في الجريمة، وشاهدوا النذل يُكافأ، والعاجز يُكرّم، ومن يعشق الثروة يفضّل النهب، ويوقر الفجور، أما ذلك الذي وجد في كلّ مكانٍ موهبةً مثبطة، وفضيلة مهملة،

وحقيقة محرّمة، وسمو النفس المحطمة، وعدالة تطؤها الأقدام، واعتدال قابع في البؤس، فسيضطر لأن يئن تحت وطأة الظلم المتغطرس.

وفي خضم هذا الاضطراب، وهذا الخلط بين الأفكار، يمكن لمبادئ الأخلاق أن تكون مجرد تصريحات غامضة، وغير قادرة على إقناع أيّ شخص. ولكن أيُّ حصن ياترى سيمكّن الدين من معارضة الفساد العام بقواه المحركة الوهمية؟ إذ أنّه عندما تكلمَ عن العقل لم يُسمع، ولم تكن آلهته قوية بما يكفي لمقاومة التيار؛ لم تستطع تهديداته أن تستحوذ على أفئدة يحثّها كلّ شيء على اقتراف الشر. ولم تستطع وعوده البعيدة الموازنة بين المزايا الحالية، وشجعتهم كفّاراته، المستعدة دائمًا لتطهير البشر من آثامهم، على المثابرة إلى الجريمة، وهدّأت شعائرهم التافهة من روع ضمائرهم. وبعبارة أخرى، لم يضاعف تعصبهم، ونزاعاتهم، وأهوائهم، وتثير إلا الشرور التي وجد المجتمع نفسه فيها. ووجِدَ في الأمم الأكثر فسادًا عدد كبير من المناصرين، وعدد قليل جدًا من الشرفاء. واستمع الكبار، والصغار إلى الدين حينما بدى مواتيًا لأهوائهم، ولم يعودوا يستمعوا إليه عندما تصدى لهم. وحينما كان هذا الدين متوافقًا مع الأخلاق، بدا غير ملائمًا لها، ولم يتبعوه إلا عندما حارب الأخلاق، أو دمرها تمامًا. ووجده المستبد عجيبًا عندما أكّد له أنّه إله على الأرض. وأنَّ رعاياه ولدوا ليعبدوه وحده، ويتحالفوا مع أشباحه. وأهمل الدين عندما أخبروه أن يكون عادلًا، من هنا رأى أنّه يتعارض مع ذاته، وأنّه لا جدوى من التبشير بالإنصاف إلى فانٍ مؤله. وتأكّد له بالإضافة إلى ذلك أنَّ إلهه سوف يغفر كلّ شيء، بمجرد قبوله بالرجوع إلى كهنته، واستعداده الدائم لإرضائه. وبالطريقة ذاتها، يُفسر الرعايا الأكثر شراً ، بناءً على دعمهم الإلهي، ولذلك أكّد لهم الدين الإفلات من العقاب، من دون أن يكبح جماحهم، ولم تستطع تهديداته أن تقضي على الآثار التي أحدثها تملّقه الجائر بالأمراء، ولم تستطع هذه التهديدات ذاتها أن تمحو الآمال التي منحتها كفاراته للجميع. أما الملوك، المزهوون بالفخر، أو المتيقنين دائمًا من التكفير عن جرائمهم، لم يعودوا يخافون الآلهة، وأصبحوا هم أنفسهم آلهة، واعتقدوا أنّه سُمح لهم بفعلِ أيّ شيءٍ بالناس الفقراء، والمثيرين للشفقة، والذين لم يعودوا يحسبوا لهم أيّ حساب آخر سوى أنّهم دمى، قُدِّر لهم أن يرفهوا عنهم على هذه الأرض.

ولو استشيرت طبيعة الإنسان في السياسة، التي أفسدتها الأفكار الخارقة للطبيعة بخزي، فمن شأنها أن تصحح تمامًا المفاهيم الخاطئة؛ التي استمع لها الملوك، والرعايا على قدم المساواة، وستسهم أكثر من جميع الأديان في العالم في إسعاد المجتمع، وجعله قويًا، ومزدهرًا في ظل سلطة عقلانية. وسوف تعلمهم الطبيعة أنّه بغرض الاستمتاع بقدرٍ أكبر من السعادة،

ينبغي أن يعيش البشر معًا في المجتمع، وأن يحافظوا على أنفسهم، وسعادتهم، وأن يكون لكلّ مجتمع غاية ثابته، وغير متغيرة، وأنَّ الأمة الخالية من الإنصاف، لا تشبه إلا مجموعة من الأعداء، وأن أعتى عدوٍ للإنسان هو من يخدعه، لكي يستعبده. وأنَّ البلاء الذي يخشاه أكثر من غيره هم أولئك الكهنة الذين يفسدون رؤساءه، ويؤكدون لهم الإفلات من العقاب على جرائمهم، باسم الآلهة. وستثبت لهم أنَّ الارتباط نقمة في ظلِ الحكومات الظالمة، والمهملة، والماحقة.

وستعلمهم هذه الطبيعة التي استجوبها الأمراء، أنَّهم بشر، وليسوا آلهة. وأنَّ قوتهم مستمدة فقط من موافقة البشر الآخرين، وأنَّهم مواطنون كلفهم مواطنين آخرين بالعناية بأمن الكل، وأنَّ القانون يجب أن يكون تعبيرًا فقط عن الإرادة العامة، وأنَّه لا يُسمح لهم أبدًا بمقاومة الطبيعة، أو إعاقة الغاية الثابتة للمجتمع. ومن شأن هذه الطبيعة أن تجعل هؤلاء الملوك يشعرون بأنَّهم يجب أن يسيطروا على عقولٍ سامية، وفاضلة، وليس عقولًا انحطت بالقدر ذاته بسبب الاستبداد والخرافات؛ لكي يصبحوا عظماء، وأقوياء حقًا. ومن شأن هذه الطبيعة أنْ تعلّم الملوك أنَّ من واجبهم توفير العون لرعاياهم، وتمتيعهم بتلك المنافع التي تفترضها رغباتهم الطبيعية؛ لكي يتباهوا بهم، ويجب الحفاظ على حرمتهم في حيازة حقوقهم؛ التي يدافعون عنها، وأنَّهم الأوصياء عليها. وستثبت هذه الطبيعة لكلّ هؤلاء الأمراء الذين يجب أن يتنازلوا لاستشارتها، أنَّهم لا يمكن أن يستحقوا حب الناس، وتعلقهم بهم إلا من خلال الأعمال الصالحة، والعطف عليهم، وأنَّ الظلم لا يثير إلا الأعداء ضدهم. وأنَّ العنف يمنحهم فقط سلطةً متزعزعة، ولا يمكن أن تمنحهم هذه القوة أيّ حقٍ مشروع، ويجب أن تنتهي تلك الكائنات؛ التي تفضل السعادة بالأساس، عاجلاً أم آجلاً إلى التمرد على سلطة لا تشعر تجاهها سوى بالعنف. هذه إذن هي الطريقة؛ التي تكون بها الطبيعة ذات سيادة على جميع الكائنات. وسيتحدث جميع من هم متساوون عن واحد من هؤلاء الملوك الرائعين؛ الذين يؤلههم التملق: "يا له من طفلٍ عنيد، ومشاكس! قزمٌ، وفخور للغاية بقيادة الأقزام!" فهل أكدوا لك إذن أنَّك كنت إلهً؟ وهل أخبروك أنَّك تريد شيئًا خارقًا للطبيعة؟ أعلم أنَّ لا شيء أسمى مني، ولكن تأمل في عدم أهميتكَ، واعترفْ بعجزكَ مقابل أخفّ ضرباتي. إذ يمكنني كسر صولجانك، وانتزاع حياتك، ويمكنني أن أحيل عرشك رمادًا، وأن أفني شعبك، وأستطيع حتى تدمير الأرض التي تسكنها، ها أنت تؤمن بالله! كرر نفسكَ إذن، واعترف بصراحة أنَّك إنسان، وفُرض عليك الخضوع لقوانيني، كأوضع شخصٍ من رعاياك. تعلمْ

إذن، ولا تنسى أنَّك رجلًا في شعبكَ، وسيدًا في أمتك، ومفسرًا، ومنفذًا لإرادته، ولن يوافق المواطنون؛ الذين أعطيت لنفسكَ الحق في السيطرة عليهم، على طاعتكَ إلا في ضوء الرفاهية التي تتعهد بتوفيرها لهم. وبحكم هذه الشروط إذن، أوفي بالتزاماتكَ المقدسة. كنْ محسنًا، ومنصفًا قبل كلّ شيء. وإذا كنت على استعداد لتأكيد قوتكَ لك، فلا تسيء استخدامها، ولتكن مقيّدة بالحدود الثابتة للعدالة الأبدية. وكنْ أبا لشعبك، وسوف يعتزون بكَ كأبنائك. ولكن إنْ أهملتهم، وإذا كنت تفصل بين اهتماماتك ومصالح عائلتك الكبيرة، وإذا أنكرت على رعاياك السعادة التي تدين لهم بها، وإذا كنت تتسلح ضدهم، فستكون مثل كلّ الطغاة، عبدًا للرعاية الكئيبة، والقلق، والشك العنيف. ستصبح ضحيةً لحماقتكَ، ولن يعترف شعبكَ البائس بعد الآن بـ"حقوقك الإلهية". عبثًا توسلك إذن من أجل مساعدة هذا الدين الذي يؤلهك، ولا يمكنه أن يجدي شيئًا مع أولئك الذين أصمهم البؤس، وسوف تتركَكَ السماء لغضب أولئك الأعداء الذين خلقتهم بطريقة تفكيركَ. ولا يمكن أن تؤثر الآلهة في أيّ شيء أمام أقداري المبرمة؛ التي ستثير سخط ذلك الإنسان مما تسببه له من أحزان.

وبعبارة أخرى، كلّ شيء سيُعلِم الأمراء العقلانيين أنَّهم لا يمتلكون سببًا لطاعة السماء بأمانة على الأرض، وأنَّ جميع قوى السماء لن تدعمهم عندما يتصرفون كطغاة، وأنَّ أصدقائهم الحقيقيين هم أولئك الذين لا يستجيبون لأوهام الشعب، وأنَّ أعداءهم الحقيقيين هم أولئك الذين يسممونهم بتملقهم، ويقسون عليهم بجريمتهم، ويسهلون عليهم الطريق إلى الجنة، ويغذونهم بالكائنات الخرافية، ويأخذون في حسبانهم أن يبعدونهم عن تلك الاهتمامات، والمشاعر التي يدينون بها لأممهم.(١)

ولذلك أكرر: أنَّه بمجرد إعادة توجيه البشر إلى الطبيعة، يمكننا أن نوفر لهم مفاهيم واضحة، ومعرفةً يقينية، ومن خلال إظهار علاقاتهم الحقيقية مع بعضهم البعض يمكننا فقط وضعهم على طريق السعادة. ولكن من النادر أن يتقدم العقل البشري الذي أعماه اللاهوت خطوة واحدة. وقد جعلته نظم الإنسان الدينية يشكك في الحقائق الأكثر إثباتًا. وأثّرت الخرافة في كلّ شيء، وأفادت في إفساد الجميع. ولم تعدْ الفلسفة التي استرشدت بها، شيئًا أكثر من مجرد علم وهمي، تركت العالم الحقيقي؛ لتغوص في عالم الميتافيزيقا المثالي، وأهملت الطبيعة؛ لتنشغل بالآلهة، والأرواح، والقوى المحجوبة، الأمر الذي أدى فقط إلى جعل جميع

(١) النوع الذي تسألون عنه، قليلًا ما يتلطخ بالجراح. سليل للملوك ومهلك الطغاة. (Juvenal, sat. xv.110.)

الأسئلة أكثر غموضًا، وتعقيدًا. وأمام كلّ الصعوبات أدخلوا الإله، ومن هنا أصبحت الأمور محيرة أكثر فأكثر، حتى تعذر تفسيرها. ويبدو أنَّ المفاهيم اللاهوتية اختُرعت فقط للنفور من مبررات الإنسان، وإرباك حكمه، وخداع عقله، وقلب أوضح أفكاره في كلّ علم. ولم يكن المنطق، أو فن التفكير في أيدي اللاهوتيين أكثر من رطانةٍ مبهمة، أخذتْ بالحسبان لدعم المغالطة، والباطل، وإثبات التناقضات الأكثر وضوحًا. وأصبحت الأخلاق كما رأينا، ملتبسة، ومتذبذبة؛ لأنَّها تأسست على كائنٍ مثالي، لا يتفق أبدًا مع ذاته، وكان خيره، وعدله، وصفاته الأخلاقية، ومبادئه النافعة، تتناقض باستمرار مع سلوكه الجائر، وأوامره الأكثر همجية. وذكرنا بأنَّ السياسة أفسدتها الأفكار الزائفة التي أعطت لأصحاب السيادة من حقوقهم. وخضع الفقه، والقوانين لنزوة الدين الذي كان يقيّد العمل، والتجارة، والصناعة، ونشاط الأمم. وضحوا بكلّ شيءٍ لمصالح اللاهوتيين، وبكلّ علمٍ، وقاموا فقط بتدريس الميتافيزيقيا الغامضة والعدوانية، التي تسببت مئات المرات في هدر دماء هؤلاء الناس؛ الذين لم يتمكنوا من فهمها.

إنَّ من ولد عدوًا للخبرة، وعلم اللاهوت، والعلم الخارق للطبيعة، كان عقبةً منيعة أمام تقدم العلوم الطبيعية؛ التي ألقت نفسها دائمًا في طريقهم. ولم يكن مسموحًا للفلسفة الطبيعية، والتاريخ الطبيعي، وعلم التشريح، أن يروا أيّ شيء إلا من خلال النظرة العنصرية الحاقدة على الخرافة. ورفضتْ الحقائق الأوضح بازدراء، وحرّمت برعبٍ، كلما تعذر عليهم تماشيها مع فرضيات الدين.(1) وبعبارة أخرى، لم يكفْ علم اللاهوت عن معارضة ذاته في سبيل سعادة الأمم، وتقدم العقل البشري، والأبحاث المفيدة، وحرية الفكر، وأبقى الإنسان في جهل، ولم تكن جميع خطواته التي استرشد بها سوى ضلالات. ولكن هل أجاب عن سؤالٍ في الفلسفة الطبيعية، ليدلي بنتيجة تذهلنا، وأنَّ ظاهرةً غير عادية، وبركانًا، وطوفانًا، ومذنبًا، وما إلى ذلك هي علامات على الغضب الإلهي، أو أعمالًا مخالفة لقوانين الطبيعة؟ وكما فعل في إقناعه للأمم أنَّ الويلات التي يعانون منها، سواء كانت جسدية أو معنوية،

(١) أدانت الكنيسة فيرجيل Virgil، وهو أسقف سالتزبورغ؛ لأنَّه تجرأ على الإحتفاظ بوجود الأضداد. ويعرف العالم كلّه الاضطهادات التي عانى منها غاليليو بسبب إدعائه أنَّ الشمس لا تدور حول الأرض. وحُكم على ديكارت بالموت في بلدٍ غريب. وكان للكهنة الحق في أن يكونوا أعداءًا للعلوم، وسوف يقضي تقدم العقل عاجلاً أم آجلاً على الأفكار الخرافية. ولا يمكن أن يضيع أيّ شيء مبني على الطبيعة والحقيقة، ولابد أن تُقلب أعمال الخيال والشعوذة أولاً أو أخيرًا.

ناجمة عن مشيئة الله أو العقوبات التي تلحقها بهم سلطته، ولكن ألا يمنعهم من البحث عمّا يتداركوا به هذه الشرور؟[1] أليس من المفيد دراسة طبيعة الأشياء، والبحث في الطبيعة بحدّ ذاتها، وفي الصناعة البشرية، لتعيننا على تلك المآسي التي يعاني منها البشر، ومن عزو الشر الذي يقترفه الإنسان إلى قوةٍ مجهولة، مقابل منْ لا يمكنهم أن يجلبوا أيّ راحة؟ وبينما تهذّب دراسة الطبيعة العقل، وبحثه عن الحقيقة، وتوسّع نطاق العبقرية، وتأخذ بالحسبان أن تجعل الإنسان فعالًا، وشجاعًا، يبدو أنَّ المفاهيم اللاهوتية قد صُنعت من أجل الحطّ من شأنه، وتقليص عقله، وإغراقه في اليأس.[2] وبدلاً من أن نعزو إلى الانتقام الإلهي تلك الحروب، والمجاعات، والقحط، والعدوى، والمصائب العديدة التي تقضي على الناس، أليس من الأجدر، والأكثر اتساقًا مع الحقيقة، أنْ نظهر أنَّ هذه الشرور يجب أن تُنسب إلى حماقاتهم، أو بالأحرى إلى أهوائهم، وافتقارهم للطاقة، واستبداد أمرائهم الذين يذبحون الأمم بهذيانهم المخيف؟ وبدلاً من أن يسلي هؤلاء اللاعقلانيون أنفسهم بالكفارات عن جرائمهم المزعومة، والسعي لجعل أنفسهم متقبلين للقوى الخيالية، ألا ينبغي لهم أن يبحثوا في تدبيرٍ أكثر عقلانية

---

(١) في عام ١٧٢٥، كانت مدينة باريس تعاني من ندرة، واعتُقد أنَّها ستسبب تمرد الشعب. فهدموا ضريح القديسة جينيفيفSt. Genevieve، الشفيعة أو إله الوصاية عند الباريسيين، وحُملَ في موكبٍ لإيقاف هذه الكارثة؛ التي تسببت فيها الاحتكارات التي كانت محطّ اهتمام عشيقة رئيس الوزراء آنذاك.
وفي عام ١٧٩٥، كانت إنجلترا تعاني من ندرةٍ ناجمة عن حربٍ متهورة ضد الشعب الفرنسي؛ لأنَّها أطاحت بطغيان نظامهم الملكي، وأتلفت فيها كميات هائلة من الحبوب، وغيرها من المؤن، لمنعهم من وقوعها في أيدي الجمهوريين الفرنسيين، وأيضًا عن طريق تقطيع أوصال بولندا (مخزن الحبوب في أوروبا) من قبل ملك بروسيا، وإمبراطور روسيا، اللذين دمرت قواتهما كلّ شيء اقتربوا منه؛ لأنَّ قائد جيشٍ يُدعى كوسيوسكو الذي كان مثالًا للشجاعة، ومجموعة مختارة من البولنديين الشجعان، سعى وإن كان عبثًا، إلى منع الظلم الشديد بمقابلة القوة بالقوة. ودفعت هذه الندرة المقلقة إلى عقد اجتماع في فندق لندن في لندن، للنظر في وسائل التخفيف من محنةِ الشعب الإنجليزي، والذي ثبت أنَّه عقيمًا كحالِ معارضة البولنديين لهؤلاء اللصوص المتوجين. وألقى في هذا الاجتماع الدكتور فنسنت، وهو كاهن مسيحي، وأستاذًا في مدرسة وستمنستر آنذاك، خطابًا جسيمًا ومهيبًا، عزا فيه الكارثة برمتها إلى قصاصٍ من الله على خطايا الناس.
كما يستخدم الأشرار والمنبوذين اسم هذا الإله دائمًا؛ ليغطوا على آثامهم، ويتستروا من استياء الناس، والكهنة، وغيرهم من الآفات في المجتمع، الذين يهتمون على الفور بخداعهم واضطهادهم، ويحافظون دائمًا على عقيدة هؤلاء المخادعين الماكرين، ويعاني جهل المواطنين من هذه الخرافات للانتقال إلى حقائق لا تقبل الجدل: ومن ثم فإنَّ سياسة الملوك، وسياسة الكهنة، عند توحيد قواهم، تبقي الناس دائمًا في حالٍ من العبودية المهينة، ولا يعانون أبدًا من حجاب الوهم المراد إزالته من أمام أعينهم، وإصدار أقسى العقوبات باسم الله على أولئك الذين يحاولون إنارة الكهوف السرية للاستغلال، والاستبداد.
(٢) لأنَّ قوة العقل لا تأتي من مصدرٍ آخر غير الطرق الخيرة، إلا من تأمل الطبيعة. (Senec. quaesi. Natur. (lib, vi. chap. xxxii

عن الوسائل الحقيقية؛ لتجنب تلك الآفات التي كانوا ضحايا لها؟ ولكن الشرور الطبيعية تتطلب تدابير طبيعية، لذا يجب ألا نعاني لفترة طويلة بإقناع البشر بعدم فعالية التدابير الخارقة للطبيعة، والكفارات، والصلاة، والأضاحي، والصوم، والمواكب، وغيرها مما تصدت به جميع شعوب الأرض عبثًا للويلات التي عانت منها؟

دعونا نستنتج إذن أنَّ اللاهوت، ومفاهيمه، بعيدًا عن كونها نافعة للجنس البشري، هي المصدر الحقيقي لكلّ تلك المآسي التي تصيب الأرض، وكلّ تلك الضلالات التي تحجب تفكير الناس، والتحيزات التي خدعتهم، وهذا الجهل الذي يجعلهم ساذجين، وتلك الرذائل التي تعذبهم، والحكومات التي تضطهدهم. ودعونا نستنتج بالتالي أنَّ تلك الأفكار الإلهية، والخارقة للطبيعة، والتي أُلهمنا بها منذ طفولتنا، هي الأسباب الحقيقية لحماقتنا المعتادة، ونزاعاتنا الدينية، وخلافاتنا المقدسة، واضطهادنا اللاإنساني. دعونا نعترف مطولاً بأنَّها الأفكار المميتة التي طغت على الأخلاق، وأفسدت السياسة، وأوقفت تقدم العلوم، بل وقضت على السعادة، والسلام في قلبِ الإنسان. ولا ينبغي أن ننسى أنَّ كلّ تلك الويلات؛ التي من أجلها صوبَ الإنسان عينيه الغارقتان بالدموع إلى السماء، يجب أن تُنسب إلى تلك الأشباح الباطلة التي وضعتها مخيلته هناك، ودعوه يكفّ عن استجوابهم. ويبحث في الطبيعة، وطاقتها، عن تلك المصادر التي لن توفرها له الآلهة الصماء عن نداءاته. ويستشير شهوات قلبه، ليجد ما هو مدينٌ به لنفسه، وما يدينُ به للآخرين، ودعوه يفحص ماهية المجتمع وهدفه، ولن يكون عبداً بعد الآن، وليستشير خبرته، وسيجد الحقيقة، وسوف يعترف بأنَّ الضلال لا يمكن أن يجعله سعيدًا أبدًا.(١)

(١) وعن السبب قال مؤلف كتاب الحكمة: "ثقافة الأصنام الغريبة هي السبب في بداية نهاية كلّ شر".(SEE CHAP. xxiv. VER. 27.) ولم يرَ أنَّ إلهه كان صنمًا أكثر أذيةٍ من الآخرين. ويبدو في جميع الأحوال، أنَّ مخاطر الخرافة قد شعر بها كلّ أولئك الذين اهتموا بصدقٍ بمصلحة الجنس البشري. وهذا هو السبب بلا شك في أنَّ الفلسفة التي هي ثمرة التفكير، كانت دائمًا تقريبًا في حال حرب مفتوحة مع الدين، والذي هو بحد ذاته ثمرة الجهل، والخداع، والتعصب، والخيال كما أوضحنا.

الفصل الثامن

لا يمكن للبشر أن يستخلصوا نتيجة من الأفكار التي قُدمت لهم عن الإله، والحاجة إلى التدخل العادل في سلوكهم، وعدم فائدة تفسيره

لا يمكن للبشر أن يستخلصوا نتيجة من الأفكار التي قُدمت لهم عن الإله، والحاجة إلى التدخل العادل في سلوكهم، وعدم فائدة تفسيره

إنَّ الأفكار الزائفة التي شكلها البشر لأنفسهم عن الإله في جميع العصور، بغض النظر عن كونها نافعة كما أثبتنا، إذا كانت تلحق الضرر بأخلاق المجتمع، وسياسته، وسعادته، فهي تلحق الضرر بالأفراد الذين يتألف منهم هذا المجتمع، وبعبارة أخرى، لكي يتقدم الفهم البشري؛ يجب أن يشعرنا العقل، ومصلحتنا بضرورة أن ننزع من أذهاننا هذه الآراء العبثية، والتافهة، والتي لن تفيد سوى في تشويشها، وتعكير صفو قلوبنا. ومن غير المجدي أن نتباهى بكوننا وصلنا إلى تصحيح المفاهيم اللاهوتية، ومبادئها الزائفة التي يتعذر إصلاحها. ومهما كان الشكل الذي يظهر فيه الخطأ، حالما يوليه البشر أهمية بالغة، سينتهي عاجلاً أم آجلاً، بإحداث عواقب واسعة النطاق. بالإضافة إلى عقم البحوث؛ التي أجريت في جميع العصور بموجب اللاهوت الذي لم يكن لمفاهيمه أي تأثير آخر سوى حجبها أكثر فأكثر، حتى عن أولئك الذين تأملوا فيها. وبمعنى آخر، ألا يجب أن يقنعنا هذا العقم أنَّ هذه المفاهيم ليست في متناول قدرتنا، وأنَّ هذا الكائن الخيالي لن نعرف عنه، لا نحن ولا أحفادنا، أفضل مما عرفه أسلافنا، سواء الأكثر وحشية أو جهلًا؟ ومع ذلك فإنَّ أكثر ما يأخذه البشر بالاعتبار، وأكثر ما يفكروا فيه، ويكتبوا عنه في جميع العصور، يبقى الأقل شهرة، وربما أصبح تصوره مع الوقت أكثر استحالة. وإذا كان الإله على النحو الذي يصوره فيه اللاهوت الحديث، فلابدّ أن يكون هو ذاته إلهًا قادرًا على تكوين فكرةٍ عنه.[1] علمًا أنَّنا لا نعرف سوى القليل عن الإنسان، وبالكاد نعرف أنفسنا، وملكاتنا الخاصة، ونميل إلى

---

(١) ألف شاعر حديث قصيدة شعرية نالت موافقة الأكاديمية الفرنسية، عن صفات الله، ولاقت قبولًا، ولاسيما السطر التالي: "يجب أن يترك المرء على سجيته، ليقول ما هو عليه".

التفكير في كائنٍ لا يمكن أن نصل إليه بجميع حواسنا! دعونا إذن، نسافر بسلامٍ عبر المسار الذي وصفته لنا الطبيعة، دون الانحراف عنه، والجري وراء الكائنات الخرافية، ودعونا ننشغل بسعادتنا الحقيقية، ونستفيد من النعم المنتشرة أمامنا، دعونا نضاعفها بتقليل عدد آثامنا، ونخفف من تلك الشرور التي لا يمكننا تجنبها، ولا نزيدها بملء أذهاننا بأفكارٍ مسبقة تضللها. وعندما نفكّر في ذلك، سيثبت كلّ شيء بوضوحٍ أنَّ علم الله المزعوم في الحقيقة، ليس سوى جهلٍ باذخ، ومقنّع بكلماتٍ مغرورة، ومبهمة. وبعبارة أخرى، دعونا ننهي أبحاثنا العقيمة، ونعترف على الأقل بجهلنا العميق، وسيكون ذلك أكثر فائدةً لنا من العلم المغرور الذي لم يفعل شيئًا حتى الآن سوى زرع الفتنة في الأرض، والمحنة في قلوبنا.

وعند افتراض وجود ذكاء سيادي يحكم العالم، ووجود إله يطلب من مخلوقاته أن تعرفه، وتقتنع بوجوده، وحكمته، وقوته، وترغب في تبجيله، فيجب السماح بذلك، فما من إنسانٍ على الأرض يفي بالكامل بهذا الاحترام لآراء العناية الإلهية. وما من شيءٍ يمكن إثباته في الواقع أكثر من الاستحالة؛ التي يجد اللاهوتيون أنفسهم فيها عندما يشكلون في أذهانهم أيّ فكرة مهما كانت عن إلههم.(١) ويتضح أنَّ ضعف البراهين التي يقدمونها على وجوده، وغموضها، والتناقضات التي يقعون فيها، ومغالطاتهم، واستجداء السؤال الذي يطرحونه، تثبت أنَّهم كثيرًا ما ينتابهم توتر شديد بشأن طبيعة الكائن الذي شغلوا أنفسهم به. ولكن بالنظر إلى أنَّهم يمتلكون معرفةً به، وأنَّ وجوده، وماهيته، وصفاته بُرهنت بالكامل لهم بما لا يدع أيّ مجالٍ للشك في أذهانهم، فهل يتمتع باقي البشر بالميزة ذاتها؟ وبعبارة أوضح، كم عدد الأشخاص الموجودون في العالم، ولديهم الفراغ، والقدرة، والتوغل اللازم لفهم ما يُقصد تحديده باسم كائنٍ غير مادي، وروح محض، ويحرك المادة دون أن يكون بحد ذاته مادة، وهو القوة المحركة للطبيعة دون أن يكون متضمنًا فيها، ودون أن يكون قادرًا على لمسها؟ ألا يوجد في المجتمعات الأشد تدينًا، العديد من الأشخاص التابعين لمرشديهم الروحيين بشأن تلك البراهين الدقيقة؛ التي يقدمونها لهم عن وجود الإله الذي يعبدونه؟ ولا شك أنَّ ثلةً من الناس يستطيعون التأمل مطولًا وبعمق، وتمثل ممارسة التفكير بالنسبة للقسم الأكبر منهم، عملًا مضنيًا بقدر ما هو غير معتاد. كما أنَّ الناس الذين يضطرون إلى العمل الشاق من أجل

(١) يقول بروكوبيوس، وهو أول أسقف من القوط، بطريقة جليلة: "أقدر أنَّه من الجرأة الغبية أن تميل إلى التوغل في معرفة طبيعة الله". "ويقرّ أبعد من ذلك، بأنَّه ما من شيء يُقال عنه، سوى أنَّه كامل. وينبغي لمن يعرف أكثر، سواء أكان كنسيًا أو علمانيًا، أن يقول ذلك وحسب".

العيش، غير قادرين عادة على التفكير. أما النبلاء من الرجال في العالم، والنساء، والشباب، المنشغلون بشؤونهم الخاصة، والمهتمين بإرضاء أهوائهم، وإشباع رغباتهم، فنادرًا ما يفكرون كحال الجهلة. وربما لم يطرح رجلان من مئة ألف رجل بجدية على أنفسهم السؤال التالي: ما الذي يفهمونه من لفظة "الله"؟ في حين أنَّه من النادر جدًا العثور على كلّ من تواجههم مشكلة بشأن وجوده: ومع ذلك، تفترض القناعة كما قلنا أنَّ توفر الأدلة وحدها اليقين للعقل. ثم، أين الرجال المقتنعون بوجود إلههم؟ ومنْ أولئك الذين سيجدون أنَّ اليقين الكامل لهذه الحقيقة المزعومة مهمًا جدًا للجميع؟ ومنْ هم الأشخاص الذين قدّموا لأنفسهم وصفًا دقيقًا للأفكار التي شكّلوها عن الإله، وصفاته، وماهيته؟ واحسرتاه! أرى في العالم كلّه فقط بعض المتأملين الذين اعتقدوا بحماقة؛ بسبب انشغالهم به، أنَّهم اكتشفوا شيئًا ما في الضلالات المشوشة، وغير المترابطة لمخيلتهم، وسعوا إلى تكوين الكل، والوهمي كما هو، واعتادوا على اعتباره موجودًا بالفعل، وأقنعوا أنفسهم أحيانًا من خلال التأمل فيه أنَّهم رأوه بوضوح، ونجحوا في جعل الآخرين يؤمنوا به، وهم لم يفكروا مثلهم في الأمر.

ومن الشائع أنَّ عددًا كبيرًا من الناس يعبدون إله آبائهم، وكهنتهم فقط؛ فتحل السلطة، والثقة، والخضوع، والعادة، محل الاقتناع والبراهين. ويسجدون، ويصلون؛ لأنَّ آبائهم علموهم أن يسجدوا، ويتعبدوا. ولكن لماذا يركعون على ركبهم؟. ذلك لأنَّ المشرعين ومرشديهم فرضوها عليهم كواجب منذ زمنٍ بعيد. وقد قيلَ لهم: "اعبدو تلك الآلهة التي لا تستطيعون الإحاطة بها، وآمنوا بها، واستسلموا في هذا الصدد لحكمتنا العميقة، فنحن نعرف أكثر منكم عن الإله." ولكن لماذا ينبغي أن ألقي بهذا الأمر على سلطتكم؟ لأنَّ الله يشاء ذلك، ولأنَّه سيعاقبكَ إذا تجرأتَ على عصيانه. ولكن أليس هذا الإله هو الكائن المعني؟ ومع ذلك، يرضي البشر أنفسهم دائمًا بهذه الدائرة من الضلالات، ووجدوا نتيجة خمولهم أنَّه من الأسهل أنْ يخضعوا لحكم الآخرين. إذ تُبنى جميع المفاهيم الدينية بانتظام على السلطة، وتحرّم كلّ أديان العالم من التعرض لها، ولا تعترض على تفكير الناس فيها، لكونها السلطة التي شاءت أن يؤمنوا بالله. ولا يُبنى هذا الإله نفسه إلا على سلطة بعض الناس؛ الذين يدّعون أنَّ لديهم معرفة به، وأرسِلوا ليبلغوا الأرض به. ولا شكّ أنَّ الإله الذي صنعه البشر، قد منحهم فرصة ليعرفونه.(١)

---

(١) الرجال دائمًا ساذجون مثل الأطفال في الأمور التي تتعلق بالدين؛ نظرًا لأنَّهم لا يفهمون شيئًا عنها، ومع ذلك يطلب منهم تصديق ذلك، ويتخيلون أنَّهم لا يخاطرون بالانضمام إلى تعاليم كهنتهم، الذين يفترضون أنَّهم

ألا يعني ذلك للكهنة، والموحى إليهم، والميتافيزيقيين، أنَّ الاقتناع بوجود الله لابدّ أن يكون محفوظًا، وهو ما لا يلزم قوله أبدًا للجنس البشري بأسره؟ بل هل سنجد أيّ انسجام بين المفاهيم اللاهوتية لمختلف الناس الموحى إليهم، أو أولئك المفكرين المنتشرين في الأرض؟ وهل يتفق أولئك الذين يجاهدون بعبادة الإله ذاته فيما يتعلق به؟ وهل هم راضون عن البراهين التي يقدمها نظراؤهم على وجوده؟ هل يؤيدون بالإجماع الأفكار التي يقدمونها عن طبيعته، وسلوكه، وطريقة فهم المرسلين على اختلافهم؟ هل يوجد بلدٌ واحد على وجه الأرض يكتمل فيه علم الله حقًا؟ هل حصل هذا العلم على أيّ درجة من الاتساق، والتوحيد الذي نراه مرتبطًا بالمعرفة الإنسانية، وفي الفنون الأكثر عقمًا، أو في تلك المهن الأكثر احتقارًا؟ لكن للأسف لم تقدم كلمات مثل: "الروح، واللامادية، والخلق، والأقدار، والنعمة"، سوى هذا العدد الكبير من الفروق الدقيقة التي يملأ بها اللاهوت جميع الأنحاء في بعض البلدان، وهذه الابتكارات التي تصورها ببراعة هؤلاء المفكرون الذين خلفوا بعضهم البعض في العديد من العصور! ومن الأمور المحيرة حتى اليوم هي عجز العلم الأكثر ضرورة للإنسان عن الوصول على أقل إلى درجةٍ من الثبات. وقد كان هؤلاء الحالمون العاطلون على مدى آلاف السنين الماضية، يخففون عن وعضِهم البعض بالتأمل في الإله، والتكهن بطرقه الخفية، وابتكار فرضيات مناسبة لتطوير هذا اللغز المهم. ولم يثبط نجاحهم الضئيل غرورهم اللاهوتي على الإطلاق. وتكلموا دائمًا عن الله، وتنازعوا، ونحروا بعضهم البعض. ومع ذلك يبقى هذا الكائن السامي أكثر ما يجهلونه، وأكثر ما يبحثون فيه.(١)

تمكنوا من اكتشاف ما لا يفهمونه هم أنفسهم. ويسأل الناس الأكثر عقلانية أنفسهم: "ماذا ينبغي أن أفعل؟" وما المصلحة التي يمكن أن ينخدع بها الكثير من الناس؟ أقول لهم: هم يخدعونكم؛ لأنهم أنفسهم مخدوعون، أو لأنَّ لديهم مصلحة كبيرة في خداعكم.

ويعترف اللاهوتيين أنفسهم بأنَّ الناس بلا دين، وليس لديهم سوى الخرافة. وتمثّل الخرافة برأيهم عبادة الإله، وهي عبادة مفهومة على نحوٍ رديء، وغير عقلانية، أو يتوجهون بها إلى إلهٍ زائف. ولكن أين الناس، أو رجال الدين الذين سيسمحون بأن يكون إلههم زائف، وعبادتهم غير عقلانية؟ كيف سنقرر منْ المحق، ومنْ المخطئ؟ من الواضح أنَّ كل الناس مخطئون في هذه المسألة بالقدر ذاته. وبالفعل يخبرنا بودديوس **Buddæus** في رسالته عن الإلحاد: "لكي يكون الدين صادقًا، يجب ألا يكون موضوع العبادة فقط صادقًا، بل يجب أن تكون لدينا أيضًا فكرة عنه. ومن هنا فإنَّ من يعبد الله من دون معرفته، يعبده بطريقة منحرفة وفاسدة، وهو مذنب بالخرافة". وتسليمًا بهذا، ألا يمكن أن نسأل جميع اللاهوتيين في العالم، عمّا إذا كان بإمكانهم التباهي بامتلاكهم فكرة عن الإله، أو معرفة حقيقية به؟

(١) لو بحثنا بالأمور بتروٍ، لاعترفنا بأنَّ الدين لم يتشكل بأيّ حال من الأحوال للقسم الأكبر من البشر، والعاجزين تمامًا عن فهم أيّ من تلك التفاصيل الأثيرية التي يقوم عليها. ومن هو الإنسان الذي يفهم كلّ شيء عن

وسيبلغ الناس منتهى السعادة، إذا اقتصروا بأنفسهم على الأمور المرئية التي تهمهم، ووظفوا في إتقان علومهم الحقيقية، وقوانينهم، وأخلاقهم، وتعليمهم، نصف ما بذلوه من جهود في أبحاثهم عن الإله. لقد كانوا أيضًا أكثر حكمة، ونعمة، وإذا وافقوا على ترك مرشديهم الخاملين والعاطلين يتشاجرون فيما بينهم، فسيفهمون تلك الأمور العميقة؛ التي تؤخذ بالحسبان لإذهالهم، وإبهارهم دون التدخل في نزاعاتهم غير المنطقية. ومع ذلك فإنَّ ماهية الجهل تعطي أهمية لكلّ ما ما هو غير مفهوم. ومن شأن الغرور البشري أن يجعل العقل يتحمل الصعوبات، وكلما استعصى موضوعٌ ما على بحثنا، زادت الجهود التي نبذلها لبلوغه، ومن هنا ينطلق غرورنا، ويُثار فضولنا، ويبدو مثيرًا للاهتمام بالنسبة لنا. ومن ناحية أخرى، كلما كانت أبحاثنا أطول، وأكثر مشقة، زادت الأهمية التي نوليها لاكتشافاتنا الحقيقية، أو المزعومة، وإلى جانب ذلك، كلما زادت رغبتنا في ألا نضيّع وقتنا، نكون دائمًا على استعداد للدفاع بحرارة عن صحة حكمنا. فلا تندهشوا إذن من الاهتمام الذي أبداه كثيرٌ من الناس باكتشافات كهنتهم في الأزمنة كافة، ولا في التعنّت الذي يبديه هؤلاء دائمًا في نزاعاتهم. ولم يقاتل كلّ منهم بالفعل في نضاله من أجل إلهه إلا لصالح غطرسته، وهي أشنع الأهواء البشرية كافة، والأكثر ملاءمةً لإحداث حماقات أعظم.

وإذا استبعدنا للحظة الأفكار المميتة؛ التي يقدمها لنا اللاهوت عن إلهه المتقلب الذي يقرر قضاءه المتحيز، والاستبدادي حال البشر، لركزنا فقط على خيره المزعوم الذي اتفق جميع البشر على منحه له، رغم رعبهم منه، وإذا افترضنا أنَّ لديه رؤية لما نسبوه إليه، وأنَّهم انشغلوا فقط في تعظيمه، لينتزعوا تبجيل الكائنات الذكية، والبحث في جميع أعماله عن رفاهية الجنس البشري فقط: فكيف يمكننا التوفيق بين كلّ هذا والجهل العميق حقًّا؛ الذي يتخلى فيه القسم الأكبر من البشر عمّا يتعلق بهذا الإله المجيد، والخيّر للغاية؟ وإذا شاء الله أن يُعرف، ويبقى في الذهن، ويُحمد، فلما لا يُظهر نفسه في صفاتٍ مواتية لجميع الكائنات الذكية التي تعشقه، وتعبده؟ لماذا لا يتجلّى بمجد ذاته في الأرض كلّها بطريقةٍ جلية، وأكثر

أصول دينه، وروحانية الله، ومادية النفس، والألغاز التي يخبروهم بها يوميًا؟ هل يوجد العديد من الأشخاص الذين يمكنهم التباهي بفهمهم الكامل لحال السؤال في تلك التخمينات اللاهوتية، والتي غالبًا ما يمكنها إقلاق راحة البشر؟ على الإطلاق، حتى النساء يعتقدن أنَّهن مضطرات للمشاركة في المشاجرات؛ التي يثيرها المتأملون العاطلون، الذين هم أقلّ فائدةً للمجتمع من الحرفيين.

احتمالًا لإقناعنا من أولئك المرسلين؛ الذين يبدو أنَّهم يتهمون الإله بالتحيّز المقدّر لبعض مخلوقاته؟ ألم يكنْ لدى المقتدر وسيلةٌ أفضل لإظهار نفسه للناس من تلك المسوخ السخيفة، والتجسيدات المزعومة؛ التي يشهدها مؤلفون قليلًا ما ينسجمون مع بعضهم البعض؟ وبدلاً من هذا العدد من المعجزات التي ابتُكرتْ لإثبات المهمة الإلهية للعديد من المشرعين المؤمنين بتقديسها لمختلف الناس في العالم، ألم يستطع ملك العقول أن يقنع ذات مرة العقل البشري في تلك الأمور التي شاءَ معرفتها؟ ألم يكن القول: إنَّ الشمس معلقة في مكانٍ ما في قبة السماء، بدلاً من نشر النجوم، والأبراج التي تملأ مناطق الفضاء من دون ترتيب، أكثر توافقًا مع آراءِ إله غيور جدًا على مجده، وحسنْ النية تجاه الإنسان، وكُتب اسمه، وصفاته، وإرادته الدائمة بطريقة لا نزاع حولها، وفي سمات لا تُمحى، ويقرئها بالقدر ذاته جميع سكان الأرض؟[1] لا يمكن أنْ يشكّ أحد إذن، في وجود الله، ومشيئتِهِ الواضحة، وممارساته المرئية، وما من إنسانٍ يجرؤ على أنْ يضع نفسه في موقفٍ يثير غضبه، وبعبارة أخرى، ما من إنسانٍ لديه الجرأة ليأمر البشر باسمه، أو أن يفسر مشيئته وفقًا لأهوائه، ونزواته.

وبذلك يكون اللاهوت حقًا وعاء دانيدس Danaides.[2] وبفضل الصفات المتناقضة والتأكيدات الجريئة، قيد إلهه إلى درجة عدم قدرته على التصرف. ولا يمكننا في الواقع، حتى إن افترضنا وجود الإله اللاهوتي، وحقيقة ما منحوه له من صفاتٍ متناقضة للغاية، أن نستنتج شيئًا منهم للسماح بسلوكِ العبادة التي وصفوها، أو الموافقة عليها. وإذا كان الله خيرًا مطلقًا، فما سبب خوفنا منه؟ وإذا كان حكيمًا إلى أقصى حد، فلماذا نتزعج من وضعنا؟ وإذا كان عليمًا، فلماذا نبلغه برغباتنا، ونرهقه بصلواتنا؟ وإذا كان كلّي الوجود، فلماذا

---

(١) أتوقع أن يعارض اللاهوتيين هذا المقطع: "تبلغهم سمائهم بمجد الإله". ولكن ينبغي أن نردّ عليهم: بأنَّ السماوات لا تثبت سوى سلطة الطبيعة، وثبات قوانينها، وقوة جذبها، وتنافرها، وجاذبيتها، وطاقة مادتها، وأنَّها لا تعلن بأيّ حال من الأحوال عن وجود علّة لا لبس فيها، ووجود الإله الذي يناقض نفسه، ولا يسعه فعل ما يشاء.

(٢) وعاء دانيدس: نسبة إلى أسطورة يونانية تروي قصة خمسين امرأة ارتكبوا فعلاً فظيعًا بتوجيه من والدهن، وقتلن أزواجهن في ليلة الزفاف، ما عدا واحدة منهن، وكانت مذبحةً كبيرة عاقبت عليها الآلهة بموتهم جميعًا، وعذابهم الأبدي، وإجبارهم على حمل وعاء لملء حوض استحمام بدون قاع لغسل خطاياهن؛ ولكون الماء يتسرب باستمرار، وسيحاولنَّ ملء الحوض إلى الأبد. (المترجم). وللمزيد راجع: [خرافة مخلوقات صفارات الإنذار في الأساطير اليونانية | المرسال(almrsal.com)]

نُصبتْ له المعابد؟ وإذا كان ربًا للجميع، فلماذا تقدمون له أضاحي، وذبائح؟ وإن كان عادلًا، فلماذا يُعتقد أنَّه يعاقب تلك المخلوقات التي ملأها حماقة؟ وإذا كانت نعمته تغمر الإنسان، فلماذا يثيبه؟ وإذا كان مقتدرًا، فكيف يمكن أن نؤذيه، وكيف يمكننا مقاومته؟ وإذا كان عقلانيًا، فكيف يمكن أن يغضب على هؤلاء البشر الفانين التفهاء الذين ترك لهم حرية التصرف بصورة غير عقلانية؟ وإذا كان ثابتًا، فبأيِّ حقٍّ ندّعي أنَّه يغير قضاءه؟ وإذا تعذّر تصوره، فلماذا ننشغل به؟ وإذا تحدث، فلماذا لا يقتنع الكون؟ وإذا كانت معرفة الله هي الأهم، فلماذا لا يكون أكثر وضوحًا، وتجليًا؟

ولكن للإله اللاهوتي من ناحية أخرى جانبان: فإن كان غاضبًا، وغيورًا، ومنتقمًا، وشريرًا، كما يفترضه اللاهوت، دون ميله للسماح بذلك، فلن نبرر بعد اليوم توجيه صلواتنا إليه، ولا نشغل أنفسنا حزنًا بأفكاره. وعلى العكس من ذلك، يجب أن نحرص على إبعاده عن فكرنا، ووضعه في مرتبة تلك الشرور الضرورية؛ التي لا تتفاقم إلا إذا اكترثنا لها، في سبيل نيل سعادتنا الحالية، وتحقيق طمأنينتنا. وكيف يمكن أن نحب الإله، إنْ كان طاغياً بالفعل؟ ألا تتعارض مشاعر المودة، والحنان مع خوفنا المعتاد؟ وكيف يمكن أن نختبر حب سيدٍ يمنح عبيده حرية الإساءة إليه، حتى يباغتهم من جانبهم الضعيف، ويعاقبهم بأقصى همجية؟ وإذا ربط الإله هذه السمة البغيضة بقدرتهِ المطلقة، وإذا كان يمسك بين يديه الدمى التعيسة بهذه القسوة العظيمة، فماذا يمكن أن نستنتج منها؟ لا شئ سوى أنّنا سنكون دائمًا عاجزين عن الافلات منه، مهما بذلنا من جهود للهروب من مصيرنا. وإذا كان الإله قاسياً، أو شريراً بطبيعته، ومسلحًا بقوةٍ مطلقة، ويسعد إنْ بقينا بائسين إلى الأبد، فلن يصرفه شيءٌ عن ذلك، وسيواصل شرّه طريقه دائمًا. وسيمنعه حقده بلا شك من الالتفات إلى صرخاتنا، وما من شيءٍ يستطيع أن يليّن قلبه العنيد.

وهكذا، مهما كانت وجهة النظر التي نتأملها في الإله اللاهوتي، فليس لدينا عبادة لنقدمها له، ولا صلوات نتضرع بها له. وإذا كان خيرًا، وذكيًا، ومنصفًا، وحكيمًا بالكامل، فماذا نطلب منه؟ وإذا كان شريرًا للغاية، وما من مبررٍ لقسوته كما يعتقد جميع الناس، دون أن يجرؤوا على الاعتراف بذلك، فإنَّ شرورنا لا علاج لها، وسيسخر هذا الإله من صلواتنا، ويجب أن نكون ملزمين عاجلاً أم أجلًا بالخضوع لشدة القدر الذي أعدّه لنا.

وتسليمًا بهذا، من يستطيع أن يغضّ الطرف عمّا يتعلق بمفاهيم الإله المؤلمة، ويتميز عن الفاني الخرافي الساذج، والمرتعد، ويرسّخ في قلبه طمأنينية مؤقتة، ويسعد في هذه الحياة على الأقل. وإذا كانت دراسة الطبيعة قد أبعدته عن تلك الكائنات الخرافية؛ التي مُني بها الإنسان الخرافي، فسيتمتع بأمنٍ حُرم منه هذا الشخص نفسه. وعندما استشار الطبيعة، تبددت مخاوفه، وأصبحت آرائه رصينة، سواء كانت صادقة أو كاذبة، وأعقب الهدوء العاصفة التي تثير الذعر، والمفاهيم المتذبذبة في قلوب جميع البشر الذين يشغلون أنفسهم بالإله. وإذا تجرأت النفس البشرية التي تبتهج بها الفلسفة على النظر إلى الأمور بتروٍ، فلن ترى بعد ذلك كونًا يحكمه طاغيةٌ متعنت، ومتأهب للبطش دائمًا. ولو كان عقلانيًا، لرأى أنَّه عندما ارتكب الشر لم يعكر صفو الطبيعة، وأنَّه لم يُغضب خالقه، ويؤذي نفسه بمفرده، أو يؤذي كائنات أخرى قادرة على الشعور بآثار سلوكه، ومن هنا يعرف سير واجباته، ويفضّل الفضيلة على الرذيلة، ومن أجل راحته الدائمة، ورضاه، وسعادته في هذا العالم، يشعر أنَّه مهتم بممارسة الفضيلة، والاعتياد عليها، وتجنب الرذيلة، ومقتْ الجريمة، طوال فترة وجوده بين الكائنات الذكية، والعاقلة التي يتوقع أن تسعده. وبتعلقه بهذه القواعد، سوف يعيش قانعًا بنفسه، ويعتز به أولئك الذين سيكونون قادرين على مواجهة تأثير أفعاله، وسوف يتوقع دون قلق للمدة التي يجب أن يقضيها، ولن يكون لديه أيّ سبب للفزع من الوجود الذي سيتبع ذلك الذي يتمتع به حاليًا، ولن يخشى أن ينخدع في حججه، مسترشدًا بالبرهان والصدق، وسوف يدرك أنَّه إذا كان هناك إله خير، خلافًا لتوقعاته، فلن يعاقبه على ضلالاته غير المقصودة، اعتمادًا على منظومته التي حصل عليها.

ولو وجد إلهٌ بالفعل، لكان كائنًا مليئًا بالعقل، والإنصاف، والخير، ولم يكن عبقريًا شرسًا، وغير عقلاني وخبيث، كما يسعد الدين كثيرًا بوصفه، فما الذي يجب أن يفهمه الملحد الفاضل؛ الذي يعتقد أنَّه يغطّ في نومٍ عميق إلى الأبد في لحظة موته، ويجد نفسه في حضرة إله جعله يخطئ ويهمله في حياته؟

هل سيقول: "يا إلهي! يا أبي، الذي حجبتَ نفسك عن ابنك! يا له من خالقٌ محجوبٌ، ومخفي، ولم يمكنّني من اكتشافه! اغفر لي، إذا لم يكن فهمي المحدود قادراً على التعرف عليك في الطبيعة، التي بدا كلّ شيء فيها ضروري بالنسبة لي! واعذرني، إذا لم يميز قلبي الحساس صفاتك المهيبة تحت سمات الطاغية الصارم؛ الذي يعبده البشر الخرافيون رعبًا

منه. ولم استطع أن أرى سوى شبحًا في ذلك الحشد من الصفات المتناقضة؛ التي اعتراها الخيال. وكيف يجب أن تدرك عيناي الجلفتان في طبيعةٍ لا تستطيع فيها كلّ حواسي أن تعرف سوى كائنات مادية، وأشكالًا قابلة للفناء؟ هل استطعتُ أن اكتشف بمساعدة هذه الحواس ماهيتكَ الروحية التي لم يتمكنوا من تقديم أيّ دليلٍ بشأنها؟ وكيف يمكنني أن أجد الدليل الثابت على خيركَ في أفعالكَ؛ التي رأيتها في كثيرٍ من الأحيان مضرة لأبناء جنسي بقدر ما هي مواتية لهم؟ يضطر عقلي الضعيف إلى تشكيل أحكامه وفقًا لقدرته الخاصة، ويمكنه أن يحكم على مقصدكَ، وحكمتكَ، وذكائكَ، بينما لم يقدم لي الكون سوى مزيجًا مستمرًا من النظام والفوضى، والخير والشر، والكون والفساد؟ هل تمكنتُ من تبجيل عدالتكَ، مع أنّني كثيرًا ما أرى الجريمة منتصرة، والفضيلة تذرفُ الدموع؟ أيمكنني التعرف على صوت كائنٍ مليءٍ بالحكمة في تلك الأسفار المبهمة، والمتناقضة، والصبيانية التي نشرها المحتالون باسمك في مختلف بلدان الأرض التي تخليت عنها؟ وإنْ رفضتُ تصديق وجودكَ؛ فذلك لأنّني لم أعرف ما يمكن أن تكون عليه، أو المكان الذي يمكن أن توضع فيه، أو الصفات التي يمكن تخصيصها لك. وما من مبررٍ لجهلي؛ لأنّه كان عميقًا، ولم يستطع عقلي أن ينحني تحت سلطة بعض البشر الذين اعترفوا بضعف تنويرهم في ماهيتك كما هو الحال معي، وكانوا على الدوام في نزاعٍ فيما بينهم، ولا ينسجمون إلا عندما يهيبون بيّ بإلحاحٍ؛ لأضحي لهم بهذا العقل الذي منحتَه للبشر. لكن يا إلهي! لو عززت مخلوقاتك، لعززتهم مثلك أيضًا، وحاولتُ إسعادهم في الكون الذي عشتُ فيه. ولو كنتَ أنتَ خالقُ العقل، لاستمعتُ إليه دائمًا واتبعتُه، وإذا كانت الفضيلة ترضيكَ، لبجلها قلبي دائمًا، ولما أزعجته أبدًا، ولو كان باستطاعتي؛ لمارستها بنفسي، وكنتُ زوجًا وفيًا، وأبًا حنونًا، وصديقًا مخلصًا، ومواطنًا أمينًا ومتعصبًا، وقدمتُ العزاء لمن يعانون، وإذا كانت نقاط الضعف بطبيعتي مؤذية لي، أو غير ملائمة للآخرين، فأنا لم أتأوه بآسفٍ على الأقل تحت وطأة ظلمي، ولم ألتهم قوت الفقراء، ولم أنظر إلى دموع الأرملة بلا شفقة، ولم اسمع صرخات اليتيم دون مواساته. وإذا كنتَ قد أنسنتَ الإنسان، ونظّمتَ هذا المجتمع ليبقى سعيدًا ويكون كذلك، فقد كنتُ عدوًا لكلّ من ظلموه أو خدعوه؛ لكي يستغلوا مصائبه.

"إذا كنتُ أظنكَ مخطئًا؛ فذلك لأنَّ فهمي لم يستطع تصوركَ، وإن كنتُ قد تحدثتُ عنكَ بالسوء، فذلك لأنَّ قلبي الذي أشترك به كثيرًا مع الطبيعة البشرية، انتفض في وجه الصورة البغيضة التي رسمت لكَ. وقد كانت ضلالاتي نتيجةً لمزاجٍ أعطيتني إياه، وظروفًا

وضعتني فيها من دون موافقتي، ولتلك الأفكار التي دخلتْ في ذهني رغمًا عن أنفي. فإذا كنتَ خيرًا وعادلًا، كما يؤكِّد لنا عنك، فلا يمكنكَ أن تعاقبني على ضلالات مخيلتي، والأخطاء التي سببتها أهوائي الناجمة بالضرورة عن منظومةٍ تلقيتها منك. وبالتالي، لا يمكن أن أهابكَ، وليس بوسعي أنْ أفزع من الحالة التي أعددتها لي. ولا يمكن أن يتيح خيركَ لي بأنْ أتحمل العقوبات على أخطاءٍ محتومة. لذلك لم تمتع بالأحرى ولادتي، بل دعوتني هنا إلى رتبة الكائنات الذكية لأتمتع بالحرية المقدّرة لإتعاسي؟ وإذا كنتَ تعاقبني بشدة وإلى الأبد؛ فلأنَّك استمعت إلى العقل الذي وهبتني إياه، وإن أصلحتني بأوهامي، وكنت غاضبًا؛ لأنَّ ضعفي جعلني أقع في تلك الكمائن التي نصبتها لي في كلّ مكان، فسوف تكون أقسى الطغاة وأكثرهم ظلمًا، ولن تكون إلهًا، بل شيطانًا خبيثًا، وسأكون مضطرًا للخضوع له، وإشباع الهمجية، ولكن أهنئ نفسي على الأقل؛ لأنَّني تخلّصت من نيرهم المرير لبعض الوقت.

هكذا سيتكلم تلميذ الطبيعة الذي يسافر على الفور إلى المناطق الخيالية، إذا ما وجد إلهًا تتناقض أفكاره مباشرةً مع تلك التي توفرها لنا هنا حكمته، وخيره، وعدله. ويبدو أنَّ علم اللاهوت قد ابتُكر بالفعل؛ ليقلب في أذهاننا كلّ الأفكار الطبيعية. ويبدو أنَّ هذا العلم الوهمي عازمٌ على جعل إلهه كائنًا أكثر تناقضًا مع العقل البشري. ومع ذلك، نحن ملزمون لأنْ نحكم في هذا العالم لهذا السبب بالذات، وإذا لم يكن هناك شيء أكثر غموضًا من التفكير في عالمٍ آخر، أو الاستدلال عليه، فما من شيء يتوافق معه. ونسأل علاوة على ذلك: لماذا تترك الأمر لحكم الناس الذين هم أنفسهم قادرين على الحكم مثلنا فقط؟

ومع ذلك، ما من شيء أكثر سخافةٍ في افتراض أنَّ الله خالقٌ لكلّ شيء، من فكرة إرضائه، أو سخطه من أفعالنا، أو أفكارنا، أو كلماتنا، وما من شيءٍ غير مقنع أكثر من تخيل أن ما صنعه الإنسان بيديه، يمكن أن تكون له مزايا، أو عيوب متعلقة به. ومن الواضح أنَّه لا يستطيع أن يؤذي كائنًا مقتدرًا، وسعيدًا للغاية من حيث ماهيته. ومن الجلي أنَّه لا يستطيع إثارة استياء من جعله على ما هو عليه. وما أهواءه، ورغباته، ونزعاته إلا نتيجة حتمية للمنظومة التي حصل عليها، ومن الواضح أنَّ الدوافع التي تحدد إرادته تجاه الخير أو الشر، ترجع إلى الصفات المتأصلة في الكائنات التي أحاطه الله بها. وإذا كان كائنًا ذكيًا هو من وضعنا في الظروف التي نعيشها، وأعطى الخصائص لتلك العلل التي تؤثر فينا، وتعدّل

إرادتنا، فكيف نسيء إليه؟ وإن كانت لدي نفسٌ وفية، وعاقلة، ورحيمة؛ فذلك لأنَّ الله منحني أعضاءً تتحرك بسهولة، ونجمَ عنها مخيلة مفعمة بالحيوية، وتطورت بفضل التعليم. وإذا كنتُ منبوذًا وقاسيًا، فذلك لأنَّه لم يمنحني سوى أعضاء ذات مناعة، ونتج عنها مخيلة قليلًا ما يحسّ بها، وقلبٌ يصعب لمسه. وإذا كنتُ أعتنق دينًا؛ فذلك لأنَّني تلقيته من والديَّ، اللذان لم يعتمدا عليّ في ولادتي، وأعلنوه أمامي، وفرضت سلطتهم، وقدوتهم، وتعاليمهم على عقلي أن يتواءم مع ما لديهم. وإذا كنتُ مرتابًا؛ فذلك لكوني معرضٌ بعض الشيء للخوف، أو التعصب لأمورٍ غير معروفة، ولأنَّ ظروفي أمرتْ بذلك؛ لذا يجب أن أتخلى عن الكائنات الخرافية؛ التي كنتُ أشغل نفسي بها منذ طفولتي.

ومن هنا يخبرنا اللاهوتي بسبب عدم تفكيره في مبادئه، أنَّه يمكن للإنسان أن يرضي الله القوي الذي خلقه، أو يغضبه. وتخيل أولئك الذين يعتقدون أنَّهم جديرين بخير إلههم، أو استحقوا عقابه، أنَّ هذا الكائن سيلزمهم بمنظومةٍ وهبها لهم بنفسه، وسيعاقبهم على ما نهاهم عنه. ونتيجة لهذه الفكرة المبالغ فيها للغاية، يتفاخر المحبُّ الودود، والمعطاء بأنَّه سيعوض عن اتقاد خياله. ولا يخامر المناصر الغيور الشك في أنَّ الله سوف يكافئه يومًا ما على حدةِ عصارته، أو حرارة دمه. وتتخيل الكائنات التائبة، والهوجاء، والكهنية أنَّ الله سيحتفظ بسجلٍ عن تلك الحماقات التي تقترفها بفعل منظومتها الشريرة، أو تعصبها؛ وستكون راضيةً للغاية بادئ ذي بدء عن دعابتها السوداوية، ورزانة مُحياها، وإعراضها عن المتعة. ولا يمكن للكائنات المتعصبة، والشغوفة، والجامحة، والعدوانية أن تدرك أنَّ إلهها الذي تشكله دائمًا وفقًا لنموذجها الخاص، يتواءم مع أولئك البلغميون، والذين لديهم نسبة أقل من الصفراء من حيث تكوينهم، أو يجري في عروقهم دمٌ بارد. ويؤمن كلّ إنسان بأنَّ منظومته أفضل، وأكثر تطابقًا مع إلهه.

يا لها من أفكار غريبة تلك التي توجب على هؤلاء البشر المتهورون أن يمتلكونها عن إلههم، الذي تصوروا أنَّ بإمكانه كمتحكم مطلق بالجميع أن يؤثر في الحركات التي تجري في أجسادهم، أو أذهانهم! ومن التناقض أن تعتقد أنَّ سعادته غير المتغيرة يمكن الإساءة إليه، أو يتشوش مقصده، بسبب الصدمات العابرة التي تتعرض لها الألياف غير المحسوسة لدماغ أحد مخلوقاته. ومع ذلك يمنحنا اللاهوت أفكارًا خسيسة جدًا عن الإله؛ الذي لا يكفون عن تمجيد قوته، وعظمته، وخيره.

وبغض النظر عن التشويش الملحوظ لأعضائنا، نادرًا ما تختلف مشاعرنا على تلك الأشياء التي أثبتتها لنا حواسنا، وخبرتنا، وعقلنا بوضوح. ومهما كانت الظروف فلن نجد لدينا شكٌ في بياض الثلج، أو ضوء النهار، أو فائدة الفضيلة. وليس الأمر كذلك مع تلك الأمور؛ التي تعتمد على خيالنا فحسب، ولم تبرهنها لنا الأدلة المستمرة لحواسنا، ونحكم عليها بصورةٍ مختلفة وفقًا للتصرف الذي نتصرفه حيالها. وتختلف هذه التصرفات؛ بسبب الانطباعات اللاإرادية التي تتلقاها أعضائنا في كلّ لحظة من بعض العلل اللامتناهية، سواء كانت خارجة عنا، أو متضمنة في بنيتنا. وتتعدل هذه الأعضاء جزئيًا دون علمنا، أو تسترخي، أو تنحني دائمًا بسبب الوزن، أو المرونة إلى حدٍ ما، وبفعل الهواء، والحرارة أو البرودة، والجفاف أو الرطوبة، والصحة أو المرض، أو حرارة الدم، أو وفرة الصفراء، أو حالة الجهاز العصبي...إلخ. وتؤثر هذه الأسباب المختلفة بالضرورة في الأفكار، والمعتقدات، والآراء اللحظية للإنسان. وهو ملزمٌ بالتالي برؤيةٍ مختلف الأمور التي يعرضها له خياله، دون أن يكون قادرًا على تصحيحها من خلال التجربة، والذاكرة. وهذا هو سبب إجبار الإنسان باستمرار على رؤية إلهه، وأوهامه الدينية من مختلف الجوانب. وفي اللحظة التي يجد فيها أنَّ أليافه تنزع للارتعاش، سيكون جبانًا، ورعديدًا، ولن يفكر في هذا الإله إلا بارتجاف، وفي اللحظة التي تكون فيها هذه الألياف ذاتها أكثر صلابة، فسوف يفكر في الإله ذاته بتروٍ أكثر. وسوف يطلق اللاهوتي أو الكاهن على جبنه اسم: "الشعور الباطني، أو تحذيرٌ من السماء، أو الإلهام الخفي"، ولكن سيقول من يعرف الإنسان: إنَّ هذه ليست سوى حركة ميكانيكية ناتجة عن علّةٍ فيزيائية، أو طبيعية. ويمكننا أن نشرح بالفعل عبر هذه البنية الفيزيائية الخالصة جميع التحولات التي تحدث مرارًا وتكرارًا من لحظةٍ إلى أخرى في الأنظمة، وجميع آراء البشر وأحكامهم، ونراهم في النتيجة يفكرون في بعض الأحيان بعدلٍ، وأحيانًا بطريقة غير عقلانية.

ونستطيع أن نقدم من خلال هذا الوضع وصفًا لتلك الحال الملتبسة، والمتذبذبة التي نرى فيها الأشخاص يسقطون أحيانًا، أو يكونون بخلاف ذلك مستنيرين للغاية عندما تطرح مسألة الدين، من دون تكرار النعمة، والإيحاءات، والرؤى، والحركات الخارقة للطبيعة. وعلى الرغم من التفكير العميق في كثيرٍ من الأحيان، بيد أنَّ التصرفات اللحظية تعيد توجيههم إلى تحيزاتهم الطفولية، والتي يبدون فيها غير مدركين تمامًا في مناسبات أخرى. وتكون هذه التغييرات ملحوظة للغاية، خاصةً في حالات العجز، والمرض، وعند اقتراب الموت. وعندئذٍ

يضطر مقياس الفهم في كثيرٍ من الأحيان للانحدار. وحينذاك تُدرك تلك الكائنات الخرافية؛ التي استخفوا بها، أو أعطوها أدنى من قيمتها الحقيقية في حال الصحة. وهم يرتجفون؛ لأنَّ بنيتهم ضعيفة، وغير عقلانية، ولأنَّ الدماغ غير قادر على أداء وظائفه بدقة. ومن الواضح أنَّ هذه هي الفرص الحقيقية التي يستغلها الكهنة ضد الشكوكية، ويستمدون منها البراهين على صحة آرائهم السامية. ويعود أصل هذه التحولات، أو تلك التغييرات التي تطرأ على أفكار الناس دائمًا إلى تشويش مادي ما لبنيتهم، ونجمت عن كآبتهم، أو نتيجة بعض العلل الطبيعية، والمعروفة.

ومن هنا تتبع أنظمتنا دائمًا بخضوعها للتأثير المستمر للعلل المادية، تغيرات أجسامنا، وعندما يكون جسمنا سليمًا، وحسنُ التكوين نفكر جيدًا، ونفكر على نحوٍ رديء عندما يختلُّ هذا الجسد، ويهتزُّ الدماغ، فتنفصل أفكارنا عن بعضها، ولا نعدْ قادرين على ربطها بدقة، وأكتشاف مبادئنا، واستخلاص الاستدلالات منها فقط، ولم نعدْ نرى أيّ شيءٍ على حقيقته. ولا يرى هذا الإنسان إلهه في الطقس البارد، وفي السمات ذاتها كما هو الحال في الطقس الغائم، والممطر: فهو لا يتأمله بالطريقة ذاتها في الحزن، كما هو الحال في الفرح، وعندما يكون في صحبة أحدهم، كما لو كان وحيدًا. ويوحي الحس السليم لنا بإمكانية تفكيرنا بدقة، عندما يكون الجسد سليمًا، ولا يحجب العقل أيّ غشاوة، ويمكن أن تزودنا هذه الحال بمعيارٍ عام مناسب لتنظيم أحكامنا، وتصحيح أفكارنا أيضًا، حينما يعتريها التذبذبَ لأسبابٍ غير متوقعة.

وإذا كانت آراء الفرد ذاته عن إلهه متذبذبة، وقابلة للتغيير، فكمْ عدد التغييرات التي يجب أن تطرأ على مختلف الكينونات التي يتكون منها الجنس البشري؟ وإذا لم يوجد رجلان ينظران ربما إلى شيء مادي من وجهة النظر ذاتها تمامًا، فما أعظم اختلاف يجب ألا يمتلكانه بين أساليب تفكيرهما في تلك الأشياء؛ التي لا وجود لها إلا في خيالهما؟ وما التركيبات اللامتناهية من الأفكار؛ التي يجب ألا يصنعها عقليهما المختلفين أساسًا، لتكوين كائنٍ مثالي، لابدّ أن يتخذ شكلًا مختلفًا في كلّ لحظة من الحياة؟ وسيكون عندئذٍ مشروعًا غير عقلاني، يحاول وصف ما يجب أن يفكر فيه البشر عن الدين، والله الخاضعان بالكامل لإدراك الخيال؛ والذي كما قلنا مرارًا وتكرارًا، لن يمتلك عنه الفانون أيّ معيار مشترك. إنَّ محاربة الآراء الدينية للبشر، يعني محاربة خيالهم، ومنظومتهم، وعاداتهم، التي تكفي للتماهي بين وجودهم، والأفكار الأكثر عبثية، والأقل أهمية. وكلما زاد خيال البشر، سيزيد

المتحمسون للدين، وتتضاءل قدرة عقولهم على رفض كائناتهم الخرافية، وستصبح هذه الكائنات الخرافية قوتًا ضروريًا لخيالهم المتقد. وفي الخلاصة: إنَّ محاربة مفاهيم البشر الدينية، يعني محاربة شغفهم بما هو عجيب. حيث يجدد هؤلاء الأشخاص الذين لديهم خيال حيوي على الدوام بغض النظر عن السبب، تلك الكائنات الخرافية التي اعتادوا تبجيلها، وإن كانت متعبة ومهلكة لهم. وهكذا، فإنَّ نفس المحب تحضى بفرصةٍ لمحبة الإله؛ والمتعصب السعيد يحتاج إلى إلهٍ يثيبه، ويريد المتعصب البائس إلهًا يشاركه أحزانه، ويحضى المحب الكئيب بفرصة لإله يحزنه، ويحافظ عليه في ذلك المأزق الذي أصبح ضروريًا لمنظومته المريضة، ويحتاج التائب الأهوج إلى إلهٍ قاس، ويفرض عليه التزامًا بأنْ يكون إنسانًا تجاه نفسه، في حين يعتقد المتطرف الغاضب أنَّه تعيس إذا حُرم من الله الذي يأمره بجعل الآخرين يعانون من آثار أخلاطه الملتهبة وأهوائه الجامحة.

ويزود المتعصب نفسه بلا شك بأوهام مقبولة، وأقل خطورة من نفس ذلك الذي تعذبه أشباح بغيضة. وإذا لم يرتكب العقل الفاضل، والمحب الخراب في المجتمع، فلا يمكن للعقل الذي تثيره المشاعر غير الملائمة أن يفشل في أن يصبح مزعجًا لأقرانه من البشر عاجلاً أم آجلاً. وقد يكون إله **سقراط**، أو **فنيلون** مناسبًا لعقولٍ لطيفة مثل عقولهم، لكنه لا يمكن أن يكون إله أمةٍ بأكملها، حيث سيكون من النادر للغاية العثور على رجالٍ من طباعهم. وكما قلنا مرارًا، سيكون الإله دائمًا بالنسبة للقسم الأكبر من البشر كائنًا خرافيًا، مخيفًا، ويعتبرونه مقلقًا لعقولهم، ويثير شغفهم، ويؤذي أقرانهم. وإذا كان الصادقون يرون إلههم مفعمًا بالخير، فإنَّ الآثمون، والمضطربون، وقساة القلوب، والأشرار سيسقِطونَ شخصيتهم على إلههم. ومن هذه القدوة سوف يفوضون أنفسهم بإطلاق العنان لأهوائهم. ويمكن لكلّ إنسانٍ أن يرى الكائنات الخرافية بأمّ عينيه فقط. كما أنَّ عددًا من أولئك الذين يصفون اللاهوت بأنَّه شنيع، وبائس، وقاسٍ، سيكونون دائمًا أكثر خشيةٍ من أولئك الذين يصفونه بمظاهر باهرة. أما الفانِ الذي يمكن أن يسعده هذا الكائن الخرافي، فستوجد آلاف الأمور التي تحيله بائسًا، وسيكون عاجلاً أم آجلاً مصدرًا مفعمًا بالانقسامات، والبذخ، والجنون. وسوف يضعف عقل الجاهل الذي سيؤثر فيه دائمًا المحتالون، والمتطرفون. وسيخيف الرعاديد، والجبناء الذين يحيدهم ضعفهم إلى الخيانة، والقسوة. وسيجعل الناس الأكثر عفةً يرتعدون، وسوف يخشون حتى وإن كانوا يمارسون الفضيلة، من غضب إلهٍ خيالي، ومتقلب، ولن يوقف تقدم الآثم الذي يتغاضى عنه، لكي يصل بهم إلى مستوى الجريمة، أو يستفيدوا من هذا الكائن الخرافي

الإلهي لتبرير معاصيه. وبعبارة أخرى، لن يؤدي هذا الإله الذي هو طاغية بحدّ ذاته، وفي أيدي الطغاة، إلا إلى سحق حرية الشعب، وانتهاك حقوقهم العادلة وحصانتهم. وسيكون هذا الإله في أيدي الكهنة بمثابة تعويذة، مناسبة لتسمم الملك، والرعايا على حدٍ سواء، وتحجب تفكيرهم وتخضعهم، وخلاصة القول: سيكون هذا المعبود في أيدي الناس، دائمًا سلاحًا ذو حدين، وسيلحق بهم جراحًا أكثر شدة.

وكما رأينا فإنَّ الإله والكائن اللاهوتي لا يمثل من ناحية أخرى، سوى مجموعة من التناقضات، فعلى الرغم من عدم قابليته للتغير، بيد أنَّه يجسد في كثيرٍ من الأحيان، الخير بحد ذاته، وأحيانًا أقسى الكائنات وأكثرها ظلمًا. ويفكر فيه البشر الذين تعتري بنياتهم تغيرات مستمرة، ولا يستطيع هذا الإله كما ذكرت أن يظهر في الهيئة ذاتها في جميع الأزمنة لأولئك الذين يشغلون أنفسهم به. ويلتزم أولئك الذين يشكلون مرارًا وتكرارًا أفضل الأفكار عنه بالاعتراف بأنَّ الصورة التي يرسمونها لأنفسهم عنه، لا تتوافق دائمًا مع الصورة الأصلية. ولا يستطيع المناصرون الأكثر إندفاعًا، والمتعصبون الأكثر تحيزًا منع أنفسهم من رؤية تغير سمات إلههم، وإذا كانوا قادرين على التفكير، فسيشعرون بالحاجة إلى الاستدلال العادل في السلوك؛ الذي يعتنقونه باستمرار تجاهه. أفلا يرون في الواقع أنَّ سلوك إلههم يبدو متناقضًا في كلّ لحظة مع الكمالات العجيبة التي يخصصونها له؟ ألا نشكك عندما نصلي للإله، في حكمته، وإحسانه، وعنايته، وعلمه المطلق، وثباته؟ ألا يغير اهتمامه بإهمال مخلوقاته، ومطالبته بتغيير قضاء عدله الأبدي، تلك القوانين الثابتة التي حددها بنفسه؟ ألا نقول لله في صلاتنا له: "يا إلهي، أعترفُ بحكمتكَ، وعلمكَ المطلق، وخيركَ اللامتناهِ، مع أنَّك نسيتني؛ وأغفلتَ مخلوقك، وتجاهلتَ ما يريده، أو تظاهرت بالجهل، ألا ترى أنَّني أعاني من التنظيم العجيب الذي صنعته قوانينك الحكيمة في الكون؟ وأصلي لك، وللماهية التي وهبت مشيئتك لجميع الكائنات، مع أنَّ الطبيعة تعارض أحكامك، وتجعل وجودي مؤلما، ومتغيراً بالفعل. انظر إلى تلك العناصر؛ التي تفقد في هذه اللحظة، خصائصها المميزة لصالحي، وأمر كذلك ألا تسقط الأجسام الثقيلة، وألا تُحرق النار، وألا يعاني الجسد الهش الذي تلقيته منكَ مما يتعرض له كلّ لحظة. وصحّح المقصد الذي حدده تدبيرك اللامتناهِ منذ الأبد من أجل سعادتي". هذه هي الصلوات التي يشكلها البشر تقريبًا، والمطالب السخيفة التي يقدمونها في كلّ لحظة إلى الإله، الذي يمجدون فيه الحكمةَ، والذكاء، والعناية، والمساواة، في حين أنَّهم نادرًا ما يكتفون بآثار كماله الإلهي.

ولا يكون الناس أكثر اتساقًا من حيث صلوات الشكر؛ التي يعتقدون أنَّهم ملزمون بتقديمها له. أليست مجرد شكرٍ للإله على لطفه كما يقولون؟ أليس من منتهى الجحود أن نرفض إجلالنا لخالق وجودنا، وكلّ ما يسهم في قبولنا له؟ ولكن سأقول لهم: إنَّ إلهكم يعمل لمصلحته على غرار البشر، الذين يتوقعون أن نمنحهم على الأقل أدلةً على الانطباع الذي يتركه لطفهم علينا، وإن كانوا أكثر لامبالاة. فهل اتيحت لكم الفرصة لأن تبرهنوا لإلهكم القوي والعظيم للغاية عمّا ينتابكم من مشاعر شكركم وتقديركم؟ وما الذي وجدتموه إلى جانب ذلك في هذا الامتنان؟ وهل يوزع نعمه على البشر بالتساوي؟ وهل العدد الأكبر منهم راضٍ عن حالتهم؟ وهل أنت تجد ذاتك راضٍ دائمًا عن وجودك؟ سيجيبني بلاشك: أنَّ هذا الوجود وحده من أعظم النعم. ولكن كيف يمكن أن ننظر إليه كميزة دلالية؟ ألا يكمن هذا الوجود في الترتيب الضروري للأشياء؟ ألم يدخل بحكم الضرورة في مقصد إلهكَ المجهول؟ هل يدين الحجر بأيّ شيءٍ للمهندس المعماري؛ لكونه ضروري لمبناه؟ هل أنت أفضل من هذا الحجر لتعلم الآراء التي يخفيها إلهكَ؟ وإذا كنت كائنًا مفكرًا وعاقلًا، ألا تجد أنَّ هذا المقصد العجيب يقلق راحتكَ في كلّ لحظة، ألا تثبت صلواتكَ لمن بنى هذا العالم أنَّك مستاء؟ ولدت بدون رضاكَ، ووجودك غير ثابت، وتعاني من ثقل إرادتك، ولا تعتمد ملذّاتكَ، وأوجاعكَ عليكَ، ولا تتحكم بأيّ شيءٍ، وليس لديكَ أدنى تصور للمقصد الذي شكّله مهندس الكون؛ الذي لا تكفُّ أبدًا عن الإعجاب به، ووضعتَ فيه دون موافقتكَ، وأنتَ ألعوبةٌ دائمة للضرورة التي تؤلهها؛ فبعد أن دعاك إلهك إلى الحياة، ألزمكَ بمغادرتها. أين هي إذن الالتزامات العظيمة التي تعتقد أنَّك مدينٌ بها للعناية الإلهية؟ هذا هو الإله ذاته؛ الذي يهبكَ نفحة الحياة، ويمدكَ بما تشاء، ويحفظكَ، ألا ينتزع منكَ في لحظةٍ هذه المزايا المزعومة؟ وإذا كنت تعتبر الوجود أعظم النعم، ألا يشكل لك فقدان هذا الوجود أعظم الشرور؟ وإنْ كان الموت، والحزن من الشرور الجسيمة، أفلا يمحو هذا الحزن، والموت منفعة الوجود، والمتعة التي تصاحبها أحيانًا؟ وإذا دخلت ولادتكَ، وجنازتكَ، وملذاتكَ، وأحزانكَ، بالقدرِ ذاته في مشاهد عنايته، ألا أرى أنَّها تخولك لأن تحمده. ما الالتزامات التي تقع على عاتقك تجاه سيدٍ يفرض عليكَ رغمًا عن أنفك، أن تدخل هذا العالم، وتلعب فيه لعبةً خطيرة، وغير متكافئة، وقد تكتسب من خلالها سعادةً أبدية، أو تخسرها؟

ويحدثوننا بالفعل عن حياةٍ أخرى نؤكد فيها أنَّ الإنسان سيكون سعيدًا تمامًا. بيدّ أنَّه كان من الضروري عندما نفترض وجود هذه الحياة الأخرى التي لا أساس لها كحالِ الكائن؛

أن نتوقع منه أن يؤجل على الأقل امتنان هذا الإنسان حتى يدخل هذه الحياة الأخرى. إذ أنَّ البشر بائسين في الحياة التي نعرفها أكثر من كونهم محظوظين، وإذا لم يكن الله قادرًا، أو راغبًا في السماح لمخلوقاته المحبوبة أن تكون سعيدة تمامًا في العالم الذي نعيش فيه، فكيف نؤكد بأنفسنا أنَّه سيمتلك القوة، أو الميل لجعلهم في النهاية أكثر سعادةٍ مما هم عليه اليوم؟ سوف يستشهدون لنا بعد ذلك بالمرسلين، والوعود الرسمية للإله الذي ينشغل في تعويض محبيه عن أحزان الحياة الدنيا. دعونا نعترف للحظةٍ بصحة هذه الوعود، ألا يعلمنا هؤلاء المرسلين أنَّ الخير الإلهي يحتفظ بالعقوبات الأبدية لعدد أكبر من البشر؟ وإذا كان هذا الوعيد صحيحًا، فهل يدين البشر إذن بالامتنان للإله الذي يمنحهم وجودهم من دون استشارتهم، حتى يتمكنوا بمساعدة حريتهم المزعومة من أن يجازفوا، ويتعسوا أنفسهم إلى الأبد؟ ألن يكون من الأفضل لهم عدم وجودهم، أو على الأقل وجودهم فقط مثل الحجارة، أو البهائم التي يُفترض ألا ينتزع الله منها الاستمتاع بهذه الملكات الحميدة، كامتياز حصولهم على مزايا، أو عيوب؛ والتي قد تؤدي بالكائنات الذكية إلى المحن الأكثر رعبًا؟ وإذا ما التفتنا إلى ثلة من المختارين، والعدد الكبير من المدانين، سوف نسأل: أين هو صاحب الشعور الذي قبِل المجازفة باللعنة الأبدية، ولو كان متحكمًا؟

وهكذا، أيًا كانت وجهة النظر؛ التي نتأمل فيها الشبح اللاهوتي، فلا يدين البشر له بالصلاة، ولا الولاء، ولا العبادة، ولا الشكر إن كانوا متسقين من حيث ضلالاتهم. مع أنَّ البشر لا يفكرون في مسائل الدين أبدًا، بل يتبعون فقط الدافع وراء مخاوفهم، أو خيالهم، أو مزاجهم، أو عواطفهم الخاصة، أو أولئك المرشدين الذين اكتسبوا حقّ التحكم في مفاهيمهم. من المستحيل أنْ نفكر، ونحن مرتعدين، فخوفنا خلق الآلهة، ورعبنا رافقها باستمرار. وبالتالي، لن يفكر البشر أبدًا عندما يتعلق السؤال بتلك الأمور؛ التي ترافقها دائمًا فكرة غامضة عمّا يثير الرعب. وإذا كان المتعصب الدمث، والصادق لا يرى إلهه إلا على أنَّه أبٌ رحيمٌ، فإنَّ القسم الأكبر من البشر لن ينظروا إليه إلا على أنَّه سلطانٌ عظيم، وطاغيةٌ بغيض، وعبقري قاسٍ، وفاسد. وهكذا، يبقى هذا الإله دائمًا خمرةً مؤذية للجنس البشري، يستسيغون شربها، ويحولونها إلى خميرة مقدّرة. وإذا كان من الممكن، بالنسبة للمحب السلمي، والإنساني، والمعتدل، أن يُترك الإله الخير الذي خلقه على هواه، فإنَّ مصلحة الجنس البشري تتطلب الإطاحة بالصنم؛ الذي ولّده الخوف، وتغذيه الكآبة التي أخذت فكرته، واسمه بالحسبان فقط لتملئ الكون بالأشلاء، والحماقات.

ومع ذلك لا نتباهى بأنَّ عقلنا سيتمكن من تخليص الجنس البشري بالمطلق من تلك الضلالات؛ التي تضافرت فيها أسباب عدة لإفساده. وسيكون أتفه ما نصبو إليه أن نتوقع التعافي الفوري من تلك الضلالات الوبائية، والوراثية؛ التي امتدت بجذورها على مدى عصور عديدة، وغذاها ودعمها باستمرار الجهل، والعواطف، والعادات، والمصالح، والمخاوف، ومصائب الأمم، والتجدد الدائم. لقد ولدت الثورات القديمة على الأرض آلهتها الأولى، وستقود الثورات الجديدة بدورها إلى غيرها، إذا ما سنحت الفرصة لنسيان القديمة. وستشكل لهم الكائنات الجاهلة، والبائسة، والمرتعدة دائمًا آلهة، وإلا فإنَّ سذاجتهم ستجعلهم يقبلون ما يعلنه لهم الدجل أو التعصب.

لا تدعونا نقترح على أنفسنا إذن سوى تصديق عقل أولئك القادرين على فهمه، وتقديم الحقيقة لمن يستطيعون الحفاظ على بريقها، والتخلص من أولئك الذين لا يميلون إلى التصدي للعقبات التي تعترض الإثبات، ولا يلجؤوا في ضلالهم. ودعونا نبثُّ الشجاعة في أولئك الذين لا يملكون القوة لتحطيم أوهامهم. ونشجّع الصادق الذي ترعبه مخاوفه أكثر من شره، ويتبع دائمًا أهواءه بغضِ النظر عن آرائه. ودعونا نعزّي البائس الذي يتأوه تحت وطأة التحيزات التي لم يتحقق منها. ونبدّد شكوك من يشك، ويبحث ببراعة عن الحقيقة، ولا يجد في الفلسفة ذاتها سوى آراءٍ متذبذبة، ولا يحسب حسابًا لإصلاح عقله إلا قليلًا. ودعونا نطرد من العبقري الكائن الخرافي الذي أضاع وقته، وننتزع شبحه الكئيب من الفاني المرتعد؛ الذي خدعته مخاوفه حتى صار عديم النفع للمجتمع. ودعونا نبعد عن الكائن غير المرح إلهًا يبتليه، ويغيظه، ولا يفعل شيئًا أكثر من تأجيج غضبه. فلننتزع عن المتعصب إلهًا يسلّحه بالخناجر. ودعونا نجرد المحتالين، والطغاة من إلهٍ يفيدهم في ترويع البشر، واستعبادهم، وسلبهم، عندما يستبعد الشرفاء مفاهيمهم العظيمة. دعونا لا نشجع الأشرار، وأعداء المجتمع، ونحرمهم من الموارد التي يتكلون عليها للتكفير عن معاصيهم، والأراضي القاحلة البعيدة، والمحيرة التي لا يمكن أن تحدّ من مفاسدهم، ونعوض أولئك بما هو حقيقي وحاضر. دعوهم يخجلون من رؤية أنفسهم على حقيقتها، ولترتجف عند اكتشاف مؤامراتهم. وليخافون يومًا ما من رؤية هؤلاء الفانين الذين يسيئون إليهم، ويتعافوا من الضلالات التي يستغلونها في استعبادهم.

وإذا لم نتمكن من علاج الأمم من تحيزاتها المتأصلة، فلنسعى لمنعها على الأقل من الوقوع مرةً أخرى في تلك المفاسد التي حثّ عليها الدين في كثيرٍ من الأحيان. ودعوا البشر يشكلون لأنفسهم كائنات خرافية، ويفكرون فيهم كما يشاءون، بشرط ألا تجعلهم شعائرهم ينسون أنّهم بشر، وأنّ الكائن الاجتماعي لا يُخلق ليماثل الحيوانات الشرسة. دعونا نوازن بين المصالح الوهمية للسماء، والمصالح المحسوسة للأرض. اتركوا الحكام، والشعب يعترفون مطولاً بأنّ المزايا الناشئة عن الحقيقة، والعدل، والقوانين الجيدة، والتعليم العقلاني، والأخلاق الإنسانية المسالمة هي أكثر صلابة بكثير من تلك التي يتوقعونها عبثًا من آلهتهم. ويدركوا بأنّ المنافع حقيقية، وثمينة لدرجة أنّه لا ينبغي أن يضحوا بها من أجل آمال غير مؤكدة، وكثيراً ما تتناقض مع الخبرة. ولكي يقنعوا أنفسهم، فليأخذ كلّ عاقل في الاعتبار الجرائم الهائلة؛ التي سببها اسم الله على الأرض، وليدرسوا تاريخه المرعب، وتاريخ كهنته البغيضين الذين أججوا في كلّ مكانٍ روح الجنون، والخلاف، والغضب. دعوا الأمراء، والرعايا يتعلمون أحيانًا على الأقل مقاومة مشاعر هؤلاء المفسرين المزعومين للإله، خاصةً عندما يأمرونهم باسمه بأن يكونوا غير إنسانيين، وغير متسامحين، وبربريين، ويكبتون صرخات الطبيعة، وصوت الإنصاف، وبقايا العقل، ويتغاضون عن مصالح المجتمع.

أيها البشر الضعفاء! إلى متى سيستمر خيالكم الفعال للغاية، والمحفّز للغاية لمعرفة العجائب، في البحث خارج الكون عن ذرائع لإلحاق الأذى بكم، وبالكائنات التي تعيش معكم في المجتمع؟ ولماذا لا تتبعون بسلامٍ الطريق البسيط، والسهل الذي رسمته لكم طبيعتكم؟ ولماذا تنثرون الأشواك في طريق الحياة؟ ولماذا تضاعفون الآلام التي يكشفها لكم مصيركم؟ ما المزايا التي يمكن أن تتوقعوها من الإله الذي لم تتمكن الجهود الموحدة للجنس البشري بأسره من تعريفكم به؟ كونوا جاهلين إذن بما لم يخلق عقل الإنسان ليفهمه، وتخلوا عن كائناتكم الخرافية. واشغلوا أنفسكم بالحقيقة، وتعلموا فنّ العيش بسعادة، وبكمال أخلاقكم، وحكوماتكم، وقوانينكم، واهتموا بالتعليم، والزراعة، والعلوم المفيدة حقًّا، واعملوا بحماسٍ، وسخروا الطبيعة لكم من خلال صناعتكم، ولن تكون الآلهة قادرة على اعتراض سعادتكم. واتركوا للمفكرين العاطلين، والمتعصبين عديمي النفع، العمل غير المثمر لسبر أغوار ما يجب أن تصرف انتباهكَ عنها، وتمتعوا بالمزايا المرتبطة بوجودكم الحالي، وضاعفوا عددها، ولا تتوغلوا بما هو خارج مجالكم. وإذا كان لابد أن يكون لديكم كائنات خرافية، فاسمحوا

لأقرانكم أن تكون لهم كائناتهم أيضًا، ولا تنحروا اخونكم؛ لكونهم لا يستطيعون الهذيان على طريقتكم. وإذا كان لكم آلهة، فاطلقوا لخيالكم العنان لخلقها، لكن لا تدعوا هذه الكائنات الخيالية تثمل حتى تخطئ في ما تدين به لتلك الكائنات الحقيقية؛ التي تعيشون معها. وإذا كان لديكم أنظمة مبهمة، ولم تستطعوا أن تقنعوا من دون عقائد عجيبة، وكانت عيوب طبيعتكم تتطلب عكازًا مخفيًا، فتبنوا ما قد يتناسب مع هزلكم، وحددوا تلك التي تعتقدون أنها أكثر دعمًا لهيكلكم المترنح، ولا تحتّمون على جيرانكم أن يتخذوا خيارًا مماثلًا لخياركم، ولكن لا تعانوا من هذه النظريات الخيالية لإثارة حنق عقولكم، وتذكّروا دائمًا أنَّ أهم ما يترتب على ذلك، والأكثر إلحاحًا من بين الواجبات التي تدينون بها للكائنات الحقيقية المقترنة بكم، أن تتحلوا بالحلم المقبول أمام نقاط ضعف الآخرين.

الفصل التاسع

الدفاع عن الآراء الواردة في هذا الكتاب، وعن المعصية، وهل يوجد ملحدين؟

الدفاع عن الآراء الواردة في هذا الكتاب، وعن المعصية، وهل يوجد ملحدين؟

لابدّ أن يفي ما أوردناه في سياق هذا الكتاب بالتخلي عن هؤلاء البشر القادرين على الاستدلال على التحيزات التي يولنها أهمية بالغة. ولكن يجب أن تثبت الحقائق الأوضح احباط مساعي التعصب، والعادة، والخوف، وأنّه ما من شيء أصعب من إزهاق الباطل، عندما يمنحه التقادم لأجل طويل الحق في حيازة العقل البشري، وينال الحصانة عندما يحظى بالقبول العام، ويسود بفضل التعليم، وعندما يرسخه العرف، وتحصّنه القدوة، وترعاه السلطة، وتغذيه باستمرار آمال، ومخاوف الناس الذين يعتبرون آثامهم علاجًا لمآسيهم. وهذه حال القوى الموحدة التي تساند إمبراطورية الآلهة في هذا العالم، التي يبدو أنّها توطد عرشها، وترسخه.

ولا داعي لأن نتفاجأ إذن برؤية الكثير من الناس يتسترون على تهورهم، وخوفهم من الحقيقة. إذ نجد في كلّ مكان بشرًا يصرّون على الارتباط بأشباحٍ، يتوقعون أنْ تجلب لهم السعادة، ولكن من الواضح أنّ هذه الأشباح تمثّل مصدرًا لجميع مآسيهم. فهم يغرمون بالعجائب، ويزدرون ما هو بسيطٌ، وسهل الفهم، بيد أنّ ثلةً منهم ترعرعَوا على طرق الطبيعة، واعتادوا على إهمال استخدام عقولهم، إذ يسجد الجاهلون من عصر إلى آخر أمام تلك القوى الخفية التي تعلموا أن يعبدوها. ويتوجهون إليها بصلواتهم الأشد خضوعًا، ويتضرعون إليها في مصائبهم، وينهبون أنفسهم لأجلهم من نتاج عملهم، وينشغلون بلا توقف بشكر هذه الأصنام الباطلة على نعمٍ لم يتلقوها، أو يستجدونها في منافع لا يمكنهم الحصول عليها. ولا يمكنهم تلقيها لا بالخبرة ولا التأمل، ولا يدركون أنّ آلهتهم كانت دائمًا صماء، وهم من ينسبون إليها سلوكهم الخاص؛ فيعتقدون أنّها ساخطة، ويرتعدون، ويئنون، ويتنهدون عند ارجلها، وينثروا مذابحهم بالعطايا لها. ولا يرون أنّ هذه الكائنات القوية جدًا، تخضع للطبيعة، ولا تصفح عنهم أبدًا إلا عندما تكون هذه الطبيعة مواتية لهم. ومن ثم، فإنّ الأمم تتواطئ مع الذين يخدعونها، وتعارض الحقيقة بشدة كحال أولئك الذين يضللونها.

وهناك عدد قليل جدًا من الأشخاص؛ الذين لا يشركون آراء الجهلة بشكلٍ أو بآخر في الأمور الدينية. ويُنظر عمومًا إلى كلّ من يتجاهل الأفكار المتلقاة على أنَّه مجنون، وكائنٌ متغطرس، ويعتقد أنَّه أكثر حكمة من الآخرين. وبمجرد ذكرِ الأسماء السحرية للدين، واللاهوت تتملك عقول الناس رهبةٌ مفاجئة، ومرعبة، ويهاجونها بمجرد رؤيتهم لها، إذ ينتاب المجتمع القلق، ويتخيل كلّ منهم أنَّه يرى بالفعل الملك السماوي يرفع ذراعه المنتقمة على البلد؛ التي أنتجت فيها الطبيعة المتمردة وحشًا، ولديهم الجرأة الكافية لتحمّل غضبه. حتى أنَّ الأشخاص الأكثر اعتدالًا يتهمون الرجل بالحماقة، والفتنة إن تجرأ على النزاع مع هذه السيادة الوهمية، وتلك الحقوق التي لم يتطرق لها الحس السليم أبدًا. ونتيجة لذلك، يظهر كلّ من يكرّس حجاب التحيز بوصفه كائنًا غير عقلاني، ومواطنًا خطيرًا، وتُنطق عقوبته بصوتٍ شبه إجماعي، ومن المستحيل أن يُسمع صوته نتيجة السخط العام الناجم عن التعصب، والخداع، ويعتقد كلّ منهم أنَّه مذنبٌ إذا لم يبدِ حدةً حياله، ويتعصب لصالح إلهه الرهيب؛ الذي من المفترض أن يثير غضبه. وهكذا، يُنظر إلى من يستشير عقله، وتلميذ الطبيعة، على أنَّه آفة عامة، ويُعتبر عدو الشبح الضار عدوًا للجنس البشري، ويُعامل من سيحقق سلامًا دائمًا بين البشر على أنَّه مُزعِجٌ للمجتمع، ويحرّمون بالإجماع كلّ من يميل إلى تشجيع البشر المذعورين من تحطيمه لتلك الأصنام؛ التي فرض عليهم التحيز الارتعاد منها. ويرتجف الإنسان الخرافي من الاسم الصريح للملحد، وينتاب الربوبي الرعب ذاته، ويدخل الكاهن إلى مقرّ المحاكمة محتدًا، ويهيء طغيانه موكبه الجنائزي، ويصفق الجاهل لتلك العقوبات؛ التي تفرضها القوانين غير العقلانية ضد الصديق الحقيقي للجنس البشري.

هذه هي المشاعر التي من المتوقع أن تنتاب كلّ من يجرؤ على أن يدلي لأقرانه بتلك الحقيقة؛ التي يبدو أنَّ الجميع يبحث عنها، ولكنهم يخشون التحري عنها، أو أن نخطئ عندما نميل إلى إظهارها لهم. وبالفعل، منْ هو الملحد؟ إنَّه إنسان يقضي على الكائنات الخرافية الضارة بالجنس البشري، من أجل إعادة الناس إلى الطبيعة، والخبرة، والعقل. وهو مفكرٌ لم تتح له الفرصة بعد أنْ يتأمل في المادة، وطاقتها، وخصائصها، وأساليب عملها، لأن يشرح ظواهر الكون وعمليات الطبيعة، وابتكار قوى مثالية، وذكاءات خيالية، وكائنات من صنع الخيال، وبغض النظر عن كونه يفهم هذه الطبيعة بصورةٍ أفضل، فهو لا يفعل أكثر من جعلها متقلبة، وغير قابلة للتفسير، ومبهمة، وعديمة الفائدة لسعادة البشرية.

وهكذا، يُعتبر الناس الوحيدين؛ الذين يمكن أن تكون لديهم أفكارٌ بسيطة، وصادقة عن الطبيعة، متأملين غير منطقيين أو مخادعين. ويُتهم أولئك الذين يشكلون لأنفسهم مفاهيم معقولة عن القوة المحركة للكون، بإنكار وجود هذه القوة. واتهام أولئك الذين وجدوا كلّ شيء يعمل في هذا العالم بموجب قوانين ثابتة، ومحددة، "بعزو كلّ شيء إلى الصدفة". وهم يعانون من الجهالة والهذيان؛ اللتان ألحقهما بهم أولئك المتحمسين الذين ينسبون بفضل خيالهم الهائم دائمًا في فراغ، تأثيرات الطبيعة إلى عللٍ وهمية لا وجود لها إلا في أدمغتهم، وإلى كائنات خيالية، وإلى القوى الوهمية التي تمادوا في تفضيلها على العلل الحقيقية، والمعروفة. ولا يمكن لأيّ إنسان، بالمعنى الصحيح، أن ينكر طاقة الطبيعة، أو وجود قوة تعمل بموجبها المادة، وتحركها، بل لا يمكن لأي إنسان أن ينسب هذه القوة من دون التخلي عن عقله، إلى كائنٍ وضِعَ خارج الطبيعة، ومتميزًا عن المادة، ولا يشترك بشيءٍ معها. ألا نقول: إنَّ هذه القوة غير موجودة، وندّعي أنّها تكمن في كائنٍ مجهول يتكون من مجموعة من الصفات المبهمة، وغير المتوافقة، مما يؤدي بالضرورة إلى استحالة وجودها؟ لا شكّ أنَّ ذرات أبيقور، والعناصر غير القابلة للفناء، والتي أحدثت حركتها، وتلاقيها، وتوليفها جميع الكائنات، تمثل عللًا أكثر واقعية بكثير من الإله اللاهوتي. وبالتالي، لمزيد من التوضيح، هم أنصارٌ لكائنٍ خيالي، ومتناقض، ويستحيل تصوره، ولا يستطيع العقل البشري تعينه من أيّ جانب، ولا يقدمون لنا شيئًا سوى اسم غامض لا يمكن تأكيد أيّ شيء عنه، وكما قلتُ: إنَّ من يصنعون هذا الكائن الخالق، والواجد، والحافظ للكون، أناسٌ غير عقلانيين. أليسوا ملحدين حقيقيين أولئك الحالمون العاجزون عن ربط أيّ فكرةٍ إيجابية بالعلّة التي يتحدثون عنها باستمرار؟ أليسوا حمقى حقًا أولئك المفكرون؛ الذين يجعلون من العدم المحض مصدرًا لكلّ الكائنات؟ أليس من الحماقة تجسيد المجردات، والأفكار السلبية، ثم السجود أمام خيالٍ من صنع دماغنا؟ ومع ذلك، ينظم أناسٌ بهذه الطباع آراء العالم، ويهيبونَ بالعامة، ويزدرونهم، وينتقمون منهم، وهم أكثر عقلانية منهم. وإن كنتَ لن تؤمن سوى بهؤلاء الحالمين المتعمقين، فلا يوجد ما هو أدنى من الجنون والتطرف الذي يمكن أن يرفض بالطبع وجود القوة الدافعة، والمبهمة تمامًا. فهل الهذيان إذن هو تفضيل المعلوم على المجهول؟ هل تُعتبر استشارة الخبرة، ومناشدتنا لأدلة حواسنا جريمةً في دراسة أهم ما نعرفه؟ وهل هي إساءة شنيعة أن نخاطب العقل، ونفضّل أقواله على القرارات السامية لبعض السفسطائيين؛ الذين يقرون بأنفسهم أنَّهم لا يفهمون شيئًا عن الإله الذي يعلنونه لنا؟ ومع ذلك يقررون أنّه لا يوجد أبدًا جريمة

تستحق العقاب، ولا توجد مبادرة أخطر على المجتمع من أنْ يستلّوا شبحًا لا يعرفون شيئًا عنه، ويحيطونه بتلك الصفات التي لا يمكن تصورها، وتلك المعدات المهيبة التي تتضمن تقليد خيال بعضهم البعض، وجهلهم، وخوفهم، ودجلهم، ولا يوجد ما هو أكثر عقوقًا، وإجرامًا من ابتهاج الناس على شبحٍ، مثلت فكرته لوحدها مصدرًا لكلّ أحزانهم، ولا يوجد ما هو ضروري أكثر من محو تلك الكائنات الجريئة؛ التي لديها ما يكفي من الجرأة لمحاولة انتهاك السحر الخفي، والذي من شأنه أن يبقي الجنس البشري مخدرًا في الضلال، ولكسرٍ قيود الإنسان، كان لابدّ من فكّ أغلاله الأكثر سريّة.

ونتيجة إعادة إثارة هذه الجلبة باستمرار من خلال الجدل، وتكرار جهلها، لم تجرؤ أبدًا تلك الأمم التي سعى فيها العقل إلى التخلّص من الأخطاء في جميع العصور، على الاستماع إلى دروسها النافعة. ولم تستمع إلى أصدقاء البشرية أبدًا؛ لأنَّهم كانوا أعداءًا لكائناتهم الخرافية. وهكذا يواصل الشعب خوفه، ويمتلك قلة قليلة من الفلاسفة الشجاعة لإبهاجهم، ونادراً ما يجرؤ أيّ شخصٍ على تحدي الرأي العام الذي تشوبه الخرافات؛ لخشيتهم من قوة الدجل، ومخاطر الطغيان، ومواساة أنفسهم دائمًا بالأوهام. وتكتم صيحة الجهل الغالب، والتعصب المتغطرس صوت الطبيعة الضعيف في كلّ الأزمنة. وكانت مجبرة على التزام الصمت، وسرعان ما طوى دروسها النسيان، وعندما تجرأت على الكلام، كان ذلك في كثيرٍ من الأحيان في لغةٍ غامضة فقط، ومبهمة للقسم الأكبر من البشر. ولكن كيف ينبغي أن يتمكن الجهلة، ومن يصعب عليه بلوغ الحقائق الأوضح، والأكثر تميزًا، من فهم أسرار الطبيعة المعروضة بموجب أنصاف الكلمات، والشعارات؟

ألا يخولنا تأملنا للغة المهينة التي يثيرها اللاهوتيون في آراء الملحدين، وما يُفرض عليهم من عقوبات بتحريض منهم، أن نستنتج أنَّ عقائدهم غير يقينية تمامًا كحال ما يقولونه عن وجود إلههم، أو اعتبار آراء خصومهم غير سخيفة تمامًا كما يدعون؟ دائمًا ما يؤدي عدم الثقة، والضعف، والخوف إلى قسوة الناس، وعدم غضبهم ممن يزدرونهم؛ فلا ينظرون إلى الحماقة على أنَّها جريمة يُعاقب عليها، والاكتفاء بالسخرية من شخصٍ غير عقلاني، ومن ينكر وجود الشمس، أفلا نعاقبه إذا لم نكن غير عقلانيين. لا يثبتْ هذا الغضب اللاهوتي سوى ضعف قضيته، ووحشية أصحاب المصالح الذين تتمثل مهنتهم في إعلان الكائنات الخرافية للأمم، وتثبت لنا أنَّهم وحدهم لديهم مصلحة في هذه القوى المرئية التي ينجحون في

الاستفادة منها بالكامل لترويع البشر.(١) ولكن على الرغم من أنَّ طغاة العقل لا يتفقون مع مبادئهم الخاصة، غير أنَّهم يفسدون بيدٍ ما زرعوه بالأخرى، وهم الذين بعد أن صنعوا إلهًا مفعمًا بالخير، والحكمة، والإنصاف، قلدوه، ووصموه بالعار، وأفنوه تمامًا بقولهم: إنَّه قاسٍ، ومتقلب، وظالم، ومستبد، ومتعطش لدماء التعيس. ويأهلّنا هذا للقول: إنَّهم بشر آثمين حقًّا.

ولا يستطيع من لا يعرف الإله أن يلحق الضرر به، وبالتالي لا يُدعى آثمًا. يقول أبيقور: "أن تكون آثمًا، لا يعني أن تنتزع من الجهلة آلهتهم، بل أن تنسب إلى تلك الآلهة آراء الجهلة". ويعني أن تكون آثمًا، أنَّكَ تَمينَ إلهًا نؤمن به، وتتعمد إغضابه. ويعني أن تكون آثمًا، أنَّك تعترف بإلهٍ خير، بينما يبشرنا في الوقت ذاته بالاضطهاد، والملحمة. ويعني أن تكون آثمًا، أنَّك تخدع باسم الله، البشر الذين نستخدمهم ذريعةً لأهوائنا التي لاقيمة لها. ويعني أن تكون آثمًا، أنَّ الإله السعيد للغاية، والمقتدر، يمكن أن تسيء إليه مخلوقاته الضعيفة. ويعني أن تكون آثمًا هو أن تتحدث زورًا عن الله؛ الذي نفترض أنَّه عدوًا للباطل. وأخيرًا، يعني أن تكون آثمًا، الاستفادة من الإله في إقلاق راحة المجتمع، واستعباد الطغاة لهم، وإقناعهم أنَّ سبب الدجل هو ذاتها سبب الإله، وما يُنسب إلى الله من تلك الجرائم التي من شأنها أن تقضي على كمالاته الإلهية. ويعني أن تكون آثمًا، وغير عقلاني في الوقت ذاته، أن تجعل من الكائن الخرافي إلهًا نعبده.

ويعني أن تكون تقيًا من ناحية أخرى أنْ تخدم بلدكَ، وأن تكون نافعًا لأقرانكَ، وتعمل من أجل رفاهيتهم التي يمكن لكلّ شخصٍ أن يطالب بها، ويتأملها وفقًا لملكاتهِ ويمكن أن يستغلها، ومن المفيد حقًّا، بل من الواجب عندما تمتلك الشجاعة لتبليغ الحقيقة، ومحاربة الضلال، ومهاجمة التحيزات التي تعارض سعادة البشرية في كلّ مكان، أن تنتزع من أيدي البشر تلك الأسلحة التي يسلحهم بها التعصب، وتمنع الدجل، والطغيان في إمبراطورية الرأي القاتلة التي نجحوا في الاستفادة منها في جميع الأزمنة، وفي كلّ الأمكنة، ليرتقوا على أنقاض الحرية، والأمن، والسعادة العامة. ويعني أن تكون تقيًا حقًّا، أن تراقب بانتظام قوانين الطبيعة السليمة، وأن تتّبع بأمانة تلك الواجبات التي تفرضها علينا. ويعني أن تكون تقيًا، أن تكون

---

(١) يصف لوسيان هنا جوبيتر الذي اختلف مع مينيبوس، فخطط لضربه بالرعد. فقال له الفيلسوف: "آه، أنت مخطئٌ إن استخدمت رعدكَ وأنت غضبان".

إنسانيًا، ومنصفًا، ومحسنًا، وأن تحترم حقوق البشر. ويعني أن تكون تقيًا وعقلانيًا، أن ترفض تلك الخيالات؛ التي ستقودنا إلى إساءة الأخذ بمجامع العقل الرصينة.

وهكذا، مهما يُقال عن التعصب، والدجل، فمن ينكر وجود الإله، الذي لا أساس له سوى الخيال المروع، ويرفضه، فهو يناقض نفسه على الدوام، ومنْ ينتزع من عقله، وقلبه إلهًا يغلب باستمرار الطبيعة، والعقل، وسعادة الناس؛ أعني منْ لا يسلّم نفسه لمثل هذا الكائن الخرافي الخطير، قد يُعرف بالتقوى، والنزاهة، والعفة، عندما لا ينحرف سلوكه عن تلك القواعد الثابتة؛ التي تلزمه بها الطبيعة، والعقل. فهل ينجم عن القول: إنَّ الإنسان يرفض الاعتراف بإله متناقض، وكذلك رسله الغامضون المفوضون باسمه، أنَّ يرفض الاعتراف بقوانين الطبيعة الواضحة، والقابلة للإثبات، ويعتمد عليها، ويختبر قوتها، ويلتزم بأداء الواجبات الضرورية لها تحت وطأة العقاب في هذا العالم؟ صحيح أنَّه إذا كانت الفضيلة تكمن عن دون قصد في التخلي المخزي عن العقل، وفي تعصبٍ مدمر، وعاداتٍ غير مجدية، فلا يمكن للملحد أن يتحول إلى كائنٍ فاضل، ولكن إذا كانت الفضيلة تتمثل في كلّ ما يمكننا فعله من خيرٍ للمجتمع، فيمكن للملحد أن يطالب بها، ولن يكون قلبه الشجاع، والمعطاء مذنبًا لإلقاء سخطه المشروع على التحيزات؛ التي تقضي على سعادة الجنس البشري.

لكن دعونا نستمع إلى الافتراضات التي أكّدها اللاهوتيون بشان الملحدين؛ ونبحث بترو، ودون ازدراء في الافتراءات التي يقذفونهم بها، وما يظهرونه من أنَّ الإلحاد يمثل أعلى درجة من الهذيان الذي يمكن أن يهاجم العقل، وهو أكبر امتداد للفساد الذي يمكن أن يصيب قلب الإنسان، ويهتمون بتشويه سمعة خصومهم، ويجعلون الشك المطلق يبدو وكأنَّه ناجمًا عن الجريمة، أو الحماقة. ولا نرى كما يقولون لنا، وقوع هؤلاء الناس في ويلات الإلحاد، إذ لديهم سببٌ للأمل في أن تكون السعادة من نصيبهم في المستقبل. وبعبارة أخرى، يسعون بسبب مصلحة أهوائهم إلى الشكِ في وجود كائن، مسؤولين أمامه عن مساوئ هذه الحياة بحسب لاهوتينا، ولا يعرف الملحدون سوى الخوف من العقاب، ويرددون بلا انقطاع كلمات النبي العبري؛ الذي يدّعي أنَّه ما من شيءٍ يدفع الناس إلى إنكار وجود الإله سوى الحماقة.[1] وإذا كنتَ تصدق البعض الآخر، فبرأيهم: "ليس هناك ما هو أكثر سوادًا من

(١) قال الأحمق: ليس في قلبه إله. وسيكون الافتراض أقرب إلى الحقيقة، إن أزلنا أداة النفي. ولا ينبغي أن يقرأ أولئك الذين سوف يميلون إلى رؤية التعسف الذي يعرف السمّ اللاهوتي كيف ينشره بين الملحدين، سوى كتاب الدكتور بنتلي Bentley، بعنوان: "حماقة الإلحاد"، الذي تُرجم إلى اللاتينية في القسم الثامن.

قلبِ ملحدٍ، ولا شيء أكثر زيفًا من عقله. ولا يمكن أن ينتج الإلحاد إلا عن ضميرٍ معذب يسعى إلى اعتاق نفسه مما تسبب في مشكلته". وهنا يقول ديرهام Derham: "من حقنا أن ننظر إلى الملحد على أنّه وحشٌ بين الكائنات العقلانية، وواحدٌ من تلك السلالات غير العادية التي نادرًا ما نصادفها في الجنس البشري بأسره، والذي يقابل نفسه مع جميع البشر الآخرين، ولا تكون ثوراته على العقل، وطبيعة الإنسان فقط، بل على الإله بحد ذاته."

وسنرد ببساطة على كلّ هذه الافتراءات بالقول: ينبغي أن يحكم هذا القارئ، فإذا كان نظام الإلحاد سخيفًا كأولئك المتأملين المتعمقين؛ الذين يتنازعون دائمًا على السلالات الجاهلة، والمتناقضة، والخيالية، لأدمغتهم، أفلا يعتقدون أنّهم كذلك؟[1] وربما من الصواب القول: إنَّ نظام الطبيعانية لم يتطور في كلّ مداه إلى اليوم، وسيتمكن الأشخاص غير المتحيزين على الأقل من معرفة ما إذا كان تبرير المؤلف جيدًا أم سيئًا، وما إذا كان قد تستر على الصعوبات الأهم، وما إذا كان مخادعًا، وما إذا كان قد لجأ كحالِ أعداء العقل البشري إلى الذرائع، وإلى مغالطاتٍ، وتفاصيل دقيقة، ولابدّ أن تقع الشبهة دائمًا على أولئك الذين يستخدمونها؛ إما لكونهم لا يعرفون الحقيقة أو لأنّهم يخشونها. ومن ثم فإنَّ الصراحة، واللامبالاة، والعقل، والحكم على ما إذا كانت المبادئ الطبيعية التي قُدمت هنا تفتقر إلى الأساس، تنتمي لهؤلاء القضاة المستقيمون الذين يُخضع لهم تلميذ الطبيعة آرائه، وله الحق في إرجاء الحكم على المتعصب، والجاهل المتغطرس، والمهتمين بالتميز. وسيجد هؤلاء الأشخاص الذين اعتادوا على التفكير أسبابًا على الأقل للشك في العديد من تلك المفاهيم العجيبة التي لا تظهر كحقائق لا جدال فيها سوى لأولئك الذين لم يفحصوها أبدًا بمعيار الحس السليم.

ونتفق مع ديرهام على أنَّ الملحدين نادرون، وقد شوهت الخرافات الطبيعة، وحقوقها، وأبهر التعصب العقل البشري، وأزعج الرعب قلوب الناس، واستعبد الدجل، والطغيان الفكر، وأخيرًا أثار الضلال، والجهل، والهذيان حيرةً بالغة، وعقّد الأفكار الواضحة، ولم يعدْ يوجد شيء أكثر ندرةً من العثور على بشرٍ لديهم الشجاعة الكافية للتخلي بأنفسهم عن

(١) ينبغي أن نميل عند رؤيتنا للاهوتيين يتهمون للملحدين مرارًا وتكرارًا بالسخافة، إلى الاعتقاد بأنّهم لا يمتلكون فكرة عمّا يجب أن يعارضه الملحدون، وهذا صحيح، لكونهم أسسوا منهجًا ممتازًا، إذ يقول الكهنة ما يحلو لهم، وينشروه، في حين لا يستطيع أعداؤهم الدفاع عن أنفسهم أبدًا.

المفاهيم التي يتضافر كلّ شيء على التماثل مع وجودها. ويبدو في الواقع أنَّ العديد من اللاهوتيين، على الرغم من تلك التحذيرات التي يحاولون بها التغلب على الملحدين، قد شككوا في كثيرٍ من الأحيان في وجود أيّ شيء في العالم، أو إذا كان هناك أشخاص يستطيعون أن ينكروا بصدقٍ وجود الله؛[1] فلا شكّ أنَّ عدم يقينهم كان مبنيًا على الأفكار السخيفة؛ التي ينسبونها إلى خصومهم الذين اتهموا دون توقف بأنَّهم ينسبون كلّ شيء إلى الصدفة، وإلى الأسباب العمياء، والمادة الميتة، والخاملة، والعاجزة عن أن تسلك بمفردها.

وأعتقد أنَّنا برّرنا بما يكفي لأنصار الطبيعة هذه الاتهامات السخيفة. وأثبتنا في سياق هذا الكتاب، ونكرر أنَّ الصدفة عبارة عن كلمةٍ خالية من المعنى، ولا تعلن سوى الجهل بالأسباب الحقيقية كما هو الحال مع لفظة "الله". وأثبتنا أنَّ المادة ليست خاملة، وأنَّ الطبيعة فعّالة بالأساس، وقائمة بذاتها، وقد امتلكت طاقة كافية لتحدث كلّ الكائنات التي تحتويها، وجميع الظواهر التي نراها. وأثبتنا خلالها أنَّ تصور هذه العلّة كانت أكثر واقعية بكثير، وأسهل من العلّة الوهمية، والمتناقضة، والمتعذّر تصورها، والمستحيلة، والتي ينسب إليها اللاهوت شرف تلك المعلولات العظيمة التي تثير إعجابه. وقد أوضحنا أنَّ غموض المعلولات الطبيعية لم يكن سببًا كافيًا لتعيين علّة لها، ولا تزال غير مفهوم أكثر من كلّ ما يمكننا معرفته. وأخيرًا، إذا كان غموض الإله لا يسمح لنا بإنكار وجوده، فمن المؤكد على الأقل أنَّ عدم توافق الصفات التي ننسبها له، يخولنا لإنكار أن الكائن الذي يوحد بينها، لا يمكن أن يكون سوى كائن خرافي، ويستحيل وجوده.

وتسليمًا بهذا، سنكون قادرين على تصحيح المعنى؛ الذي يجب ربطه باسم الملحد،

---

(١) يعترف هؤلاء الأشخاص أنفسهم الذين يكتشفون في الوقت الحاضر أنَّ الإلحاد نظام غريب، بإمكانية وجود ملحدين سابقًا. فهل منحتنا الطبيعة إذن جزءًا من العقل أقل مما منحته للبشر في الأزمنة الأخرى؟ أم هل ينبغي أن يكون إله اليوم أقل عبثية من آلهة العصور القديمة؟ وهل حصل الجنس البشري بعد ذلك على معلومات تتعلق بهذه القوة الدافعة الخفية للطبيعة؟ هل رفض فانيني Vanini، وهوبز، وسبينوزا، وآخرون، إله الأساطير الحديثة، والتي يُنسب إليها الفضل أكثر من آلهة الأساطير الوثنية التي رفضها أبيقور، وستراتو Strato، وثيودوروس Theodorus، ودياجوراس Diagoras، والخ؟ إذ يدعي ترتليان أنَّ المسيحية قد بدّدت ذلك الجهل الذي انغمس فيه الوثنيون، والمتعلق بالماهية الإلهية، وأنَّه لا يوجد عند المسيحيين حرفيٌ لم يرى الله، ولم يعرفه. ومع ذلك، اعترف ترتليان نفسه بإله مادي، وكان يوجد ملحدٌ وفقًا لمفاهيم اللاهوت الحديث. أنظر: (the note to chap. iv. of this volume, p.237.)

والذي يجود به رغم ذلك اللاهوتيين على كلّ أولئك الذين ينحرفون في كلّ شيء عن آرائهم الموقّرة دون تمييز. ولا يوجد أيّ ملحدين، ولن تنمّ الكلمة التي حددناها لهم سوى عن الحمقى، إذا حددنا الملحد على أنّه رجل ينكرُ وجود قوة متأصلة في المادة؛ التي لا يمكننا تصور الطبيعة بدونها، وإذا كان اسم الله قد مُنح هذه القوة. ولكن إذا فهمنا الملحدون على أنّهم بشرٌ غير متعصبين، وتوجههم الخبرة، ويستدلون بحواسهم، ولا يرون في الطبيعة سوى ما يكتشفون حقًا أنّه موجود، أو ما يمكنهم معرفته، ولا يلاحظون، ولا يستطيعون إدراك أيّ شيء سوى المادة الفعالة، والقابلة للحركة بالأساس، وتتنوع في تركيبها، وتتمتع من تلقاء ذاتها بخصائص مختلفة، وقادرة على توليد جميع الكائنات التي نبصرها في قدراتنا البصرية، وإذا فهمها الملحدين على أنّهم فلاسفة الطبيعة، المقتنعين بأنّهم يستطيعون من دون تواتر العلة الوهمية، أن يشرحوا كلّ شيء ببساطة من خلال قوانين الحركة، والعلاقات القائمة بين الكائنات، ومن خلال الصلات بينها، وتشابهاتها، وتجاذبها، ونفورها، حسب خصائصها، وتكوينها، وتحللها.[1] وإذا فُهِمَ الملحدون بهؤلاء الأشخاص الذين لا يعرفون "الروح"، ولا يستوعبون ضرورة الروحانية، أو غموض تلك العلل المادية، والمعقولة، والطبيعية، والتي يرونها متماثلة من حيث تصرفها، ولم يكتشفوا أنَّ فصل القوة المحركة عن الكون، ومنحها لكائنٍ وضع خارج الكل العظيم، وذو ماهيةٍ يتعذر تصورها تمامًا، ولا يمكن إظهار نُزله، هي أفضل وسيلة للعلم به. وإذا فُهم الملحدون على أنّهم أولئك الذين أقرّوا ببراعة بأنَّ عقولهم لا تستطيع تصور الصفات السلبية، والتجريدات اللاهوتية، أو التوفيق بينها وبين الصفات الإنسانية، والأخلاقية المنسوبة إلى الإله، أو أولئك الذين يدّعون أنّه لا يمكن أن ينتج من هذا التحالف غير المتوافق، سوى كائنٌ خيالي، ويرون أنَّ الروح النقية خالية من الأعضاء اللازمة لتمثل

---

(١) يعتقد دكتور رالف كودوورث Cudworth، في كتابه: "النظام الذكي"، الفصل الثاني، بوجود أربع أنواع من للملحدين عند القدماء، الأول: تلاميذ أناكسيمندر، ويُدعون بالهيلوباتيين، الذين عزو أصل كلّ شيء إلى المادة المفتقرة إلى الشعور. والثاني: الذريون أو تلاميذ ديموقريطس الذين نسبوا كلّ شيء إلى توافق الذرات. والثالث: الملحدون الرواقيين الذين اعترفوا بالطبيعة العمياء، لكنهم يتصرفون بموجب قوانين معينة. أما الرابع: أنصار حيوية المادة، أو تلاميذ أسطراطون Strato، الذين نسبوا الحياة إلى المادة. ومن الجيد أن نلاحظ أنَّ الفلاسفة الطبيعيين الأكثر تعلمًا في العصور القديمة كانوا ملحدين، إما علانية، أو سرًا، لكن خرافات الجهلة كانت تعارض عقيدتهم دائمًا، وغلبت عليها تمامًا فلسفة فيثاغورس المتعصبة، والعجيبة، إضافةً إلى أفلاطون. ويحقّ القول: إنَّ التعصب لما هو مبهمٌ وغامض، يطغى عادةً على ما هو بسيط، وطبيعي ومعقول. أنظر: Le Clsrc's Select Pieces, vol.ii.

صفات، وملكات الطبيعة البشرية. وإذا حددنا الملحدين بهؤلاء الذين يرفضون الشبح، ويأخذون بالحسبان صفاته البغيضة، والمتنافرة فقط لتعكير صفو الجنس البشري، وإغراقه في حماقاتٍ شديدة التحيز. وكما قلتُ: إذا كان المفكرون من هذا النوع، هم أولئك الذين يُطلق عليهم "الملحدين"، فلا يمكن الشك في وجودهم، ولأمكن العثور على عددٍ كبير منهم. وإذا كانت أنوار الفلسفة الطبيعية السليمة، والعقل العادل، أكثر انتشارًا بالعموم؛ فلا نعتبرهم كائنات غير عقلانية، ولا كائنات غاضبة، بل أناسٌ خالين من التحيز، وستكون آرائهم، وجهلهم إن رغبوا بذلك، أكثر فائدةٍ للجنس البشري من تلك العلوم، والفرضيات الباطلة التي لطالما كانت الأسباب الحقيقية لمآسي كلّ إنسان.

وإذا رغبنا أن نحدد من ناحية أخرى، الملحدين في هؤلاء الذين هم أنفسهم ملزمون بالإقرار بأنَّهم لا يمتلكون فكرةً واحدة عن الكائن الخرافي؛ الذي يعبدونه، أو الذي يعلنونه للآخرين العاجزين عن أن يفسروا بأنفسهم طبيعة شبحهم المؤلَّه، أو ماهيته، ولا يستطيعون الاتفاق فيما بينهم على البراهين على وجود إلههم، أو صفاته، أو نمط فعله، ومن جعلوه بحكم نفيهم للنقائض عدمًا محضًا، وهم الذين يسجدون لأنفسهم، أو يجعلون الآخرين يسجدون أمام التخيلات السخيفة الناجمة عن هذيانهم. وأقول: إذا عيينا الملحدين بأنَّهم بشرٌ من هذا النوع، فسنكون ملزمين بالإقرار بأنَّ العالم ينضح بالملحدين، وسنكون مضطرين إلى أن نضع في هذا المقدار اللاهوتيين الأكثر نشاطاً والذين يفكرون باستمرار فيما لا يفهمونه، ويتنازعون على كائنٍ لا يمكنهم إثبات وجوده، ويقوضون بفعل تناقضاتهم وجوده بصورة فعالة للغاية، ويطمسون كينونتهم الخيِّرة التامة من خلال العيوب الهائلة التي ينسبونها إليه، ويتمردون على هذا الإله، وطبعه الفظيع الذي يصفونه به. وبعبارة أخرى، سوف نتمكن بوصفنا ملحدين حقيقيين أن نأخذ بالاعتبار بناءً على الإشاعة، والتقاليد هؤلاء الأشخاص الساذجين الذين يسجدون أمام كائنٍ ليس لديهم أفكار أخرى عنه سوى تلك التي قدمها لهم المرشدين الروحيين الذين يقرّون بأنفسهم أنَّهم لا يفهمون المادة. إنَّ الملحد إنسان لا يؤمن بوجود الله، ولا يمكن لأحدٍ أن يتيقين اليوم من وجود كائنٍ لا يتخيله، ويقول: إنَّه يوحد بين صفاته المتنافرة.

وما قيل يثبت أنَّ اللاهوتيين أنفسهم لم يعرفوا دائمًا المعنى الذي يربطونه بكلمة "ملحد"، وقذفوا بهم بصورةٍ مبهمة، وناضلوا ضدهم كأشخاصٍ تتعارض مشاعرهم، ومبادئهم مع ما لديهم. ونجد بالفعل أنَّ هؤلاء الأطباء المهيبين؛ الذين كانوا دائمًا مفتونين بآرائهم الخاصة، كانوا

في كثيرٍ من الأحيان مسرفين في اتهاماتهم بالإلحاد، وفي حق كلّ أولئك الذين كانوا عرضة للإيذاء، والتشويه، وسعوا إلى تقبيح أنظمتهم، وكانوا على يقين من إثارة الذعر من الجهل، والتفاهة عن طريق التهمة الغامضة، أو بكلمةٍ يعلق عليها الجهل فكرة الرعب؛ لأنَّهم لا يعرفون معناها الحقيقي. ونتيجة لهذه السياسة، رأينا في كثيرٍ من الأحيان أنصار الطائفة الدينية ذاتها، ومن يعبدون الإله ذاته، يعاملون بعضهم البعض بالتبادل على أنَّهم ملحدون في خضم نزاعاتهم اللاهوتية. وأن تكون ملحدًا بهذا المعنى، لا يعني أن تكون لديك الآراء ذاتها تمامًا في كلّ نقطة مثل أولئك الذين نختلف معهم في الدين. واعتبر الجهلة في جميع العصور أولئك ملحدين، ولم يفكروا في الإله، بالأسلوب ذاته تمامًا كما هو الحال مع المرشدين الذين اعتادوا على اتباعهم. ولم يكن سقراط العابد للإله الواحد، سوى ملحد في نظر الشعب الأثيني. وكما لاحظنا سابقًا، لازال الكثير من هؤلاء الأشخاص يُتهمون بالإلحاد مرارًا وتكرارًا، وبذلوا قصارى جهدهم لإثبات وجود الله، لكنهم لم يقدموا أدلةً مرضية على ذلك.

ولما كانت البراهين في موضوعٍ مشابه ضعيفة، وفاسدة، فقد كان من السهل على أعدائهم دفعهم للتخلي عن الملحدين الذين أظهروا الخبث بخيانتهم لقضية الإله نتيجة ضعف دفاعهم عنه. وسأتوقف هنا، لأظهر ما يوجد من أساسٍ ضئيل لما يُقال أنَّه حقيقة واضحة، فمع أنَّهم كثيرًا ما يحاولون إثباتها، ولكن لا يمكن التحقق منها أبدًا، حتى بما يرضي أولئك الذين يتباهون كثيرًا بقناعتهم الوثيقة بها. ومن المؤكد على الأقل أنَّنا قد وجدنا عمومًا عند البحث في مبادئ أولئك الذين سعوا لإثبات وجود الله، أنَّها ضعيفة أو خاطئة؛ لأنَّها لا يمكن أن تكون ثابتة أو صحيحة، وقد اضطر اللاهوتيون أنفسهم إلى الكشف عنها، بحيث يمكن لخصومهم أن يستمدوا منهم إحداثيات تتعارض تمامًا مع تلك المفاهيم؛ التي لديهم مصلحة كبيرة في الحفاظ عليها. ونتيجة لذلك، كانوا في كثيرٍ من الأحيان غاضبين للغاية، من أولئك الذين اعتقدوا أنَّهم اكتشفوا أقوى البراهين على وجود إلههم، ولم يدركوا أنَّه من المستحيل أن يظهروا بأنفسهم هجومًا على المبادئ أو الأنظمة الراسخة، التي تأسست بوضوح على كائنٍ خيالي ومتناقض، ويراه كلّ إنسان بصورة مختلفة.(١)

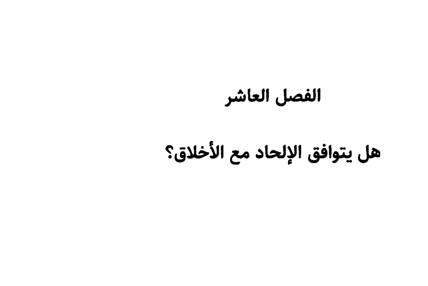
---

(١) ما الذي يتبادر في ذهننا عن مشاعر رجل يعبر عن نفسه كما عبر باسكال، في المقالة الثامنة عن أفكاره، التي يكشف فيها شكوكًا كاملة بوجود الله؟ يقول: "بحثتُ فيما إذا لم يترك هذا الإله الذي يتحدث عنه العالم بأسره، بعض الدلالات على نفسه. ونظرتُ في كلّ مكان عدة مرات، ولم أرَ فيها سوى الغموض. ولم تقدم لي الطبيعة ما يدعو للشك والاستفسار. وإذا لم أر في الطبيعة شيئًا يشير إلى الإله، فيجب أن أقرّ بنفسي ألا

وبعبارة أخرى، اتُّهِمَ كلّ أولئك الذين تبنّوا قضية الإله اللاهوتي بحماسةٍ شديدة بالإلحاد، وعدم الإيمان، وكان ينظر إلى أشد أنصاره تعصبًا على أنّهم مارقون، وخونة، ولم يتمكن معظم اللاهوتيين المتدينين من حماية أنفسهم من هذا الخزي. وأغدقوا على بعضهم البعض، ولا شك أنّ جميعهم يستحقون ذلك، وإذا صُنّف هؤلاء الناس الذين ليس لديهم أيّ فكرة عن إلههم الذي لا يفني نفسه، فسرعان ما يتأهبوا لإخضاعه لمحك العقل.(١)

أصدق شيئًا عنه. وإذا رأيتُ في كلّ مكان إشارة إلى الخالق، يجب أن أطمئنَّ نفسي بسلام، إيمانًا بالواحد. ولكن نظرًا لوجود الكثير مما لا يمكن إنكاره، والقليل جدًا مما يؤكد لي وجوده، فأنا في موقف أتحسرُ فيه، وتمنيتُ فيه مائة مرة، أن يقدم الله إن كان يحافظ على الطبيعة، دلالاتٍ لا لبس فيها على ذلك، فإن كانت الإشارات التي أعطاها مضللة، فسيطمسها تمامًا، ولكان قد قال كلّ شيء أو لا شيء، إلى أن أرى أيّ جانب يجب أن أتبعه." وها هو حال العقل السليم، يتصارع مع الأحكام المسبقة التي يستعبدها.

(١) من هنا يمكننا أن نستنتج أنّ الضلال لن يصمد أمام اختبار التحقيق، ولن يجتاز محنة المقارنة، وأنّه حرباء مثالية بألوانها، وبالتالي لا يمكن أن يفعل سوى أن يؤدي إلى أسخف الاستنتاجات. وبالفعل عندما تتأسس الأنظمة الأكثر إبداعًا على الحلوسة، تتهافت مثل الغبار تحت اليد الجلفة لصاحب المقال، حيث تتبخر العقائد الأكثر سطحية، عندما تفتقر إلى الصفة الموضوعية للاستقامة، تحت إشراف الفاحص القوي الذي يعرضها لاختبار قاسٍ. ولذلك، لا توجه لغةً مسيئة ضد أولئك الذين يحشون في النظريات المعقدة، لأنّهم سيكفّرون عن سخافاتهم، ويكتسبون صلابةً، أو يعثروا على مؤسسةٍ تمنحهم الأبدية. وبعبارة أخرى، لا يمكن أبدًا تقويم الانحرافات الأخلاقية بمجرد تطبيق مصطلحات مبهمة، أو من خلال مزيجٍ تافه من الخصائص للمتناقضة، مهما كان المركب مبهرجًا.



الفصل العاشر

هل يتوافق الإلحاد مع الأخلاق؟

هل يتوافق الإلحاد مع الأخلاق؟

دعونا نعود بعد أن أثبتنا وجود الملحدين إلى الافتراءات التي أغدقها عليهم المؤلهون. حيث يقول أبادي: "لا يمكن أن يكون الملحد فاضلاً؛ فالفضيلة بالنسبة له مجرد كائنٍ خرافي، وليست الاستقامة سوى ترديدًا لا معنى له، وما الصدق سوى حماقة. ولا يعرف أيّ قانون آخر غير مصلحته، وحيث تسود هذه المشاعر، لا يكون الضمير سوى تحيز، ولا يكون قانون الطبيعة سوى وهم، والحق ليس أكثر من ضلال، ولم يعد للإحسان أيّ أساس، وتتلاشى أواصر المجتمع، ويزول الإخلاص، ويتأهب الصديق لخيانة صديقه، ويضحي المواطن بوطنه، ويغتال الابن والده من أجل التمتع بميراثه، وكلما سنحتْ له الفرصة، تحميه تلك السلطة أو الصمت من سطوة السلطة العلمانية التي يخشى منها وحدها. ولم يعد يُنظر إلى الحقوق الأكثر حرمةً، وإلى أقدسِ القوانين، سوى على أنَّها أحلامًا، ورؤى".(1)

وربما لن يكون هذا السلوك لكائنٍ مفكرٍ، وذو شعور، ومتأمل، وخاضع للعقل، بل لمخلوقٍ متوحش شرس، وغير عقلاني، وقد لا تكون لديه أيّ فكرةٍ عن العلاقات الطبيعية بين كائنات ضرورية لتحقيق سعادتها المتبادلة. وهل يُفترض أن إنساناً قادرًا على أن يستشعر حسن النية، ومزودًا بأدق الدلائل عليها، سيتيح المجال للسلوك المنسوب هنا إلى الملحد، أيّ إلى إنسانٍ معرض بما فيه الكفاية ليتأمل في تحرير نفسه من التفكير في تلك التحيزات التي يسعى كلّ شيء إلى إظهار أهميتها وقدسيتها؟ بمعنى، هل يمكن أن نفترض أن يوجد في أيّ مجتمع مثقف، مواطن متهور إلى درجة عدم اعترافه بواجباته الطبيعية، ومصالحه للمفضلة، والخطر الذي يحد به إن ألحق الضرر بأقرانه، أو عدم اتباعه لأيّ قاعدة أخرى سوى شهواته اللحظية؟ إنَّ الكائن الذي قلما يفكر في العالم ليس مضطرًا لأن يشعر بالمنافع التي يجنيها من المجتمع، وبالحاجة إلى مساعدته، وأنَّ احترام البشر الآخرين ضروري لسعادته، وأنَّ لديه كلّ

(1) See Abbadie on the Truth of the Christian Religion, vol. i. chap. Xvii.

شيء ليخشى غضب أقرانه، وأنَّ القوانين تتوعد من يجرؤ على مخالفتها؟ وقد لمس كلّ من تلقى تعليمًا فاضلاً في طفولته عطاء الأب، وتذوق بالتالي حلاوة الصداقة، ونالَ اللطف، ويعرف قيمة الإحسان، والإنصاف، ويشعر باللذة التي تجلبها لنا عاطفة أقراننا، والمتاعب التي تنجم عن كرههم، وازدرائهم لنا، فهل يخشى فقدان هذه المزايا الواضحة، وأن يتحمل سلوكه عبئ مثل هذه الأخطار المرئية؟ ألن تعكر كراهيته لذاته، وخوفه، وازدرائه لها صفو حياته في كلّ مرة ينقلبُ فيها باطنيًا على سلوكه، ويفكرُ في نفسه كما يراه الآخرون؟ أليس الندم إذن إلا لمن يؤمنون بالله؟ أليست فكرة الكائن الذي يراه من لا نملك عنه سوى مفاهيم غامضة للغاية، مفروضة علينا أكثر من فكرة الكائن؛ الذي يراه البشر، أو أن نراه نحن بأنفسنا، أو الكائن الذي يلزمنا بالخشية منه، ويضطرنا إلى أنْ نكره أنفسنا إلى أقصى حد، ونخجل من التفكير في سلوكنا، وفي المشاعر التي يجب أن تكون مصدر إلهامٍ معصوم لنا؟

وهذا يتيح لنا أن نردّ بتروٍ على ما قاله أبادي: إنَّ الملحد إنسانٌ يعرف الطبيعة، وقوانينها، وكذلك طبيعته، وما تفرضها عليه. ويتمتع الملحد بالخبرة؛ التي تثبت له في كلّ لحظة أنَّ الرذيلة يمكن أن تؤذيه، وأنَّ آثامه الخفية، وتصرفاته الأكثر سرية قد تُكتشف، وتظهر له في وضحِ النهار، وتثبت له هذه الخبرة أنَّ المجتمع نافعٌ لسعادتهِ، وأنَّ متطلبات مصلحتهِ يجب أن تربطه ببلدٍ يحميه، وتضمن له إمكانية التمتع بمنافع الطبيعة، ويُظهر له كلّ شيء أنَّه يجب أن يكون محبوبًا؛ لكي يكون سعيدًا، وأنَّ والده بالنسبة له من الأصدقاء الأكثر ثقة، وأنَّ الجحود من شأنه أن يبعد عنه فاعل الخير، وأنَّ العدالة ضرورية للحفاظ على كلّ جماعة، وأنَّه ما منْ إنسانٍ يرضى عن نفسه عندما يعلم أنَّ الجميع يكرهه، مهما كانت قوته.

ولا يمكن أن يمنعه تأمله في ذاته بنضج، وفي طبيعته، وطبيعة جماعاته، وفي رغباته الخاصة ووسائل إشباعها، من معرفة واجباته واكتشاف ما هو مدين به لنفسه، وللآخرين، إن كان يمتلك أخلاقًا، ودوافع حقيقية ليتكيف مع فروضه. ولابدّ أن يشعر بأنَّ هذه الواجبات ضرورية، وإذا لم يتأثر عقله بالعواطف العمياء، أو العادات السيئة؛ فسيشعر أنَّ الفضيلة هي أضمن طريقٍ لسعادة جميع الناس. وهكذا بنى الملحدون، أو القدريون كلّ أنظمتهم على الضرورة، وكانت تأملاتهم الأخلاقية التي تأسست على ضرورة الأشياء، أكثر ديمومةً وثباتًا على الأقل من تلك التي تعتمد فقط على الإله؛ الذي يغير مُحياه وفقًا لميول، ومشاعر كلّ

من يفكر فيه. ولكن طبيعة الأشياء وقوانينها الثابتة لا تخضع للتغيير، وقد يظطر الملحد دائمًا لتسمية ما يؤذيه رذيلة، وحماقة، ويُطلق اسم الفضيلة على ما ينفع المجتمع، أو يساهم في سعادته الدائمة.

ومن هنا نرى أنَّ مبادئ الملحد أقل عرضة للتداعي من مبادئ المتعصب؛ الذي بنى أخلاقه على كائنٍ خيالي تتنوع فكرته عنه كثيرًا في دماغه. وإنْ أنكر الملحد وجود الإله؛ فلا يمكنه إنكار وجوده هو، ولا وجود كائنات مماثلة له، وتحيط به، ولا يستطيع الشكّ في العلاقات التي تقع بينهم، ولا يستطيع أن يشكّك في ضرورة الواجبات؛ التي تنجم من هذه العلاقات، ومن ثم لا يمكنه أن يرتاب بشأن مبادئ الأخلاق التي لا تمثل سوى علم العلاقات القائمة بين كائنات حية تعيش معًا في المجتمع.

وإذا اقتنع الملحد بمعرفةٍ تأملية عقيمة بواجباته؛ فلن يطبّقها على سلوكه، وإذا تسّرع بفعل أهوائه، أو بسبب عاداته الإجرامية، واستسلم للرذائل المخزية، وكان يمتلك مزاجًا طالحًا، ويبدو وكأنّه نسي مبادئه الأخلاقية، فهذا لا يعني أنّه لا يمتلك مبادئ، أو أنَّ مبادئه زائفة، ولا يمكن أن ينجم من هذا السلوك، عندما تثمل عواطفه، ويتشوش عقله، سوى عدم تطبيقه للتأملات بالغة الصحة، فيتغاضى عن مبادئ مؤكدة، ليتّبع تلك الميول التي تقوده إلى الضلال.

ولا يوجد ما هو أكثر شيوعًا بين الناس من تناقضٍ واضح جدًا بين العقل، والقلب؛ أي بين المزاج والعواطف، والعادات والأهواء، والخيال والعقل، أو الحكم بمساعدة التأمل. ولا يوجد ما هو أكثر ندرةٍ من أنْ تجد التناغم بين هذه الأشياء، وعندما نرى تأثير التأمل على الممارسة. والفضائل الأكثر يقينية هي تلك المبنية على مزاج البشر. ألا نرى بالفعل أنَّ البشر يتناقضون كلّ يوم مع ذواتهم؟ ألا يدين حكمهم باستمرار الإسراف الذي تقودهم إليه عواطفهم؟ وبعبارة أخرى، ألا يثبت لنا كلّ شيء أنَّ الناس الذين يتمتعون بأفضل نظرية يقترفون أحيانًا أسوأ الممارسات، ويكون لنظرياتهم الأكثر فسادًا في كثيرٍ من الأحيان سلوكًا أكثر تقديرًا؟ ونلتقي عند المتهور، وفي الخرافات الأكثر شناعة، والأكثر تناقضًا مع العقل، بأناسٍ فاضلين، وذو شخصيات معتدلة، وقلوبهم مرهفة، ومتفوقين على زمانهم، ويكرّسون أنفسهم للإنسانية، وقوانين الطبيعة، على الرغم من نظرياتهم المثيرة للغضب. ونجد عند من يعبدون الإله القاسي، والمنتقم، والغيور، عقولًا مسالمة، وأعداءً للاضطهاد، والعنف والقسوة.

ونرى بين حواري الإله المليء بالرحمة، والرأفة، وحوش الهمجية والوحشية. ومع ذلك، إن اعترف أحدهم أو الآخر أنَّ إلههم لابدّ أن ينفعهم كقدوة لهم؛ فلماذا لا يتوافقون معه؟ لأنَّ مزاج الإنسان دائمًا أقوى من إلهه، ولأنَّ الآلهة الأكثر شراً لا يمكنها دائمًا إفساد العقل الفاضل، كما أنَّ ألطف الآلهة لا يمكنها دائمًا كبح جُماح القلوب التي تحركها الجريمة. وستكون المنظومة دائمًا أكثر تشددًا من الدين؛ إذ تمتلك الأمور الراهنة، والمصالح الزائلة، والعادات المتجذرة، والرأي العام، قوةً أكبر بكثير من الكائنات الخيالية، أو النظريات التي تعتمد بحد ذاتها على منظومة الإنسان.

إنَّ النقطة المطروحة إذن هي دراسة ما إذا كانت مبادئ الملحد صادقة، وليس ما إذا كان سلوكه قابلاً للإصلاح. فالملحد الذي لديه نظرية بارزة، ومبنية على الطبيعة، والخبرة، والعقل، ويصل بنفسه إلى حدّ ارتكاب الفظائع، يكون خطيرًا على نفسه، ومضرًا بالمجتمع، وهو بلا شك إنسان غير متسق. لكنه ليس أكثر رهبةً من الإنسان المتدين، والمتشدد، الذي يؤمن بإلهٍ خيّر، ومنصف، وكامل، ولا يتردد في ارتكاب أفظع ما يكون باسمه. ولن يكن الطاغية الملحد أكثر مهابةً من طاغية متعصب. كما أنَّ الفيلسوف المرتاب ليس مهيبًا جدًا مثل الكاهن المتعصب المولع بإشعال الفتنة بين أقرانه. ولكن هل سيكون الملحد المزود بالسلطة، بنفس خطورة الملك المضطهد، أو المحقق المتوحش، أو المحب غريب الأطوار، أو المتعصب الكئيب؟ إذ أنَّ هؤلاء يوثق بهم أكثر بكثيرٍ من الملحدين الذين تبتعد آرائهم، ورذائلهم كلّ البعد عن أنْ تكون في وضعٍ يسمح لهم بالتأثير على المجتمع؛ الذي أعماه التحيز إلى درجةٍ كبيرة عن الرغبة بالاستماع إليهم.

ولا يكون الملحد المتطرف، والشهواني، إنسانًا مخيفًا أكثر من الخرافي الذي يعرف كيف يربط الفجور، والتحرر، وفساد الأخلاق بمفاهيمه الدينية. وهل يمكن أن نتصور بصدقٍ أنَّ الإنسان يعاقر الخمر، ويلوث سمعة زوجة صديقه، ويقتحم مسكن جاره، ويسمح لنفسه بارتكاب كلّ هذه الفظائع التي تلحق أكبر ضرر به، أو أكثر ما يستحق العقاب؛ لكونه ملحدًا، أو لأنّه لا يخشى انتقام الآلهة؟ من هنا فإنَّ عيوب الملحد لا تتضمن أيّ شيءٍ استثنائي، أكثر من عيوب المتدين، وليس لديهم ما يعيبون به على عقيدته. ولن يكون الطاغية الذي لابدّ أن يكون مرتابًا، بمثابة ابتلاء طفيف على رعاياه أكثر من الطاغية

المتدين، وهل سيكون الناس سعداء في ظل هذا الأخير أكثر مما كانوا عليه عندما آمن سفاحٌ حكمهم باسم الله، واغدق النعم على كهنته، وتذلل عند أقدامهم؟ لن يضطروا على الأقل في ظل سيطرة الملحد إلى إدراك المنغصات الدينية، أو الاضطهاد بسبب الآراء، أو المحظورات، أو تلك الاعتداءات الغريبة التي غالبًا ما تتذرع بمصالح السماء، في ظل أمراء منصفين. وإذا ذهبت الأمة ضحية لمشاعر ذو السيادة الكافر، وحماقته، فلن تعاني على الأقل من افتتانه المتهور بالنظم اللاهوتية التي لا يفقه عنها شيئًا، ولا من تعصبه الشديد، وكلّ ما يعتري الملوك من مشاعر، وستكون دائمًا أكثر تدميراً، وأخطر. أما الطاغية الملحد الذي قد يضطهد نتيجة آرائه، فسيكون رجلاً لا يثبت على مبادئه، ولم يقدم سوى مثالاً آخر مفاده: أنَّ البشر يتبعون اهتماماتهم، ومصالحهم، ومزاجهم أكثر من تكهناتهم. ومن الواضح أنَّ الملحد لديه على الأقل ذريعة أقل مما لدى الأمير الساذج؛ لأنَّه يمارس شره الطبيعي.

وإذا تنازل الناس بالفعل عن الأمور بتروٍ، فسيجدون أنَّ اسم الله لا يُستخدم أبدًا على الأرض، إلا كذريعةٍ للإنغماس في أهوائهم. حيث شكّلَ الطموح، والدجل، والاستبداد عصبةً ليستغلوا سلطتهم في حجب تفكير الناس، واخضاعهم لنيرهم. ويستخدمها الملك ليمنح بريقًا إلهيًا لشخصه، وموافقة السماء على حقوقه، وثقة المنزلين منها في نزواته الأكثر ظلمًا، وإسرافًا. ويستخدمها الكاهن للترويج عن مزاعمه، ولكي يفلت من العقاب، ويشبع جشعه، وكبريائه، واستقلاله. ويقدّم الكائن الخرافي المنتقم، والغاضب سببًا لإلهه، لكي يفسح في المجال لغضبهِ الذي يصفه بحماسة. وبعبارةٍ أخرى، يصبح الدين خطرًا؛ لأنَّه يبرّر تلك الأهواء، والجرائم، ويشرعنها، أو يجعلها جديرة بالثناء، ليجني نتيجتها. وكلّ شيء مباح وفقًا للكهنة لانتقام "العلّي"؛ وهكذا يبدو أنَّ الإله قد صُنع فقط من أجل السماح بالتجاوزات الأكثر ضررًا، والتخفيف من حدتها. في حين لا يستطيع الملحد أن يدّعي عندما يرتكب جرائمه على الأقل أنَّ إلهه هو الذي يأمر بها، ويوافق عليها. وهذا هو العذر الذي يقدمه الخرافي لشره، والطاغية لمظالمه، والكاهن على قسوته، وتحريضه، والمتعصب على تجاوزاته، والتائب على عقمه.

وهنا يقول بايل Bayle: "ليست الآراء العامة لعقولنا هي من تدفعنا للتصرف، بل مشاعرنا." فالإلحاد عبارة عن نظام، ولن يجعل الصالح طالحًا، ولا الشرير صالحًا. ويقول

المؤلف نفسه: "لم يصبح من اعتنقوا شيعة أبيقور فاسقين؛ لكونهم اعتنقوا مذهبه، بل لأنَّهم اعتنقوا مذهبه الذي أُسيء فهمه؛ لأنَّهم كانوا فاسقين".[1] وفي الطريقة ذاتها، يمكن لرجلٍ منحرف أن يعتنق الإلحاد؛ لأنَّه سيتباهى بأنَّ هذا النظام سيطلق العنان لعواطفه؟ ومع ذلك سيخدع نفسه؛ لأنَّه لو فهم الإلحاد جيدًا، لوجد أنَّه مبنيٌّ على الطبيعة والعقل، اللذين لن يبررا جرائم الأشرار، أو يكفِران عنها كحالِ الدين.

ولا شك أنَّ العقيدة التي تجعل الأخلاق تعتمد على وجود، ومشيئة إله اقتُرِحَ نموذجًا للبشر، يترتب عليها عقبةٌ كبيرة للغاية. إذ تطلق العقول الفاسدة العنان لكلّ رذائلها، عندما تكتشف مدى الخطأ في كلّ هذه الافتراضات، أو الشك فيها، وتستنتج عدم وجود دوافع حقيقية لفعل الخير، وتتخيل أنَّ الفضيلة كانت مجرد وهم كحالِ الآلهة، وأنَّه لا يوجد أيّ سبب لممارستها في هذا العالم. ومع ذلك، فمن الواضح أنَّنا كمخلوقات الله لسنا ملزمين بالوفاء بالواجبات الأخلاقية. ولكننا نشعر بالإلزام الأخلاقي بصفتنا بشرًا، ونعيش معًا في المجتمع، ونسعى لنضمن لأنفسنا حياةً سعيدة. وسواء كان الإله موجودًا، أم غير موجود، فستبقى واجباتنا ذاتها، وإن رجعنا إلى طبيعتنا، فسوف تثبت لنا، "أنَّ الرذيلة شر، والفضيلة خيرٌ حقيقي، وأساسي".[2]

---

(1) See Bayle's Thoughts on Various Subjects, sec. 177.
وقال سينيكا Seneca من قبله: "وهكذا لا يدفعهم أبيقور إلى الترف، بل إلى تنازلهم عن رذائلهم، والتخفيف من رفاهيتهم في خضم الفلسفة. أنظر: (.Seneca, de vita beata, chap. xii)

(٢) نحن على يقين من وجود فلاسفة وملحدون ينكرون التمييز بين الرذيلة والفضيلة، ويبشرون بالفجور، وفساد الأخلاق بين البشر، ومن هؤلاء يمكن أن نأخذ بالحسبان القدامى: إرستيبوس Aristippus، وثيودوروس Theodorus، والملقب بالملحد، وبيون بوريستينيس أو البوريستيني Bion of Borysthenes، وبيرو Pyrrho، وإلخ. أنظر: (Dio genes Laertius). ومن المحدثين، مؤلف: "حكاية النحل"، ولكن قد يكون المقصود بها إظهار أنَّ الرذائل بحد ذاتها قد حُددت مع الأمم في الدستور الحالي للأشياء، وأصبحت ضرورية لهم، كما لو كانت مشروبات كحولية قوية لمن اعتادوا على ممارستها. أما المؤلف الذي نشرَ كتاب "الرجل الآلي" فقد برر الأخلاق كالمجنون. ولو استشار كلّ أولئك المؤلفين الطبيعة في أمر الأخلاق، لوجدوا أنَّ الدين يفضي إلى الفضيلة، بغض النظر عمّا ينجم عنه من رذيلة، وفساد. راجع: (Nunquam aliud natura, aliud .sapientia dicit. Juvenal, sat.14, v. 321)
على الرغم من المخاطر المزعومة التي يعتقدها الكثير من الناس في الإلحاد، بيد أنَّ العصور القديمة لم تحكم عليه سلبيًا. حيث يخبرنا ديوجانس اللايرتي Diogenes Laertius، أنَّ أبيقور كان ذو فضلٍ عظيم، وأنَّ بلاده تسببت في نصب التماثيل له، ولديه عددًا هائلاً من الأصدقاء، وأنَّ مدرسته استمرت لفترة طويلة جدًا. أنظر: (.Diogenes Laertius, x. 9. Cicero)، وعلى الرغم من كونه عدوًا لآراء الأبيقوريين، يقدم شهادة

وبالتالي إذا وجدَ ملحدون، وأنكروا التمييز بين الخير والشر، أو تجرأوا على مهاجمة أساس كلّ الأخلاق، فيجب أن نستنتج أنَّهم فكروا بسوءٍ في هذه النقطة، ولم يعرفوا طبيعة الإنسان، أو المصدر الحقيقي لواجباته، وتصوروا زيفًا أنَّ الأخلاق، وكذلك اللاهوت، كانا علمين مثاليين فحسب، وأنَّ الآلهة هلكتْ، ولم تعد هناك أيّ روابط تربط بين البشر. ومع ذلك سيثبت لهم أدنى تفكير أنَّ الأخلاق مبنية على العلاقات الثابتة القائمة بين الكائنات العاقلة، والذكية، والاجتماعية، وأنَّه من دون فضيلة لا يمكن لأيّ مجتمعٍ أن يحافظ على ذاته، ولا يمكن لأيّ إنسان أن يحافظ على نفسه من دون كبح جماح رغباته. كما أنَّ الناس مجبرين بطبيعتهم على حب الفضيلة، والرهبة من الجريمة، وهي الضرورة ذاتها التي تلزمهم بالسعي وراء السعادة، والهروب من الحزن، وهكذا فإنَّ الطبيعة تجبرهم على التفرقة بين الأمور التي ترضيهم، وتلك التي تؤذيهم. يكفي أن تسأل إنسانٍ غير عقلاني إن كان ينكر الاختلاف بين الفضيلة والرذيلة، ولم يكترث لأمره أحد، أو تعرّض للضرب، والسرقة، وتشويه سمعته، ونكران الجميل، والعار من زوجته، والإهانة من أبنائه، والخيانة من صديقه؟ ستثبت لك إجابته أنَّه مهما قال، فستختلف تصرفاته عن غيره، وأنَّ التمييز بين الخير والشر لا يعتمد على تقاليد البشر، ولا على الأفكار التي يمكن أن تكون لديهم عن الإله، والعقوبات، أو التعويضات التي يعدها لهم في الحياة الأخرى.

على العكس من ذلك، سيشعر الملحد الذي يفهم العدالة، أنَّه مهتم أكثر من غيره بممارسة تلك الفضائل التي يجد سعادته مرتبطة بها في هذا العالم. وإن لم تتخطى آرائه بحد ذاتها حدود وجوده الحالي، فقد يرغب على الأقل في رؤية أيامه تمرّ في سعادة، وسلام. وكلّ إنسان يرجع إلى ذاته عندما تهدأ عواطفه، يشعر أنَّ مصلحته تدعوه للحفاظ على نفسه، وأنَّ سعادته تتطلب منه أن يتخذ الوسائل اللازمة للتمتع بالحياة بسلام، ويتحصّن من الذعر، والندم. كما أنَّ الإنسان يدينُ بشيءٍ ما لأخيه الإنسان، ليس لأنَّه سيسيء إلى الله

رائعة على استقامة أبيقور وتلامينه، الذين تميزوا بصداقتهم لبعضهم البعض. أنظر: (Cicero de Finibus, ii. 25). وقد دُرستْ فلسفة أبيقور علناً في أثينا خلال قرون عديدة، وهنا يقول لاكتانتيوس Lactantius: إنَّها كانت الأكثر اتباعًا. وكان نسق أبيقور دائمًا أكثر شهرة من نسق الآخرين، (V. Jnstitut. Divin. iii. 17). وفي عصر ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius، كان يوجد في أثينا أستاذًا عامًا لفلسفة أبيقور، يدفع له الإمبراطور الذي كان هو نفسه رواقي.

إذا كان سيؤذي أخيه، بل لأنَّه عندما يلحق الضرر به، سوف يسيء إلى الإنسان، وينتهك قوانين الإنصاف، وعندما يحافظ عليه، فسيجد كلّ فردٍ من أفراد الجنس البشري مهتمًا به.

كما أنّنا نرى يوميًا أشخاصًا يمتلكون مواهب عظيمة، ومعرفةً، وذكاءً، ويرتكبون أبشع الرذائل، ولديهم قلبٌ شديد القسوة، وتكون آرائهم صحيحة في بعض النواحي، وزائفة في كثيرٍ من النواحي الأخرى، وقد تكون مبادئهم عادلة، لكن الإحداثيات التي يستمدونها منها غالبًا ما تكون معيبة، ومتهورة. وقد يكون لدى الإنسان في الوقت ذاته معرفةٌ كافية ليخلّص نفسه من بعض أخطائه، وقليل من الطاقة؛ ليجرد نفسه من نزعاته الشريرة. وبذلك فإنَّ الناس وحدهم من يصنعون منظومهتم بعد تعديلها عن طريق العادة، والتعليم على سبيل المثال، أو الحكومة، وظروف مؤقتة أو دائمة. وتفرض عليهم أفكارهم الدينية، وأنظمتهم الخيالية أنْ يخففوا من حدةِ مزاجهم، ونزعاتهم، ومصالحهم أو التكيف معها. وإذا كان النظام الذي يجعل الإنسان ملحدًا، لا يخلصه من الرذائل التي ارتكبها من قبل، فهو لن يمنحه أيّ رذائل جديدة. وفي حين أنَّ الخرافة تزود أتباعها بألف ذريعةٍ ليرتكبوا الشر من دون ندم، ويصفّقوا أيضًا لأنفسهم؛ لكونهم ارتكبوا جريمة، نجد أنَّ الإلحاد يترك البشر على حالهم على الأقل، ولن يزيد الإنسان تعقيدًا، وفسادًا، وقسوةً أكثر مما حثّه عليه طبعه من قبل، في حين تطلق الخرافة العنان لأفظع الأهواء، أو توفّر تكفيرًا سهلاً عن الرذائل الأكثر خزيًا. وهنا يقول النائب العام **بيكون**: "الإلحاد يترك للإنسان العقل، والفلسفة، والتقوى الطبيعية، والقوانين، والسمعة، وكلّ ما من شأنه أن يؤدي به إلى الفضيلة؛ في حين تدمر الخرافة كلّ هذه الأمور، وتنصّب نفسها طاغيةً على مفاهيم البشر؛ وهذا هو السبب في أنَّ الإلحاد لا يزعج الحكومة أبدًا، بل يجعل الإنسان أكثر فطنةً، بحيث لا يرى أيّ شيء يتجاوز حدود هذه الحياة". ويضيف المؤلف نفسه: "كانت العصور التي تحوّل فيها الناس إلى الإلحاد أكثر هدوءًا؛ في حين أججت الخرافة عقولهم على الدوام، ومضت بهم إلى أعظم الاضطرابات؛ لكونها تفتن الناس بالإبداعات التي تنتزع منهم كلّ سلطة للحكومة، أو تجلبها لهم".(١)

بيد أنَّ الناس الذين اعتادوا على التأمل، والاستمتاع بالبحث، ليسوا مواطنين خطرين بالعموم، ولا يحدثون ثورات مفاجئة على الأرض مهما كانت تأملاتهم. أما عقول الناس التي تتأثر دائمًا بالعجائب، والتعصب، وتصرّ على مقاومة أبسط الحقائق، فهي لا تثور أبدًا بحدّ

(1) See: the Moral Essays of Bacon.

ذاتها على الأنظمة التي تتطلب سلسلة طويلة من التأمل، والتفكير. ولا يمكن أن يكون نظام الإلحاد إلا نتيجة دراسة طويلة، ومتصلة، وخيالٌ أوهنته الخبرة والتفكير، حيث لم يزعج **أبيقور** المسالم الإغريق، ولم تسبب قصيدة **لوكريتيوس** Lucretius، أيّ حروب أهلية في روما، ولم يكن **بودين** Bodin مؤلف "الدوري". ولم تثر كتابات **سبينوزا** في هولندا المشكلات ذاتها التي أثارتها نزاعات **جوماروس** Francis Gomar **وأرمينيوس** Jacobus Arminius. ولم يتسبب **هوبز** في إراقة الدماء في إنجلترا، على الرغم من أنَّ التعصب الديني أودى بحياة الملك شنقًا في عصره.

وبعبارة أخرى، يمكننا تحدي أعداء العقل البشري بالاستشهاد بمثالٍ يثبت بأسلوبٍ حاسم أنَّ الآراء الفلسفية البحتة، أو المعارضة للدين مباشرةً، قد أثارت الاضطرابات في الدولة. ولطالما نشأتْ أعمال الشغب من الآراء اللاهوتية؛ لأنَّ الأمراء، والناس على حدٍ سواء كانوا يعتقدون دائمًا بحماقة أنْ يشاركوا فيها. ولا يوجد ما هو أخطر من تلك الفلسفة الفارغة؛ التي دمجها اللاهوتيون بأنظمتهم، إذ ينسبون إلى هذه الفلسفة التي أفسدها الكهنة بصورةٍ خاصة، أمر تأجيج نيران الفتنة، ودعوة الناس إلى التمرد، والتسبب في جريان أنهار من الدماء. وما من سؤالٍ لاهوتي إلا وألحق ضررًا جسيمًا بالإنسان. في حين لم تُحدث جميع كتابات الملحدين، سواء كانت قديمة أو حديثة، أيّ شر سوى بمؤلفيها الذين ما انفكّ دجالهم المقتدر عن التضحية بضريحه.

ولم تُصاغ مبادئ الإلحاد لجماهير الشعب الذين عادة ما يكونوا تحت وصاية كهنتهم، ولم تأخذ بالحسبان تلك العقول العبثية، والمشتتة التي تملأ المجتمع برذائلها، وعقمها، ولا تتناسب مع تلك العقول الطموحة، والمتآمرة، والقلقة، والتي تجد مصلحتها في تعكير صفو الانسجام في الميثاق الاجتماعي، ناهيك عن أنَّها وضِعتْ لعددٍ كبير من الأشخاص المستنيرين في نواحٍ أخرى، ونادرًا ما يمتلكون الشجاعة لكي ينأوا بأنفسهم تمامًا عن التحيزات الواردة.

كما تتضافر العديد من الأسباب التي تناصر البشر في تلك الضلالات التي أجبروا على تشربها منذ طفولتهم، وكلّ خطوة تبعدهم عن هذه المغالطات، تكلفهم آلامًا لا حصر لها. وغالبًا ما يتمسك هؤلاء الأشخاص الأكثر استنارة بجانبٍ ما من التحيز العام. وعندما

نتفرد في آرائنا التي تتطلب الشجاعة لتبني طريقة تفكيرٍ لا تحظى إلا بالقليل من المصادقين عليها، نشعر بالعزلة، وأنَّنا نتحدث لغةً غير تلك التي يتحدثها المجتمع. ويمكننا أن نعثر بسهولة على عددٍ كبير من الربوبيين أو المرتابين، والقانعين بتمرغهم تحت أقدام التحيزات الجسيمة للجهل، في تلك البلدان التي أحرزت فيها المعرفة البشرية بعض التقدم، إلى جانب تمتعها بشيءٍ من حرية التفكير؛ في حين لم يجرؤوا على العودة إلى المصدر، والاستشهاد بالإله ذاته أمام محكمة العقل. وإذا لم يكفّ هؤلاء المفكرون عن تطبيق ما يفكروا به، فسيثبت لهم التأمل سريعًا أنَّ الإله الذي لا يجرأون على البحث في أمره، عبارة عن كائنٍ مؤذٍ، ومتمرد على الحس السليم. وسيشعرون أنَّ كلّ هذه الأمور ليست سوى نتائج ضرورية لتلك المفاهيم البدائية التي أشبعتْ رغبات الناس المتعلقة بشبحهم الإلهي، كما هو الحال في أيٍّ من تلك العقائد، والألغاز، والخرافات، أو العادات الخرافية التي اعترفوا بالفعل بعدم جدواها كما أثبتنا ذلك بالفعل، وحين اعترافهم بهذا الشبح لم يعد لديهم أيُّ سببٍ منطقي لرفض تلك الحيثيات؛ التي يجب أن يستمدها الخيال منه. وسيُظهر لهم قليلٌ من الاهتمام أنَّ هذا الشبح بالتحديد هو السبب الحقيقي لكلّ شرور المجتمع، وأنَّ تلك الخلافات التي لا نهاية لها، وتلك النزاعات الدموية التي يلدها الدين، وروح الطائفة في كلّ لحظة، هي الآثار الحتمية للأهمية التي يعلقونها على الكائن الخرافي، ولم تأخذ بالحسبان أنَّها تضرمُ نيران العنف في عقول الناس. وبعبارةٍ أخرى، من السهل إقناعنا بأنَّ الكائن الخيالي الذي يصورونه دائمًا من جانبه الشنيع، يجب أن يتصرف بأسلوبٍ حي بناءً على الخيال، ويحدث عاجلاً أم آجلاً نزاعات، وتشدد، وتعصب، وهذيان.

ويقرُّ كثير من الأشخاص بأنَّ التطرف الذي يولده الدين عبارة عن شرورٍ حقيقية، ويشتكي العديد من الأشخاص من الإفراط في الدين، ولكن هناك عددٌ قليل جدًا ممن يشعرون أنَّ هذا الإفراط، وهذه الشرور هي النتائج الضرورية للمبادئ الأساسية للدين كلّه، والذي لا يمكن أن يقوم بحد ذاته إلا على تلك المفاهيم الفضيعة؛ التي يلتزم الناس بصياغتها عن الإله. ونرى يوميًا أشخاصًا متحررين من أوهام الدين، ومع ذلك يدّعون أنَّ هذا الدين ضروري للناس العاجزين عن الالتزام بالحدود من دونه. ولكن ألا يعني ذلك من وجهة نظر العقل أنَّ السمَّ مفيد للناس، وأنَّه من الملائم تسميمهم؛ لمنعهم من استخدام قوتهم بصورةٍ

سيئة؟ أليس الإدعاء بأنّه من المجدي جعلهم سخفاء، وغير عقلانيين، ومتطرفين، أنّهم بحاجة إلى أشباح، والنظر إليهم على أنّهم رعناء، ومتهورين، وخاضعين للمتعصبين أو المنتحلين الذين سينتفعون من حماقاتهم لإقلاق راحة العالم؟ علاوة على ذلك، أصحيح تمامًا أنّ للدين تأثيرٌ مفيد على أخلاق الناس؟ من السهل جدًا أن نرى أنّه يستعبدهم دون أن يجعلهم أفضل، ويخلق قطيعًا من العبيد الجهلة؛ الذين يبقون بسبب ذعرهم تحت نير الطغاة، والكهنة، ويشكلون كائنات غبية لا تعرف فضيلة أخرى غير الخضوع الأعمى للعادات غير المجدية؛ التي يعلقون عليها قيمة أكبر بكثير من الفضائل الحقيقية، أو الواجبات الأخلاقية التي لم يعرفوها أبدًا. وإذا حدث وكان هذا الدين يقيد ثلّة من الأفراد الجبناء، فلن يكبح العدد الأكبر ممن يعانون من التسرع؛ نتيجة الرذائل الوبائية التي يصابون بها. وسنجد دائمًا أخلاق متدنية في تلك البلدان التي تتمتع فيها الخرافات بأكبر قدرٍ من القوة؛ حيث لا تتفق الفضيلة مع الجهل، والخرافة، والعبودية، ولا يبقى العبيد تابعين إلا خوفًا من العقاب؛ إذ يخاف الأطفال الجهلة فقط للحظة بفعل أعمال الرعب الخيالية. ولكي تهيء الناس ليكونوا مواطنين فاضلين، من الضروري تنظيمهم؛ لإظهار الحقيقة لهم، والتحدث إليهم بتعقّل، وجعلهم يشعرون بمصالحهم، وتعلمهم كيف يحترمون أنفسهم، ويخافوا من العار؛ لإثارة أفكار الشرف الحقيقي لديهم، وتعريفهم بقيمةِ الفضيلة، ودوافع اتباعها. ولكن كيف يمكن توقع هذه الآثار السعيدة من الدين الذي يحطُّ من قدر الناس، أو من الاستبداد الذي لا يطرح نفسه إلا لقهرهم، وتشتيتهم، وإبقائهم في حالٍ مذلّة؟

إنَّ الأفكار الزائفة التي يزداد فيها الأشخاص المستفيدين من دينٍ حكموا عليه على الأقل بأنّه يقيد الناس، تنشأ من التحيز المميت المتمثل في وجود "أخطاء نافعة"، والقول بخطورة الحقيقة. ويؤخذ هذا المبدأ بالحسبان بالكامل ليخلّد الأحزان على الأرض، وأيّ شخص لديه الشجاعة للبحث في هذه الأمور، سوف يعترف دون تردد، بأنَّ كلّ مآسي الجنس البشري ستُعزى إلى ضلالاتهم، ولذلك يجب أن تكون الضلالات الدينية أكثر تحيزًا من التعالي الذي يلهمون به الملوك، ومن الأهمية التي تعلّق عليهم، ومن الحال البغيضة التي يصفونها للرعايا، والجنون الذي يثيرونه بين الناس؛ لذلك سنكون ملزمين باستنتاج أنَّ مصلحة البشرية تقتضي تدمير أخطاء البشر المقدسة بالكامل؛ لكونها تفنيهم بالأساس،

ولابد أن يستخدموا الفلسفة السليمة. ولا ينبغي الخوف من أن تؤدي هذه المحاولة إلى الاضطرابات، أو الثورات، وكلما زادت حرية حديثهم عن الحقيقة، زادت القناعة بها، وكلما كانت أكثر بساطة، قلّ إغراء الناس المغرمين بالعجائب، حتى أنَّ أولئك الذين يسعون وراء الحقيقة بحماسة شديدة، لديهم ميلٌ لا يقاوم يحثّهم على ذلك، ويعدهم باستمرار بإصلاح الخطأ بنقيضه.(١)

ويبدو مما لا يدع مجالًا للشك أنَّ هذا هو السبب في أنَّ الإلحاد الذي تطورتْ مبادئه بما يكفي إلى اليوم، يرعب حتى أولئك الأشخاص الأكثر افتقارًا للتحيز. إذ يجدون الفاصل الزمني أكبر من اللازم بين الخرافات المبتذلة، والدين المطلق، ويعتقدون أنَّهم يتخذون وسيلةً حكيمة عندما يضاعفون ضلالهم، ويرفضون النتيجة رغم اعترافهم بالمبدأ، ويحافظون على الشبح دون توقع أن ينتج عنه التأثيرات ذاتها، عاجلاً أم آجلاً، وأنَّه يزرع الحماقة ذاتها تلو الأخرى في رؤوس البشر. كما أنَّ القسم الأكبر من المرتابين، والمصلحين، لا يفعلون سوى تقليم شجرة مقطوعة، ولا يجرؤوا على قطعها بالفأس من جذورها، ولا يرون أنَّ هذه الشجرة ستطرح في النهاية الثمار ذاتها. وسيكون علم اللاهوت، أو الدين دائمًا مجموعة من مواد قابلة للاشتعال، وولدت في مخيلة البشر، وستنتهي دائمًا بالتسبب في اندلاع حرائق. وطالما أنَّ النظام الكهنوتي يتمتع بشرفِ إفساده للشباب، وتعويدهم على الارتجاف أمام الكلمات، وترعيب الأمم باسم إلهٍ مهيب، فإنَّ التعصب سيتحكم بالعقل، وسوف يبثّ الدجال التفرقة في الدولة كما يشاء. إذ يغذي خيال الناس على الدوام أصغر شبح، وهم يعدلونه، ويضخمونه، ليتحول تدريجيًا إلى قوةٍ هائلة بما يكفي للإخلال بكلّ عقل، والإطاحة بالإمبراطوريات. وتكون الربوبية عبارة عن نظامٍ لا يستطيع العقل البشري أن يتوقف عنده طويلاً، وتأسستْ على الكائن الخرافي، وسيظهر عاجلاً أم آجلاً أنَّها تنحدر إلى خرافةٍ سخيفة، وخطيرة.

(١) يقول بايل المعروف الذي علّمنا ببراعة التفكير، وعقل الوفرة، إنَّه "ما من شيءٍ سوى فلسفة خيرة، وصلبة، يمكنها بوصفها هرقل آخر أن تقضي على تلك الوحوش التي تُسمى الضلالات الشائعة، ويمكن لهذا وحده أن يحرر العقل." أنظر: (Thoughts on various Subjects, 21.) وقال لوكريتيوس Lucretius قبله: لما كان رعب العقل، والظلمة ضروريان، فلا ينبغي للمناقشة بشأن أشعة الشمس ولا للملابس البراقة، بل في طبيعة الأنواع والعقل. (lib. i. v. 147.)

ونحن نقابل العديد من الكائنات المرتابة، والعديد من الربوبيين في تلك البلدان التي تسود فيها حرية الفكر؛ وهذا يعني، المكان الذي عرفت فيه السلطة المدنية كيف تفي بالخرافة. ولكن سيوجد في البداية الملحدين في تلك الأمم التي تشعرها الخرافة المدعومة بالسلطة السيادية، بثقل نيرها، فتفسد سلطتها غير المحدودة بصورةٍ غير حكيمة.[1] وبالفعل، عندما لا يُكبت العلم، والمواهب، وبذور التأمل بالكامل في هذا النوع من البلدان، فإنَّ القسم الأكبر من الناس الذين يفكرون، يثورون على الانتهاكات الصارخة للدين، وحماقاته المتعددة، وفساد كهنته، واستبدادهم، والقيود التي يفرضونها على الاعتقاد بالعقل، الذي لا يمكنهم أبدًا أن ينأوا بأنفسهم كثيرًا عن مبادئه، ويصبح الإله الذي يفيد كأساسٍ لدين كهذا، بغيضًا بالنسبة لهم كحال الدين ذاته، وإذا ظلمهم هذا فإنَّهم ينسبونه إلى الله. ويشعرون أنَّ الإله الرهيب، والغيور، والمنتقم، يجب أن يعبده كهنةٌ قساة؛ وبالتالي، يصبح هذا الإله أمرًا مكروهًا لكلّ عقلٍ مستنيرٍ، وصادق، ويوجد فيهم دائمًا حبّ الإنصاف، والحرية، والإنسانية، والسخط على الاستبداد. فالظلم ينبوع النفس، ويلزم الإنسان بالبحث في سبب أحزانه عن كثب، والمحنة حافزٌ قوي يحوّل العقل إلى جانب الحقيقة. ولكن ما مدى قوة العقل الذي لا يُغضب حتى الباطل؟ إنَّه يمزق قناعه، ويتتبعه حتى في خندقه الأخير، ويتمتع بالفوضى على الأقل.

(١) يُقال: إنَّ الملحدين أكثر ندرة في إنجلترا، والبلدان البروتستانتية، حيث يسود التسامح مقارنة بالدول الرومانية الكاثوليكية التي يكون الأمراء فيها عادةً متسامحين، وأعداءً لحرية الفكر. كما يوجد الكثير من الملحدين في اليابان، وتركيا، وإيطاليا، إضافة إلى روما. وكلما زادت قوة الخرافة، ثارتْ ضدها العقول التي لم تتمكن من إخضاعها. أما إيطاليا؛ فهي التي ولدت جوردانو برونو Jordano Bruno، وكامبانيلا Campanella، ولوتشيليو فانيني Vanini، و...إلخ. ولدينا جميع الأسباب للاعتقاد، أنَّه لولا الاضطهاد، وسوء المعاملة في الكنيس، لما كان سبينوزا قد أصدر نظامه. وقد يُفترض أيضًا أنَّ الفظائع التي أحدثها التعصب في إنجلترا، وكلفت تشارلز الأول رأسه، دفعت هوبز إلى الإلحاد، وربما يشير السخط الذي تصوره أيضًا من سلطة الكهنة إلى أنَّ مبادئه مواتية جدًا للسلطة المطلقة للملوك. وكان يعتقد أنَّ الدولة عندما يكون لها طاغية مدني واحد، وصاحب سيادة على الدين نفسه، أفضل من أن يكون لديها عدد كبير من الطغاة الروحيين المستعدين دائمًا لإزعاجها. كما وقع سبينوزا الذي أغرته أفكار هوبز، في الخطأ ذاته في كتابه " أطروحة لاهوتية – سياسية "، وكذلك في كتابه "رسالة في القانون الكنسي".

الفصل الحادي عشر

عن الدوافع التي تؤدي إلى الإلحاد، وهل يمكن أن يكون هذا النظام خطيراً؟ وهل يمكن للجاهل أنْ يعتنقه؟

عن الدوافع التي تؤدي إلى الإلحاد، وهل يمكن أن يكون هذا النظام خطيراً؟ وهل يمكن للجاهل أنْ يعتنقه؟

سوف تزودنا التأملات السابقة بما نردّ به على أولئك الذين يسألون: ما مصلحة الناس في عدم اعترافهم بإله؟ إنَّ ما ارتُكب من مظالم، واضطهادات، وأهوالٍ كثيرة باسم هذا الإله، والغباء، والعبودية التي أغرق كهنته الناس بها في كلّ مكان، والنزاعات الدامية التي حدثت لأجله، وعدد التعساء الذين يملؤن العالم بفكرته المميتة، ألا تمثل دوافع قوية، ومثيرة للاهتمام بدرجةٍ كافية لتحثّ جميع العقلاء القادرين على التفكير، على أن يبحثوا عن ألقابٍ لكائنٍ يُحدث الكثير من الشرور لسكان الأرض؟

ويسألني مؤمنٌ يثمّن جدًا مواهبه: "ألا يمكن أن يوجد أيّ سبب آخر، عدا التصرف الشرير التي يمكن أن يجعل الناس ملحدين؟"[1] وأجبته: نعم، توجد أسباب أخرى، كالرغبة في معرفة الحقائق المهمة، ووجود مصالح قوية في معرفة الرأي الذي يجب أن نعتنقه عمّا يُعلن لنا بأنّه الأهم، وكذلك خوفنا من أن ننخدع بالكائن الذي يشغل نفسه بآراء الناس، ولا يسمح لهم بالتعبير عن احترامهم له من دون عقاب. لكن في حال انتفتْ هذه الدوافع، أو هذه الأسباب، ألا يشكل ذلك سخطًا، أو إنْ أردتم، موقفًا شريرًا، وأسبابًا مشروعة، ودوافع جيدة، وقوية، للبحث عن كثبٍ في ادعاءات، وحقوق طاغية محجوب، وتُرتكب باسمه

(١) انظر اللورد شافتسبري Shaftesbury في رسالته عن التعصب. إذ يقول سبنسر Spencer: "بسبب مكر الشيطان الذي يسعى إلى دفعنا لبغض الإله، ويمثله لنا في تلك الشخصية المتمردة؛ التي تجعله أشبه برأس ميدوسا، يضطر الناس بدرجةٍ كبيرة أحيانًا إلى الانغماس في الإلحاد، ليتخلصوا من رمقةِ هذا الشيطان البشع." ولكن ربما يُقال لسبنسر: "إنَّ الشيطان الذي يسعى إلى دفعنا لكره الإله يصب في مصلحة رجال الدين، وكان يرعب الناس في كلّ الأزمنة وفي كلّ بلد، لجعلهم عبيدًا وأدوات لأهوائهم، ولو لم يرعب الإله الناس، لما أفاد الكهنة على الإطلاق.

الكثير من الجرائم على الأرض؟ هل يستطيع أيّ إنسان يفكر، ويشعر، وذو نفس مطواعة، أن يتلافى غضب طاغية قاسٍ، وأصبح ذريعةً، ومصدرًا لكلّ تلك الشرور التي تهاجم الجنس البشري من كلّ حدبٍ وصوب؟ ألم يكن هذا الإله المهلك سببًا، وذريعةً لذلك النير الحديدي الذي يضطهد الناس، والعبودية التي يرزخون بها، وما يخفونه من جهل، وتلك الخرافة التي تلحق بهم الخزي، والعادات غير المنطقية التي تعذبهم، وتلك الخلافات التي تشتت شملهم، والاعتداءات التي يتعرضون لها؟ ألا يجب أن يسخط كلّ عقلٍ لا تندثر فيه الإنسانية، على شبح لا يخاطب كلّ بلدٍ إلا كطاغية متقلب، وغير إنساني، وغير عقلاني؟

سنضم إلى الدوافع الطبيعية جدًا، ما قد يكون أكثر إلحاحًا، ويميز كلّ إنسان يتأمل؛ أي ذلك الخوف المزعج ؛الذي لابدّ أن يولد، وينمو باستمرار من فكرة وجود إلهٍ متقلب، ونزقٌ للغاية، ويسخط على الإنسان حتى من أفكاره الأكثر سرية، ويمكن أن يمتعض من دون علمنا به، ولا نتيقن أبدًا من إرضائه. علاوة على ذلك، أليس مقيدًا بقواعد العدالة العادية، ولا يدين بأيّ شيءٍ لعمل يديه الواهنتين، ويتيح لمخلوقاته ممارسة ميولهم البائسة، ويمنحهم الحرية في اتباعها إلى أقصى حد، وقد ينال الرضا البغيض عن معاقبتهم على خطاياهم التي يكبدهم ارتكابها؟ ما الذي يمكن أن يكون أكثر عقلانيةٍ، وعدلٍ من التحقق من وجود القاضٍ، وصفاته، وحقوقه، وهو من وصلت به القسوة إلى حدّ الانتقام الأبدي من الجرائم الراهنة؟ أليس منتهى الحماقة، أن تُبتلى بلا راحة كحالِ الكثير من البشر، بالنير الغالب على إلهٍ يستعد دائمًا ليهلكنا بغضبه؟ إنَّ الصفات المرعبة التي شوهه بها دجالون يصرحون بأوامره، تلزم كلّ عاقلٍ أن يخلي قلبه منه، ويتخلص من نيره البغيض، ويرفض وجود إلهٍ جعله السلوك المنسوب إليه مكروهًا، ويستخفّ بإلهٍ جعلته تلك الخرافات سخيفًا، وأسهبتْ في الحديث عنه في كلّ بلد. وإذا وجِدَ إله يثير الغيرة من مجده، فإنَّ الجريمة التي كثيرًا ما تثير سخطه ستكون بلا شكّ جحودًا لأولئك الأوغاد الذين لا يكفّون عن تصويره بالسمة الأكثر تمردًا، ويجب أن يمتعض هذا الإله من قساوسته البشعين أكثر بكثير من أولئك الذين ينكرون وجوده. ويمثل الشبح الذي يعبده الخرافي، بينما يشتمه في أعماق قلبه، شيءٌ مروع لدرجة إغراق كلّ حكيمٍ في التفكير فيه، واضطراره إلى رفض تبجيله، وبغضه، وتفضيل الهلاك على الخوف من الوقوع في قبضته الموجعة. ويا له من أمرٌ مخيف أن يهيب بنا المتطرف لنقع في قبضة الإله الحي، ولكي يفلت الإنسان الذي يفكر بنضج من السقوط

فيها؛ فإنَّه سيلقي بنفسه في أحضان الطبيعة، التي سيجد فيها لوحده ملاذًا آمنًا من تلك العواصف المستمرة التي تحدثها الأفكار الخارقة في عقله.

ولن يفشل الربوبي في إخبار الملحد أنَّ الله ليس كما ترسمه الخرافة، بيد أنَّ الملحد سيرد عليه بالقول: إنَّ الخرافة ذاتها، وكلّ ما تولده من مفاهيم عبثية، وضارة، ما هي إلا نتيجة طبيعية لتلك المبادئ الزائفة، والغامضة التي تبجّل الإله. ويكفي عدم فهمه لإباحة السخافات، والألغاز المبهمة التي تُروى عنه، وتنجم بالضرورة من الكائن الخرافي العبثي؛ الذي لا يمكن أن ينتج عنه سوى كائنات خرافية أخرى، وتتضاعف بدورها باستمرار ضمن خيال البشر الحائرين. ويجب القضاء على هذا الكائن الخرافي الأساسي لضمان راحة الإنسان؛ الذي قد يعرف علاقاته الحقيقية وواجباته، ويصل إلى صفاء النفس التي لا يصل إليها ما لم تكن هناك سعادة على الأرض. وإذا كان إله المؤمنين بالخرافات متمردًا وكئيبًا، فإنَّ إله المؤمن سيكون دائمًا كائنًا متناقضًا، وإن أمعن التفكير فيه؛ فسيصبح قاتلاً، ولن يتوانى الدجال في قدحه عاجلاً أم آجلاً. ويمكن للطبيعة وحدها، وما تكتشفه لنا من حقائق أن تمنح العقل، والقلب ثباتًا لا يستطيع الباطل زعزعته.

دعونا نردّ مرةً أخرى على أولئك الذين يكررون باستمرار، أنَّ مصلحة نزعاتنا وحدها من تقودنا إلى الإلحاد، وأنَّ الخوف من العقوبات القادمة هو الذي يدفع الفاسدين إلى بذلِ جهودٍ للقضاء على هذا القاضِ الذي لديهم سبب للرهبة منه. ويجب أن نتفق دون تردد على أنَّ مصالح، ومشاعر الناس تحفّزهمْ على طرح الأسئلة، وما من أحدٍ يسعى وراء الآخر من دون مصلحة، وما من أحدٍ يسعى بكلّ جهده من دون شغف. والسؤال المطروح هنا، إذا كانت الأهواء، والمصالح هي من يحتّم على بعض المفكرين البحث في حقوق الإله، فهل هي شرعية أم لا؟ لقد أظهرنا هذه المصالح، واكتشفنا أنَّ كلّ إنسان عاقل يجد في اضطراباته، ومخاوفه دوافع منطقية للتأكد مما إذا كان مظطرًا لأنْ يقضي حياته في مخاوف، وعذابات دائمة أم لا؟ ألا يُقال: إنَّ التعيس، والمحكوم بتقييده ظلماً، ليس له حق في كسر قيوده، أو أن يتخذ بعض الوسائل لتحرير نفسه من سجنه، ومن تلك العقوبات التي تهدده في كلّ لحظة؟ ألا يُقال: إنَّ شغفه بالحرية ليس له أساسٌ شرعي، وأنَّه يلحق الأذى بمن يشاطروه بؤسه، ويبعد نفسه عن ضربات الاستبداد، ومساعدتهم على الهروب من هذه الضربات أيضًا؟ فهل هو إنسان أكثر ريبة ممن هرب من السجن العام الذي يحتجز فيه الدجال

الاستبدادي البشرية جمعاء؟ ألا يعدّ الملحد الذي يكتب، ومنْ ولى هاربًا، رفاقه الذين لديهم الشجاعة الكافية لاتباعه، بوسائل التحرر من الأهوال التي تهددهم؟[1]

ونتفق أيضًا على أنَّ فساد الأخلاق، والفسق، والفجور، وحتى تهور العقل يمكن أن تودي بالناس إلى عدم الإيمان، أو الريبة، ولكنك من الممكن أن تكون متحررًا، وغير مؤمن، وتظهر عليكَ الريبة، دون أن تكون ملحدًا وفق هذا التفسير، ولا شك أنَّ هناك فرقًا بين أولئك الذين دفعهم التفكير إلى عدم الإيمان، وأولئك الذين يرفضون الدين أو يستهترون به؛ فقط لأنَّهم ينظرون إليه على أنَّه أمرٌ محزن، أو غير ملائم لضبط النفس. وكثيرٌ من الناس يتبنون الأحكام المسبقة التي تلقوها بفعل الغرور، أو الإشاعات، ولم تبحث هذه العقول القوية المزعومة في شيءٍ لذاتها، وتصرفت بحسب سلطة الآخرين؛ الذين يفترضون أنَّهم يثمّنون الأمور بنضجٍ أكثر. ومن هنا لم يكن لدى هذا النوع من الكائنات المرتابة، أيّ أفكارٍ معينة، وليس لديهم القدرة على التفكير بأنفسهم إلا قليلًا، وبالكاد يسمح لهم وضعهم باتباع منطق الآخرين. وهم غير متدينين على طريقة تدين غالبية الناس، أيّ بسذاجة مثلهم، أو لأجل المصلحة كحال الكهنة. فالرجل الطائش، والفاسق، والذي انغمس في السكر، والفانِ الطموح، والرجل المتآمر، والأرعنْ، والماجن، والمرأة الخليعة، وروح المختارة اليوم، هل هم شخصيات قادرة حقًا على الحكم على دينٍ لم تبحث فيه بعمق، أو تثمّنه بنضج، أو تشعر بقوة الحجة، وتقارنها بكامل النسق؟ وإذا اكتشفوا في بعض الأحيان شيئًا من بصيص الحقيقة الخافت وسط نوبة أهوائهم؛ التي تحجب تفكيرهم، فسيترك هذا عليهم فقط بعض الآثار الزائلة، ولم يسبق تلقيها لطمسها. ويهاجم الفاسدون الآلهة فقط عندما يتصورون أنَّها تناقض

(١) يكرر الكهنة باستمرار أنَّ كبرياء الإنسان، وغروره، ورغبته في تميز نفسه عن عموم البشر، هي من تحتم عليه الريبة. وفي هنا يتصرفون مثل العظماء الذين يتعاملون مع كلّ هؤلاء على أنَّهم متكبرين، ويرفضون الركوع لهم. ألا يحق لكلّ عاقل أنْ يسأل كاهنًا، إلى أيّ مدى يعلو شأنك في أمورٍ تثير التفكير؟ ما الدوافع التي يمكنني أن أخضع لها لتبرير هذياناتك؟ ومن ناحية أخرى، ألا يجوز أن يُقال لرجال الدين أنَّ مصلحتهم هي من تجعلهم كهنة: إن المصلحة التي تجعلهم لاهوتيين، كمصلحة عواطفهم، وفخرهم، وجشعهم، وطموحهم، وما إلى ذلك، هي التي تربطهم بأنظمتهم التي هم وحدهم من يجنون ثمارها؟ ومهما كان الأمر، يجب أن يسمح الكهنة الذين يكتفون بممارسة إمبراطوريتهم على الجاهل، لأولئك الناس الذين يفكرون بألا يركعوا لأصنامهم العبثية. وكما قال ترتليان: " لأنَّها ترغم الفيلسوف على التضحية!" أنظر: (Tertull. Apolog. Chap. 614.)

أهوائهم.[1] ويهاجمها الصادق؛ لأنَّه يجد أنَّها تناقض الفضيلة، وتضرّ بسعادته، وتعارض راحته، وتقضي على الجنس البشري.

وبذلك كلما كانت الدوافع التي توجه إرادتنا خفية، ومعقدة، كان من الصعب للغاية تحديد ما يقيدها، وقد تؤدي تلك الدوافع التي لا يجرؤ الشرير على البوح بها حتى لنفسه إلى عدم إيمانه، أو إلى الإلحاد، وقد يشكّل لنفسه وهمًا، ولا يتّبع سوى مصلحة أهوائه؛ لإعتقاده أنَّه يسعى وراء الحقيقة، وربما سيودي به خوفه من إلهٍ منتقم إلى إنكار وجوده دون أن يكبد نفسه عناء البحث، لكونه مقلق ضمنيًا لراحته. ومع ذلك، فإنَّ مشاعرنا تكون منصفة في بعض الأحيان، وتدفعنا مصلحتنا الكبيرة إلى البحث في الأشياء عن كثبٍ، وقد تؤدي في كثيرٍ من الأحيان إلى اكتشاف الحقيقة، حتى لمن يسعى وراءها بقدرٍ أقل، أو الذي يرغب فقط في أن ينام، ويخدع نفسه. والشيء ذاته مع الإنسان المنحرف؛ الذي يتعثر بشأن الحقيقة، كما هو الحال مع الشخص الذي يفرّ من خطرٍ وهمي، وقد يجد في طريقه ثعبانًا خطيرًا فيسارع في قتله، ويفعل ذلك عن طريق الصدفة، ومن دون تصميم، وهو ما كان يمكن أن يفعله أحمقٌ يعاني اضطراباً أقل في عقله بتدبرٍ، ومع سبق الإصرار. ومن المؤكد أنَّ الإنسان الشرير الذي يهاب إلهه، ويفرّ منه، قد يكتشف سخافة تلك المفاهيم التي يخامره الشك بأمرها، من دون أن يكتشف لهذا السبب أنَّه من غير الحكمة أن تغير هذه المفاهيم ذاتها الأدلة، وضرورة واجباته، أو تبدّلها.

ومن الضروري أن تكون غير مبالٍ لتحكم على الأشياء كما ينبغي، وأن تمتلك عقلًا مستنيرًا؛ لتستوعب النظام العظيم، إذ أنَّ البحث في البراهين على وجود الله، ومبادئ الدين لا تخص سوى الإنسان الصادق. وكذلك الإحاطة بذكاءٍ بعلة نظام الطبيعة، لا يهم سوى الإنسان المطّلع على الطبيعة وطرقها، في حين يعجز الشرير، والجاهل عن الحكم بصراحة، ووحدهم الصادقون، والفاضلون هم قضاةٌ أكفاء في قضيةٍ ذو شأنٍ عظيم للغاية. ولكن ماذا أقول؟ أليس الفاضلُ في موقف ما منذ البداية، يرغب في وجود إله يثيب الناس على خيرهم؟

---

(١) يقول أريان Arian: أنَّه عندما يتخيل الناس أنَّ الآلهة تتعارض مع أهوائهم، فإنهم يسيئون إليها، ويقلبون مذابحهم. وكلما كانت مشاعر الملحد أكثر جرأة، بدوا أكثر غرابة، وشكوكًا بالنسبة إلى الناس الآخرين، وكلما توجب عليه مراقبة واجباته، وأدائها بصرامة، ودقة، لاسيما إذا لم يكن يرغب في تشويه نظامه من خلال أخلاقه، فسيجعل منها شعورًا أخلاقيًا ضروريًا، ويقينيًا كما ينبغي، في حين تميل كلّ أنواع الأديان إلى جعلها معقدة، أو حتى إفسادها.

وإنْ تخلى عن هذه المزايا التي تمنحه فضيلته الحق في التأمل فيها؛ فذلك لكونه يجدها خيالية، كحالِ الثواب الذي يقرره له، وهو ملزمٌ عند التفكير في شخصية هذا الإله، بالاعتراف بأنَّه من غير الممكن الاعتماد على طاغية متقلب، وأنَّ الانحرافات، والحماقات التي يستخدمها كذريعة، تفوق إلى أقصى حد المزايا المثيرة للشفقة التي يمكن أن تنتج من هذه الأفكار في الواقع. وسرعان ما يدرك أيّ إنسان متأمل بالفعل، أنَّه مقابل كلّ فانٍ جبان يكبح هذا الإله مشاعره الضعيفة، هناك الملايين الذين لا يستطيع لجمهم، بل على العكس من ذلك، يثير غضبهم. ومقابل شخصٍ يواسيه، هناك الملايين الذين يذلهم مرارًا وتكرارًا، ويفرض عليهم الألم. وبعبارة أخرى، يجد مقابل كلّ متعصب غير متسق، يسعده هذا الإله الذي يظن فيه خيرًا، من يسوقه إلى خلق الفتنة، والمجازر، والبلاء في البلدان الشاسعة، ويغرق جميع الناس في الحزن والدموع.

ومهما يكن الأمر، لا تدعونا نستفسر عن الدوافع التي قد تجعل الإنسان يعتنق نظامًا، ودعونا نبحث في النظام، ونقنع أنفسنا فيما لو كان صحيحًا، وإذا وجدنا أنَّه قائم على الحقيقة، فلن نكون قادرين على تقدير مدى خطورته. وإن كان الباطل يلحق بالناس الضرر على الدوام، حيث اتضح أنَّ الخطيئة مصدرًا لأحزانهم؛ فإنَّ العقل هو العلاج الحقيقي لهم. ولا تدعونا نبحث كثيرًا في سلوك منْ يقدم لنا نظامًا، فقد تكون أفكاره كما قلنا، سليمة للغاية، في حين يستحق اللوم بشدة على أفعاله. وإذا لم يستطع نظام الإلحاد أن يحرفه؛ بسبب مزاجه، فلا يمكن أن يجعله خيرًا، ولا يعرف بخلاف ذلك سوى الدوافع التي ينبغي أن تقوده إلى الفضيلة. وقد أثبتنا على الأقل أنَّ الخرافي عندما يمتلك شغفًا قويًا، وقلبًا ضالًا، يجد حتى في دينه ألف ذريعة أكثر مما لدى الملحد لإلحاق الضرر بالجنس البشري. فالملحد ليس لديه على الأقل عباءة المتشدد دينيًا؛ ليحجب انتقامه، وتحولاته، وغضبه، ولا يملك ملكة التكفير على حساب المال، أو مساعدة شعائر معينة، والاعتداءات التي يرتكبها ضد المجتمع، وليس لديه ميزة القدرة على استرضاء إلهه من خلال بعض التقاليد السهلة، ليخفف من حدةِ الندم؛ الذي يعتري ضميره المضطرب، وإنْ لم تقتل الجريمة كلّ شعور في قلبه، فإنَّه ملزم باستمرار بأنْ يحمل في داخله قاضيًا لا يرحم، يوبخه بلا هوادة على سلوكه البغيض؛ الذي يجبره على الخجل من نفسه، وكرهها، ويخشى نظرات الآخرين، واستيائهم. وإنْ كان المؤمن بالخرافات شريرًا، فسيستسلم للجريمة؛ التي يعقبها تأنيب الضمير، لكن دينه سرعان ما يزوده بوسائل للتخلص منه، ولا تمثل حياته عمومًا سوى سلسلة طويلة من الضلال، والحزن،

والخطيئة، والكفارة، وفوق ذلك يرتكب في كثيرٍ من الأحيان، كما رأينا، جرائم أعظم من أجل التكفير عن جرائمه الأولى؛ أي أنّه يفتقر إلى أيّ أفكار دائمة عن الأخلاق، واعتاد على ألا ينظر إلى أيّ شيءٍ على أنّه جريمة، ما عدا تلك التي يمنعه كهنة إلهه، ومفسروه من ارتكابها، ويعتبرها فضائل، أو وسائل لطمس معاصيه، وإماتة الأفعال الأكثر ظلالًا، والتي كثيرًا ما يُنظر إليها على أنَّه مقبولة عند هذا الإله. وهكذا رأينا المتعصبين يكفِّرون بأبشع الاضطهادات، عن زناهم، وعارهم، وحروبهم الظالمة، واغتصابهم. ولكي يغسلوا آثامهم، يستحمّوا بدماء هؤلاء المؤمنين بالخرافات؛ الذين جعلهم تهافتهم ضحايا وشهداء.

ولو فكّر الملحد بعدلٍ، واستشار الطبيعة، وكانت لديه مبادئ أكثر يقينًا، وكان دائمًا أكثر إنسانية من المؤمن بالخرافات، لأوصل دينه سواء كان كئيبًا أو متحمسًا، هذا الأخير دائمًا إلى الحماقة أو القسوة. ولن يشمل خيال الملحد أبدًا إلى درجةٍ تجعله يعتقد أنَّ العنف، والظلم، والاضطهاد أو الاغتيال هي أفعال فاضلة، أو مشروعة. ونرى كلّ يوم أنَّ الدين، أو قضية السماء، تخدع هؤلاء الأشخاص الذين هم إنسانيون، ومنصفون، وعقلانيون في كلّ مناسبة أخرى، لدرجةٍ أنَّهم يجعلون من واجبهم التعامل بأقصى درجات الهمجية مع أولئك الناس؛ الذين ينبذون طريقة تفكيرهم. ولم يعد الزنديق، أو الكائن المرتاب، إنسانًا في نظر كلّ المؤمنين بالخرافات. وهنا يقدم لنا المجتمع الملوث بضغينة الدين أمثلةً لا حصر لها على الاغتيالات العشوائية؛ التي ترتكبها المحاكم من دون ترددٍ، وندم، وعن القضاة الذين هم منصفون في كلّ مناسبة أخرى، ولا يعودوا كذلك حالما يتعلق الأمر بمسألة الكائنات الخرافية اللاهوتية، وعندما يغتسلون بالدماء، يعتقدون أنَّهم يتوافقون مع آراء الإله. إذ تخضع القوانين في كلّ مكان تقريبًا للخرافة، وتتواطئ مع غضبها، ويشرعون تلك الأعمال الوحشية التي تتعارض مع حقوق الإنسانية، أو يحولونها إلى واجبات.(1) أليس كلّ هؤلاء المنتقمون للدين هم أناسٌ متهورون، ولديهم قلوب مرحة، ويضحّون من خلال التقوى، والواجب بأولئك الضحايا الذين تشير إليهم؟ أليسوا طغاة، عندما يظلمون بانتهاكهم الفكر، وحمقى عندما يصدّقوا أنَّهم قادرون على استعباده؟ أليسوا متطرفين يفرض عليهم القانون الذي تمليه عليهم

---

(١) يروي الرئيس غرامونت Grammont، بقناعة جديرة حقًا بآكلي لحوم البشر، تفاصيل عقاب فانيني؛ الذي أُحرق في تولوز، على الرغم من أنّه رفض الآراء التي اتُّهم بها. ويذهب هذا الرئيس إلى أبعد من ذلك؛ ليجد الشرير الصرخات والعويل الذي خرج بفعل العذاب من هذه الضحية التعيسة للوحشية الدينية.

تحيزاتهم غير الإنسانية، ضرورة أن يصبحوا متوحشين شرسين؟ أليس كلّ هؤلاء الملوك الذين يعذبون، ويضطهدون رعاياهم للانتقام للسماء، ويضحون بضحايا بشرية؛ لاتقاء شرّ آلهتهم المجسمة، هم أناسٌ حولهم تشددهم الديني إلى متعطشين للدماء؟ أليس هؤلاء الكهنة الحريصون للغاية على صحة النفس، ومن يقتحمون بوقاحة حرم الأفكار حتى يجدوا في آراء الإنسان دوافع لإيذائه، هم المخادعون البغيضون، ومن يعكروا صفو العقل، ومن يكرمهم الدين، ويمقتهم العقل؟ منْ هم الأوغاد الأكثر بغضًا في نظر البشرية، ومنْ أولئك المحققين الشائنين الذين يتمتعون بفعلٍ تهور الأمراء بميزة الحكم على أعدائهم، وإيداعهم في النيران؟ مع أنَّ خرافة الشعب تجعلهم محترمين، ويغمرهم فضل الملوك باللطف! ألا تثبت آلاف الأمثلة أنَّ الدين يقترف في كلّ مكان أبشع الأهوال التي لا تخضع للمساءلة ويبررها؟ ألم يُسلح الناس ألف مرة بخناجر جرائم القتل، وأطلق العنان لأهواءٍ أفظع بكثيرٍ من تلك التي زعم أنَّه يكبح جماحها، وأوهنَ أقدس الروابط البشرية؟ ألم يفضّل القسوة، والغباء، والطموح، والاستبداد، بذرائع الواجب، والإيمان، والتقوى، والتعصب؟ ألم يشرعنوا الجريمة، والغدر، والحنث باليمين، والعصيان، وقتل الملوك بحجة الإله؟ ألم يقع هؤلاء الأمراء الذين نصّبوا أنفسهم في كثيرٍ من الأحيان منتقمين للسماء، وخادمين للدين Lictors،[*] ضحايا له مئات المرات؟ وبعبارة أخرى، ألم يكن اسم الله إشارة إلى أفظع الحماقات، وأبشع الانتهاكات وأشرّها؟ ومهما كان الشكل الذي أظهروا به الإله، ألم تضرّج مذابح آلهتهم في كلّ مكان بالدماء، ألم يكن دائمًا سببًا، أو ذريعة لانتهاك أكثر وقاحة لحقوق البشرية؟[1]

---

* اللكتور: مشتقة من "ligare" وتعني الارتباط، وهم موظفون حكوميون في روما القديمة، وكانوا يعملون بالدرجة الأولى كحرس شخصيين لشخصيات ذو شأن في الإمبراطورية الرومانية.(للمترجم)، للمزيد راجع (Lictor « IMPERIUM ROMANUM)

(١) من حقنا الإشارة إلى أنَّ دين للمسيحيين الذي يتفاخر بإعطاء الناس أفكار أكثر عدلاً عن الإله؛ الذي يُتهم في كلّ مرة بأنَّه مضطرب ودموي، لا يظهر إلهه إلا من جانب الخير، والرحمة، ويفخر في كونه علّم أنقى نسق أخلاقي، ويدعي أنَّه حقق التوافق، والسلام الدائم بين أولئك الذين يعلنون إيمانهم به: أعني أنَّه من الجيد إعادة الإشارة إلى أنَّه تسبب في الانقسامات، والنزاعات، والحروب السياسية والأهلية، والجرائم من كلّ الأنواع، أكثر من جميع الديانات الأخرى في العالم. وربما يُقال لنا: إنَّ التقدم في التعلم، سيمنع هذه الخرافة من إحداث مثل هذه النتائج الكئيبة في المستقبل كتلك التي فعلتها سابقًا، لكننا سنجيب: أنَّ التعصب لن يقلّ عنه خطورة، أو أنَّه السبب في عدم استبعاده، وأنَّ النتائج ستكون هي ذاتها دائمًا. وهكذا، طالما أنَّ الخرافة يجب أن تؤخذ في الاعتبار، ويكون لها سلطة، فستكون هناك نزاعات، وحالات اضطهاد، واغتيالات، واضطرابات، وما إلى ذلك. وطالما أنَّ البشر ليسوا عقلاء بما يكفي للنظر إلى الدين باعتباره أمرًا ذا أولوية

طالما أنَّ الملحد يتمتع بحواسٍ سليمة، فلن يقنع أبدًا بأنَّ أفعالًا مماثلة يمكن تبريرها، ولن يصدّق أبدًا أنَّ من يرتكبها يمكن أن يكون إنسانًا محترمًا، وما من أحدٍ سوى الكائن المؤمن بالخرافات، يجعله تهوره ينسى أوضح مبادئ الأخلاق، والطبيعة، والعقل، وهو من يمكنه أن يتخيل أنَّ الفضائل هي من أكثر الجرائم تدميراً. وإذا كان الملحد فاسدًا، فهو على الأقل يعلم أنَّه مخطئ، ولن يستطيع الإله، ولا كهنته إقناعه بأنَّه يفعل الصواب، ومهما كانت الجرائم التي قد يسمح لنفسه بارتكابها، فلن يكون قادرًا أبدًا على تجاوز تلك التي تؤدي الخرافة إلى ارتكابها من دون تردد على يد من يسكرون بحنقها، أو من يعتبرون الجرائم كفّارات، وأفعال جديرة بالتقدير.

وهكذا مهما افترضنا من شر الملحد، فسيكون على الأغلب في مستوى المتعصب الذي يشجعه دينه كثيراً على ارتكاب جريمة يحولها إلى فضيلة. أما فيما يتعلق بالسلوك، فإذا كان الملحد فاسقًا، وشهوانيًا، ومتطرفًا، وزانيًا، فإنَّه لا يختلف في شيءٍ عن المؤمن بالخرافات الأكثر سذاجة، والذي يعرف كثيراً كيف يربط بسذاجته تلك الرذائل، والجرائم التي سيغفرها له كهنته دائمًا، شريطة أن يحترم سلطتهم. ولو كان في هندوستان؛ لغسله البراهمة في نهر الغانج أثناء تلاوة الصلاة. ولو كان يهوديًا؛ لمحيتْ خطاياه ما أن يقدم قربانًا. ولو كان في اليابان، لتطهّر بفضل أدائه لفريضة الحج. ولو كان مُحَمّدِيًا؛ لعُرف على أنَّه قديسًا؛ لكونه زار قبر نبيه. ولو كان مسيحيًا؛ لصلى، وصام، وألقى بنفسه عند أقدام كهنته، واعترف بأخطائه لهم. وهذا سيمنحه الغفران باسم "العلّي"، وسوف يبيعونه صكوك الغفران من السماء، لكنهم لن يلوموه أبدًا على تلك الجرائم التي كان من المفترض أن يرتكبها دعمًا لمعتقداتهم المتعددة.

ويُقال لنا على الدوام: إنَّ السلوك غير المحتشم، أو الإجرامي للكهنة، وطوائفهم لا يثبت شيئًا على حسن نظمهم الدينية، ولكن لماذا لا يقولون الشيء ذاته عن سلوك الملحد الذي، كما أثبتنا بالفعل، قد يكون لديه نسقٌ أخلاقي جيد جدًا، وصحيح للغاية، حتى وإن عاش حياة فاسدة؟ وإذا كان من الضروري الحكم على آراء البشر على أساس سلوكهم، فما الدين الذي يقع على عاتقه هذا التدقيق؟ فلنبحث إذن في آراء الملحد من دون موافقته على

بالنسبة لهم، فسيكون لرجال الدين فرصة للخلط بين كلّ شيء على وجه الأرض بذريعة خدمة مصلحة الإله، التي لن تكون دائمًا سوى مصالحهم الخاصة. ولن تمتلك الكنيسة المسيحية سوى طريقة واحدة فقط لإبطال التهمة للموجه ضدها بأنَّها غير متسامحة، أو قاسية، وهذا من شأنه أن يوضّح رسميًا أنَّه لا يجوز اضطهاد أيّ شخص، أو إلحاق الضرر به، نتيجة آرائه، لكن هذا ما لن يفعله قساوستها أبدًا.

سلوكه. ونتبنى أسلوبه في التفكير، إذا حكمنا أنّه صادق، ونافع، وعقلاني، ودعونا نرفض أسلوب عمله، إذا وجدنا أنّه يستحق اللوم. وعندما نرى عملًا مفعمًا بالحقيقة، فلا نحرج أنفسنا بأخلاق الفاعل. فما أهمية أن يكون نيوتن رزينًا أم متعجرفًا، وعفيفًا أم فاسقًا بالنسبة للكون؟ يبقى لنا فقط أن نبحث فيما إذا كان قد فكّر جيدًا، وإذا كانت مبادئه مؤكدة، وإذا كانت أجزاء نسقه مترابطة، وإذا كان عمله يحتوي على حقائق يمكن إثباتها أكثر من الأفكار الجريئة. ودعونا نحكم بالطريقة ذاتها على مبادئ الملحد، وإذا كانت غريبة وغير عادية، فهذا يؤدي للبحث فيها بدقة أكبر، وإذا قال الصواب، وأظهر مواقفه؛ فلنسلّم بالأدلة، وإذا كان مخادعًا في بعض الأجزاء؛ فدعونا نميز بين الحق والباطل، ونبتعد عن التحيز المبتذل الذي يرفض العديد من الحقائق المؤكدة نتيجة خطأ واحد في التفاصيل.[1] ولا شكّ في أنَّ للملحد الحق كحال المؤمن بالخرافات في إلقاء أخطائه عندما ينخدع على قصور طبيعته. وقد يكون للملحد رذائل وعيوب، وربما يسيء التفكير، لكن أخطائه لن تكون لها على الأقل عواقب المستجدات الدينية، ولا يثير مثل هؤلاء نار الفتنة في حضن الامم. ولا يبرر الملحد رذائلته، وضلالاته بالدين، ولن يدّعي العصمة من الخطأ مثل هؤلاء اللاهوتيين المغرورون الذين يربطون العقاب الإلهي بحماقاتهم، ويفترضون أنَّ السماء أجازت هذه المغالطات، وتلك الأكاذيب، والأخطاء التي يعتقدون أنّهم ملزمون بنشرها على وجه أرض.

وربما يُقال: إنَّ رفض الإيمان بالإله، سيفكك أحد أقوى روابط المجتمع، ويحجب قداسة القسم. وأجيب: إنَّ الحِنْث باليمين ليس نادرًا بأيّ حال من الأحوال في معظم الأمم الدينية، ولا حتى بين الأشخاص الذين يتفاخرون بكونهم الأكثر اقتناعًا بوجود الآلهة. ويقال: إنَّ **دياجوراس Diagoras**، الذي كان يؤمن بالخرافات، أصبح ملحدًا عندما رأى أنَّ الآلهة لم تنطق متوعدةً بثأرها من رجل اتخذها دليلًا على زيفه. وبناءً على هذا المبدأ، كم عدد الملحدين الذين ينبغي أن يكونوا بيننا؟ انطلاقاً من المبدأ الذي أودّع أمر العهود البشرية للكائن المحجوب، والمجهول، فإنّنا لا نرى نتيجة ذلك أنَّ عهودهم، وعقودهم الأكثر جدية هي الأكثر صلابة بالنسبة لهذه الإجراءات الشكلية العبثية. فيا قادة الأمم أنا أدعوكم أنتم

(١) يقول دكتور جونسون Johnson (الدب أو الخنزير للمسيحي) في مقدمة قاموسه: أنّه "عندما يؤدي الإنسان مهمته بكلّ ما أوتي من إتقان، فسيقرون له بأنّه يؤدي واجبه، ولكن ما أن يرتكب أدنى خطأ، فسيتأهب ألف مزيجر للإشارة إليه".

بخاصة، لتشهدوا تأكيداتي! هذا الإله الذي تقولون أنكم صور عنه، وتدّعون بأنكم متمسكون بحقّ الحكم منه، وهذا الإله الذي تشهدون به كثيرًا في أقسامكم، وضمان معاهداتكم، هذا الإله الذي تخشون الدينونة منه، هل له شأنٌ كبير عندكم، وإن كان السؤال لا يجدي نفعًا؟ هل تحافظون دينياً على تلك العهود المقدسة التي عقدتموها مع حلفائكم، ورعاياكم؟ أيُّها الأمراء! والذين كثيرًا ما تتصرفون بقليلٍ من الاستقامة في كثيرٍ من الأديان، أرى بلا شك أنَّ قوة الحقيقة تغلب عليكم، وينتابكم الحياء في هذا السؤال، وملزمون بأن تبيحوا لأنفسكم السخرية من الآلهة، والناس على حدٍ سواء. فماذا أقول؟ ألا يعفيكم الدين كثيرًا من يمينكم؟ ألا ينبغي أن تكونوا غدّارين، وتنتهكوا الإيمان البائس، ولاسيما عندما يكون هناك تساؤل عن مصالحه المقدسة، ألا يأمركم بالاستغناء عن العهود التي عقدتموها مع أولئك الذين تدينونهم؟ وبعد أن أصبحتم غدّارين، وحنثتم باليمين، ألم تدعوا أحيانًا حق تبرأة رعاياكم من ذلك القَسَم الذي ألزمتموهم به![1] وإذا أولينا أنتباه للأمور، فسنرى أنَّ الدين، والسياسة في ظلّ هؤلاء الزعماء هي بمثابة مدارس للحنث باليمين. ولذلك لا يتراجع المخادعون في كلّ حالة أبدًا عندما يكون من الضروري الحلفان باسم الله عن أبرز حيلهم، ومصالحهم الشريرة. ولكن ما الغاية التي يفي بها القسم؟ يمكن للأفخاخ التي يتألمون منها لوحدهم ببساطة أن توقعهم في شركها، ويكون القسَم في كلّ مكانٍ عبارة عن شكليات باطلة، ولا تفرض أمرًا على الأوغاد، ولا تضيف شيئًا إلى عهود الناس الشرفاء، الذين لم تكن لديهم الجرأة على انتهاكها من دون القسم. ولا شكّ أنَّ الخرافي الخائن، والحانث باليمين، لا يملك ما يميزه عن الملحد الذي قد لا يفي بوعوده، ولا يستحق أحدهما أو الآخر ثقة أقرانه، ولا احترام الناس الأخيار، وإن كان أحدهم لا يبجّل إلهه الذي يؤمن به، فإنَّ الآخر لا يحترم عقله، أو سمعته، ولا الرأي العام، الذي لا يستطيع كلّ العقلاء أن يرفضوا تصديقه.[2]

(١) إنَّما الحكمة التي تتلقاها باستمرار في الديانة الرومانية الكاثوليكية؛ أي في تلك الطائفة للمسيحية الأكثر إيمانًا بالخرافات والأكثر عددًا، ومفادها: "أنَّه ما من دينٍ يؤمن بالزنادقة". وهكذا قرّر المجلس العام لكونستانس، عندما أصدر مرسومًا بإحراق جون هوس وجيروم براغ، بصرف النظر عن تصريح الإمبراطور. ومن المعلوم جيدًا أنَّ الحبر الروماني له الحق في إعفاء أمنائه من أداء قسمهم، وإلغاء نذورهم. وكثيراً ما ادعى الحبر ذاته الحق لنفسه في خلع الملوك، وإعفاء رعاياهم من قسَم الولاء. ومن غير المعتاد أن تنصّ قوانين تلك الأمم التي تعتنق الديانة المسيحية على القسم، بينما يحظر المسيح صراحةً استخدامها.

(٢) يقول هوبز: "لا يضيف القسَم شيئًا للواجب، بل يضاعف فقط الخوف في مخيلة من يحلف على ألا ينتهك العهد؛ الذي ما كان سيضطر إلى الوفاء به أبدًا من دون قسَم.

لقد طُرح السؤال مرارًا وتكرارًا، عمّا إذا كانت هناك أمة لا تمتلك فكرة عن الإله، وإذا ما كان باستطاعة شعبٍ مكون بانتظام من ملحدين أن يستمر؟ أيًا كان ما يقوله بعض المتأملين، فلا يُرجح أنّه قد وجد على كوكبنا عددٌ كبير من الناس الذين لم تكن لديهم فكرة عن قوة خفية، أو أظهروا لها علامات التبجيل، والخضوع.(١) وبقدر ما يكون الإنسان حيوانًا مخيفًا، وجاهلًا، يصبح بالضرورة مؤمنًا بالخرافات عند مصائبه؛ فيشكل لنفسه إلهًا، أو يعترف بالإله الذي يقرره له الآخرون. ولا يبدو بموجب ذلك أنَّ باستطاعتنا أن نفترض منطقيًا أنّه قد وجد ربما شعبٌ على الأرض بمنأى تام عن فكرة إلهٍ معين، أو أنّه موجود بالفعل. وسيرينا أحدهم الشمس، أو القمر والنجوم، ويظهر لنا الآخر البحر، والبحيرات، والأنهار التي تمدّه بقوته، والأشجار التي تمنحه ملاذاً من قساوة الجو، وسيظهر لنا آخر صخرةً غريبة الشكل، وجبلًا عالٍ، أو بركان يذهله كثيرًا، وسيقدم لك آخر تمساحه الذي يخشى شرّه، وثعبانه الخطير، والزاحف الذي ينسب إليه حظه الحسن أو السيئ. وبعبارة أخرى، سوف يريكَ كلّ منهم أشباحه، وإلهه المنزلي، أو الموصى بتبجيله.

لكن الهمجي لا يستنتج من وجود آلهته الحيثيات ذاتها التي يستنتجها المتحضر، والمثقف، ولا يعتقد أنَّ من واجبه التفكير كثيرًا في آلهته، ولا يتخيل أنّها قد تؤثر في أخلاقه، ولا تشغل أفكاره بالكامل، وراضٍ بالعبادة العيانية، والبسيطة، والخارجية، ولا يعتقد أنَّ هذه القوى الخفية تزعج بحدّ ذاتها سلوكه تجاه أقرانه، وبعبارة أخرى، لا يربط أخلاقه بدينه. وتتناسب هذه الأخلاق الرديئة مع رغباته، كما يجب أن تكون عند جميع الناس الجاهلون، وهي قليلة، وكثيرًا ما تكون غير عقلانية؛ لأنّها ناجمة عن الجهل، وعدم الخبرة، وأهواء الناس، وقلما تُكبت في طفولتهم. وموجودة فقط في العديد من المجتمعات الثابتة، والمتحضرة، حيث

(١) لقد ساد الاعتقاد بأنَّ الصينيين كانوا ملحدين، لكن هذا الخطأ يرجع إلى المبشرين المسيحيين؛ الذين اتهموا بمعاملة كلّ هؤلاء على أنّهم ملحدين لا يحملون آراءً مماثلة لآرائهم عن الإله. ويبدو دائمًا أنَّ الصينيين هم شعبٌ مؤمن بالخرافات إلى حدٍ كبير، مع أنّهم محكومون من قبل رؤساء ليسوا كذلك، ولكن دون أن يكونوا ملحدين لهذا السبب. وإذا كانت إمبراطورية الصين مزدهرة كما يُقال، فإنّها تقدم على الأقل دليلًا قسريًا على أنَّ أولئك الذين يحكمون، ليس لديهم فرصة ليكونوا مؤمنين بالخرافات؛ لكي يحكموا بطريقةٍ لائقة، والشعب من هذا القبيل.

ويُزعم أنَّ سكان غرينلاند ليس لديهم فكرة عن الإله، ومع ذلك، من الصعب تصديق أنّهم أمة شديدة الوحشية، وأساءت الطبيعة معاملتها.

تتضاعف رغبات الإنسان، وتتعارض مع مصالحه، ويضطر إلى اللجوء إلى الحكومات، والقوانين، والعبادة العامة، من أجل الحفاظ على الانسجام: وعندئذٍ يقارب الناس العقل، ويجمعون بين أفكارهم، ويصقلوا مفاهيمهم ويدققونها، ومن ثم فإنَّ أولئك الذين يحكمونهم، ويستغلون خوفهم من القوى الخفية لإبقائهم مقيدين، وتسهيل انقيادهم، وإلزامهم بالطاعة، والعيش بسلام. وبالتالي تجد تدريجيًا أنَّ الأخلاق، والسياسة مرتبطة بحدّ ذاتها بالأنظمة الدينية. ويعتقد زعماء الأمم المؤمنون بالخرافات في كثيرٍ من الأحيان بحد ذاتهم، ما عدا أنَّ بعضهم مثقف بشأن مصالحهم الخاصة، وقلّة منهم على دراية بالأخلاق السليمة، وبعضهم يوكل إليه أمر القوى الدافعة الحقيقية لقلب الإنسان، وأنَّ عليهم فعل كلّ شيء من أجل سلطتهم الخاصة، وسعادة المجتمع، وراحته، وجعل رعاياهم يؤمنون بالخرافات، وتهديدهم بالغضب من الأشباح الخفية، ومعاملتهم مثل الأطفال الذين يستاءون من الخرافات، والكائنات الخرافية. وبمساعدة هذه الاختراعات العجيبة، والتي ينخدع بها مرارًا وتكرارًا حتى زعماء الأمم، ومرشدوها أنفسهم، وتنتقل من عرقٍ إلى آخر في واجباتهم؛ يتخلى الملوك عن مشكلة توجيه أنفسهم، ويهملون القوانين، ويوهنون أنفسهم في الدعة والكسل، ولا يتبعون سوى نزوتهم، ويسندون لآلهتهم عهدة كبح رعاياهم، ويثقون في إسترشاد الناس بالقساوسة؛ الذين كلفوا بجعلهم صالحين، وخاضعين، وورعين، وتعليمهم في سنٍ مبكرة أن يرتعدوا تحت نير الآلهة المرئية، والمحجوبة.

وبالتالي، يحافظ معلموا الأمم على إبقاءها في حال الطفولة الدائمة، ولا يقيدوها إلا بالكائنات الخرافية عديمة النفع. وبالتالي، يعتري السياسة، والفقه، والتعليم، والأخلاق، الغلو في كلّ مكان. وهكذا لم يعد الناس يعرفوا أيّ واجبات سوى الواجبات الدينية، ومن هنا تقترن فكرة الفضيلة زيفًا بتلك القوى الوهمية؛ التي منحت الدجال تلك اللغة الأكثر ملاءمةً لمصالحه المباشرة. ولذلك يقتنع الناس أنَّهم لم يعدوا يمتلكوا أيّ أخلاق من دون إله. وهكذا فإنَّ الأمراء والرعايا، المحجوبون بالقدر ذاته عن مصالحهم الحقيقية، وواجبات الطبيعة، وحقوقهم المتبادلة، قد اعتادوا بأنفسهم على اعتبار الدين ضروري للأخلاق، وشرطًا لا غنى عنه للهيمنة على الناس، ووسائل معينة للوصول أكثر إلى السلطة، والسعادة.

من هذه التصرفات التي أثبتناها زيفها مرارًا، وينظر إليها الكثير من الأشخاص، ما عدا المستنيرون للغاية، على أنَّها استحالة، استطاع مجتمع الملحدين أن يعيشوا لأمد من الزمن. ولا يُسلّم بمسألة أنَّ المجتمع التعددي الذي قد لا يمتلك دينًا، وأخلاقًا، وحكومةً، وقوانين،

وتعليم، أو مبادئ، لا يمكن أن يحافظ على نفسه، وأنّه ببساطة سيجمع كائنات تميل إلى إلحاق الضرر ببعضها البعض، أو أطفالًا سيتّبعون بتهورٍ فقط أشنع الدوافع لكلّ دين في العالم. لكن أليست المجتمعات البشرية قريبة للغاية من هذه الحال؟ أليس ملوك كلّ بلد تقريبًا في حال حربٍ مستمرة مع رعاياهم؟ أليس أولئك الرعايا، على الرغم من الدين، والمفاهيم الرهيبة التي تقدم لهم عن الإله، انشغلوا بلا توقف في إلحاق الأذى بعضهم البعض، وإتعاس بعضهم البعض؟ ألا يمدح الدين نفسه باستمرار، بمفاهيمه الخارقة للطبيعة، وفي غطرسة الملوك، وأهوائهم، وصبّ الزيت في النيران لإثارة الخلاف بين هؤلاء المواطنين الذين ينقسمون في رأيهم؟ وهل يمكن لتلك القوى الباطنية؛ التي من المفترض أن تكون دائمًا على أهبة الاستعداد أن تؤذي الجنس البشري، أن تتمكن من إحداث شرورٍ على الأرض أكثر مما يحدثه التعصب، والغضب الذي يولده اللاهوت؟ وبعبارةٍ أخرى، هل يمكن أن يتصرف للملحدون الذين تجمّعوا معًا في المجتمع، مهما افترض أنّهم غير عقلانيين، مع بعضهم البعض بطريقةٍ إجرامية أكثر مما يفعله أولئك المؤمنين بالخرافات، والمفعمين بالرذائل الحقيقية، والكائنات الخرافية المتهورة، وهم لم يفعلوا شيئًا على مدى عصور سوى قتل، ونحر بعضهم البعض من دون سبب، ومن دون شفقة؟ وعلى العكس من ذلك، لا يمكن الإدعاء بأنّهم كذلك، ونؤكد بجرأة أنَّ مجتمع الملحدين المفتقرين لكلّ دين، تحكمهم قوانين مفيدة، وشكّلها تعليم جيد، ويدعون إلى الفضيلة من خلال الثواب، وردع اقتراف الجريمة من خلال العقوبات المنصفة، ويبتعدون عن الأوهام، والباطل، والكائنات الخرافية، سيكونوا أشرف، وأكثر عفةً من تلك المجتمعات الدينية التي يتضافر كلّ شيء فيها لتسميم العقل، وإفساد القلب.

وعندما نميل إلى شغل أنفسنا بما يعود بالنفع على سعادة الناس، فلابدّ أن يبدأ الإصلاح من آلهة السماء، من خلال استخلاص هذه الكائنات الخيالية، والمقدّرة لترويع الجهلة، والرُضع، وسنكون قادرين على أنْ نعدّ أنفسنا بقيادة الإنسان إلى حالةٍ من النضج. ولا يمكن أن نكرر في كثيرٍ من الأحيان، أنّه لا توجد أخلاق من دون استشارة طبيعة الإنسان، وعلاقاته الحقيقية بأبناء جنسه، ولا توجد مبادئ ثابتة لسلوك الإنسان تنظّمه وفق آلهة ظالمة، ومتقلبة، وشريرة، ولا توجد سياسة سليمة من دون استشارة طبيعة الإنسان، لكي يعيش في المجتمع، ويرضي رغباته، ويضمن سعادته، ومتعته. ولا يمكن أن تبني حكومة حكيمة ذاتها على إلهٍ استبدادي؛ لأنّه سيخلق دائمًا طغاة من ممثليه. ولن تكون أيّ قوانين خيّرة دون استشارة الطبيعة وتحقيق غاية المجتمع. ولا يمكن أنْ يكون الفقه نافعًا للأمم، إذا

كانت منظمة على نزوة الطغاة المؤلهين، وعواطفهم. ولن يكون أيّ تعليم عقلانيًا، ما لم يتأسس على العقل، وليس على الكائنات الخرافية، والتحيزات. وبعبارة أخرى، لا توجد أيّ فضيلة، ولا توجد نزاهة، ولا مواهب في ظل أسياد فاسدين، وسلوك هؤلاء الكهنة الذين يجعلون الناس أعداء لهم، وللآخرين، ويسعون إلى أن يخمدوا فيهم بنور العقل، والعلم، والشجاعة.

وقد يُطرح السؤال: إذا كان بإمكاننا أنْ نفخر بأنفسنا عقلانيًا مع وصولنا إلى درجة جعل الناس ينسون تمامًا آرائهم الدينية، أو الأفكار التي لديهم عن الإله؟ أجيب: إنَّ الأمر يبدو مستحيلًا تمامًا، وهذه ليست الغاية التي يمكن أن نرجوها لأنفسنا. ولا تبدو فكرة الإله المغروسة فينا منذ نعومة أظافرنا، ذات طبيعة تسمح بالاعتراف بمحوها من عقل غالبية البشر، وربما يكون من الصعب منحها لهؤلاء الأشخاص الذين بلغوا سنًا معينة، ولم يكن من الممكن أنْ يسمعوا عنها أبدًا، أو إبعادها عن أذهان أولئك الذين تشربوها منذ طفولتهم الأولى. وبالتالي، لا يمكن أن نفترض عدم إمكانية جعل أمة كاملة تعبرُ هاوية الخرافة؛ أي من حضن الجهل، والهذيان إلى الإلحاد المطلق، الذي يفترض التأمل، والدراسة، والمعرفة وسلسلة طويلة من الخبرة، وعادة التفكّر في الطبيعة، والعلم بأسباب ظواهرها المختلفة، وتركيباتها، وقوانينها، والكائنات التي تؤلفها، وخصائصها المختلفة. ومن أجل أن تكون ملحدًا، أو أن تطمئن إلى قوى الطبيعة، من الضروري أن تتأمل بعمقٍ، ولن تجعلنا نظرة سطحية للعين على درايةٍ بقواها؛ فالعيون وإنْ نالت قليلًا من المران، فسوف تخدعنا باستمرار. وسيجعلنا الجهل بالأسباب الفعلية نفترض تلك الخيالية، وهكذا سيعيد الجهل الفيلسوف الطبيعي نفسه إلى أقدام الشبح، حيث ستجعله رؤيته المحدودة، أو خموله يعتقد أنَّه سيجد حلًا لكلّ صعوبة.

وهكذا لا يأخذ الإلحاد، وكذلك الفلسفة، وجميع العلوم المتعمقة، والمجردة، في الحسبان الجهلة، كما أنَّه غير مناسب لغالبية البشر. ويوجد عند جميع الناس، والأمم المتحضرة، والأشخاص الذين تمكّنهم ظروفهم من التأمل، وإجراء أبحاث، واكتشافات مفيدة، تنتهي عاجلاً أم آجلاً، بتوسيع ذاتها، وتصبح نافعة متى حُكم عليها بأنَّها ملائمة، وصادقة. إذ يبحث المهندس المعماري، والميكانيكي، والكيميائي، والطبيب، والمدني، والحرفي نفسه، أو العامل في حجراتهم أو ورش عملهم، عن وسيلةٍ لخدمة المجتمع، وكلٌّ بحسب مجاله، ومع ذلك، لا تُعرف أيّ من هذه العلوم أو المهن عند غير الملّم بها، والذي لا يفشل مع ذلك على المدى الطويل في الاستفادة من تلك الأعمال التي ليس لديهم أيّ فكرة عنها، أو عن

جني مزاياها. إذ يعمل الفلكي للملاح، ويحسب له المهندس المعماري، والميكانيكي، ويقوم المهندس الماهر برسم التصاميم المتعمقة للبنائين والعمال. ومهما كانت المنفعة المزعومة للآراء الدينية، فلا يمكن أن يتباهى اللاهوتي المتبحّر، والدقيق بالعمل، أو الكتابة، أو التنازع لصالح الناس، ومع ذلك، يحاولون فرض ضرائبَ باهظة على تلك الأنظمة، والألغاز التي لن يفهموها أبدًا، ولا يمكن أن تعود بالنفع عليهم في أيِّ وقتٍ مهما كانت.

ومن هنا لا ينبغي أنْ يقرر الفيلسوف أن يكتب بنفسه، أو يتأمل لصالح العامة. ولا تؤخذ مبادئ الإلحاد، أو نظام الطبيعة، كما أظهرنا، بالحسبان عند عددٍ كبير من الأشخاص المثقفين للغاية في أمورٍ أخرى، بل يتفادونا في كثيرٍ من الأحيان إلى أبعد حدٍّ لصالح التحيزات المكتسبة. ومن النادر للغاية أن نجد أناسًا، يضمون إلى عقلهم العظيم، ومعرفتهم الواسعة، ومواهبهم العظيمة، خيال منظّم جيدًا، أو الشجاعة اللازمة ليحاربوا بنجاح تلك الكائنات الخرافية المعتادة؛ التي أعاقت الدماغ ردحًا من الزمن. ويتجدد الاتجاه السري، والكوود مرارًا وتكرارًا، على الرغم من كلّ العقول المفكرة، والأكثر جدية، والأفضل تحصينًا لتلك التحيزات التي يرونها راسخة بالعموم، ويتشربوها بوفرة منذ نعومة أظافرهم. ومع ذلك، متى كان الحق في صالحهم، فإنَّ تلك المبادئ التي تبدو غريبة، أو مثيرة للإشمئزاز، تتسلل تدريجيًا إلى أذهانهم، وتصبح مألوفة، ويوسعون نطاقهم إلى أبعد حد، وتنتج الآثار التي تعود بالنفع أكثر على كلّ مجتمع، ويتعرف الناس بمرور الوقت على تلك الأفكار التي نظروا إليها في الأصل على أنّها سخيفة، وغير عقلانية، وتوقفوا على الأقل عن اعتبار أولئك البغيضين الذين يصرّحون بآرائهم عن الأشياء التي توضحها الخبرة، وقد يُسمح لهم بالشكّ من دون أن يشكلوا خطرًا على العامة.

ومن هنا لا ينبغي الخوف من إشاعة الأفكار بين الناس. أليست نافعة؟ سوف تؤتي ثمارها تدريجيًا. فالإنسان الذي يكتب، يجب ألا يعير انتباهًا للزمن الذي يعيش فيه، ولا أقرانه، ولا البلد الذي يسكنه. إذ يجب أن يخاطب الجنس البشري، ويتوقع الأجيال القادمة، ومن العبث أن يتوقع تصفيق هؤلاء المعاصرين، ومن غير المجدي أنْ يفخر بنفسه لكونه يرى مبادئه السابقة لأوانها تتلقاها العقول المتحيزة بلطفٍ، وإذا قال الحقيقة، فإنَّ العصور اللاحقة ستنصف جهوده، وفي غضون ذلك دعوه يقتنع بفكرة قيامه بعملٍ جيد، أو بالتصويت السري لهؤلاء الأصدقاء القلائل على حقيقة من يسكن الأرض. وبعد وفاتهِ ينتصر كاتب

الحقيقة. وحينذاك يجب أن تفسح لدغات الكراهية، ومهاوي الحسد، سواء كانت منهكة أو ضعيفة، في المجال للحقيقة التي يجب أن تنجو؛ لكونها أبدية من جميع ضلالات الأرض.(١)

علاوة على ذلك، يجب أن نقول مع هوبز: "لا يمكننا أن نُلحق أيّ ضررٍ بالناس باقتراح أفكارنا عليهم، ويجب تركهم بالفعل في أسوأ حالٍ في شكٍّ وخلاف، أليس كذلك حقًا؟ وإذا كان المؤلف الذي يكتب مخادعًا؛ فذلك لأنّه ربما فكّر بسوء.

هل وضع مبادئ زائفة، وأخضعها للفحص؟ وهل نظامه زائف، وسخيف؟ سوف يعمل على إظهار الحقيقة في أبهى حللها، وسوف يقلل من شأنِ عمله. وإذا كان المؤلف شاهدًا على سقوطه، فسيُعاقب بما فيه الكفاية على جرأته. وإنْ مات؛ فلا يمكن للحي أن يعثر رماده. وما من إنسانٍ يكتب بقصد إلحاق الضرر بأقرانه، ويفترض لنفسه دائمًا أنّه جدير باقتراعاتهم، إما بتسليتهم، أو بإثارة فضولهم، أو من خلال الوصول لاكتشافات يعتقد أنّها مفيدة لهم. ولكن لا يمكن أن يكون أيّ عمل خطير، إذا كان يتضمن الحقيقة. ولن يكون الأمرُ كذلك، حتى لو كان يحتوي على مبادئ تتعارض على نحوٍ جليّ مع الخبرة، والحس السليم. وبالفعل، ما الذي قد ينتج عن العمل الذي يجب أن يخبرنا الآن أنَّ الشمس ليست منيرة، وأنَّ قتل الأب مشروع، وأنَّ السرقة مسموح بها، والزنا ليس جريمة؟ سيشعرنا أدنى تأمل بزيف هذه المبادئ، وسيحتجّ الجنس البشري بأكمله عليهم. ويسخر الناس من

(١) إن لم تكن الحقيقة ضارة، لكنها تمثل مشكلةً لعددٍ كبير من الناس. وغالبًا ما يكون الأشخاص ذو النوايا الحسنة هم أنفسهم في كثيرٍ من الأحيان في شكٍّ كبير بشأن هذه النقطة المهمة. والحقيقة لا تؤثر أبدًا على أيّ شيء، لكن أولئك الذين يخدعون الناس؛ لديهم أكبر مصلحة في عدم تلقيها. وقد تكون الحقيقة ضارة تجاه من يعلنها، ولكن لا توجد حقيقة يمكن أن تؤدي إلى إلحاق الضرر بالجنس البشري، ولا يمكن أبدًا الإعلان عنها بوضوحٍ شديد للكائنات التي لا تميل دائمًا للاستماع إليها، أو استيعابها. وإذا كان كلّ من يكتبون يفصحون عن حقائق مهمة، وتعتبر الأخطر دائمًا، فهم مدفوعين بما يكفي من الرفاهية العامة للتحدث بحرية، وحتى إن جازفوا بإغضاب قُرائهم، فسيكون الجنس البشري أكثر ثقافةً، وأسعد بكثيرٍ مما هو عليه. ويعني أن تكتب بكلماتٍ غامضة، في كثيرٍ من الأحيان أنّك لا تكتب لأحد. ولما كان العقل البشري خمول؛ فيجب أن نجنبه قدر الإمكان متاعب التأمل وحيرته. باله من وقت ودراسة لا تتطلبها حاليًا للكشف عن الرسل الغامضين للفلاسفة القدامى، الذين فقدنا مشاعرهم الحقيقية بالكامل تقريبًا! وإذا كانت الحقيقة نافعة للناس، فمن الظلم حرمانهم منها، وإذا كان يجب الإعتراف بالحقيقة، فيجب أن نعترف بعواقبها، والتي تمثل أيضًا حقائق. والناس مولعون بالحقيقة في معظم الأحيان، لكن عواقبها تثير لديهم الكثير من الخوف، لدرجةٍ أنّهم يفضلون البقاء في الضلال، وتمنعهم العادة من الشعور بالآثار المؤسفة المترتبة عليه.

حماقة المؤلف، الذي لم يُعرف اليوم كتابه، واسمه إلا من خلال مغالاتهما السخيفة. ولكن لماذا لا يوجد سوى الحماقات الدينية المهلكة للبشر؟ ذلك لأنَّ السلطة تدّعي دائمًا توطيدها عن طريق العنف، وجعلها تتجاوز الفضائل، وتعاقب أولئك الذين ينبغي أن يميلوا إلى السخرية منهم، أو فحصهم. وإذا كان الناس أكثر عقلانية، فسوف يفكرون في الآراء الدينية، والأنظمة اللاهوتية إسوةً بأنظمة الفلسفة الطبيعية، أو المشكلات الموجودة في الهندسة، ولا يقلق هؤلاء الأخيرون أبدًا راحة المجتمع، على الرغم من أنَّهم يثيرون أحيانًا خلافات عيفة جدًا عند بعض المتعلمين. ولا تحفل النزاعات اللاهوتية أبدًا بأيّ عواقب وخيمة، وإذا تمكّن الناس من بلوغ الغاية المرجوة المتمثلة في جعل من يمتلكون السلطة لا يشعرون بأيّ إحساسات أخرى سوى اللامبالاة، والازدراء إزاء نزاعات الأشخاص الذين لا يفهمون بأنفسهم المسائل العجيبة التي يتجادلون بشأنها باستمرار.

إنَّ هذه اللامبالاة تكون عادلة للغاية، وعقلانية جدًا، ونافعة كثيرًا على أقل تقدير للحالات التي تقترح الفلسفة السليمة ولوجها تدريجيًا إلى الأرض. ولكن ألن يكون الجنس البشري أكثر سعادة، لو انشغل ملوك العالم برفاهية رعاياهم، وتخليهم عن خرافة نزعاتها غير المجدية، وأخضعوا الدين إلى السياسة، وأجبروا كهنتهم المتغطرسين على أن يصبحوا مواطنين، وحرصوا على ألا تعيق مشاجراتهم تحقيق الطمأنينة العامة؟ وما المزايا التي لن نجنيها من العلم، وتقدم العقل البشري، وكمال الأخلاق، والفقه، والتشريع، والتعليم، وحرية الفكر؟ إذ يجد العبقري في الوقت الحاضر الأغلال في كلّ مكان، ويعترض الدين بحدّ ذاته مساره باستمرار؛ فالإنسان المغطى بالضمادات، لا يتمتع بأيّ من ملكاته، ويتعرض عقله ذاته للتعذيب، ويبدو ملفوفًا باستمرار في أقمطة الطفل. ويبدو أنَّ السلطة المدنية المتحالفة مع السلطة الروحية، لا تميل للهيمنة إلا على عبيدٍ مضطهدين، ومعتقلين في سجنٍ معتم، ويتبادلون مع بعضهم البعض الشعور بالمثل بالآثار الناجمة عن جفاء طبعهم. إذ يمقت الملوك حرية الفكر؛ لأنَّهم يخشون الحقيقة، وتبدو هذه الحقيقة فظيعة لهم؛ لأنَّها ستدين أهوالهم، وهذه الأخيرة محببة لهم؛ لأنَّهم لا يعرفون سوى موضوعاتهم، ومصالحهم الحقيقية، والتي لابدّ أن تصبّ في مصلحة واحدة.

ومع ذلك، لا تدّعوا شجاعة الفيلسوف تخمد بفعل العديد من العقبات الموحدة، والتي يبدو أنَّها تبعد إلى الأبد الحقيقة عن سيادتها، والعقل عن ذهن الإنسان، والطبيعة عن

حقوقها. وسيكفي واحد بالألف من تلك الاهتمامات؛ التي توهب لتصيب العقل البشري لكي تجعله كاملًا. فلا تدعونا نيأس، ولا تدعوا الإنسان يسيء الاعتقاد بأنَّ الحقيقة لم تُخلق من أجله، ولا يسعى عقله وراءها باستمرار، أو يرغبها قلبه، وتفترضها سعادته بشدة، ويخشاها أو يخطئ بشأنها، فقط لأنَّ الدين الذي أطاح بكلّ أفكاره، يبقي على الدوام عصابة الوهم فوق عينيه، ويسعى إلى جعله جاهلًا تمامًا بالفضيلة.

وبالرغم من الجهود الهائلة التي تُبذل لنزع الحقيقة، والعقل، والعلم من الأرض، بيد أنَّ الزمن قد يكون كفيلًا في يومٍ من الأيام بفضلِ المعرفة التدريجية للأجيال، بتثقيف حتى هؤلاء الأمراء الساخطين جدًا على الحقيقة، وكذلك أعداء العدالة وحرية البشر.

ربما سيقودهم القدر في يومٍ من الأيام إلى عرش ملكٍ مستنيرٍ، ومنصفٍ، وشجاعًا، ومحبًا للخير، ويعترف بالمصدر الحقيقي للبؤس البشري، ويطبّق عليهم الإصلاحات التي زودتهم بها الحكمة، ربما سيشعر بأنَّ تلك الآلهة التي يدّعي أنَّه يستمد قوته منها، هي الآفات الحقيقية لشعبه، وأنَّ كهنة تلك الآلهة هم أعدائه ونظراء له، وأنَّ الدين الذي ينظر إليه كدعامة لسلطته، يضعفها في الواقع فقط، ويهزّ أركانها، وأنَّ هذه الأخلاق الخرافية زائفة، وتفيد فقط في تضليل رعاياه، وتمنحهم رذائل العبيد، بدلاً من فضائل المواطن، وبعبارة أخرى، سيرى في الأخطاء الدينية مصدرًا خصبًا لمآسي الجنس البشري، وسيشعر أنَّها لا تتوافق مع كلّ حكومةٍ عادلة.

حتى في هذه الحقبة المرغوبة للإنسانية، لن يتبنى مبادئ الطبيعة إلا عدد صغير من المفكرين؛ الذين لا يمكنهم أن يفخروا بأنفسهم مع وجود عدد كبير من المؤيدين، أو المرتدين، على العكس من ذلك، سيجدون خصومًا متحمسين، أو مزدرين، حتى ضمن أولئك الأشخاص الذين يكتشفون في كلّ موضوع آخر العقول الأكثر حدة، ويظهرون أعظم قدر من المعرفة.

وكما لاحظنا بالفعل أنَّ هؤلاء الناس؛ الذين لديهم أعظم نصيب من المواهب، لا يمكنهم دائمًا أن يقرروا فصل أنفسهم تمامًا عن أفكارهم الدينية، إذ يشكّل لهم الخيال الضروري للغاية للمواهب السامية، في كثيرٍ من الأحيان عقبةً كؤود أمام الإندثار الكلي للتحيز، وهذا يعتمد على الحكم أكثر بكثير من العقل. ويُضاف أيضًا هذا التصرف الموجه بالفعل ليشكل لهم الأوهام، إلى سلطة العادة، وسينتزع هذا الأمر من العديد من الناس جزءًا منهم لإبعاد أفكارهم عن الله، وسوف يحرمهم من القوت المعتاد، ويغرقهم في فراغ، ويجبر

عقولهم المنكوبة على الهلاك بسبب افتقارها للتدريب.[١] لا تدعونا نتفاجأ إذن، إذا كان الناس العظماء والمتعلمون للغاية يصرّون على إغلاق أعينهم، ويخالفون حصافتهم العادية، وفي كلّ مرة يُطرح سؤال يتعلق بأمرٍ لا يجرأون على البحث به بذات الاهتمام الذي أولوه للكثير من الأمور الأخرى. وهنا يقول النائب العام **بيكون**: إنَّ "القليل من الفلسفة يفضي بالناس إلى الإلحاد، لكن تعمقهم بها كثيرًا يعيدهم إلى الدين." وإذا حللنا هذه المقولة، فسوف نجدها ذات دلالة على أنَّ المفكرين المتهاودين، وغير المبالين يتمكنون بسرعة من إدراك السخافات الجسيمة للدين، ولكن هذا الاعتياد القليل على التأمل، أو الافتقار باستمرار لتلك المبادئ المعينة التي يمكن أن تفيد في إرشادهم، يستبدل خيالهم في الوقت الحالي بالمتاهة اللاهوتية، من هنا يبدو أنَّ العقل الضعيف جدًا يميل إلى التنصل منها. وتخشى النفوس الجبانة أن تتحلى بالشجاعة مرة أخرى، واعتادت العقول على الاكتفاء بالحلول اللاهوتية، ولم تعد ترى في الطبيعة أيّ شيء آخر سوى لغزًا لا تفسير له، وهاويةً يستحيل فهمها. واعتادوا على التركيز في نقطة مثالية، ورياضية، وجعلوها مركزًا لكلّ شيء، ويصبح الكون مندمجًا بالنسبة لهم، كلما غاب عن نظرهم، وما أن يجدوا أنفسهم غارقين في الفوضى، فإنَّهم يعودون إلى تحيزات طفولتهم التي يبدو أنَّها تفسّر كلّ شيء، أفضل من أنْ يهيموا في الفراغ، أو يتخلوا عن هذا الأساس الذي يرون أنَّه غير قابل للتغيير. وهكذا، يبدو أنَّ فرضية **بيكون**، لا تشير إلى أيّ شيء، إلا أنَّ الأشخاص الأكثر خبرة لا يمكنهم الدفاع عن أنفسهم ضد أوهام خيالهم التي يتصدى لاندفاعها أقوى تفكير.

ومع ذلك، فإنَّ الدراسة المتأنية للطبيعة، كافية لتوضح لكلّ إنسان أنَّ ما عليه سوى التفكير بتروٍ في الأشياء، وسيشاهد أنَّ كلّ ما في العالم مرتبط بعلاقاتٍ محجوبة عن الملاحظ السطحي والمتهور للغاية، ولكنها مفهومة للغاية لمن ينظر إلى الأمور بهدوء. وسيجد أنَّه من غير الممكن أن نفسر بالقدرِ ذاته الآثار العادية، والأكثر غرابة، وعجبًا، وتفاهةً؛ بل التي يجب أن تنتج من الأسباب الطبيعية، وتلك الخارقة للطبيعة، وأيًا كان الاسم الذي قد صُمم

---

(١) وقد أشار مينيج Menage، إلى أنَّ التاريخ يتحدث عن عدد قليل جدًا من النساء الميالات للشك، أو للالحاد. وهذا ليس مستغربًا، فمنظومتهنّ تجعلهنّ خائفات، ويخضعن بفضل جهازهنّ العصبي لتغيرات دورية، ويدفعهن التعليم الذي يتلقينه لتصرّف بعفوية. ولكن من بينهن من تمتلك تكوينًا وخيالًا سليمين، ويستحضرنَ كائنات خرافية مناسبة لتشغل قصورهنّ، وعندما يتخلى العالم عنهنّ، يصبح التفاني، وطقوسه عملًا أو تسلية لهنّ.

لها، ومهما كانت الصفات التي قد تزينها، فلن تؤدي سوى إلى زيادة الصعوبات، ومضاعفة الكائنات الخرافية. وستثبت أبسط ملاحظة له بما لا يدعو مجالًا للجدل أنَّ كلّ شيء ضروري، وأنَّ جميع الآثار التي يعاينها مادية، ولا يمكن أن تنشأ إلا عن أسبابٍ مماثلة لطبيعتها، وإن كان عاجزًا عن تكرار هذه الأسباب بمساعدة الحواس. وهكذا لن يظهر له عقله شيئًا في كلّ مكان، سوى مادة تتصرف في بعض الأحيان بطريقة تسمح لأعضائه بتتبعها، وأحيانًا في وضعٍ غير مدرك بالنسبة له؛ سيرى أنَّ جميع الكائنات تتبع قوانين ثابتة وغير متغيرة، وتتشكل بها جميع المركبات، وتفنى من تلقاء ذاتها، وتتغير كلّ الأشكال، في حين يظلّ الكل العظيم على حاله. وإن تعافى من المفاهيم التي كان مشبعًا بها، وتحررَ من تلك الأفكار الخاطئة، التي ربطها بحكم العادة بالكائنات الخيالية، فسوف يوافق بمرح على أن يكون جاهلاً بما لا يقع خارج نطاق أعضائه، وسيعرف أنَّ المصطلحات الغامضة، والخالية من المعنى، لا تؤخذ بالحسبان لتفسير الصعوبات، وسيطرح جانبًا مسترشدًا بالعقل كلّ فرضيات الخيال، ليرتبط بتلك الحقائق التي تؤكدها الخبرة.

ولا يأخذ العدد الأكبر ممن يدرسون الطبيعة، بالاعتبار كثيرًا أنَّهم لن يكتشفوا أبدًا بعيونهم المتحيزة أكثر مما وجدوه مصمم مسبقًا، وبمجرد أن يدركوا الحقائق المخالفة لأفكارهم، فإنَّهم يحيدون عنها بسرعة، ويعتقدون أنَّ عيونهم خدعتهم، أو إذا انصرفوا عنها، فمن المأمول أن يكونوا قادرين على التوفيق بينهم وبين تلك المفاهيم؛ التي يشبعون عقولهم بها. وهكذا نجد فلاسفة متحمسين، تظهر لهم تحيزاتهم حتى في تلك الأمور التي تتناقض بشكلٍ علني مع آرائهم، براهين أكيدة على تلك الأنظمة التي انشغلوا بها. ومن هنا تأتي تلك الإثباتات المزعومة على وجود إلهٍ صالح، تنبثق عنه العلل النهائية، ونظام الطبيعة، ورحمة الإنسان...إلخ. ولكن هل يدرك المتحمسين ذاتهم الفوضى، والمصائب، والثورات؟ يقدمون براهين جديدة عن الحكمة، والذكاء، وفضل إلههم، في حين يتضح كما يبدو للوهلة الأولى أنَّ كلّ هذه الأمور تتناقض مع هذه الملكات، لكي تأكدها أو تثبتها. ويكون هؤلاء المراقبون المتحيزون في حالٍ من النشوة عند رؤية الحركة الدورية للنجوم وترتيبها، ومنتجات الأرض، والتناغم المذهل لأعضاء الحيوانات، لكنهم ينسون قوانين الحركة، وقوى الجذب والتنافر، والجاذبية، وينسبون كلّ هذه الظواهر العظيمة إلى علةٍ مجهولة ليس لديهم أدنى فكرة عنها! وبعبارةٍ أخرى، بفضل اتقاد خيالهم، يضعون الإنسان في مركز الطبيعة، ويعتقدون أنَّه موضوع كلّ ما هو موجود وغايته، وأنَّ كلّ شيء خُلق لأجله، ولأجل إبهاجه، وامتاعه، في حين أنَّهم لا

يدركون في كثيرٍ من الأحيان أنَّ الطبيعة تبدو كلّها رحبة أمامهم، وأنَّ المصير يحتّم عليه أن يكون من أكثر الكائنات بؤسًا.(١)

ويكون الإلحاد نادر جدًا؛ لأنّ كلّ شيء يتضافر على تسميم الإنسان منذ صغر سنه، بالتعصب الباهر، أو يزيل عنه الجهل الممنهج، والمنظم، وهو نوع من أنواع الجهل التي يصعب كثيرًا التغلب عليها واستئصالها. ولا يمثّل اللاهوت سوى علم الكلمات، التي نعتاد بفضل التكرار على استبدالها بالأشياء، وبمجرد أن نشعر بالميل لتحليلها، نجد أنّها لا تقدم لنا أيّ معنى حقيقي. ويوجد عدد قليل جدًا من الناس في العالم الذين يفكرون بعمق، ويولون أهمية بأنفسهم لأفكارهم، ولديهم عقولٌ متبصرة، وتعتبر عدالة الذهن من أندر الهبات الممنوحة للجنس البشري.(٢) ويمثل الخيال المفعم بالحيوية، والفضول المفرط، عقبات قوية أمام اكتشاف الحقيقة، مثل زيادة البلغم، والتصور البطيء، وكسل العقل، والافتقار إلى عادة التفكير. ولدى جميع الناس قدرًا ما من الخيال، والفضول، والبلغم، والصفراء، والكسل، والنشاط؛ والتوازن العادل الذي لوحظ بالطبع في منظومتهم، التي يعتمد عليها إنصاف العقل. بيد أنَّ منظومة الإنسان عرضة للتغيير كما ذكرنا سابقًا، ويختلف حكم عقله باختلاف التغييرات التي تخضع لها بنيته بالضرورة؛ وما يعتري أفكار البشر من تحولات شبه دائمة، ولاسيما في حال وجود سؤال يتعلق بتلك الأمور التي لا تزودهم الخبرة بأيّ أساس ثابت لدعمهم لها.

ولكي نستجلي، ونكتشف الحقيقة التي يسعى كلّ شيء لإخفائها عنا، وكثيرًا ما نميل نحن بحد ذاتها إلى المراءاة (التواطئ مع الذين يضللوننا)، أو نخشى العثور عليها بسبب مخاوفنا المعتادة، نحن بحاجة إلى العقل التام، وقلب نزيه، وحسن النية تجاهها، وتأثير الخيال في

---

(١) سيقضي تقدم الفلسفة السليمة دائمًا على الخرافة التي ستناقضها الطبيعة باستمرار. وقد تسبب علم الفلك في اندثار علم التنجيم القضائي، والفلسفة التجريبية، وقادت دراسة التاريخ الطبيعي، والكيمياء إلى عدم إمكانية للمشعوذين، والكهنة، والسحرة، من أداء للمعجزات. ويجب أن تؤدي الطبيعة المدروسة بعناية إلى اختفاء ذلك الشبح الذي أحلّ الجهل مكانه.

(٢) لا ينبغي أن نفهم هنا أنَّ الطبيعة لديها أيّ خيار في تكوين كائناتها، بل يجب اعتبار الظروف التي تمكّن من تقاطع كمية معينة من تلك الذرات أو الأجزاء اللازمة لتشكيل البنية بشرية في مثل هذه الخصائص الوافية بحيث لا يغلب تصرف على الآخر، وبالتالي تجعل الحكم خاطئًا عندما تمنحه تحيزًا معينًا، ونادرًا ما يحدث. ونعرف عملية صنع البارود، ومع ذلك، سيحدث أحيانًا أنَّ المكونات قد تُمزج بسعادة كبيرة، وأنَّ هذه المادة البناءة ذات جودة أعلى من المنتج العام للمُصنع، ودون أن يستحق الكيميائي مع ذلك وفق هذا التفسير أي إشادة خاصة، أو أن تكون الظروف مواتية، ونادرة الحدوث.

العقل. وسنكتشف بفضل هذه التصرفات الحقيقة التي لا تظهر أبدًا للمتعصبين المغرمين بإيحاءاته، وللمؤمن بالخرافات، والذي يقتات على الكآبة، والمتكبر الذي يزهو بجهله المتغطرس، والفاسد الذي يكرّس نفسه للتبذير وللملذاته. أو إلى العاقل، ومن يخدع نفسه، ويميل إلى تشكيل الأوهام في عقله فحسب. وبهذه الميول سيجد الفيلسوف اليقظ، والهندسي، والأخلاقي، والسياسي، واللاهوتي بحد ذاته، عندما يبحثون بصدقٍ عن الحقيقة، أنَّ حجر الزاوية الذي يفيد كأساس لجميع الأنظمة الدينية، يدعم بوضوح الباطل. وسيجد الفيلسوف في المادة سببًا كافيًا لوجوده، وحركته، وتركيبته، وأساليب تصرفه التي تنظمها دائمًا قوانين عامة لا تقبل التغير. وسيحسب الهندسي القوة الدافعة للمادة، ومن دون التخلي عن الطبيعة، سيجد أنَّه لشرح ظواهرها، ليس من الضروري اللجوء إلى كائنٍ أو قوة غير قابلة للقياس مع جميع القوى المعروفة. وسيشعر السياسي المكلّف بالقوى الدافعة الحقيقية، التي يمكن أن تؤثر في عقل الأمم، أنَّه ليس من الضروري اللجوء إلى القوى الدافعة الخيالية، في حين أنَّ هناك قوى حقيقية تعمل بناءً على إرادة المواطنين، وتلزمهم بالعمل من أجل الحفاظ على جماعتهم، وسوف يعترف بأنَّ القوة الدافعة الوهمية تؤخذ بالحسبان فقط لإضعاف، أو إعاقة حركة آلة معقدة للغاية كتلك الخاصة بالمجتمع. ومنْ يبجّل الحقيقة أكثر من خفايا اللاهوت، سوف يدرك بسرعة أنَّ هذا العلم التافه ليس أكثر من مجموعة مبهمة من الفرضيات الكاذبة، واستجداء المبادئ، والمغالطات، والدوائر الفاسدة، والتمييزات غير المجدية، والتفاصيل الدقيقة، والحجج المخادعة التي لا يمكن أن ينتج عنها أيّ شيء سوى الأمور الطفولية، أو الخلافات الأزلية. وبعبارةٍ أخرى، فإنَّ جميع منْ لديهم أفكار سليمة عن الأخلاق، والفضيلة، وما هو مفيد للإنسان في المجتمع، سواء للحفاظ على نفسه أو على الجسد الذي هو عضو فيه، سوف يعترفون بأنَّ الناس، من أجل اكتشاف علاقاتهم وواجباتهم، لا يتوجب عليهم سوى استشارة طبيعتهم الخاصة، ويجب أن يكونوا حريصين بصورةٍ خاصة على ألا يبنوها على كائنٍ متناقض، أو استعارتها من نموذجٍ لا يفيد إلا في لجم عقولهم، ودفعهم إلى الريبة من طريقة عملهم الصحيحة.

وهكذا، قد يشعر كلّ مفكرٍ عقلاني، عندما يُعرض عن تحيزاته، بعدم فائدة، وزيف العديد من الأنظمة المجردة، والتي لم تفيد إلى الآن إلا في تشويش جميع مفاهيمنا، وإثارة الشغف في الحقائق الأوضح. وبدخوله مجددًا إلى مجاله الصحيح، والخروج من مناطق الإمبراطورية، يمكن لعقله فقط أن يحيره؛ فعند استشارة العقل، سوف يكتشف الإنسان ما

يحتاج إلى معرفته، ويتحرر بذاته من تلك العلل الوهمية التي استبدل من خلالها التعصب، والجهل، والباطل في كلّ مكان بالعلل الحقيقية، والقوى الدافعة الواقعية التي تؤثر في طبيعة لا يمكن للعقل البشري أن يتجول فيها دون أن يضل، أو يسبب لنفسه البؤس.

ولا يكفّ المؤلهين، وجميع اللاهوتيين عن لوم خصومهم على ولعهم بالمفارقات، أو الأنظمة، بينما شغلوا كلّ تفكيرهم في فرضياتٍ خيالية، ووضعوا مبدأ التخلي عن الخبرة، وازدراء الطبيعة، ونصوا على عدم أخذ أدلة حواسهم بالحسبان، وأخضعوا فهمهم لنير السلطة. ولكن ألا يحقّ لتلاميذ الطبيعة أن يقولوا لهؤلاء الناس: "نحن لا نؤكد لأنفسنا سوى ما نراه، ولا نسلّم بشيءٍ من دون دليل، ولو كان لدينا نظام، لما أسسناه إلا على الحقائق. ولا ندرك شيئًا في أنفسنا، وفي كلّ مكان آخر سوى المادة، ونستنتج منها أنَّ هذه المادة يمكن أن تشعر، وتفكر. ونرى أنَّ كلّ شيء يعمل في العالم وفقًا للقوانين الميكانيكية للمادة، وبفضل خصائصها، وتركيبها، وتحولها، ولا نبحث عن تفسيرٍ آخر للظواهر التي تقدمها الطبيعة. ولا نتصور إلا عالما واحدًا، وفريدًا، يرتبط كلّ شيء فيه معًا، ويُعزى كلّ تأثير إلى علةٍ طبيعية، وينتج وفقًا للقوانين اللازمة سواء كانت معروفة، أو مجهولة. ولا نؤكد أيّ شيء لا يمكن إثباته، ولستَ ملزمًا بالاعتراف به مثلنا؛ فالمبادئ التي ننص عليها جليةٌ، وواضحة؛ كونها حقائق، وإذا كانت بعض الأشياء غامضة، ومبهمة بالنسبة لنا، فإننا نتفق بسذاجة على غموضها، وهذا يعني حدود معرفتنا.[1] لكننا لا نتخيل فرضية تشرح هذه التأثيرات، ونقنع بجهلنا لها إلى الأبد، أو ننتظر حتى يلقي الزمن، والخبرة، وتقدم العقل البشري الضوء عليها. أليست طريقة فلسفتنا هي الطريقة الصحيحة؟ كلما تقدمنا بالفعل في كلّ ما يخص موضوع الطبيعة، نتقدم تمامًا بالطريقة ذاتها التي يتقدم بها خصومنا أنفسهم في جميع العلوم الأخرى، مثل التاريخ الطبيعي، والفلسفة الطبيعية، والرياضيات، والكيمياء، والأخلاق، والسياسة. ونقتصر بدقة على ما هو معروفٌ لنا بوساطة حواسنا، والأدوات الوحيدة التي منحتها لنا الطبيعة لاكتشاف الحقيقة. ولكن كيف يتصرّف خصومنا؟ من أجل شرح الأمور التي نجهلها عنهم، يتخيلون كائنات لا تزال مجهولة أكثر من تلك الأشياء التي نرغب في شرحها، وكائنات يعترفون بأنفسهم أنَّهم لا يملكون فكرة واحدة عنها! يقلبون إذن المبادئ الحقيقية للمنطق، والمتمثلة في الانطلاق مما هو معروف أكثر إلى ما نحن أقل إلمامًا به. ولكن

(1) Nescire quædam magna pars est sapientice.

على ماذا أسسوا وجود هذه الكائنات التي يدّعون أنّهم يحلون بمساعدتها كلّ الصعوبات؟ لابدّ أن توجه السلطة الناس بسبب جهلهم الكلي، وقلة خبرتهم، وأهوالهم، وتصوراتهم المضطربة، وإحساسهم الحميمي المزعوم، والناجم في الواقع عن جهلهم، وخوفهم، وافتقارهم لعادة التأمل، ومعاناتهم. أيّها اللاهوتيين، تلك هي الأسس المتهالكة التي تبنون عليها صرح عقيدتكم! تجدون بعد ذلك أنّه من المستحيل أن تصوغوا لأنفسكم أيّ فكرةٍ دقيقة عن تلك الآلهة التي تنفع أساسًا لأنظمتكم، ولا يمكنكم فهم صفاتها، أو وجودها، أو طبيعة موطنها، أو طريقة عملها. وهكذا، حتى إن اعترفتم، فأنتم في حالٍ من الجهل العميق بالعناصر الأولية (التي من الضروري أن يكون لديكم معرفةٌ بها) للشيء الذي تنصبونه علةً لكلّ ما هو موجود. وهكذا، مهما كانت وجهة النظر التي تفكرون في ظلها، فإنكم تشيدون أنظمةً غير مؤكدة، وأنتم الأكثر عبثية من بين جميع صانعي الأنظمة؛ لأنَّ هذه العلة يجب أن تنشر على الأقل النور على الكل، اعتمادًا على العلة التي يخلقها خيالكم، وبناءً على هذا الشرط وحده يمكن أن نغفر غموضها: لكن هل يمكن أن تفيد هذه العلة في شرح أيّ شيء؟ هل تجعلنا نتصور بوضوحٍ أكثر أصل العالم، وطبيعة الإنسان، وملكات النفس، ومصدر الخير والشر؟ لا، مما لا شك فيه، أنَّ هذه العلة الوهمية لا تشرح شيئًا، أو تضاعف بذاتها الصعوبات إلى ما لا نهاية، أو تلقي بالحيرة، والغموض على كلّ تلك الأمور التي جعلوه يتدخل فيها. ومهما كان السؤال المطروح، فإنّها تصبح معقدة بمجرد أن يقدموا اسم الله؛ لأنَّ هذا الاسم يحجب أوضح العلوم، ويجعل المفاهيم الأشد وضوحًا معقدة، وغامضة. فما فكرة الأخلاق التي يقدمها إلهكم للإنسان، الذي وجد بناءً على إرادته، وقدوته كلّ الفضائل؟ ألم يظهره لنا كلّ رسلكم في شخصية طاغية يهيمن على الجنس البشري، ويرتكب الشر من أجل التمتع به، ويحكم العالم وفقًا لقواعد نزواته الجائرة فحسب؟ هل يمكن لكلّ أنظمتكم العبقريّة، وكلّ ألغازكم، وكلّ التفاصيل الدقيقة التي اخترعتموها، أن تبرئ إلهكم الذي تقولون أنّه كامل للغاية، من تلك الظلمة، والوحشية التي لا يمكن للحس السليم أن يتهاون في اتهامه بها؟ وبعبارة أخرى، لا تعكروا صفو العالم باسمه، وتضطهدون، وتقتلون كلّ من يرفض المساهمة في تلك التبجيلات المنهجية التي زينتم بها الاسم البهي للدين. اعترفوا إذن أيّها اللاهوتيون! أنّكم لستم عبثيون بانتظام فحسب، بل وتصلون أيضًا إلى درجة أن تكون آثمين، وطغاة نتيجة الأهمية التي يعلقها كبرياءكم، ومصالحكم على تلك الأنظمة المدمرة، والتي تهيمنون بموجبها أيضًا على العقل البشري، وسعادة الأمم."

الفصل الثاني عشر

ملخص عن قانون الطبيعة

ملخص عن قانون الطبيعة

الحق وحده جديرٌ ببحث أيِّ حكيم؛ لأنَّ الباطل لا جدوى منه، وينبغي أن ينهى عنه على الدوام، كما لا يمكنه أنَّ يبني على الحق كلّ ما يلحق به الأذى باستمرار. ومن أجل مساعدة العقل البشري، ولكي يعمل حقًا من أجل سعادته، وإرشاده إلى الحل الذي يخلصه من تلك المتاهات الرهيبة؛ التي يطوف فيها خياله، وتلك المنعطفات التي تقوده إلى الضلال بفضل مسارها المنحرف، ومن دون أن يجد أيَّ نهاية لارتيابه. يمكن للطبيعة وحدها التي نعرفها من خلال الخبرة، أن تزوده بهذا الطابع المرغوب، ويمكن لطاقاتها الأبدية وحدها أن تمدّه بوسائل لمهاجمة مينوتور Minotaur؛[*] واجْتِثَاث أطياف المراءاة، وقتل تلك الوحوش التي التهمت على مدار عصور متعددة الضحايا التعساء، كجزيةٍ قاسية، فرضها طغيان قساوسة الإله المزعوم من البشر البائسين. ولا يمكن أن يضلَّ الإنسان أبدًا، أو يخرج عن مساره، إن استمر في استيعاب هذا الحل الذي لا يقدّر بثمن، لكن إذا كان يهاب للحظة واحدة الافلات من قبضته؛ نتيجة إهماله لخصائصه القيّمة، وإذا كان باعتباره ثيسيوس آخر، ناكرًا الجميل، ويتخلى عن الوهّاب العادل، فسوف يلغي مرة أخرى هياماته القديمة من دون أيِّ خطأ، ويصبح بالتأكيد فريسةً لنسل الثور الأبيض من آكلي لحوم البشر. وعبثًا يحمل الإنسان آرائه إلى السماء، لكي يعثر على الموارد تحت قدميه، وطالما أنَّه مفتونٌ بمفاهيمه الدينية، فيجب أن يبحث في عالمٍ خيالي عن حكمٍ لسلوكه الدنيوي، وسيكون بلا مبادئ، في حين أنَّه يجب أن يفكر باستمرار في آفاق السماء الخيالية، وطالما أنَّه سوف يتلمّس طريقه في المناطق التي يجد فيها نفسه بالفعل، فلن تصل خطواته المرتابة إلى الرفاهية التي يرغب فيها، ولن تقوده أبدًا إلى تلك الراحة التي يتوقُ لها بحماسٍ شديد، ولن ترشده إلى هذا الضمان الضروري للغاية لتوطيد سعادته.

---

[*] مينوتور: وحش أسطوري قتله ثيسيوس، له رأس ثور وجسد رجل. (المترجم)

لكن الإنسان الذي أعمته تحيزاته، انتابه الجموح في إيذاء أخيه، وأصبح بسبب تعصبه في حالة عداءٍ حتى لأولئك الذين يرغبون بصدقٍ في الحصول على المنافع الأكثر جوهرية له. ومن اعتاد أنْ ينخدع، سيبقى في حال شكٍّ مستمر. ومن اعتاد عدم الثقة في نفسه، والنظر في عقله بحياءٍ، يرى الحق خطيرًا، ويتعامل بعداءٍ مع أولئك الذين يسعون جاهدين لتشجيعه، وقد حذروه في بداية حياته من الوهم، ومن دهاء الدجال، فاعتقد أنَّه مدعوٌ حتمًا إلى حراسةِ العصابة [العينين] التي يخدعونه بها بأقصى ما أوتي من جهدٍ دؤوب، واعتقد أنَّ رفاهه المقبل سيتضمن إبقائها على عينيه إلى الأبد، ولذلك يتصارع مع كلّ أولئك الذين يحاولون انتزاعها عن بصره المحجوب. وإذا فتح للحظة عينيه المعتادة على الظلمة، فإنَّ الضوء سيؤذيهما، ويوجعه بريقها. ولاعتقاده أنَّ تنويره جريمة، يشتاط غضبًا على أولئك الذين يحملون الشعلة التي أذهلته. ونتيجة لذلك، يُنظر إلى الملحد على أنَّه آفة خبيثة، وسمًّا للعامة، وباعتباره أُوباس Upas آخر،(*) يهلك كلّ شيء داخل دوامة نفوذه، ويجرؤ على إيقاظ البشر من عادةِ الخمول التي أحدثها اللاهوتيين بفعل جرعاتهم المخدرة، وبدت وكأنَّها اضطرابًا، ويُنظر إلى من يحاول تهدئة تحولاتهم الهوجاء، وتخفيف نوبات غضبهم الجنونية، على أنَّه هو نفسه مجنون، ويجب تقييده بإحكامٍ في الأبراج المحصنة المخصصة للمجانين، وإلى من يدعو مساعديه إلى فكِّ قيودهم، وكسرِ أغلالهم المؤذية، يبدو أشبه بكائنٍ غير عقلاني، ومتهورٍ، حتى بالنسبة للأسرى البائسين أنفسهم الذين تعلموا الإيمان بأنَّ الطبيعة لم تشكلهم لأيّ غرضٍ آخر سوى ليخافوا، ولم تستدعيهم إلى الوجود، إلا ليكونوا محمّلين بالأصفاد. ونتيجة لهذه التحيزات القاتلة، يُعامل تلميذ الطبيعة عمومًا على أنَّه سفاح، ويستقبله أقرانه بالطريقة ذاتها التي تستقبل بها السلالة المكسوة بالريش طائر الليل الحزين، والذي تشترك جميع الطيور الأخرى في بغضه، وتصدر مجموعة متنوعة من الزقزقات الحزينة، بمجرد أن يتخلى عن ملاذه.

ما من فانٍ ينتابه الرعب! وصديق الطبيعة ليس عدوكم، ومترجمها ليس قسيسًا للباطل، ومهلك أشباحكم التافهة ليس مبطلًا لتلك الحقائق الضرورية لسعادتك، وتلميذ العقل ليس كائنًا لاعقلانيًا يسعى إلى تسميمكم، أو اصابتكم بهذيان خطير. وإذا انتُزِعَ الرعد من أيدي هؤلاء الآلهة الرهيبين الذين يفزعونكم، فهذا يعني أنكم قد تتخلون عن سيركم في خضم

* أُوباس: العصارة اللبنية السامة لشجرة كبيرة، من عائلة التوت، موطنها آسيا الاستوائية، وأفريقيا، وجزر الفلبين، وتستخدم لتسميم السهام. (المترجم)

العواصف على دروبٍ، تتفاجئون بعدم قدرتكم على تمييزها إن تلاشى وميض المائع الكهربائي. وإذا حطّم تلك الأصنام التي أفادها الخوف بالمر واللبان، وأحاطتها الخرافة باليأس الكئيب، وضرّجها التعصب بالدم، فسوف تحلّ محلها تلك الحقائق المعزّية؛ التي اعتُبرت شفاءً لجراحٍ بائسة ألمت بكم، ومناسبة لتتحلّون بالشجاعة، وتواجهون بقوةٍ مثل هذه الضلالات الخطيرة؛ التي تمتلك السلطة لتمكنكم من مقاومة مثل هؤلاء الأعداء الجبابرة. وإذا أسقطَ المعابد، وقلبَ المذابح، فغالبًا ما يذرفُ الدموع المريرة على تعيس الحظ، ويكفهّر أمام أكثر القرابين وجعًا، ويتبخر ببخور العبيد، وقد يشيد هيكلًا مقدسًا للسلام؛ وقاعة مخصصة للعقل، ونصبًا تذكاريًا دائمًا للفضيلة، حيث يمكنكَ أنْ تجد في جميع الأوقات ملجأً من جنونك؛ وملاذًا من أهوائك التي لا يمكن السيطرة عليها، ومهربًا من هؤلاء الأقوياء الذين ظلموك. وإذا تصدى لذرائع الطغاة المتغطرسين والمؤلّهين، الذين يضطهدونكم بصولجانهم الحديدي، فهذا يعني أنَّ بإمكانكم التمتع بحقوقكم الطبيعية، إلى أن تصبحوا أحرارًا بصورة أساسية عقلًا وجسدًا، ولكي لا تكونوا عبيدًا، ومقيلون إلى الأبد بمجدافِ البؤس، وقد يحكومكم على المدى الطويل أناسٌ مواطنين، وربما يعتزون بمظاهرهم، ويتسترون على بشرٍ مثلهم، ويراعون في الواقع مصالح أولئك الذين يستمدون السلطة منهم. وإذا كان يصارع الدجل، فهذا يعيد ترسيخ الحق في تلك الحقوق التي استحوذ عليها الخيال لفترةٍ طويلة. وإذا قوضَ أساس تلك الأخلاق المتعصبة، والمتقلبة، التي لم تفعل شيئًا حتى الآن سوى تحيّر عقولكم، دون تصحيح قلوبكم، فقد تمنح الأخلاق ركيزةً ثابتة، وأساسًا متينًا، ومضمونًا بحسب طبيعتكم، وتبادل تلك الحاجات التي تولدُ باستمرار عند الكائنات العاقلة. تجرؤوا إذن على الاستماع إلى صوته، وسوف تجدونه أكثر وضوحًا من تلك التي أعلنها لكم المرسلين الغامضين على أنَّها من سلالة الإله الغاشم، وأنَّها أوامر مستبدة تتعارض باستمرار مع ذاتها. استمعوا إذن إلى الطبيعة، فهي لا تناقض أبدًا قوانينها الأبدية.

ولكن هذه الطبيعة تصرخ: أيُّها الإنسان، "أنت! يا من اتبعتَ الدافع الذي منحتك إياه، ويا من تميل طوال فترة وجودك باستمرار نحو السعادة، ولا تجتهد في مقاومة قانون سيادتي. اعمل من أجل سعادتك، وساهم من دون خوفٍ في المأدبة التي بسطتها أمامك، وكن سعيدًا، وستجد الوسيلة مكتوبة بوضوح على قلبكَ. عبثًا أنت أيها الخرافي! ابحث عن سعادتك خارج حدود الكون الذي أودعتك فيه؛ وعبثًا تسأل عن تلك الأشباح التي لا

ترحم، وأقامها خيالك الذي يهيم دائمًا على عرشي الأبدي، وعبثًا تتوقعها في تلك المناطق السماوية التي أعطاها هذيانك مكانًا، واسمًا، وعبثًا تتكل على الآلهة المتقلبة التي تتعامل مع إحسانها في مثل هذه النشوة، بينما تملأ مسكنك بالبلاء، وقلبك بالرهبة، وعقلك بالأوهام، وصدرك بالآهات. تجرأ إذن على تخليص نفسك من آثار الدين، وغطرستي ونظيري البراغماتي الذي يخطئ بشأن حقوقي، وينبذ تلك الآلهة التي تستحوذ على امتيازاتي، والعودة إلى سيطرة شرائعي. فالحرية الحقيقية لا تسود إلا في إمبراطوريتي. ولا يعرف الطغيان أرضها، وترعى العدالة باستمرار حقوق جميع رعاياي، وتحتفظ بها في حوزة مطالباتهم العادلة، ويربطهم الإحسان المطعّم بالإنسانية بروابط وديّة، ويثقفهم الحق، ولا يمكن أن يحجبهم الدجال بغمامه الظلامي. ارجع يا ابني إذن الى ذراعي أمكَ الحاضنة! أيُّها الجاحدُ، عدْ بخطواتك الهائمة إلى الطبيعة! وسوف تلهيكَ عن شرورك، وستنزع من قلبكَ تلك المخاوف المروعة التي تغمركَ، وتلك الاستفسارات التي تشتتُ انتباهكَ، والتحولات التي تقلقكَ، ولابدّ أن تحب تلك الأحقاد التي تعزلك عن أخيكَ، وعن ذاتك. ارجع إلى الطبيعة، وإلى الإنسانية، وإلى ذاتك! انثر الزهور على طريق الحياة، وتوقف عن التفكير في المستقبل، وعشْ لإسعاد نفسك، وابقى من أجل أقرانك. اختلي بنفسك، وابحثْ في قلبك، ثم ضعَ في اعتبارك الكائنات الحساسة المحيطة بك، واترك تلك الآلهة التي لا يمكنها التأثير في أيّ شيء يخصُّ سعادتك. متّع نفسك، واجعل الآخرين أيضًا يستمتعون بوسائل الراحة التي وضعتُها برحابة لكلّ أطفال الأرض الذين انبعثوا جميعًا من حضني؛ وقدّم لهم يد العون في الأحزان التي أخضعهم لها القدر كما هو الحال معكَ. واعلم، أنّني اتفق معكَ في ملذاتك، إن لم تؤذيك، ولا تفتكُ بإخوتك الذين ألزمتهم بك ليحققوا سعادتك الفردية. ومسموح لك التمتع بهذه الملذات بحرية، إذا انغمست فيها باعتدال، وبالقدر الذي ضبطته لك بنفسي. فابتهج إذن أيُّها إنسان! إذ تدعوك الطبيعة للمشاركة فيها، لكن تذكرْ دائمًا، لا يمكنكَ أن تكون وحيدًا؛ لأنّني أدعوكَ إلى السعادة كما أدعو جميع البشر، وستجد أنّك لن تتمكن من تعزيز سعادتك ما لم تضمن سعادتهم. وهذا ما يقتضيه مصيرك، وإذا حاولتَ الافلات من تنفيذه، فتذكّر أنَّ الكراهية ستلاحقك، وسيباغتْ القصاص خطواتك، ويتأهب الندم دائمًا لمعاقبة مخالفات قضائهِ المبرم.

"أيُّها الإنسان! اتبع إذن، أيَّ مكانٍ تجد فيه ذاتك، والرتابة التي وصفتها لك، لتحصل على تلك السعادة التي لديك حقٌّ أساسي بالمناهضة للمطالبة بها. ودع أحاسيسك الإنسانية ترثي لحال الناس الآخرين؛ لأنَّهم أقرانك، ودع قلبك يتعاطف مع مصائبهم، ومدَّ يدك السخية عفويًا لتقديم العون للفانِ التعيس الذي غلبه مصيره، وادعمه في ذاكرتك دائمًا إلى أنْ تثقل كاهلك، كما يحدث معه الآن. اعترفْ إذن، من دون مكرٍ، أنَّ كلّ متعوسٍ له حقّ ثابت في لطفكَ. وقبل كلّ شيء امسح من أعين البراءة المضطهدة البلورات المتقطرة نتيجة الشعور المأساوي، ولتسقط دموع الفضيلة عند المحنة على حضنكَ المتعاطف، واترك الوهج الدمث للصداقة المخلصة يحرك قلبكَ الصادق، وللتعلّق اللطيف بشريكتكَ، التي تتوق لها عاطفتكَ الدافئة، وتنسيكَ أحزان الحياة. كنْ مخلصًا لحبها، ومسؤولًا عن عطفكَ عليها؛ لكي تكافئك بالمثل. وفي ظل رعاية والديكَ، تكفل تقديرهم الفاضل، وقد يتعلم نسلك تحديد قيمة مناسبة للفضيلة العملية، وبعد أن شغلوا سنوات شبابكَ، قد يتنعمون بعمركَ المضمحل، ويضفون الفرح على أفول شمسكَ، ويبتهجون بخريفِ وجودكَ، وعودتهم البارّة نتيجة تلك الرعاية التي غمرت بها طفولتهم المأفُونة".

"كنْ عادلًا؛ لأنَّ الإنصاف يمثل دعمًا للمجتمع البشري! كنْ صالحًا؛ لأنَّ الخير يربط كلّ القلوب بروابط متينة! كنْ متسامحًا؛ لأنَّك ضعيف، وتحيا مع كائنات تشاركَكَ في ضعفك! كنْ لطيفًا؛ لأنَّ الرقة تجذب الانتباه! كنْ شاكرًا؛ لأنَّ الامتنان يزودكَ بالخير، ويمدكَ بالكرم! كنْ متواضعًا؛ لأنَّ الغطرسة أمرٌ يقزز الكائنات من بعضها في جميع العصور. اغفرْ الأذى؛ لأنَّ الانتقام يديم الكراهية! احسنْ لمن جرحكَ؛ لتظهر أنَّك أنبل منه، وصادق مع من كان في يومٍ من الأيام عدوًا لك! كنْ متحفظًا في سلوكَكَ، ومعتدلًا في ملذاتكَ، وعفيفًا في رغابتكَ؛ لأنَّ الشهوة تؤدي إلى التعب، والعصبية تولد الأمراض، والأخلاق الجريئة مثيرة للاشمئزاز؛ إذ يرخي الإفراط في كلّ الأوقات العضلات في بنيتك، وسوف يدمر كيانك في النهاية، ويجعلك تكره نفسك، وتحتقر الآخرين".

"كنْ مواطنًا مخلصًا؛ لأنَّ المجتمع ضروري لأمنكَ، ولتمتعك بوجودك، وتعزيز سعادتك. كنْ مخلصًا، وخاضعًا للسلطة الشرعية؛ لأنَّها ضرورية للحفاظ على المجتمع الذي هو ضروري لك. كنْ مطيعًا للقوانين؛ لأنَّها تعبّر عن الإرادة العامة؛ التي يجب أن تخضع لها إرادتك الخاصة، أو يجب أن تكون كذلك. دافع عن بلدكَ بغيرة؛ لأنَّ ما يسعدكَ يخصك، ويخص

تلك الكائنات العزيزة على قلبكَ: لا تسمح لهذا الوالد المشترك بينك وبين أخوتكَ، بأنْ يقع تحت أغلال الاستبداد؛ لأنَّه لن يكون بعد ذلك سوى سجنكَ العام. وإذا رفضتْ بلدكَ إسعادك، وصمت الآذان عن إنصاف مطالبك، فستخضع لسلطة ظالمة، وإذا تعرضت للاضطهاد، فانسحب من حضنها بصمت، ولا تكدّر سلامها أبدًا".

"الخلاصة: كن إنساناً، وشخصًا عاقلًا، وعقلانيًا، وزوجًا مخلصًا، وأبًا رحيمًا، وسيدًا منصفًا، ومواطنًا متحمسًا، واعمل على خدمة بلدكَ من خلال براعتكَ، ومواهبكَ، وصناعتكَ؛ وقبل كلّ شيء بفضائلكَ. شارك جماعاتكَ في تلك العطايا التي وهبتكَ إياها الطبيعة، وانشر السعادة بين أقرانك الفانين، وألهِم أقرانك من المواطنين الرضا، واغمر جميع المقربين منكَ بالفرح، إلى أن تؤثر فيكَ دائرة أفعالكَ التي تحيى بلطفكَ، وينيرها إحسانكَ، وكنْ على ثقةٍ بأنَّ من يسعد الآخرين، لا يمكن أن يكون هو نفسه بائسًا. وبذلك تتصرف من تلقاء ذاتك مهما كان ظلم الآخرين، ومهما كان تهور أولئك الذين قضى مصيركَ أن تعيش معهم، فلن تُحرم تمامًا من المكافأةِ المستحقة لك، ولن تتمكن أيّ قوة على وجه الأرض من أن تنزع منكَ هذا المصدر الذي لا ينضب أبدًا لأنقى سعادة، وسوف يتراجع الرضا الداخلي في كلّ لحظة تهيج ذاتك، ولن تشعر بخزي العار، ورعب الذعر الداخلي، ولن تجد قلبكَ يأكله الندم. وسوف تحترم ذاتكَ، ويعتز بكَ الفاضلون، والمصفقون ومن يحبهم جميع الأخيار؛ الذين تعتبر حقوقهم الانتخابية أكثر قيمة بكثير من تلك الخاصة بالجمهور المذهول. ومع ذلك، إذا شغل السطحيون تفكيركَ، فإنَّ وجوهًا ناظرة سترحب بحضوركَ، وسوف تعبّر الوجوه السعيدة عن اهتمامهم برفاهيتكَ، وستشركك الكائنات المرحة بمشاعرها الهادئة. وستتميز الحياة التي أمضيتها على هذا النحو كلّ لحظة بصفاءِ ذهنكَ، ومحبةِ المحيطين بكَ، وستضفي البهجة على صداقة زملائكَ، وستمكّنكَ من النهوض ضيفًا راضياً قانعًا بالوليمة العامة، وترشدكَ برفقٍ إلى غور الحياة، وتقودكَ بسلامٍ إلى أجلكَ؛ لأنَّك لابدّ أن تموت: ولكنكَ ستحيا بالفعل بفكركَ، وستعيش دائمًا في ذاكرة اصدقائكَ، والذكرى الممتنة لأولئكَ الأشخاص الذين عزّزت اهتماماتكَ الودودة وسائل راحتهم، وسوف تكون فضائلكَ قد بنت سلفًا لشهرتكَ صرحًا لا يفنى. ولو انشغلت السماء بكَ؛ لشعرتْ بالرضا من سلوكِكَ، لكونكَ أرضيتَ الأرض".

"حذاري إذن أن تشكو من حالكَ، وكنْ عادلاً، ولطيفًا، وفاضلاً، ولا يمكنك أبدًا أن تكون خاليًا تمامًا السعادة. انتبه كيلا تُحسد على المتعة العابرة للجريمة المغرية، والقوة المضللة لطغيان المنتصر، والدعّة الموهومة للدجال الإنتهازي، والسلوك المقبول للعدالة المرتدة، والموكب المبهرج، والفاخر من البذخ المتصلب. ولا تنذهل أبدًا بزيادة عدد المتملقين إلى طاغيةٍ طموح، ولحجم قائمة العبيد لطاغيةٍ ظالم، ولا تعزُ انتباهًا أبدًا إلى العار، أو ممارسة الابتزاز، أو ارتكاب الفحشاء، أو ميزة القتل لقمع زملائك، وتذكرْ دائمًا أنَّ ذلك سيكون على حساب ندمكَ الأشد مرارًا على اكتسابكَ هذه الميزة الفاسدة. ولا تكنْ أبدًا شريكًا مرتزقًا للمفسدين في بلدك، والملزمين بالخجل خفيةً كلما واجهوا عيون الجمهور".

"لا تخدع نفسكَ، لأنَّني أنا من يعاقبكَ بالتأكيد أكثر من الآلهة على كلّ جرائم الأرض، وقد يفلت الأشرار من قوانين الإنسان، لكنهم لا يهربون مني أبدًا. ولأنَّني أنا من صنعتُ قلوب البشر، وأجسادهم، وأنا من حدّدت القوانين التي تحكمهم. فإذا استسلمتَ للمتعة الحسية، قد يصفق لك رفقاء الفسق، لكنني سأعاقبكَ بعيوبٍ أقسى، وهذه ستنهي حياة العار بما تستحقه من ازدراء. وإذا استسلمت بنفسك للانغماس المفرط، فقد لا تصححك القوانين البشرية، لكنني سأقتصّ منكَ بشدة من خلال اختصار أيامك. وإذا كنتَ واعيًا، فإنَّ عاداتك القاتلة سوف ترتد إليكَ. ورغم أنَّ الأمراء يمثلون الآلهة الأرضية التي تضع قوتها فوق قوانين البشرية، بيد أنَّهم مضطرون للارتعاد من سريان قضائي الصامت. أنا الذي أؤدبهم، وأملؤ صدورهم بالريبة، وأبثّ فيهم الرعب، أنا من جعلتهم يرتعصون تحت الاستجواب، ويرتجفون من الرعب باسم الحقيقة المهيبة، وأنا من أشعرتهم وسط حشدٍ من النبلاء المحيطين بهم، بأفعالِ الخزي باطنيًا، وتأنيب الضمير الشديد، وسهام الحسرة المسمومة، ولسعات الندم القاسية. أنا من أبثّ التعب في أنفسهم الفاقدة للحس، عندما يسيئون إلى كرمي، وأتبّعُ العدالة الأبدية غير المخلوقة، وأعرّفُ كيف أحقق التوازن بين الأشخاص من دون تمييز، وأعدّل في قصاصهم بحسب خطيئتهم، وألقي بنسبة من فسادهم على بؤسهم، لأنزلَ عقوبةً تتناسب مع جريمتهم. ولا تكون قوانين الإنسان عادلة، إلا عندما تتوافق مع قوانيني، ولا تعتبر أحكامه عقلانية، إلا عندما أمليها؛ فقوانيني وحدها ثابتة، وكلية، وغير قابلة للنقض، وصيغتْ لتنظيم حال الجنس البشري في كلّ مكانٍ، وزمان، وفي جميع الظروف".

"إذا كنت تشكّ في سلطتي، وتتساءل عن القوة الجبارة التي أمتلكها على البشر، ففكرْ في الانتقام الذي أوقعهُ على كلّ أولئك الذين يعارضون قضائي. وأدخل في أعماق قلوب هؤلاء المجرمين المختلفين، الذين تغطي أساريرهم، ومحيّاهم إبتسامة مصطنعة، وتفسختْ عقولهم بفعل الكرب. ألا تشاهد الطموح معذبًا ليل نهار بحماسةٍ لا يمكن أن يطفئها شيء؟ ألا ترى المنتصر القدير يصبح سيدًا لحالات الخلوة المدمرة، ويطغى على مسيرته المظفرة التي تميزتْ بإصلاحٍ بغيض، الحزن على أنقاض الدخان، ويحكم البؤساء التعساء الذين يلعنونه في قلوبهم، بينما يسقمُ عقله الذي نخره الندم من الجانب الكئيب لانتصاراته؟ فهل تعتقد أنَّ الطاغية المحفوف بالمغترين به، وبمن أذهلهُ مديحهم، غير مدرك للكراهية التي يثيرها اضطهاده، والازدراء الذي تجرّه عليه رذائله، والتهكمات التي يستدعيها عقمه، والاستخفاف الذي يلحقه فجوره باسمه؟ وهل تظن أنَّ رجل البلاط المتكبّر لا يخجل داخليًا من عباراته المقيتة التي يستنكرها، ويحتقر من أعماقِ قلبه تلك الدناءة التي يضطر بها إلى شراءِ النعم؟ تأملْ الطفل المثقل بالثروة، وانظر إليه فريسةً لفتور متعةٍ غير محدودة، أبلاها الشبع الذي يتّبع دائمًا ملذاته المنهكة. أنظر إلى البخيل بوجهه الهزيل؛ نتيجة تصرفه الشحيح، وعدم تأثّر قلبه القاسي بنداءات البؤس، وهو يئنُ من ثقل الأحمال المتراكمة من الكنوز غير المجدية، والتي جاهد في تكديسها على حسابِ نفسه. أنظر إلى مثلي الجنس، والفاسق المسرور، يتحسر سرًا على ما ألحقه بصحته من أضرارٍ لا يُعتد بها، وافراطه في هدرها، وأنظر إلى انفصام العهد المرتبط بالكراهية، بين أولئك المتزوجين الزناة. أنظر إلى الكاذب المحروم من كلّ إئتِمَان، والخائن المجرد من كلّ ثقة، والمنافق الذي يتجنب بخوفٍ النظرات الثاقبة لجاره الفضولي، والدجال الذي يرتجف من أيّ اسم للحق الموقّر. ضعْ في اعتبارِكَ قلبَ الحسود، والمهين العبثي الذي يُصعق لرؤية رخاء جاره. وألقِ نظرةً على قلبِ البائس المتجمد الذي لا يمكن أن يدفئه أيّ لطفٍ، ولا يذيبه البرُ والإحسان، ولا يحوله اللطف إلى سائلٍ معتدل. وافحص المشاعر الحديدية لهذا الوحش الذي لا يمكن أن تلينها تنهدات محنته. أنظر إلى المنتقم الذي يتجرع مرارة حقده، ويهلكُ نفسه في غضبه، وأفكاره بحد ذاتها أفاعي. وإذا لم تستطع الحسد، فإنَّ أحلام اليقظة بالقتل، وبدايات القاضي الظالم، تململ الظالم من البراءة، وتلوث الرؤى المخيفة للابتزاز مضاجعهم بمشاعل الغضب. أنتَ ترتجف دون أدنى شكٍّ عند رؤية ذلك الإرباك الذي يثير حفيظة هؤلاء المزارعين وسط رفاهياتهم البهية، وقابضو الضرائب

الذين يصابون بالتخمة عند حدوث الكارثة العامة، ويأكلون مال اليتيم، ويستنزفون موارد الأرملة، ويسحقون المكاسب المحدودة للفقراء، وترتجف من مشهد الندم الذي يمزّق أذهان هؤلاء المجرمين الموقرين، الذين يعتقد الجاهل أنَّهم سعداء، في حين أنَّ ازدراءهم لأنفسهم، والمظالم السديدة لترهيبهم السري، تقتصّ باستمرار من أمّةٍ ساخطة. أنظر إلى هذا الرضا الذي دحرَ القلب، وطرده إلى الأبد من مساكن أولئك الأشقياء البؤساء الذين تقشتُ بفظاظة في أذهانهم ما يستحقونه من إهانةٍ، وعارٍ، وقصاصٍ. لا! لا تستطيع عيناكَ تحمّل المشهد المأساوي لانتقامي، لكن البشرية تُلزمكَ بالمشاركة في آلامهم التي يستحقونها، وأنت من أخذتكَ الشفقة بهؤلاء التعساء الذين يجعلون الرذيلة ضرورية بفضل أخطائهم المتراكمة، وعلى دراية بالجريمة نتيجة عاداتهم القاتلة. أجل؛ ولو يسَّرت لك حماقاتهم المتمردة الوسائل، لمددتَ يد العونِ لهم، وتجنبتهم من دون أن تبغضهم. وعندما تقارن وضعكَ بهم، وتبحث في عقلكَ، سيكون لديكَ سببٌ وجيه لتهنئ نفسك، وإذا وجدتَ أنَّ السلام قد استوطن فيكَ، فتلك قناعةٌ تسكن في أعماق قلبكَ. وبعبارةٍ أخرى، سترى أنَّ قضاء القدر المحتوم قد حقَّ عليهم، وكذلك عليكَ، واقتضى بإلحاحٍ أن تُجزى الجريمة ذاتها بالعقاب، وألا تخلو الفضيلة أبدًا من الثواب."

هذه هي حصيلة تلك الحقائق الواردة في قانون الطبيعة، وهذه هي العقائد التي يمكن أن يصرّح بها أشياعها. وهم بلا شك مفضلّون على ذلك الدين الخارق للطبيعة، والذي لا همَّ له سوى إلحاق الضرر بالجنس البشري. وهذه هي العبادة التي يعلِمّها هذا العقل المقدّس، وهي موضوع يستهزء به اللاهوتي الذي يواجه إهانة المتعصب؛ الذي لا يقدّرُ إلا ما لا يستطيع الإنسان تصوره أو ممارسته، ويجعل أخلاقه تتكون من واجباتٍ وهمية، وفضيلة أفعاله لا جدوى منها عمومًا، وغالبًا ما تكون ضارة برفاهية المجتمع، ويعتقدون نتيجة افتقارهم للإلمام بالطبيعة التي يرونها بأمّ أعينهم، أنَّهم ملزمون بالبحثِ في عوالم مثالية عن دوافع خيالية، يثبتُ كلّ شيء عدم فاعليتها. والدافع الذي تستخدمه أخلاق الطبيعة هو المصلحة البديهية لكلّ فرد، وفي كلّ مجتمع، ولكلّ الجنس البشري، وفي جميع العصور، وفي كلّ بلدٍ، وفي جميع الظروف. وعبادته قربانًا للرذيلة، والهدف من ممارسة الفضائل الحقيقية هو الحفاظ على الجنس البشري، وسعادة الفرد، وسلام البشرية، وإثابتهم بالمودة، والتقدير، والمجد. أما في حال تقصيرهم، واقتناعهم ذهنيًا، بتقدير الذات الجديرة بذلك، والتي لن تتمكن أيّ قوة من

سلبها على الإطلاق من البشر الفاضلين؛ فعقوباتهم هي: الكراهية، والازدراء، والسخط الذي يكنّه المجتمع دائمًا لأولئك الذين يسيئون إلى مصالحه، ولا يمكن حتى للأقوى أن يقيهم منها تمامًا.

أما تلك الأمم التي تميل إلى تطبيق الأخلاق الحكيمة، وتغرسها منذ الطفولة، ولابدّ أن تؤكدها قوانينها باستمرار؛ فلن تجد ضرورة للخرافات، ولا الكائنات الخرافية. وأولئك الذين يلجّون في تفضيل التماثيل على أعزّ مصالحتهم، سوف يسيرون بالتأكيد إلى الخراب. وإذا حافظوا على أنفسهم لفترةٍ قصيرة؛ فذلك لأنَّ قوة الطبيعة تعيدهم أحيانًا إلى العقل، على الرغم من تلك التحيزات التي يبدو أنَّها تقودهم إلى حتفهم. ويضطر المؤمنون، والمرتبطين بالطغيان من أجل إفناء الجنس البشري، في كثير من الأحيان إلى التماس المساعدة من عقلٍ يزدرونه، وطبيعةٍ يستهينون بها، ويحطّون من شأنها، ويسعونَ إلى سحقها تحت السواد الأعظم من آلهتهم الزائفة. أما الدين الذي يقتل البشر في جميع العصور، فإنَّه يكتسي عندما يهاجمه العقل بعباءة المنفعة العامة المقدسة، ويعلّق أهميته على أسسٍ زائفة، ويبني حقوقه على التحالف الذي لا ينفصم، ويزعم أنَّه قائم بين الأخلاق وبينه، على الرغم من أنَّها لا تكفّ أبدًا للحظة واحدة عن شنّ العداوات الأكثر ضراوة ضده. ومما لا شكّ فيه أنَّ هذه الحيلة قد أغرتْ العديد من الحكماء؛ الذين يعتقدون من صدق قلوبهم أنَّها تنفع الأنظمة السياسية، وضرورية لكبحِ سورة الأهواء الجامحة، وهكذا فإنَّ المؤمن بالخرافة المنافق، لكي يخفي ميزته البشعة أمام المراقبين السطحيين، يعرف دائمًا كيف يحمي نفسه بدرع المنفعة المقدس؛ ليتشبث بدرع الفضيلة المنيع؛ ولذلك اعتُقدَ أنَّه من الضروري احترامه، وتفضيله على الدجال؛ لأنَّه تحصّن ببراعة وراء مذابح الحقيقة. ويجب أن نبعده عن هذا المتعصب، ونجذب الرأي العام له، ونجرّده من منظره الخفي، ونكتشف تشوهه الأصلي، من أجل أن يتعرف الجنس البشري على تقيّته التي تفيد: أنَّ البشرية قد تكون على علمٍ بجرائمها، وأنَّ الكون قد يرى يديه المدنستين، والمسلحتين بخناجر القتل، ملطختين بدماء الأمم التي تسكرها سورتها، أو تضحي بلا شفقةٍ باحتدام أهوائها.

إنَّ أخلاق الطبيعة هي الدين الوحيد الذي يقدمه مفسرها لأقرانه المواطنين، والأمم، والجنس البشري، والأجناس المقبلة، والمفطومة من تلك التحيزات التي كثيرًا ما عكّرت صفو

سعادة أسلافها. ولا يمكن لصديق البشرية أن يكون صديقًا للإله الذي كان في جميع العصور بلاءً حقيقيًا على الأرض. ولن يكون رسول الطبيعة أداةً للكائنات الخرافية المخادعة، والتي تجعل هذا العالم مجرد مثوى للأوهام، ولن يتنازل عابد الحق للباطل، ولن يبرم أيّ عهدٍ مع الضلال، لإدراكه أنّه مهلكٌ دائمًا للبشر. ويعلم أنّ سعادة الجنس البشري تقتضي حتمًا هدمَ صرح الخرافة المظلم المتداعي من أركانه، من أجل أن يبني على أنقاضه معبدًا للطبيعة مناسبًا للسلام، وهيكلًا مقدسًا للفضيلة. ويشعر أنّه بفضل استئصال الشجرة السامة فقط، وأدق الأليـاف الـتي طغـت علـى الكـون علـى مـدار العديـد مـن العصـور، أنّ سـكان هـذا العـالم سيتمكنوا من استخدام أعينهم، ويتحملوا بثباتٍ ذلك النور الكافي لإنارة فهمهم، وتوجيه خطواتهم الضالة، ومدّهم بالاتقاد اللازم لعقولهم. وإذا كان لابدّ أن تذهب جهوده سدى، ولم يستطع أن يستلهم الشجاعة من كائنات معتادة على الارتعاش بدرجةٍ كبيرة؛ فسوف يصفق لنفسه على الأقل؛ لأنّه نالَ شرف المحاولة. ومع ذلك، لن يحكم على جهوده بأنّها غير مثمرة، ولو لم يتمكن حتى من إسعاد سوى فرد واحد، ولو لم تهدئ مبادئه من روع التناقضات المتضاربة لعقلٍ واحد صادق، وأبهجتْ استدلالاته بعض القلوب الفاضلة. وستكون لديه على الأقل ميزة أن ينزع من عقله رعب الخرافة اللجوج، ويزيل من قلبهِ المرارة التي تثير حماسته، ويطأ بأقدامه تلك الكائنات الخرافية التي يعذب بها الجاهل. وهكذا سيفكر بهدوءٍ من قمة صخرته بمهربٍ من خطر العاصفة، وتلك الأعاصير الهائلة التي تثيرها الخرافة، وسوف يمدُّ يد العون إلى أولئك المستعدين لقبوله، ويشجعهم بصوته، وسوف يساندهم بمجهوداته الدؤوبة، وبدفء قلبه الرحيم، وسوف ينادي:

"أيَّتها الطبيعة، يا سيدة جميع الكائنات! وأنتنَّ يا بناتها المحبوبات، أيتها الفضيلة، والعقل، والحقيقة! تبقينَّ إلى الأبد آلهاتنا الوحيدات، ولكنَّ تُنسب مدائحُ الجنس البشري، وأنتنَّ المقصودات بإجلال الأرض. أرنا إذن أيَّتها الطبيعة ما يجب على الإنسان أنْ يفعله ليحصل على السعادة التي يرغبها. انعشيه يا فضيلة بناركِ الطيبة! ويا أيُّها العقل! دعه يسلك بخطواته المرتابة في دروب الحياة. ويا أيَّتها الحقيقة! دعِ شعلتك تنيرُ عقله، وتبدّد ظلمة طريقه. يا أيَّتها الآلهة المساعدة! وحّدي قواكِ، من أجل إخضاع قلوب البشر لسلطتكِ، وإبعاد الضلال عن أذهاننا، والشرّ من قلوبنا، والحيرة عن خطواتنا، ولتوسّع معرفتكِ حكمنا الناجع، ويشغل خيركِ عقولنا، ويسكن صفاءها في أحضاننا. دعِ الدجال مرتبكًا، ولا يجرؤ

أبدًا على إظهار رأسه مرة أخرى. ركزيْ أعيننا مطولًا، سواء كانت منبهرة أو معصوبة لفترة طويلة، على تلك الأمور التي يجب أن نبحث عنها. وبدّدي إلى الأبد ضباب الجهل، وتلك الأوهام البشعة، وتلك الكائنات الخرافية المغرية، والتي لا تفيد إلا في دفعنا نحو الضلال. انقذينا من تلك الفجوة المظلمة التي أغرقتنا بها الخرافة، وأطيحي بإمبراطورية الوهم المميتة، واهدمي عرش الباطل، وانزعي من أيديهم الملوثة القوة التي اغتصبوها. هيمني على الناس، دون أن تشركيهم في سلطتكِ، وحطمي القيود التي تقيدهم بالعبودية، ومزقي العصابة التي خدعوهم بها، وهدئي سورةَ الغضب التي تسكرهم. وحطمي أيدي الطغاة الدمويين، والخارجين عن القانون، وذلك الصولجان الحديدي الذي سحقوهم به، وانفي تلك الآلهة التي ابتليوا بها إلى المناطق الخيالية، حيث جلبهم الخوف. وألهمي الكائن الذكي بالشجاعة، وبثي الطاقة في نظامه، حتى يشعر مطولاً بكرامته، ويجرؤ على حبّ نفسه، وتقدير أفعاله عندما تكون جديرة بذلك، وأنَّه ليس عبدًا إلا لقوانينك الأبدية، وقد لا يخشى بعد الآن أن يحرّر نفسه من جميع القيود الأخرى، ويبارك الحرية، وقد تكون لديه الحكمة للاعتزاز بقرينه، ويصبح سعيدًا بفضلِ التعلم باكتمال حالته، وتعلّمه الدرس العظيم، بأنَّ الطريق السريع للسعادة هو أن يشارك ذاته بتفكّر، ويمتّعُ أيضًا الآخرين بوليمتك الدسمة. أيّتها الطبيعة! قدمي له بسخاءٍ، وواسي أبنائك في الأحزان التي أخضعهم لها مصيرهم، وتلك الملذات التي يُسمح لهم أن يشاركوا فيها بحكمةٍ، علميهم أن يستسلموا بصمتٍ للضرورة. واهديهم دون إنذارٍ لتلك الفترة التي يجب على جميع الكائنات الوصول إليها، ودعيهم يتعلموا أنَّ الزمن يغيّر كلّ الأشياء، وبالتالي، فإنَّهم ليسوا مضطرين لتجنب الموت، ولا الخوف من الوصول إليه."

يتناول الكتاب رؤية الفيلسوف بارون دي هولباخ عن الإله، والأدلة على وجوده، وسماته، وتأثيره في سعادة الإنسان، وذلك من خلال النقد الذي وجهه للاهوتيين، والعقلانيين، وما تركته الأنظمة اللاهوتية المختلفة من أثرٍ في نفوس البشر؛ الذين انخدعوا بإيمانهم بها، والخرافات التي فرضها الحالمون، والمتطرفون كحقائق تاريخية على ضِعاف العقول، ومحدودي التفكير؛ الذين ما انفكوا عن محاولة الخروج من نطاق عالمهم المحدود، والبحث فيما وراء العالَم المرئي، وتغاضوا عن الإنصات إلى الطبيعة، والاسترشاد بها وحدها، وجذبتهم أدمغة مجموعة مْن الأشخاص الذين نصّبوا أنفسهم ناطقين باسم الإله، وأضافوا إلى أقوالهم ما صورته لهم أمزجتهم، وأهوائهم، فحكموا العالم باسم الدين، وأشعلوا الأرض حروبًا، وويلات، وكوارث لا تنتهي.

وكان مقصد هولباخ بعد أن بيّن لنا مضمون الطبيعة وعلاقتها بالإنسان في الجزء الأول من الكتاب، انتقل في الجزء الثاني إلى توضيح الفهم الإنساني للإله، ولم تكن نيته تقديم أفكار عدمية، أو إلحادية؛ لأنّ الملحد بحد ذاته كان محط نقدٍ ضمن كتابه، بل أراد أن ينفي فحسب آراء الانسان في الدين، أو بمعنى آخر الفهم الإنساني للدين، وتسخيره لمصلحته، ورفض ما أقرّه الإنسان من قدرته على معرفة الماهية الإلهية بصورة مطلقة، وحاول تفنيد الأدلة التي قدمها العقلانيون في وصف الإله، وبيّن أنّهم واجهوا مشكلة كبرى في التوفيق بين صفاته المتناقضة أو الرد على أبسط الاعتراضات، إضافة إلى غموض اللغة التي تحدثوا فيها، وافتقارنا لمعيارٍ موحد نحكم من خلاله على هذه الأدلة، التي بدت واهنة وضعيفة؛ لكثرة المغالطات التي وقعوا فيها؛ وقادتهم في كثيرٍ من الأحيان إلى توصيف الكائن الأسمى بصفاتٍ إنسانية، ووصولهم إلى حد التجسيم، وعدم قدرتهم على التحرر من فكر القرون الوسطى. وغابت عنهم الطبيعة المادية للإنسان، وأنّه لا يمكن أن يمتلك أيّ أفكار إلا عمّا هو مادي مثله، أو ما له على الأقل صفاتٍ مماثلة له. ولا تفترض الصفات الأخلاقية التي ينسبها اللاهوتيون إلى الإله، سوى ماديته، ولا تستند أفكارهم الأكثر تجريدًا إلا إلى تجسيمٍ حقيقي لا يمكن إنكاره، لذلك يدعوهم هولباخ للإعتراف بأنّ كلّ ما في الطبيعة يثبت أنّ البحث في الإله ليس من طبيعتنا، ويكفي القول: إنّ الطبيعة هي (الله)، وأنّها تحتوي على كلّ ما يمكننا معرفته عنه، ولا وجود لما هو خارج عنها؛ لأنّه لا يمكن أن يكون هناك شيءٌ غير الكل العظيم، وكلّ ما نراه ناجمٌ عن قوى الطبيعة الفاعلة، وقوانيها، ويكفينا معرفة هذه القوانين، ومراقبة الطبيعة، والإنصات إليها، والابتعاد عن التحيز، والنظر إلى جميع الكائنات في الكون على قدمِ المساواة، وأنّ كلّ ما هو موجود يخضع للقوانين الضرورية. وينبغي أن يدرك اللاهوتيون أنّ الطبيعة عادلة في توزيع منافعها على الكائنات التي تشملها، ولا ينجم عنها ما يضرنا إلا باختلاف امزجتنا، وما تحدثه لنا من تغيرات تؤثر في سلوكنا، وتدفعنا لارتكاب الأخطاء، وإذا أوليناها الاهتمام، واستشرناها، فسوف نجني العديد من المنافع، وستوفر لنا ما يلزم للتخفيف من شرورنا الجسدية، والمعنوية، ولا تعاقبنا، أو تظهر لنا صرامة، إلا عندما نزدريها. وبذلك يدعونا هولباخ إلى إدراك أنّ الأخلاق السليمة مبنية على الإيمان بالطبيعة، والابتعاد عن التديّن المبالغ به، والعودة إلى الطبيعة، والانصات لها، بعيدًا عن المجتمعات التي اتخذت من الدين راعيًا لها، وكلّفت أفراد المجتمع بواجبات، والتزامات باسم الدين، لحماية الملوك وزيادة سيطرتهم وهيمنتهم لا أكثر، وهو ليس ضد المجتمع ككيانٍ سياسي بحد ذاته، بل ضد انصياعه لقلّة من البشر في سبيل حكم الأكثرية. وبمجرد إعادة توجيه البشر إلى الطبيعة، يمكننا أن نوفر لهم مفاهيم واضحة، ومعرفةً يقينية، ومن خلال إظهار علاقاتهم الحقيقية مع بعضهم البعض يمكننا فقط وضعهم على طريق السعادة، وابعادهم عن الأوهام التي خلقها لهم اللاهوت. ولذلك ينبغي أن نفهم الطبيعة وخالقها، ليس على طريقة اللاهوت والعقلانيين بل كما توحي به الطبيعة لنا.


9 789922 717340

